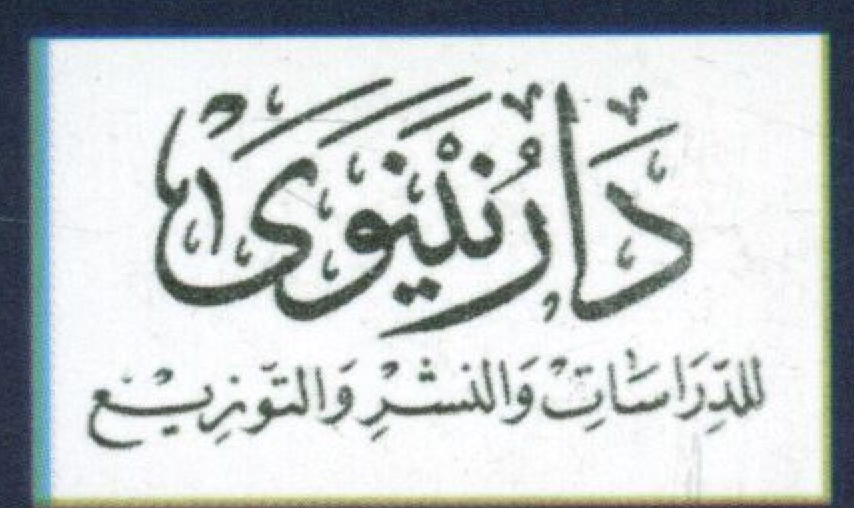
بدر خضر

هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات



هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات

اسم الكتاب: هندسة الحوار
بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات
تأليف: بدر خضر
عدد الصفحات: 408
القياس: 14.5 * 21.5
1000 / 2014 م - 1435 هـ



سورية - دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:
التنضيد والإخراج والطباعة
القسم الفني - دار نينوى

بدر خضر

هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات

بدر خضر

كاتب وباحث

صدر له: هندسة الطاغية

فهرس الكتاب

مقدمة الكتاب

(لكي تتجنب النقد، لا تعمل شيئاً، ولا تقل شيئاً، ولا تكن شيئاً.)

((ألبرت هادر))

المقدمة: إن البنية الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا العربية تطرح منظومةً من الإشكاليات والتحديات المعقدة، وتأخذ الثقافة العربية بمكوناتها التقليدية وبنيتها الأسطورية صورةً مركبةً تتقاطع فيها صورٌ مختلفةٌ لواقعٍ عربيٍ غنيٍ بمشكلاته، وإذا كانت الثقافة العربية تشكل جوهر التحديات ومنطلقها، فإن رصد هذه التحديات والإشكاليات التي يطرحها الواقع العربي المعاصر، ودراستها وتحليل مقوماتها ورصد مضامينها، يشكل واحداً من أهم التحديات المنهجية، فالثقافة أمرٌ جليلٌ وعظيمٌ وعلينا ألا نتركها بأيدي رجال السياسة، فهم لا يصمدون أمام الإغراءات والمناصب فيتنازلون عن مبادئهم تدريجياً.

والتاريخ يعلمنا بأن النهوض الحضاري للشعوب كان مرتبطاً بالثقافة الذي سجله إنسان الحضارات القديمة والحديثة، فنشوء الحضارات يرتكز إلى العقل والعقلانية، والتنوير بنظرته إلى الوجود والكون، ولا سيما الحضارات اليونانية والرومانية والعربية الإسلامية ثم الحضارة الأوروبية المعاصرة.

ويجمع كثيرٌ من المؤرخين أنه لتحقيق نهضة حضارية في أي مجتمع فإنّ ذلك مرهونٌ بقيام ثورةٍ في نسق القيم والمفاهيم والتصورات والثقافة التي يتبناها المجتمع إزاء الوجود، فالحضارات الإنسانية بدأت بثورةٍ معرفيةٍ واسعة وعميقة، غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى من حوله فالخصائص الحضارية لأي مجتمع كانت تتحدد بمستوى تطور الثقافة السائدة فيه، فثقافة التنوير الاجتماعية العلمية هي التي تحدد الأساس لنهضة اجتماعية حضارية متقدمة، وبالمقابل فالثقافة التي تنأى بنفسها عن العلم والمعرفة تؤشر على تخلف المجتمع وانحطاطه في السلم الحضاري، وهكذا فإنّ الثقافة تتكامل مع المجتمعات المتقدمة، بينما تشكل الخرافة لازمةً طبيعيةً للمجتمعات التي تبتعد عن الحضارة والتقدم.

كتب التاريخ على العرب أن يجثم الاستعمارُ على صدورهم دهراً، ولكنهم استماتوا في الدفاع عن أوطانهم حتى نالت استقلالها، وكانت ما نالته الجزائر أكثر جدارة واقتداراً من شعوبٍ كثيرةٍ نالت استقلالها بفضل ترتيباتٍ دوليةٍ

واليوم يقدم العرب على العالم حالة مستعصية مأزق صيرورتهم التاريخية، وحجم هائل من التناقضات في مكنوناتهم الاجتماعية، فأنا لا أروم الإثارة ولكنّه مطروحٌ في وطننا العربي، إنه المأزق بين المفاهيم وسياقها. وقد تبين لنا الآن أننا لا نستطيع أن ندافع عن وجودنا وهويتنا إلا بعد أن نحدث تحولات عميقة في ثقافتنا وعقليتنا، كإيجاد صيغة علمية قادرة على حمل رسالتها في عالم تحكمه العقول الجبارة الطامحة على الإبداع والخلق، كما يتضح اليوم أن الشعوب لا تستطيع مواجهة التحولات العلمية والثقافية بثقافة تقليدية أسطورية، وإن فعلت فمحكومٌ عليها بالدمار والزوال. لأن المضامين العلمية الإبداعية تشكل في عالمنا المعاصر جوهر الرسالة الحضارية، فهي تتشكل على وقود العلم وتكنولوجيا المعلومات، ومن هنا تتضح أهمية ثقافة التنوير وتفجير طاقات العقل وإطلاق إمكانياته، وتعليم التفكير، وتوفير الأمن والأمان للطالب والمعلم، وتقدير الذات والآخر، فلا لتربية الإذعان والقهر والحرمان.

عندها نحقق مكاناً لائقاً في ظلّ هذه الحضارة المتألقة، فقد تحدث فلاسفة السياسة وفقهاء الفلسفة، حول ما يسمونه بالعطالة التاريخية، وهذا لم يَصْدُقْ كما يصدق على أمة العرب، فقد توقفت عجلة التاريخ التي كانت تدور حتى في ظلّ الاستعمار، وانحسرت في مأزقها منذ فجر الاستقلال هذه العطالة تثير الدهشةَ والتساؤلَ، بل تبعث على الحيرة، عطالةٌ مغلفةٌ بالعبث الوجوديِّ تماماً كالضرس المسوس، ونتساءل، لماذا لم تنجز دولة الاستقلال وعدها في تحرير الإنسان العربي من الخوف؟! إذن ما الفارق بين الماضي والحاضر؟! فالوطن العربي بين ما عليه وما في باطنه من ثروات، والعطالة جاثمة بثقلها فوقه، والعرب ينوسون بين الفقر والغنى، بل يقامرون بثروات أوطانهم. والعطالة نقرؤها في المشهد الفكري، ما بين الثقافة والمعرفة، والأمية المنتشرة في الوطن العربي تشهد على ذلك بعد كل هذه العقود من الاستقلال، والنخبة المثقفة عندما تبحث عن الوسائل والمناهج كي يغوصوا إلى جوهر القضايا، علماً أن ثنائية الماضي والحاضر لم تحل المشكلات.

فالماضي هو العدو الذي صنعه الآخر وزرعه بالمتفجرات، والزمن لا يسير بطريقة خطية، ولو كان الأمر كذلك لاحتاج الإنسان إلى عينين في مؤخرة رأسه، والمستقبل هو المجهول وهذا يحتاج إلى شجاعة وجرأة وإلى التسلح بالعلم لاقتحامه، كما لم تحسم إشكالية القراءة والتأويل، ولا حتى مسألة التفسير. وما زلنا نطرح أسئلة البدايات، هل الأرض كروية؟ هل تدور الأرض حول الشمس؟ وإلى متى تبقى ثقافتنا سجينة؟ وهل العرب يرضون بذلك؟

فقد أكد ماكس فيبر في كتابه الشهير البروتستنتية والروح الرأسمالية: أن البروتستنتية أساس النهوض الحضاري للمجتمعات الأوروبية فمهدت للثورة الصناعية وللنهوض في العقل الأوروبي، فهي أتت بنظرة جديدة إلى الكون، والإحساس بالمسؤولية الفردية واستثمار رأس المال، وتعميم التعليم والمساواة بين الرجل والمرأة، ورفض الخرافة والأسطورة وإعلاء شأن التجربة والعلم والمعرفة العلمية، وهذا بدوره أدى إلى تحولات عميقة وشاملة في بنية الثقافة الأوروبية، فقد ولدَتْ ثقافةٌ وروحٌ نهضويةٌ جديدةٌ، تلخصت في التخلص من الموروث الهزيل الذي أشاع الحروب الدينية، وهذا يدل على قدرة العقل البشري على فكِّ رموز الطبيعة والحضارة الإنسانية، ومنح حرية الاختلاف، والاعتقاد، والتعدد الفكري. كما يسجل التاريخ الإنساني أن زوال الحضارات وسقوطها، يترافق مع تراجع العقلانية والعقل في رؤيته للوجود، وهذه الحقيقة تنبئ عن نفسها في مراحل تدهور الحضارة الإسلامية، عندما كف العقل العربي عن التأمل، وعن الإبداع المعرفي خيم الجهل والتخلف، وانطفأت شعلة الحضارة الإسلامية.
وهناك مشهد آخر للعطالة التاريخية ينبثق بين السياسة والاقتصاد والثقافة هو مأزق اللغة العربية على أيدي أبنائها وأهلها، إنه مشهدٌ دراميٌ يدعو للعجب والاستغراب، هذه العطالة التاريخية تحيط باللغة وتجثم فوق صدرها على مرأى من أصحاب القرار ومن يخططون للمستقبل، وأننا على يقين، أنَّ انفصاماً حاداً ينهض بين حضور الوعي العام في السياسة والاقتصاد والمعرفة، وغياب الوعي بالمسألة اللغوية لدرجة لم يعرفها العرب قبل اليوم، وما عرفتها شعوب أخرى، وهذا الانفصال وتلك العطالة إذا دققنا في أمرهما، وتأملنا تجلياتهما، يكفينا مثلا أن نقارن بين ما أنجزه العرب، بعد عقود من دولة الاستقلال، وما أنجزته شعوبٌ أخرى في آسيا وفي أمريكا اللاتينية بل إفريقيا، أو بما بدأت تنجزه شعوبٌ تحررت من سطوة الأنظمة الشمولية، في غرب أوروبا وشرق آسيا. إنَّ العقلية التقليدية، بما تتضمنه من الخرافات والأساطير وهيمنة المقدس والتعصب والتمركز حول الذات، تشكل نسقاً فولاذياً أمام التقدم، فالقيم والدوافع بعامة تشكل التنمية الاجتماعية والفعل الاجتماعي، ومن هنا يمكن النظر إلى الثقافة في مجتمع ما أنها تحدد اتجاهه ومرتكزاته، وتأسيساً عليه يمكن القول: بأن الثقافة التي تحكم السلوك وتحدد النظرة إلى الكون، بل تحدد منهجياً معوقات التقدم وطريق النهضة، والمسألة الحضارية هي مسألةٌ إنسانيةٌ ثقافيةٌ قبل كلِّ شيء، ونحن بحاجة إلى تطهير العقل العربي من أدرانه،

وتصدعاته، ونسف مرتكزات تخلفه، وتحرره من الجمود العقلي ولا بد هنا من مراجعات نقدية وثقافية لثقافتنا وهويتنا وقضايا وجودنا.

والعرب سيظلون على هامش التاريخ إن واصلوا النظر إلى المسألة الثقافية كما هم يفعلون، ولا أمل من الخروج من هذا المأزق إلا بتكامل عربيٍ إقليميٍ ثقافيٍ معرفيٍ.

فكم أضعنا من مواردنا وأفكارنا وثرواتنا الفكرية، وضاع منا الوقت ويشهد على هذا الماضي والحاضر القريب، بأننا عقلنا العقول وقتلنا أصحابها، فالمعذرة يا ابن المقفع ويا بشار بن برد وغيركم كثيرون، كأننا نعيش في ليل تهاوى كواكبه، مهلاً أيها الأقوياء.

واليوم يبدو وكأنّ أقوياء العالم ودعاة حقوق الإنسان، يصدرون إلينا حروبهم وصراعاتهم؛ لنخوض حروباً أهليةً وصراعاتٍ عرقيةً ودينيةً، ونرضخ تحت نير استبعاد وبطالة وبكلمة واحدة: نتلقى كل كوارث الإبادة الجماعية. وآمل أن تدعم فصول هذا الكتاب ثقافة الوعي وأن تحفز القارئ المتفتح الذهن، وأن تزرع الشكوك في عقول المؤمنين بالخرافة والأوهام، فأنا عربي بالمعنى الإنساني وعلى الرغم من أني منطقيٌ جداً في العادة لكنني لا أستطيع ادعاء الحياد نظراً لأنني أكره الظلم والقهر والطغيان، وأغضب إذا اعتُديَ على شرف وكرامة أمتي، وأنا متمسك بالمقاومة ضد الأعداء، فالأرض والدم ليسا كأساً من خمر. وخلاصة القول أن هذا الكتاب يسعى ليكون محاولة للفهم والمساءلة، وأمنيتي أن يساهم هذا الجهد المتواضع في الحث على تفعيل دور العقل ونقده، والتأكيد على ضرورة المعرفة بوصفها أساس كل تقدم. وأن الثقافة هي محور التنمية الاجتماعية الشاملة، وتكنولوجيا المعلومات أصبحت هي محور التنمية العلمية التكنولوجية، والحوار بين هذين المحورين هو المحور الأساسي وذلك بتداخلهما مع بعضهما فهو حديث خطوط التماس بما يعنيه من خطورة. وقد التزمنا منهجياً بتوجهين اثنين:

– توجه منظومي لكون الثقافة منظومة مكونة من منظومات فرعية أخرى، تتكون بدورها من مجموعة من العناصر الداخلية، وشبكة من العلاقات تربط المنظومة الفرعية بخارجها

– توجه التناول المزدوج: ويكون بطرح الخلفية العامة وهذه ضروريةٌ لطرح المسألة من وجهة نظرٍ عربيةٍ.

الفصل الأول

(لو عرفت أسباب جهالتي لصرت حكيماً)

جبران خليل جبران

منظومة تكنولوجيا المعلومات تحت عدسة ثقافتنا

- تاريخها.... وتطوراتها لدى الغرب:

- تاريخها:

أ - تاهت القضايا الثقافية في التفاصيل الفنية، وطغت المصطلحات على المفاهيم، عندما احتكر التكنوقراط الخطاب المعلوماتي وباتت هذه المفاهيم والقضايا تحتل مراكز مهمة على خريطة الفكر الغربي، وحظيت بالاهتمام الكبير من قبل منظّري الثقافة وفلاسفة العلم واللغة والأخلاق وعلماء الاجتماع والتربية والإعلام وعلماء البيولوجيا، ليضيفوا مشهداً مثيراً لمشهد المعلومات: علمياً وفلسفياً وتكنولوجياً، وثقافةُ المعلومات هذه وليدة تكنولوجيا المعلومات، وقد مرت تكنولوجيا المعلومات بتطورات عدة منها:

صنع الإنسان آلة لتنوب عنه في بذل الجهد، سعى بعدها لصنع آلة تخفف عنه الجهد العقلي، كما بنى الآلة الحاسبة في القرن التاسع عشر، ولكن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح بسبب عدم توافر الأسس العلمية بل بسبب التناقض بين ميكانيكية العناصر وصلابتها ورهافة المعلومات وسيولتها وتدفقها، وعندما توفرت الأدلة العلمية والوسيلة التكنولوجية المناسبة لبناء الآلة الحاسبة حتى تحقق الحلم المنتظر في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، وولد الكمبيوتر الرقمي ثمرة التقاء الفيزياء والرياضيات المنطقية والهندسة الإلكترونية وأدى بدوره إلى ثورة في عالم تكنولوجيا المعلومات، وليدةُ الامتزاج الثلاثي: عتاد الكمبيوتر - والبرمجيات - وشبكة الاتصالات، وعبر

الستين عاماً المنصرمة تطور الكمبيوتر بصورة غير مسبوقة، بسلسلة من النقلات النوعية فتوالت أجيال من تكنولوجيا المعلومات، فهي تظهر بسرعة وتموت بذات السرعة، بعضهم أسماها : بالعصر الحجري - والحفريات الرمزية، نسبة إلى الوسائط البدائية لتبادل المعلومات، مثل الكروت المثقبة وشرائط التيكرز الورقية، وعناصر العتاد العتيقة من صمامات الكترونية، وعناصر ذاكرة مغناطيسية وإلى الأساليب المتخلفة، للبرمجة الموصومة بالقطعية والخطية، علاوة إلى النظم التقليدية لمعمارية عتاد الكمبيوتر، ذات الطابع المركزي المتلاحق الذي حد كثيراً من سرعة الآلة وحدة ذكائها الآلي. وعدم المرونة وافتقارها إلى الأسس المنهجية والهندسية. أ - شق العتاد تمثل النقلات النوعية من الكمبيوتر الضخم، إلى الكمبيوتر الميني، ثم الكمبيوتر الميكرو، وهذه أبرز ملامح تطور عتاد الكمبيوتر، وكان السبب في تطور الكمبيوتر هو العنصر المادي المستخدم في بناء ذاكرة الكمبيوتر ووحدة معالجته المركزية التي تقوم بالعمليات الحسابية والمنطقية. وكان اختراع الترانزيستور أشباه الموصلات، في عام ١٩٥٧) بداية في رحلة التصغير المتناهي، وقضى هذا العنصر الصغير الحجم على الصمام الالكتروني الضخم، وسرعان ما واجه الترانزيستور نفس المصير بعد أن أجهزت عليه الدوائر الالكترونية المتكاملة، وهي شرائح مصنوعة من السيلكون النقي المستخلص من الرمال، ويمكن تمثيلها بمصفوفة متراصة من وحدات الترانزيستور. تنقش هذه المصفوفة على الشريحة الرقيقة بطرق تكنولوجية معقدة تشكل من خلالها بنية بلورات السيلكون غير الموصلة للكهرباء، وفي ثنايا هذه البلورات، يُوزَّع كميةٌ محسوبةٌ من الشوائب المعدنية الموصلة كهربائياً، وهكذا تكتمل ثنائية أشباه الموصلات التي تعمل كمفاتيح، كهربية وهي تتصل وتنفصل عناصرها الترانزيستورية بإثارتها بتيار كهربي خافت، وتمضي قافلة التصغير المتناهي قدماً بخطى سريعة، من الدوائر المتكاملة ذات الكثافة المحدودة إلى الدوائر المتكاملة ذات الكثافة العالية، وهي غابة كثيفة من مفاتيح أشباه الموصلات، أو بوابات الوصل والفصل، وفقاً

للمصطلح الفني وقد تضاعفت كثافة هذه الشرائح السيلكونية بفعل التضاعف التكنولوجي بمعدل سنوي عبر العشرين سنة الأخيرة، ونتيجة لهذا التطور المذهل في وحدة البناء الأساسية تقلص حجم الكمبيوتر وزادت سرعته من آلاف العمليات الحسابية في الثانية إلى سرعة النانو/ثانية أو بلايين العمليات في الثانية. وفي نهاية الثمانينيات أصبح كمبيوتر صغير الحجم بحجم راحة اليد يفوق كمبيوتر ضخم، وهنا نهتدي إلى الفكرة الذهبية التي قام عليها عتاد الكمبيوتر وهي ثنائية الوصل والفصل بعد أن خضعت تماماً لتكنولوجيا التصغير المتناهي، فهذه الثنائية هي المقابل الفيزيائي الذي يمكن من خلاله تجسيد نظام الأعداد الثنائي القائم على ثنائية (الصفر والواحد) دون غيرهما وهو النظام الذي اكتشفه الفيلسوف الألماني /ليبتز/ في القرن السابع عشر، وأخضعه من بعده للمعالجة الرياضية (جورج بول) الإنكليزي وكان يعمل في بداية حياته قسيساً فأصبح الأساس العام لتكنولوجيا المعلومات: عتاداً وبرمجيات واتصالات، ولاشك أن فيلسوفنا الألماني وقسيسنا الإنكليزي ومعهما البشرية كلها، يدينان بالفضل إلى هذا الهندي العظيم المجهول الذي اكتشف مفهوم الصفر الفاصل ما بين السالب والموجب، ونهل من فضله أحفاده هنود اليوم، الذين تزداد (أصفار يمين) نتاجهم القومي، من عوائد تكنولوجيا المعلومات.

ب - البرمجيات: كانت طبيعة الاستخدامات السائدة لنظم الكمبيوتر في عصره المتخلف (الحجري)، آلة حاسبة ضخمة لمعالجة البيانات، واقتصرت استخداماته على المجالات الإدارية والتجارية كسجلات الأفراد واستخراج قوائم المرتبات وكشوف الحسابات، وتطور الكمبيوتر بعدها ليصبح آلة لمعالجة المعلومات، وبذلك تجاوز العمليات الحسابية البسيطة الخاصة بمعالجة البيانات الخام، ليبرز العلاقات بينها من أجل استخلاص المعلومات نقيةً مصفاةً، على صورة كليات ومؤشرات وتحليلات إحصائية. ومن أمثلة تطبيقات معالجة المعلومات:

- نظم دعم القرار.
- وبنوك المعلومات.

- والخرائط العلمية والثقافية. ومع تطور أساليب الذكاء الاصطناعي ارتقت هذه الآلة الصماء وأصبحت آلةً لمعالجة المعارف، ويمكن القول: أن الفكرة الذهبية وراء تطور البرمجيات هي إدراك الفروق الجوهرية بين البيانات والمعلومات من جانب، والمعلومات والمعارف من جانب آخر. وهناك فرق كبير بين البيانات التفصيلية الخام والمعلومات الإجمالية المستخلصة الجاهزة لدعم القرارات وإجلاء التوجهات، وشتان ما بين المعارف والمعلومات، فالمعارف تسمو فوق المعلومات، فهي تضم إلى جانب الخبرات القدرة على الاستنتاج، واستخلاص الحكمة من ضوضاء المعلومات، فخرج إلى الوجود مفهوم (هندسة المعرفة) و(نظمها الخبيرة) التي تحاكي الخبير البشري مثل المستخدمة في تشخيص الأمراض، وتصحيح النصوص وتلقين العلوم وتوالى بعدها النظم الذكية، من نظم تقرأ وتسمع وترى وتميز المسافات والأشكال، ونظم تفهم، تحلل، وتحل المسائل، وتبرهن النظريات، وتتخذ القرارات، بل تؤلف النصوص وتولد الأشكال. ومنها نظمٌ ذكيةٌ ذاتُ قدرة ذاتية لتطوير نفسها بنفسها، نظمٌ تتكيف مع البيئة المحيطة وتتعلم تلقائياً من أخطائها، كما تتعلم من متغيرات ما يجري حولها. وعلى الرغم من عظمة الفكرة الذهبية للتفرقة بين البيانات والمعلومات والمعرفة، تظل الفكرة دون الاكتمال إلا إذا أدركنا الفروق الجوهرية بين المعرفة والحكمة وكثيراً ما تتوافر المعرفة وتغيب الحكمة، أصفى رحيق يقطره عقل الإنسان.

ج - **على جبهة الاتصالات:** كانت النقلة النوعية باستخدام الألياف الضوئية النحيلة للغاية، وذات السعة الهائلة لنقل البيانات التي تفوق سعة أسلاك النحاس الأغلظ بعشرات بل بمئات الآلاف من المرات، ويخطط بعضهم لبناء شبكات ألياف ضوئية تصل فيها سرعة تدفق البيانات عبرها إلى (بليون) نبضة في الثانية، وهي السرعة التي تتيح نقل مائة ألف صفحة لدائرة معارف - مثلاً - في ثانية واحدة، والأهم من هذا كله ستتيح ضخ سلع صناعة الثقافة من إعلامٍ مرئيٍ وأفلامٍ أغانٍ وموسيقى، والتي تحتاج بحكم طبيعتها، إلى سرعة عالية لبثها، والنتيجة أن الفكرة الذهبية وراء تطور شق الاتصالات، تكمن في استخدام التدفق الضوئي النقي ذي السعة العالية، بدلاً

من التيار الكهربي المحدود السعة، والمُعَرَّض للتشويش والضوضاء والتنصت. مع المعدل الهائل في تبادل المعلومات الذي وفره الوسيط الضوئي، ولم تعد المشكلة هي (شح المعلومات) كما كانت الأمور في الماضي، بل (إفراط المعلومات) وهي مشكلة لا تقل صعوبة عن سابقتها.

د - **اندماج العناصر الثلاثة:** كان شق العتاد حتى الجيل الرابع يتألف من نظم الكمبيوتر والمعلومات صاحب الكلمة العليا، في مملكة تكنولوجيا المعلومات، وفي ذات الوقت كانت تعمل العناصر الثلاثة لتكنولوجيا المعلومات: العتاد. والبرمجيات. والاتصالات، بطريقة مستقلة عن بعضها البعض ابتداءً من الجيل الخامس وما بعده، اندمجت العناصر الثلاثة وانتقلت السيادة من شق العتاد إلى شق البرمجيات، وأصبح من يقبض على نظم البرمجيات هو الحاكم بأمره. وهكذا انزوت (شركة أي بي ام) رائدة قافلة العتاد لتبرز شركة (ميكروسوفت) رائدة مسيرة البرمجيات وبهذا انتصر العنصر الذهني، وارتقت منظومة تكنولوجيا المعلومات، مؤكدا ارتقاء الفكر عن المادة، وأهمية المعلومات كمورد تنموي يفوق في أهميته الموارد الطبيعية مادية كانت أم طبيعية أو مالية، وهنا تأهلت تكنولوجيا المعلومات للقاء الثقافة.

هـ - **تتويج شبكة الإنترنيت:** بعد هذا الاندماج بين مكونات العتاد الثلاثة (العتاد. البرمجيات. الاتصالات)، تُوِّجَتْ الإنترنيت ملكة. وكغيرها من شبكات المرافق توارت عن الأنظار تلك المكونات المندمجة في إطارها، وظهر ما ينقل محلها من خلال الشبكة أي المعلومات السائلة بين جنباتها، وطفت على السطح كاشفةً عن أسرارها، وأصبحت الإنترنيت نافذة الإنسان على عصره الصاخب، والوسيط الجديد الذي يرى الإنسان فيه واقعه ويتعامل معه ويمارس عن بعد كل أنشطته الذهنية والعملية وعن بعد: يشتري ويبيع، يعلم ويتعلم، يسترجع المعلومات وينشرها، يتفاوض ويتسامر، يقيم الصداقات ويعقد الصفقات، يفض المنازعات ويحشد تحالفات الوفاق والعداء. ومن خلال الشبكة يتنقل دون رحيل، فيشارك الآخرين أحداثهم وأعمالهم متحرراً من قيود المكان ومطالب التواجد السافر المعلن. وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات ساحةً مثيرةً للعمل الثقافي ولقاء الثقافات، وفاقاً كان أم صراعاً

والفكرة الذهبية وراء هذا النجاح المذهل الذي حققته الإنترنيت في هذا الوقت القصير، تكمن أن تكنولوجيا المعلومات لا تحقق أهدافها إلا إذا انصهرت في الكيان المجتمعي، وهذا ما فتح قنوات الاتصال إلى أقصاها، وشبكة الإنترنيت هذه سادت غيرها من شبكات معلومات لا تملكها لسبب بسيط، فهي تكفلت في الربط بين الشبكات المتدرجة في إطارها، إنه الطفيلي الكبير يعلو فوق ما أقامه الآخرون، فهو همزة وصل.

و - **الواقع الخائلي:** تسعى تكنولوجيا المعلومات حالياً من خلال الذكاء الاصطناعي إلى العوالم الاصطناعية، ما يعرف بالواقع الخائلي لبناء عوالم خائلية، من أجل محاكاة عالمِ الواقعِ، أو إقامة عوالم خياليةٍ لا وجود لها في دنيا الواقع، إنها عوالم وهمية تكونها الأرقام والرموز، ينغمس فيها المستخدم بفعل خداع الحواس ومؤثرات التفاعل الآلية، ليمارس خبراتٍ يصعب عليه ممارستها في عالمه الحقيقي، كأن يتدرب على قيادة الطائرات، أو يجوب الفضاء الخارجي، أو يذهب زمنياً عبر العصور الجيولوجية مستحضراً عوالمها السحيقة، باعثاً حياة صناعية فيما ولى زمنه وانقرض، أو يتخذ من هذه العوالم الخائلية (حضاناتٍ معرفيةً) يتعلم عبرها ومن خلال التجربة والخطأ، دونما خوف من قيد، أو رقيب، وهنا تطرح تكنولوجيا المعلومات على الثقافة أسئلة غير مسبوقة، فيما يخص سكنى هذه العوالم الخائلية، وصلتها بعالم الواقع وما يترتب على ذلك من معارف أخلاقية ومسائل ميتافيزيقية.

- تاريخ موجز لتكنولوجيا المعلومات العربية:

ولكن ماذا يعنينا هذا الموجز المثير من تطور تكنولوجيا المعلومات؟ إنه ينطوي على الكثير من الدروس المفيدة، بقدر ما ينطوي على تحديات جسام علينا مواجهتها، وآفاق مرتقبة علينا أن نندفع نحوها لاستغلالها، فتوالي أجيال الكمبيوتر وتسارعها سلاح ذو حدين فلكل جيل من هذه الأجيال أباطرته واقتصاداته، والنوعية الخاصة لعمالته وتطبيقاته، وكما قيل عن المعلومات إنها تَنْبُتُ في شقوق الاحتمالات، وفرصها تلمع بين فواصل النقلات النوعية. فمع ظهور كلّ جيل جديد تلوح في الأفق فرص كثيرة. ونحن لا

نتحدث عن اليابان عندما استغلت النقلة النوعية للإلكترونيات الميكروية لتلحق بأمريكا في مجال صناعات العتاد والاتصالات، إلى الحد الذي كادت أن تصبح معه صناعة المعلومات رهينةً لإنتاج (المسابك) اليابانية لإنتاج الشرائح الإلكترونية، ولا نتحدث عن فرنسا التي كادت قبل ظهور الإنترنيت أن تصبح رائدة العالم في إقامة مجتمع الاتصالات ونحن نتحدث هنا عن لعب الصغار في ساحة الكبار ولا نتحدث عن اللعب مع الكبار، وعلينا أن نتحدث عن سنغافورة التي جعلت من تكنولوجيا المعلومات أحد المصادر الأساسية لدخلها القومي وتنميتها الاجتماعية، والعدو الصهيوني الذي أمن لنفسه موقعاً جيداً على خريطة تكنولوجيا المعلومات والهند التي نجحت في أن تصبح خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات ثالث دولة في العالم في صناعة البرمجيات بل يساهم علماؤها في وضع الأسس النظرية لتكنولوجيا (البيوسيلكون) لدمج العناصر البيولوجية مع شرائح السيلكون الإلكترونية، والتي يتوقع الكثيرون أن تحدث ثورة عارمة في صناعة الحواسب الالكترونية.

أ - أهمية السريع الصغير: إنَّ ملحمة تطور تكنولوجيا المعلومات على مدى نصف القرن الماضي، تؤكد أن قدرة الصغير السريع، تمكنه من القضاء على الكبير البطيء الذي يعوق انطلاقته ثقل تنظيماته، وتصلب أفكاره، وتفضيل إدارته لنمط التطور المتدرج على النمط الثوري المندفع لمنافسة الصغير السريع. والصغير هنا لا يعني الصغير التنظيمي والاستثماري فقط بل يعني الصغير سناً، لأنَّ صناعة المعلومات تقوم عل أكتاف الشباب إدارةً وتصميماً وبرمجةً وتشغيلاً، وتدين تكنولوجيا المعلومات بتطورها السريع بالفضل إلى إبداع الشباب، لأن الشباب: كانوا هم مخترعي الدوائر المتكاملة وأسلوب البرمجة الجدولية وقنطرة (جيفرسون) للتوصيلية الكهربية الفائقة، ذات الأهمية القصوى في بناء السوبر كمبيوتر، ولا ننسى هنا شركة كمبيوتر ميكروسوفت أكبر شركات البرمجة عالمياً، والتي أخذ (بيل جيت) في تأسيسها عندما كان في الرابعة عشر من عمره، فهل بعد هذا كله نستسمح شيوخنا بأن يفسحوا الطريق أمام الشباب؟ وهل نستسمح البيروقراط أن يفسحوا المجال أمام غير المختصين ليتقدموا بنا إلى الأمام، كما فعل قسيسنا

الإنكليزي (جورج بول) عندما استخدم الصفر والواحد فأخضعه للمعالجة، ليصبح الأساس العام لتكنولوجيا المعلومات وخاصة بإسادة أن مجتمعاتنا تصنف (بالرضيعة ديموغرافيا) (٤٣/بالمائة أقل من ١٤ سنة). وهنا التحدي الحقيقي لنا. هل يمكن أن نقيم هذه النوعية من التنظيمات وقيادتها الشابة القادرة على متابعة هذا المسار المتنامي للتطور التكنولوجي الثقافي؟ فلا ثورة بلا ثوار، ولا أمل سوى تلك النسور الطائرة والنادرة من (ديناموهات) التغيير، وهذه آثرت مبدأ السلامة، وأين لنا مثل هذا الانتظار؟ وعلينا أن ندرك مدى اختلاف تكنولوجيا المعلومات عن سابقاتها وأن ننظر إليها كمرحلة من مراحل تطور التكنولوجيا، وسوف يجري عليها ما جرى على ما قبلها، وكما تكيفنا مع ما سبق، سنتكيف بالمثل مع ما سوف يجيء. إنه موقفٌ متخاذلٌ وخاطئٌ، صحيحٌ ليس بمقدورنا أن نخوض بمواردنا المحدودة - والوقت يمصرنا - جميع مجالات التنمية المعلوماتية، وتركيزنا على شق البرمجيات لما له من أهمية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات، بعدما أصبحت صناعة العتاد بيد حفنة من الشركات المتعدية الجنسية. فيصعب علينا الدخول إلى ملعبها، وعلينا أن نقف بحزم ضد احتكار صناعة البرمجيات، والتي يحاولون السيطرة عليها واحتكارها، وإذا خضعنا لذلك، فنتيجته كارثية على المدى البعيد والقريب، فيصبح إعلامنا وتعليمنا وإبداعنا وتراثنا ولغتنا تحت رحمة عولمة البرمجيات، وهنا مقتلنا بالفعل.

- أهمية التصغير والرقمنة الغربية:

أ - **تحقيق المعادلة الصعبة:** نجحت تكنولوجيا المعلومات ولأول مرة في تحقيق المعادلة الصعبة، فهي نجحت في أن تجمع بين الأكفأ والأعلى قدرة، وبين الأرخص والأكثر سهولة في الاستخدام، لقد ارتقت نظم المعلومات على جبهات عدة من زيادة وسرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة في سعة التخزين للوسائط الإلكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات الطباعة وشاشات العرض ومولدات الصور، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية والتي تقارب مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير، في الوقت الذي تتراجع فيه كلفة تكنولوجيا المعلومات بصورة غير مسبوقة: كلفة

الكمبيوتر وملحقاته، ومعدات الاتصال وإقامة شبكات الاتصال، بل كلفة إطلاق الأقمار الاصطناعية، بعد أن دخلت الصين أسواق المنافسة العالمية. ولم يقتصر الأمر على انخفاض كلفة اقتناء نظام الكمبيوتر والمعلومات، بل زادت سهولة.استخدامها حتى أصبحت في متناول الأطفال من محدودي التعليم. وخير شاهد على ذلك سهولة استخدام شبكه الإنترنيت، والتي تقترب من سهولة استخدام التلفيزيون أو الهاتف النقال، وتمكنت تكنولوجيا المعلومات من تحقيق تلك المعادلة الصعبة، بفضل عدد محدود من مما أسميناه (الأفكار الذهبية) وتأتي على رأس هذه القائمة الذهبية على مستوى تكنولوجيا المعلومات ككل. فكرتان أساسيتان شديدتا الصلة فيما بينهما وهما (التصغير المتناهي) والرقمنة.

ب - **أهمية التصغير**: إن التصغير شمل كل شيء: وحدة البناء الأساسية الممثلة في شرائح السياكون فائقة الكثافة (مائة مليون ترانزيستور في سم مربع واحد) وسعة التخزين حيث يمكن لقرص الليزر قرص (السي - دي) أن يتسع ما يوازي ألف كتاب بحجم القرآن الكريم، وعما قريب ١٠ آلاف كتاب في مثل حجمه، وطابعات بحجم علبة الكبريت، وعما قريب سوبر كمبيوتر في حجم راحة الكف، وحديقة ملاه مثل حديقة (والت ديزني) في مقصورة واحدة لألعاب الفيديو، يمكن برمجتها حتى تشمل جميع الألعاب ورحلات المغامرات، التي تشتمل عليها الحديقة الشهيرة المقامة على آلاف الأفدنة. والتصغير كان وراء سرعة انصهار تكنولوجيا المعلومات داخل كيان المجتمع، وأصبحت عن طريقه ذات قابلية للاندماج مع غيرها، من لعب الأطفال إلى مركبات الفضاء، ومن محطات توليد الكهرباء إلى مُنَظِّمَات دقات القلب، وهكذا تناثرت (منمنمات) تكنولوجيا المعلومات في كل اتجاه، وظلت تقوى وترهف في آنٍ واحد، حتى اخترقت جسد الإنسان وأوشكت اليوم أن تنفذ خلال خلاياه، وهكذا التقت تكنولوجيا المعلومات مع منظومة الإنسان ومجتمعه، وأصبحت تكنولوجيا المعلومات قادرة على التعامل مع دخائل جسد الإنسان ومخه، إضافة إلى كونها عاملاً أساسياً في تنمية عناصر منظومة المجتمع: المأكل والملبس، المنتجات والأفكار. القيم والنظم. سلوك الأفراد وأداء المؤسسات والعلاقات بينهما.

ج - **أهمية الرقمنة:** من أهم انجازات تكنولوجيا المعلومات إزالة الحواجز بين أنساق الرموز من نصوص وأصوات وأنغام وأشكال وصور ثابتة ومتحركة. ويعود الفضل إلى تكنولوجيا الرقمنة، التي نجحت في تحويل جميع هذه الأنساق الرمزية.

إلى سلاسل رقمية قوامها الصفر والواحد، لتتواءم مع نظام الإعداد الثنائي أساس عمل الكمبيوتر. والرقمنة تقوم على مفهوم: إمكان تحويل جميع أنواع المعلومات إلى مقابل رقمي فالحروف الأبجدية التي تصاغ بها الكلمات والنصوص يعبر عنها بأكواد رقمية (تناظر هذه الحروف رقماً بحرف، والأشكال والصور يتم مسحها إلكترونياً، لتتحول إلى مجموعة هائلة من النقاط المتراصة والمتلاحقة، يمكن تمثيل كل نقطة من هذه النقاط رقمياً سواء بالنسبة إلى موضعها أو لونها ودرجة هذا اللون، فبالنسبة إلى الموضع يعبر عنه بدلالة الإحداثين (السين والصاد) كما في الهندسة التحليلية، وبالتالي تمثيله رقمياً بقيمتي هذين الإحداثين. أما بالنسبة للون فيعبر عنه بكود رقميٍ تغطي (باليتته) جميع الألوان وطيف ظلالها ودرجة بريقها ولمعانها. تمثل رقمنة الطيف الموجي للأصوات والكلام والموسيقى.

- ومقارنة بما ذكر - تمثل أكثر رموز الرقمنة تعقيداً، حيث يتسم هذا الطيف الموجي الحامل لهذه الإشارات المسموعة بدرجة عالية من عدم الانتظام، فتتم عملية الرقمنة عن طريق أخذ عينات من هذا الطيف على فتراتٍ زمنيةٍ قصيرةٍ، بحيث تمثل هذه العينات نمط التغير الذي يحدث في شكل الموجة الحاملة لهذه الأصوات، تُمَثِّلُ هذه العينات رقمياً بالقيمة الكمية لسعة الموجة مقرونةً بزمن انتقائها. وقد شبه بعضهم ما فعلته الرقمنة في مجال أنساق الرموز بما فعلته الحرارة في مجال صهر الفلزات في سبائك معدنية مختلفة. وبهذا خرجت إلى الوجود تكنولوجيا الوسائط المتعددة، والتي يمكنها أن تتعامل بيسر مع (السبائك الرقمية) لا تفرق بين حرف وصوت، أو بين نص وشكل، لأن جميع أنساق الرموز قد تحولت إلى فيض من متدفق من سلاسل الصفر والواحد، وهو أقصى درجات التجريد الرياضي والمنطقي.

وهناك من يعتبر الرقمنة آخر صيحة في الإنتاج الرأسمالي حيث جنبته قيود الزمان والمكان والعمالة وتوافر المواد الخام. وأدت الرقمنة بطابعها النبضي المتقطع إلى مظاهر أخرى من مظاهر التجزئة والتقطع، فكانت تجزئة بناء البرامج من وحدات برمجية صغيرة تقوم كل منها بمهمة محددة، وتشظي النصوص في هيئة (سلخ) متفرقة، ورزمنة رسائل الاتصالات بتقطيعها في هيئة رزم من (قصاصات) رقمية متعاقبة، عبر مسارات الشبكة المختلفة، ليعاد تجميعها لحظة استقبالها ويُبْعَثُ بها متفرقةً وكما أدى التصغير، إلى اندماج تكنولوجيا المعلومات مع خارجها كذلك الرقمنة وراء اندماجها الداخلي، ويقصد به ذلك الاندماج بين الكمبيوتر الرقمي وشبكات الاتصالات الرقمية، والبرمجيات بطبيعتها رقمية فكلُّ شيءٍ يؤول إلى ثنائية الصفر والواحد، والأهم هو اندماج أنساق الرموز التي أشرنا إليها وهو اندماج بعيد الأثر، يؤهل تكنولوجيا المعلومات كي تكون الوسيلة الفعالة لتحقيق الحلم الثقافي القديم حلم تكامل العلوم والفنون وامتزاج المعارف والخبرات وجميعها ذات أصل رمزي.

- أهمية التصغير والرقمنة العربية:

أ - **انخفاض الكلفة:** إن انخفاض كلفة تكنولوجيا المعلومات كان عاملاً حاسماً في سرعة انتشارها وإتاحتها لقطاعات شعبية واسعة، إن قدراً هائلا لايستهان به من هذه الميزة الاقتصادية يضيع بسبب تسارع الاستهلاك أو التقادم الفني، ويستغنى عن المنتجات لا بسبب عدم صلاحيتها الفنية بل لظهور نماذج أحدث وأكفأ وأرخص. وكم من دول عربية اقتنت نظماً للمعلومات طاعنة في عمرها الفني، سرعان ما تخلت عنها واستبدلتها بالجديد، وهذا يتطلب تنمية قدراتٍ عربيةٍ تكنولوجية في مجال التقييم، لتعقب مسارات التطور الفني وتوجهاته الرئيسية كي لا تقع فريسة لتقلبات هذه التكنولوجيا الجامحة والتي لا ترحم، ومن جهة أخرى فإن رخص معدات استخدام تكنولوجيا المعلومات، يقابله ارتفاع كلفة بنيتها التحتية، ويكفي مثالاً شبكة طرق المعلومات الفائقة السرعة التي تبلغ كلفة إنشائها مئات المليارات

من الدولارات، وهو مازق اقتصادي كبير يتطلب حلولاً مبتكرةً ومشاركة في الموارد من قبل جميع الدول العربية، وليس من المستبعد أن تكلف بعض الدول العربية الشركات المتعدية الجنسية إقامة هذه البنية التحتية الحيوية من (التخطيط. الإنشاء. التشغيل. التحديث).

ب - سهولة الاستخدام: فهي أيضاً سلاح ذو حدين لأن التعقد لا يُستَحدثُ وما ينقص منه على مستوى الاستخدام أو التعامل على مستوى السطح يغوص في أعماق المعدات، والنظم تزداد تعقداً وانغلاقاً، فتتوازى الزيادة في سهولة الاستخدام، مع تفشي الصناديق السوداء، التي لا يستطيع فهم أسرارها إلا من قاموا بتصنيعها. وكم مرة استدعينا الخبراء الأجانب لأجل أمور تافهة ودفعنا مبالغ طائلة، واستعصت علينا لعدم امتلاكنا مفاتيح تلك الصناديق السوداء المنغلقة.

ج - ماذا عن رقمنتنا؟ تعتبر الرقمنة أحد المحاور الأساسية للمحافظة على تراثنا العربي الثابت والمنقول والمتحول، المكتوب والشفهي وتزداد الرقمنةُ كلفةً وتعقيداً وقد نضطر إلى مقايضة أحد كنوزنا الثقافية مقابل خدمات الرقمنة، وكل تراث لا تتم رقمنته سيظل بعيداً عن المعالجة المعلوماتية الآلية، ليفقد تدريجياً قيمته إلى أن يندثر تماماً.

- منظومة تكنولوجيا المعلومات:

١ - **الإطار العام للمنظومة:** ويشمل التالي:

- العناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات.

- شبكة العلاقات التي تربط منظومة تكنولوجيا المعلومات بما هو في خارجها من تكنولوجيات، وفئات اجتماعية، ومنظومات اجتماعية ومثالنا على ذلك منظومتا السياسة والاقتصاد.

- عناصر البنى التحتية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات ومثالنا على ذلك: سياسات المعلومات الوطنية والإقليمية، ومحتوى المعلومات الذي يمثل المادة الخام لصناعة المعلومات إضافة إلى الموارد البشرية من: مصممين ومخططين ومديرين لقواعد البيانات ومواقع خدمات الإنترنيت.

- **المكونات الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات الغربية:**

تمثل ثلاثية: العتاد. والبرمجيات. والاتصالات. المحور الأساسي للعناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات والتي اندمجت في شبكة الإنترنيت. والآن نستعرض أهم توجهات هذه المكونات.

أ - **العتاد:** وينقسم إلى قسمين رئيسيين هما الكمبيوتر وملحقاته، وبمقدورنا أن نلخص هذه التوجهات بالتالي:

- التوجه نحو الأصغر والسريع والأرخص والأسهل استخداماً سبق وذكرنا هذا التوجه

- التوجه الثاني: من المركزية إلى اللامركزية والتلاحق والتوازي وبقي بناء الكمبيوتر أسير المركزية القائمة على مركزية الذاكرة (ذاكرة وحيدة) ومركزية المعالجة الحسابية والمنطقية (وحدة معالجة وحيدة) ويسعى المهندسون إلى تخليصه من وصمة المركزية هذه، التي قلصت من سرعته ومن ذكائه الآلي على حد سواء، ويبغون من سعيهم هذا استحداث معمارية موزعة بين لامركزية تقوم على شبكة كثيفة من عناصر المعالجة الآلية، وعناصر الذاكرة المعمارية اللامركزية تعمل بأسلوب التوازي لا التلاحق، ويقصد بالتوازي هنا إمكان قيام الكمبيوتر بعمليات حسابية ومنطقية عدة في الوقت ذاته، والتعامل آنياً مع مصادر عدة للبيانات: دخلاً وخروجاً وبهذا تقترب معمارية الكمبيوتر خطوة أخرى نحو بنية المخ البشري، المكونة من شبكة هائلة من بلايين الخلايا العصبية المترابطة، ذروة اللامركزية والتوازي بلا منازع.

- التوجه الثالث: إنّ حدة التنافس تدور بين الكمبيوتر الشخصي والكمبيوتر الشبكي، حيث تجري اليوم معركة بين فريقين، أحدهما يتبنى فكرة أن يكون الحاسب الشخصي هو أداة المستخدم للنفاذ إلى شبكة الإنترنيت، ويتزعم هذا الفريق شركة (مايكروسوفت)، وفريق آخر يتزعمه شركة (صن ميكروسيستيم)، يرى أن الكمبيوتر الشخصي قد ولى إلى غير رجعة وما يحتاج إليه المستخدم هو الكمبيوتر الشبكي تتسم بالبساطة، بلا وحدات تخزين. أو نظم تشغيل معقدة، كمبيوتر يتعامل مع الإنترنيت بشكل

مباشر باعتبارها مستودع معلوماته، يستدعي منها ما يشاء وما يلزمه من بيانات وخدمات معلومات وبرامج، وهناك فريق ثالث يتوقع أن يندمج الكمبيوتر النقال والهاتف النقال وشبكة الاتصال في شبكة معلومات شخصية، تربط الإنسان أينما كان بالشبكات المحلية والعالمية، لتمده بما يلبي رغباته ويتفق وأهوائه الشخصية ومعرفته ويبعث إليها برسائله ويتصل بمن يريد .

– التوجه الرابع: هناك ملحقات طرفية أكثر كفاءةً وتنوعاً، حيث تتطلب برامج التطبيقات الحديثة بصفة عامة والتطبيقات الثقافية بصورة خاصة، تتطلب ملحقات طرفية تتجاوز ثنائية لوحة المفاتيح والفأرة، ملحقات تتعامل مع النصوص والرسوم والصور والموسيقى والكلام، وشاشات عرض غنية الألوان عالية التحليل لتلبية مطالب فنون التشكيل، علاوة على ملحقات التعامل، مع نظم الواقع الخائلي.

ب – البرمجيات: مصطلح الشق الذهني ويقابله البرمجيات، يعني في مدلوله الواسع كل ما هو ذهني، أي ما ليس مادياً . وهو لا يقتصر على برامج الكمبيوتر، بل يشمل المخططات والدراسات والتصميمات ويشمل ما هو هام جداً وهو محتوى الموسيقى والأفلام والنصوص والتسجيلات المسموعة والمرئية وتنقسم البرمجيات إلى ثلاثة فروع رئيسية:

– برمجية التحكم في تشغيل الكمبيوتر وشبكات الاتصالات: وهي تناظر آلات التشغيل ووسائل الإنتاج في الصناعات التقليدية وتشمل: – نظم التشغيل ومثالها نظام (ويندوز) ونظم التحكم في شبكات نقل البيانات

– أدوات برمجية: وتشمل لغات البرمجة وأدوات زيادة الإنتاج من نظم تنسيق الكلمات، وقواعد البيانات وبرمجيات العرض، وأدوات تصميم الرسوم، وتحرير الموسيقى

– البرامج التطبيقية: وتغطي من رؤية الثقافة مجالات أساسية هي: الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني ونظم خدمات المعلومات ومعالجة اللغة العربية آلياً .

ج - **الاتصالات:** لقد تعاظم دور الاتصالات داخل منظومة تكنولوجيا المعلومات وارتقى من كونه عنصراً مكملاً إلى دور الفعل المهم، وقد حولته شبكة الإنترنيت، وطريق معلوماتها الفائق السرعة. مجرد وسيلة للاتصال إلى وسيلة نقل منتجات صناعة الثقافة وأهم توجهات الاتصالات هي التالي:

- رقمنةٌ في كل اتجاه (هواتف رقمية. شبكات رقمية. معدات اتصال رقمية) وهو ما أدى إلى توسيع نطاق الخدمات الهاتفية وتنوعها.
- الانتقال من كابلات النحاس إلى الألياف الضوئية.
- انتشار المعدات النقالة من هواتف محمولة وحواسب جيب وكتب ومذكرات إلكترونية.
- اندماج خدمات الهواتف مع خدمات الفاكس والبريد الالكتروني والبحث عن المعلومات والترحال في الإنترنيت.
- خصخصة مؤسسات الاتصالات، الوطنية وهذه ظاهرة انتقلت من أمريكا إلى الباسيفيكي والأطلنطي إلى اليابان ومعظم دول أوروبا وبصحبة إطلاق المنافسات بين مؤسسات الاتصالات وشركات تليفزيون الكابل وشركات الكمبيوتر لتقديم الخدمات الهاتفية والمعلوماتية والإعلامية.

- المكونات الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات العربية:

أ - **العتاد:** يمثل تطور الكمبيوتر وعتاده أهمية كبيرة لتطبيقات الثقافة العربية منها:

- إمكان تطوير برامج تعليمية ذكية تتجاوز البرامج ذات الإمكانات المحدودة المتوافرة بالأسواق.
- إمكان استخدام السرعة الهائلة والمعالجة اللامركزية المتوازية لتطور نظم ذكية لمعالجة اللغة العربية آلياً كالترجمة الآلية الفورية وتحليل مضمون النصوص، وفهم الكلام الإنساني أتوماتيكيا.
- استخدام الإمكانات العديدة لعتاد الكمبيوتر وملحقاته في دعم المبدع العربي والمحافظة على تراثنا الأدبي والموسيقى والتشكيلي وكذلك تراثنا الحي من أغانٍ وأناشيد وطنية ودينية.

ب - البرمجيات: إنّ برمجيات التشغيل وأدواتها محتكرةٌ من شركات تطوير البرامج، وعلى رأسها شركة مايكروسوفت، وكانت هناك محاولة لتعريب نظم التشغيل وتنسيق الكلمات، وقواعد البيانات، وهذه الجهود توقفت الآن، حيث يصعب للوطن العربي المنافسة الآن أمام الهجمة الشرسة لشركة مايكرو سوفت التي تسعى للسيطرة الكونية، وجعلت منتجاتها قادرةً على التعامل مع جميع اللغات، ويتم ذلك على حسب الخصائص القومية للغة، وتزداد الحالة سوءاً كلما اختلفت هذه اللغات عن اللغة الإنكليزية، كما هي الحال بالنسبة للعربية والصينية واليابانية. علماً أن نظم التشغيل تتعامل مع اللغة العربية شأنها شأن جميع اللغات على مستوى الحرف، مع زيادة تفاعل نظم التشغيل مع اللغة، وهذا توجه حتمي في المجال الثقافي، ولابد من أن تتعامل هذه النظم لغوياً مع مستوى أعلى من الحرف مع الكلمة العربية صرفياً ونحوياً، وشركة مايكروسوفت ليس لديها الإمكانات ولا الدوافع لدراسة اللغة العربية بمثل هذا العمق. وهناك واجباً قومياً لمساهمة الباحثين والمطورين والمستثمرين العرب في هذا المجال، لماذا لا نعلم صغارنا مبادئ البرمجة باللغة العربية نظراً للعلاقة الوثيقة بين البرمجة والفكر من جهة، والفكر واللغة الأم من جهة أخرى، وقد عربت لغات برمجة سهلة للصغار مثل (لغة اللوجو) ولغة (البيسيك) إلا أن جهود التعريب توقفت هي الأخرى، في ظل غياب الحماس للتعريب بصورة عامة، إضافة إلى الفهم الخاطئ عند بعضهم، أن تعليمات البرمجة تشبه إلى حد بعيد المعادلات الرياضية والكيميائية والتي تكتب باللغة الإنكليزية واللاتينية، وإن جاز هذا بالنسبة للغات البرمجة المتقدمة، لكنه لا ينطبق على المستوى الذي نقصده وهو لغات برمجة لاستخدام الصغار. وبالنسبة لبرامج التطبيقات فهناك شركات تطوير برامج الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني، ومعظمها من شركات تعمل لتطوير البرامج، وعدد محدود من دور النشر التعليمي والصحافي، وهناك جهود مثمرة فيما يخص معالجة اللغة العربية آلياً. وهناك الصرف الآلي والإعراب الآلي، والتشكيل التلقائي، وبناء قواعد البيانات المعجمية. وبالنسبة لخدمات المعلومات، فأقل ما يقال عنها أنها متدنية على الساحة العربية

لضعف الموارد من جهة، وضعف الطلب على مثل هذه الخدمات، وإما بضعف التسويق، أو بسبب ضمور البحث عن المعلومات عند المديرين والمهنيين العرب لأسباب تربوية وإدارية.

ج - **الاتصالات:** إن مجال نمو الاتصالات في الوطن العربي أفضل من نمو خدمات المكتبات والمعلومات في كل الوطن العربي، باستثناء بعض الدول العربية التي ما زالت دون الحد الأدنى في مجال الاتصالات عن بعد، وهي: الصومال، السودان. موريتانيا. وقامت دول أخرى مثل: مصر ودول الخليج، وتونس بتطوير شبكاتها القومية لنقل البيانات، ونأمل من الدول العربية أن تساهم بالمشاركة في الموارد وإقامة المشاريع القومية لإقامة البنية الأساسية لطرق المعلومات الفائقة السرعة، وبطريقة تتفق والأهداف القومية لاستغلال تكنولوجيا المعلومات في دفع حركة التنمية علاوة على الكلفة المالية العالية لإقامة هذه البنية والتي لا يقدر عليها إلا القليل من الدول العربية.

- علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها في الغرب:

نظراً إلى انتشار وانصهار تكنولوجيا المعلومات في الكيان المجتمعي، فإنّ علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها لابد من دراستها بنفس أهمية العناصر الداخلية، لمنظومتها. ومما لاشك فيه أن دراسة هذه العلاقات الخارجية أكثر أهمية في إطار طرحنا الثقافي.

أ - **علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بمنظومة السياسة:** إن علاقة المعلوماتية السياسية تزداد وثوقاً بشكل مطرد، فلم تعد شاغل السياسات القطاعية: كالتعليم والإعلام والصحة والصناعة والزراعة، وصارت تحتل موقعاً بارزاً في فكر القيادات السياسية للدول، بل تجاوزت ذلك لتصبح أحد البنود الأساسية في أجندة السياسات الإقليمية والعالمية. ومن أبرز علاقات المعلومات بالسياسة هو ما يتعلق بالديمقراطية، مفهوماً وممارسةً ويقول بعضهم أنّ الإنترنيت ستؤدي إلى إعادة النظر بالديمقراطية من أساسها، وقد وفرت الإنترنيت ساحة جديدة للرأي العام تسمح بظهور أشكال جديدة للممارسات الديمقراطية، سواء في اتخاذ القرار أو في متابعة ما ينجم عنه من

نتائج إيجابية أو سلبية. وعلى مستوى السياسة العالمية من المتوقع أن تناصر القوى السياسية الكبرى مؤسساتها الاقتصادية بممارسة ضغوط هائلة في المحافل الدولية.

ب - علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية: تظهر أهمية المعلومات اقتصادياً في ضوء تعدد الأدوار الاقتصادية لها، لأنَّ المعلومات سلعةٌ اقتصاديةٌ بل خدمةٌ اقتصاديةٌ، وبرامجها وبنوك بياناتها ومحتواها بمنزلة أصول اقتصادية، إضافة إلى كون المعلومات مورداً حيوياً يسند كل الأنشطة الاقتصادية الأخرى، وأدت تكنولوجيا المعلومات وفيضها الزائد إلى زيادة فيض الإنتاج مما حدا بالبعض إلى أن يتساءل: هل أصبحت الرأسمالية الجديدة منتجةً أكثر من اللازم؟ لأن التوسع الهائل سيصاحبه تقلص فرص العمل، وارتفاع معدلات البطالة مما يؤدي إلى ضمور الطلب ثم الركود والكساد الاقتصادي، ومِنْ أهم ملامح علاقة المعلوماتية الاقتصادية السياسية، هي:

- الاندماجات الاقتصادية الضخمة التي تتم حالياً في قطاعي الإعلام والمعلومات وما ينجم عنه من خلل في توزيع فرص العمل والإنتاج والإبداع والاحتكار.

- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية وتسعير خدمة الإنترنيت فيما يتعلق بشق المحتوى المادة الخام لصناعة المعلومات.

- التغيرات الجذرية في اقتصاديات النشر الطباعي والسينما والترفيه.

- دائماً تكنولوجيا المعلومات تخرج إلينا بأشياء اقتصادية جديدة، وتفتح لنا أفاقاً معرفية جديدة وهو مفهوم اقتصادي جديد ونقصد به مفهوم (اقتصاد التركيز والانتباه) والذي يهدف إلى ترشيد إستخدام الإنسان لحواسه البصرية والسمعية وقدرته على التركيز، واستغلال موارد ذاكرته القصيرة والمتوسطة المدى، وظهر هذا (إزاء حمل المعلومات الزائد) لقد زادت سرعة المعلومات، ومعدل تدفقها في حين ظلت حواسنا وقدراتنا الذهنية ثابتة كما هي وهذا يتطلب استخداماً أفضلَ لهذه الموارد حتى لا ينسحق الإنسان أمام إعصار المعلومات الجارف.

ج - **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفئات الاجتماعية:** بسرعة انتشار تكنولوجيا المعلومات، يزداد تعامل الفئات الاجتماعية المختلفة معها، ورغم هذا تبقى معظم الفئات الاجتماعية على المستوى السطحي، دون التغلغل في أعماق المجتمع الثقافية، وتبقى الغالبية العظمى من المستخدمين أسيرة ما ينعم عليهم موردو البرامج الجاهزة، وما عليهم إلا الضغط على المفاتيح والأزرار والتحرك في حدود ما تتيحه قوائم الخيارات. وعلى صعيد آخر، إن أسلوب الإدارة الذي وضعه (تايلور) لتكنولوجيا الصناعة على أساس دراسة حركة العامل والوقت الذي يأخذه في تأدية المهام التفصيلية لم يعد ملائماً لتكنولوجيا المعلومات، والتوجه اليوم نحو الهندسة السيكولوجية ضماناً لإنتاجية عمالة المعلومات الكثيفة المعرفة، والقائمة على الإبداع. وستؤدي تكنولوجيا المعلومات إلى ظهور نوعيات جديدة من العمل الوظيفي، بعيدة كل البعد عما أفرزته تكنولوجيا الصناعة، وسوف تزيل من الوجود كثيراً من الصناعات التقليدية، وفرص العمل آخذة في النقصان حتى كاد العمل أن يكون نوعاً من الترفيه، ولن ينعم به إلا القلة النادرة.

د - **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى:** بعد أن أصبحت تكنولوجيا المعلومات، تمد بالغذاء كل أنواع التكنولوجيات الأخرى دون استثناء، ويتزايد الدعم الذي تقدمه تكنولوجيا المعلومات للتكنولوجيات ذات الصلة المباشرة بقطاع الثقافة. وهي تكنولوجيا التعليم والإعلام والفنون، ويشمل هذا الدعم: شبكات الاتصالات، والوسائط المتعددة، والنشر الإلكتروني والبرامج التعليمية والترفيهية ومعالجة اللغات آلياً، والبحث في النصوص والأرشفة الالكترونية، إضافة إلى الأدوات البرمجية لدعم فنون التشكيل والموسيقى وغيرها من الفنون الأدائية. ومن أهم هذه العلاقات علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى، هي علاقتها مع التكنولوجيا الحيوية القائمة على علم البيولوجيا الجزيئية والتي تتوثق باستمرار، وتكنولوجيا المعلومات في النهاية تلتقي بالفيزياء بذراتها وبلورتها وشرائحها السيلوكونية. وعلم البيولوجيا يكاد يحسم المعركة لمصلحته العلمية

والتكنولوجية مع الفيزياء، وبينما البيولوجيا يستعير مناهجه من الفيزياء، كتفسيره للعمليات الفيزيولوجية بدلالة تفاعل الكيمياء الحيوية، وفيزيولوجيا الأعصاب بدلالة الإشارات الكهربية، ونشاهد اليوم بوادر التحرك في الاتجاه العكسي، وينظر اليوم بعضهم إلى الفيزياء كحالة خاصة من البيولوجيا، حالته الدنيا الخالية من الحياة، وتكنولوجيا المعلومات تستعد للقاء البيولوجيا، كما يستعد هو للقائها، ويلوذ علم البيولوجيا الجزيئية الحديث بالنهج المعلوماتي ليعينه على كشف أسرار الجينات ولغتها، ونصوصها الوراثية الكامنة في كروموسومات نواة الخلية، وفي هذا الصدد تعتبر نظرية المعلومات مدخلاً أساسياً فيما يطلق عليه (البيولوجيا الجزيئية الرمزية) وكما هو معروف تقوم نظرية المعلومات بقياس كمية المعلومات على أساس حصرها في نطاق مقيد، حيث الاحتمالات الممكنة تزداد كمية المعلومات عكسياً، مع درجة احتمالها وتوقعها، وقد رأى علماء الوراثة في التوجه الإحصائي المقيد تفسيرا أفضل لعملية التطور من ذلك التفسير على أساس نظرية دارون الكلاسيكية القائمة على عشوائية الانتخاب الطبيعي ومبدأ البقاء للأصلح، وفي المقابل تريد تكنولوجيا المعلومات محاكاة الوظائف البيولوجية واستخدام الآليات الوراثية، خاصة فيما يتعلق بالتكيف مع البيئة المحيطة، وهي خاصية أساسية في إكساب الآلة القدرة على التعلم الذاتي وإضافة على ذلك، هناك توجه لاستخدام العناصر البيولوجية الحية كوحدة أساسية لبناء كمبيوتر أكثر سرعة وذكاء ومرونة، ولأول مرة في التاريخ البشري أمكن للتكنولوجيا أن تجمع ما بين الفيزيائي المتمثل في عتاد الكمبيوتر، والذهني المتمثل في برمجياته، والبيولوجي المتمثل في استخدام العناصر البيولوجية في بناء الكمبيوتر، ومحاكاة الآليات الوراثية في تطوير برامجه حتماً، لقد تأهلت تكنولوجيا المعلومات للقاء مثير مع الثقافة وللقاء مثير مع الإنسان صانع هذه الثقافة وصنيعتها، وهناك لقاء لا يقل إثارة مع مجتمع الإنسان الذي أفرز هذه الثقافة وتلك التقنية.

- علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات العربية بخارجها:

أ - علاقة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة السياسية: اكتشفت المجتمعات المتقدمة أنها بعيدة عن الديمقراطية السياسية الحقيقية اليوم، حتى عن تلك التي كانت سائدة في أثينا القديمة، أو تلك التي بشرت بها حداثة التنوير، وإذا كانت هذه حال من سبقونا في مجال التنمية السياسية، فما بالنا نحن وتدني مستوى الأداء الديمقراطي في معظم مجتمعاتنا العربية لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد؟ وهل لنا الآن أن نتفاءل مع من يزعمون أن الإنترنيت ستسقط الحلقات الوسيطة بين الحكام ومواطنيهم، محققةً بذلك نوعاً جديداً من الديمقراطية المباشرة التي يشارك فيها الجميع. في عملية اتخاذ القرار دون حاجة إلى تمثيل نيابي يوكل إليه هذه المهمة؟ أم هل لنا أن نقلق أشد القلق مع من يرى في ديمقراطية الإنترنيت ضرباً من الفوضى سيؤدي إلى مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة على مواطنيها خاصة وأن الإنترنيت توفر الوسائل العملية الفعالة لإحكام السيطرة، حيث تسجل للمواطنين مواقعهم وأفعالهم لتكشف عن أهوائهم السياسية والفكرية مما يجعلهم أكثر عرضة للرقابة الإكترونية.

ب - علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية: هناك العديد من القضايا الساخنة بين منظومتي تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد نوجزها بالتالي:

- ارتفاع كلفة البنى التحتية، وتكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا صناعة الثقافة، فيحتم هذا ضرورة المشاركة في الموارد على مستوى الوطن العربي.

- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية ولأن الوطن العربي مستورداً لتكنولوجيا المعلومات أكثر بكثير مما هو منتج لها، علينا أن ننظر إلى الملكية الفكرية بعين المستورد من يدفع رسوم الاستخدام لا المنتج صاحب الملكية

- نزيف العقول العربية في عمالة المعلوماتية وما يعنيه ذلك من كلفة باهظة.

- التصدي لمحاولات إسرائيل لإختراق السوق العربية في مجال تكنولوجيا المعلومات والسلع الثقافية.

ج - **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفئات الاجتماعية:** إن الإنترنيت بإتاحتها المعلومات والمعرفة للجميع، سوف توفر مناخاً أفضل لتحقيق العدالة الاجتماعية وتمنح فرصاً متكافئةً للتعليم والتعلم، فتضيق الهوة بين العالم النامي والعالم المتقدم، ويقلل من الفوارق الاجتماعية المختلفة. وعلى النقيض من ذلك، هناك من يؤكد أن الإنترنيت ستزيد من حالة الاستقطاب الاجتماعي وتؤدي إلى ظهور نخبة جديدة، تجمع ما بين القوة المادية لرأس المال، والقوة الرمزية المتمثلة في المعارف والمعلومات. ويقول البعض إنّ الوظائف المتوفرة للعمال غير المهرة آخذة في الاضمحلال، وظهر من دراسة حديثة أن استثمارات الولايات المتحدة الخارجية لم تعد تجتذبها الأيدي العاملة الرخيصة (أنطوان زحلان ١٩٩٨) وما زال معظم الإعلاميين لدينا غير ملمسين بالأبعاد الاجتماعية والثقافية لتكنولوجيا المعلومات، ولم ينجح التربويون العرب في دمج تكنولوجيا المعلومات في صلب المؤسسة التعليمية العربية، إضافة إلى ارتفاع نسبة الأمية، والتفاوت الشديد في الدخول يفرضان على واضعي السياسة المعلوماتية اتخاذ قرارات وإجراءات كافية وكفيلة تضمن ألا تصبح تكنولوجيا المعلومات وسيلة للاستبعاد الاجتماعي. وهنا لابد من السؤال التالي: هل ستؤدي الإنترنيت إلى علاقة متكافئة وأكثر توازناً بين الرجل والمرأة لدينا؟ أم ستزيد من اختلال هذه العلاقة لمصلحة الرجل بحكم كونه أكثر نفاذا لشبكة الإنترنيت؟ وفي ذات الوقت لا يمكن إنكار ما تتيحه هذه الشبكة من فرص لتنمية المرأة العربية في منزلها.

- منظومة الإنترنيت (المنظور الثقافي).

أ - **الإنترنيت كظاهرة:** كثيراً من الإعلاميين والمفكرين والفنيين تحدثوا عن الإنترنيت، تلك الشبكة الكوكبية ذات الفضاء المعلوماتي الضخم وهو دائم الامتداد والانتشار تلك الغابة من المواقع في تبادل المعلومات، التي تخزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى فروع المعرفة، من الفلسفة حتى قضايا الدين ومن الرياضة إلى معاملات التجارة ومن غزو الفضاء إلى الفن ومن الموسيقى إلى الهندسة الوراثية إلى الحِرَف اليدوية إلى البريد الالكتروني

ومن المؤتمرات العلمية إلى الدردشة، فالإنترنيت هي الشبكة الأم التي طوت في جوفها مئات آلاف من الشبكات في العالم، والتي تتبادل المعلومات، سواء كانت عالمية أو إقليمية أو محلية، ومهما فعلت وتضخمت وتشابكت، فهي كيان طفيلي تطفو فوق الكيانات المادية وغير المادية، من شبكات وبرامج وقواعد بيانات ليست لها، بل ملكاً لغيرها، وقد أقامت مجدها ونجاحها على وضع بروتوكول بسيط وموحد التزمت به الجماعة التي تريد الانضمام إلى عضوية الشبكة ضماناً لتدفق المعلومات فيما بينها، بالإضافة إلى الوسائل المبتكرة من أجل سهولة التنقل بين المراكز وما بين وثائقها، وانسياب موارد مرور البيانات عبر الشبكات بما يضمن أقصى استغلال لموارد هذه الشبكات والتي ظلت مهدرة.

ب - **الإنترنيت كساحة ثقافية:** رغم انتشارها الواسع وتعدد استخداماتها مازالت الإنترنيت في بدايتها . وهي تشكو من الاختناقات وفوضى المعلومات وتلوثها، ولا بد من ظهور جيل ثان من الإنترنيت، يفوق جيلها الأول بنسبة كبيرة سواء في السرعة أو في الإمكانات الفنية، وستتوفر مسارات أوسع وأسرع بكثير لتدفق المعلومات، وذلك باستخدام الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة وبهذه الطريقة تنقل البيانات بسرعة شديدة، وهي تنقل: الأفلام ورسائل الإعلام الحية وصور الفيديو وفيض متدفق من المعلومات، ينقل إلى الفرد نبض الحياة اليومية في كل أنحاء العالم، أو ينقل حضور الفرد نفسه حيثما يريد أن يشارك في اللقاءات ويستمع إلى المحاضرات، إنه فضاء رمزي جديد يطلقون عليه فضاء (السيبر) ويمكن أن نسميه فضاء المعلومات، إنه فضاء تقطنه الجماعات وتقام فيه المؤسسات، وتمارس فيه الصفقات وتعقد فيه التحالفات وتحاك المؤامرات، وترتكب من خلالها جرائم المافيات وسرقات الأموال، والأفكار والمعلومات وقد أصبحت الإنترنيت نافذة للإنسان يطل منها على البشرية.

بحويتها وديناميتها الهادرة واشكاليتها المتشابكة المتجددة والمتراكمة، وهذه الشبكة تعيد صياغة العلاقة بين الإنسان وعالمه، بين الفرد ومجتمعه، بين ثقافة المجتمع وثقافات غيره فهي الآن قد أصبحت: ساحةً ساخنةً ووسيطاً إعلامياً جديداً، ومجالاً للرأي العام مغايراً لكل ما سبقه.

ج - حيرة المجاز: حارت اللغة تجاه ظاهرة الإنترنيت الفريدة غير المسبوقة، ولا بديل أمام اللغة بعد أن عجز معجمها ومصطلحه سوى اللجوء إلى المجاز، وذلك لتأكيد ألعاب اللغة الذي ستتضح لنا أهميته كلما تقدمنا في البحث عن ثقافة عصر المعلومات - الاستعارات المجازية في وصف هذه الشبكة الجبارة، من مجاز المكان، إلى مجاز الحشرات، إلى مجاز الكوارث، كل منها يرى وجهاً من وجوهها المتعددة، مجاز المكان: يراها مواقعاً لخدمات المعلومات، وطرقاً سريعةً لنقل رسائلها، وبوابات ومنافذ للولوج إليها ومحلات ومدناً خائليةً وساحات عامة، إنها طبوغرافيا القرية الإلكترونية، ويمكن أن نضيف مصطلحات مثل: معابر المعلومات وأزقتها وملاجئها ومخابئها وأحيائها، مناطق أرستقراطية ونوادي للمعلومات الخاصة ومناطقها العشوائية ومجاز المكان أو (الطوبوغرافيا) يرى الإنترنيت فضاءً رمزياً خائلياً موازياً لفضاء عالم الواقع، وتارةً طريقاً فائقَ السرعة لنقل بضاعة الثقافة.

- مجاز الحشرات: فقد حظي بموقع الصدارة في وصف شبكة الإنترنيت، وسميت بيت العنكبوت تشبيها للشبكة بهذا النسيج البالغ الرهافة. المكون من مسارات المعلومات التي تقطعها طولاً وعرضاً، وغابة حلقات الربط التي تصل بين مواقعها ووثائقها وناشريها ومطوريها ومستخدميها ومتاهة هائلة من مسالك التشعب وعلاقات الاندماج المتطايرة المتجددة.

- بلايين من خطوط الاتصال في رهافة خيوط العنكبوت، قد غزلت هذا النسيج الرمزي التي لا تعرف له بداية أو نهاية. ولم يقتصر المجاز على العنكبوت وإنما امتد ليشمل (النمل) ويشبهون قوافل الروبوتات المعرفية (بمملكة النمل) وهي روبوتات برمجية تجوب الشبكة ذهاباً وإياباً، تنقل المعلومات وتتبادلها فيما بينها وتوزعها وتحورها وتوظفها.

- استعارة الكوارث: تساهم هي الأخرى في مجاز المصطلح الرمزي لتضيف إلى قائمته عبارات، مثل: (إعصار المعلومات) و(زلزال البيانات) و(انفجار المعرفة) و(الفناء الرقمي) و(الداروينية الاجتماعية) و(الداروينية اللغوية) إضافة إلى قائمة الهلاك.

- **الإنترنيت كظاهرة عربية:** إنّ جسامة التحديات العلمية والتكنولوجية التي يواجهها الوطن العربي لا تقل عن تلك التحديات الاجتماعية والثقافية المصاحبة لها، وهي تتيح لنا فرصة نادرة للإسراع بحركة التنمية العربية، وأثبتت أن أفكار المبدعين بأهمية الموارد الأخرى من أموال الاستثمار والموارد الطبيعية والمادية، وعلينا كعرب ألا نَمَلَّ اعتلاء أرجوحة التفاؤل والتشاؤم، فذلك قدرنا وعظمتنا، وتأرجحت بنا الآراءُ بين التفاؤل والتشاؤم منها:

- ديمقراطيةٌ أم مزيد من سيطرة الحكومات - عدالةٌ اجتماعيةٌ أم استقطابٌ اجتماعيٌ، إلفةُ جماعات الإنترنيت أم غربةٌ عن الواقع - حوارُ ثقافات أم صراع حضارات - معلوماتٌ أكثر أم معرفةٌ أقل - إبداع الجديد أم اجترار القديم - ديمقراطيةٌ غاربةٌ أم معلوقراطيةٌ بازغةٌ - عمالةٌ أكثر أم بطالةٌ أكثرُ.

التوجهات الرئيسية للإنترنيت غربياً وعربياً:

نظراً للتطور السريع لشبكة الإنترنيت ولا بد لنا من تعقب توجهاتها المحورية من المنظور الثقافي - المعلوماتي ومن أهمها: - من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية ومن تبادل البحوث إلى تسليع الثقافة ومزيد من الإنتاج إلى مزيد من الاحتكار ومن النصوص إلى التناص ومن الخطية إلى التشعب ومن الإستاتي إلى الديناميكي ومن البحث البشري إلى الوكيل الآلي ومن الواقعي إلى الخائلي. وسنتناول كلاً من هذه التوجهات المحورية باختصار. ولسهولة القراءة سيأتي الطرح الغربي لكل من هذه التوجهات متبوعاً بالمنظور العربي:

أ - **من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية:** كانت الإنترنيت منذ نشأتها بمنزلة المنتدى العلمي للربط بين المؤسسات الأكاديمية مثل الجامعات ومراكز البحوث، ووقف المؤسسون الأوائل ضد أيّ نشاط تجاريٌ أو إعلاميٌ أو إعلانيٌ ولم تقدر هذه الطهارة المعلوماتية أن تستمر، لأن القوى الاقتصادية أدركت أهمية هذه الشبكة في قدرتها الفائقة على ربط مصادر الإنتاج بمنابع الطلب وباعتبارها وسيلة لنقل بضائع صناعة الثقافة، عبر

طرقها القائقة السرعة، ولكن رأس المال والتجارة والإعلام وطأت بأقدامها الثقيلة هذا (الحرم الأكاديمي) محيلةً إياه إلى متجرٍ إلكتروني، وبوقٍ إعلاني، ومنافذَ للتوزيع، وساحةٍ للتسوّق.

– المنظور العربي: سيطرت التجارة الإلكترونية على الإنترنيت، وأصبحت بنيتها الأساسية رهناً بما يقدمه التجار من دعم على صورة إعلانات، ومعلومٌ أنَّ من يقبض على زمام البنية التحتية للشبكة، سيكون المسيطر على ما يجري فوقها من حيث نوعية الخدمات والمعلومات أو نظم تسعيرها، وما علينا إلا أن نطرح تلك الوعود المسرفة جانباً وشعاراتها (المعلومات كالماء والهواء وهي حق للجميع) وفي الوقت نفسه علينا ألا نرضخ لاستقطاب الشبكة نحو أمور التجارة الإلكترونية أو مجرد مقهى للدردشة وساعٍ للبريد الإلكتروني، وأن نتمسك بمهمتها الأساسية في توفير موارد المعلومات اللازمة للإسراع في التنمية في جميع أرجاء الوطن العربي.

ب – من البحوث إلى تسليع الثقافة: جميع المؤسسات الاقتصادية تسعى إلى إكساب المنتج الثقافي والإبداعي طابعَ السلعةِ التجارية، وإلى إعادة تشكيل المؤسسات الثقافية في القالب النمطي للتصنيعِ والتنظيمِ الاقتصادي، وهذا يعتبر الفيصل في ميزان الربح والخسارة، فهو لا يعرف إلا القيم العينية قصيرة المدى ولا تعنيه القيم غير العينية، ولا الخسائر الاجتماعية طويلة الأجل.

– المنظور العربي: تقوم صناعة المعلومات على ثلاثة محاور أساسية وهي:

– المحتوى: ويمثل مواد التصنيع المعلوماتي.

– معالجة المعلومات: وتمثل أدوات الإنتاج وشبكات الاتصالات التي تمثل قنوات التوزيع. وأهم محور هو المحتوى، والذي يعني في حالتنا الراهنة موارد تراثنا الرمزي، من نصوصٍ وموسيقى وقواعدَ بيانات والطاقات الإبداعية الخلاقة القادرة على إبداع المحتوى الجديد. إنَّ صناعة الثقافةَ تتوقف في المقام الأول على التحكم في اقتناء مصادر المحتوى، خاصةً فيما يخص التراث الذي ينظر إليه كموردٍ عالمي مشاعٍ، وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسساتها العملاقة بجميع السبل إلى إحكام قبضتها على موارد المحتوى بصفتها المادة الخام لصناعة الثقافة، تحضيراً لوضع قيود صعبة وظالمة على

حقوق النشر والملكية الفكرية، وهكذا يضيق الخناق على الدول النامية، لتُحْرَمْ من الدخول في علم التصنيع الثقافي، والذي يعتبرونه صنعة العالم المتقدم. ووسيلةً لزيادة فرص العمل لديهم على حساب تصدير البطالة إلى شعوب العالم الثالث، وتجدر الإشارة هنا، إلى أنَّ هناك محاولةً لشراء التراث العربي الفنيِّ، من أغان وموسيقى وأفلام من قبل مؤسسات عالمية، هذا فيما يخص الموارد الثقافية والتراثية القائمة بالفعل، وأما فيما يخص إنتاج محتوى جديد، يكفي أن نشير إلى ما نعاني منه من إنتاج تليفزيوني وسينمائي.

ناهيك عن إنتاج مواد الصحافة التي نستورد معظمها من وكالات الأنباء الأجنبية.

ج - **مزيداً من الاندماج باتجاه الاحتكار**: تشهد الساحة المعلوماتية حركة محمومة هذه الأيام نظراً لشدة المنافسة في مجال صناعة الثقافة لتزداد ضراوةً لاندماج الأعمال والتكامل الرأسي، مابين شركات البرمجيات وخدمات الإنترنيت، وشركات إمداد المحتوى من دور نشرٍ وإنتاجٍ موسيقىٌ وسينما وشركات التوزيع وخدمات المعلومات كشركات الاتصالات وفيديو الكابل، وهذا الاندماج يجر وراءه الاحتكار الذي ظننا يوماً أنَّه لن يطالَ أمور الثقافة بخصوصيتها وإبداعها، والإحصائيات تكشف عن وجهه البغيض.

- المنظور العربي: لابد من تكامل معلوماتي إعلامي عربي، ينهض على حشد الإمكانات والمشاركة في موارد المعلومات من أجل مواجهة التكتلات العملاقة، والتصدي للنزعة الاحتكارية خاصة في مجال صناعة البرمجيات، ومن المعروف أن أمضى أسلحة الاحتكار في المجال التكنولوجي، هو سلاح التوحيد القياسي، وهو غالباً ما يتم عن طريق فرض المعايير القياسية بحكم الأمر الواقع، من قبل الشركات المهيمنة على الأسواق وما أكثر هذه المعايير في شبكة الإنترنيت، المتعلقة ببروتوكولات تبادل المعلومات، ومواصفات تسجيل البيانات من نصوص وموسيقى وأشكال وفيديو، وهذا يستلزم متابعة رصد التوجهات الفنية، واتباع أقصى درجات الحرص في اقتناء موارد المعلومات، واتباع أساليب مرنة في التخطيط والتصميم لضمان الانتقال السلس مع تغير المواصفات القياسية.

د - من النصوص إلى التناص، ومن الخطية إلى التشعب: إن تكنولوجيا معالجة النصوص آلياً أتاحت أدواتٍ فعالةً للبحث طولاً وعرضاً في متن النصوص، وتحليل مضمونها، وكشف ما يخفى تحت السطح، من معانٍ وإيحاءاتٍ وعلاقاتٍ تربط ألفاظها وجملها وفقراتها، فتحررت النصوص من الخطية الصارمة التي فرضها عليها الورق الجامد وثبات الطباعة، فليست النصوصُ كما تبدو في تلك السلاسل المتعاقبة من الحروف والكلمات والجمل والفقرات بل شبكةٌ كثيفةٌ من العلاقات المنطقية والتركيبية والموضوعية وتتجلى في صورٍ مختلفةٍ من القرائن اللغوية معجمياً وصرفياً وتركيبياً ونحوياً ودلالياً ومقامياً.

وحتى يمكننا تتبع مسارات هذه الشبكة فقد استحدثت تكنولوجيا معالجة النصوص ما يعرف بتكنيك (حلقات التشعب النصي) وهذا التكنيك قضى على خطية السرد النصي ويمكن من خلاله الربط بين أيِّ موضوع وآخر داخل النص أو الوثيقة، ومثالنا على ذلك يمكن أن نربط بين كلمة (خطية) التي تكرر ذكرها في أول الفقرة وفي وسطها وفي نهايتها، وذلك كمثالٍ لعلاقة التطابق اللفظي، وأن نربط بين كلمات (الخطية) و(المتعاقبة) و(السلاسل) الواردة في مواقع متناثرة من الفقرة ذاتها، كمثال لعلاقة الترابط بين الكلمات على أساس تقارب المعنى، ويمكن أن نربط بين صفة التقنية في بداية الفقرة، وكلمة (تكنولوجيا) في وسطها كمثال لعلاقة الترادف المعجمي إضافةً إلى كشف مسارات التشعب داخل النص المفرد، وهناك وسائلَ عديدةٌ لربط النص بخارجه أو ما يعرف بعملية التناص، وقد وسعت تكنولوجيا الوسائط المتعددة من مفهوم التناص والذي لم يعد مقصوراً على الربط بين وثائق النصوص، بل بينها وبين الوثائق الإلكترونية الأخرى من أشكالٍ وأصواتٍ وصورٍ ثابتةٍ ومتحركة.

- المنظور العربي: إنَّ نصوصنا ووثائقنا شرانقُ منغلقةٌ على نفسها، طرقُها مسدودةٌ مقطوعةُ العلاقة بخارجها ويتضح هذا عندما نقارن نصوصنا الثقافية بغيرها، فهي نادرة حلقات التشعب ومسارات التناص، ونقلنا خطية السرد المطبوع إلى شبكة الإنترنيت، وهذا يتناقض بشكلٍ كبيرٍ مع

طبيعتها المصممة أصلاً للإبحار غير المحدود وهذا الانغلاق النصي يؤدي إلى انعزالية وثائقنا الالكترونية، وسرعة اندثارها، وضعف فاعلية مواقعنا العربية يعود السبب فيه إلى غياب علاقات التشعب والتناص وإلى أسباب عدة من أهمها: قصور خدمات المعلومات ونقص الدراسات التخصصية والمقارنة، إضافة إلى الاستبعاد المعرفي تحت دعوى التصدي للتغريب أو تفردنا الثقافي والحضاري، ولا يمكن أن تنسى هنا ما نعانيه من نقص في نظم الفهرسة آلياً والمقصود هنا المستخدمة في اختزال النصوص إلى كلمات مفتاجيه والمفاهيم الأساسية الكاشفة عن مضمونها، وهي تربط عادةً بين الوثائق المختلفة. وأصبحت الفهرسة الآلية وسيلة لا غنى عنها بعد أن أصبح من المتعذر الاعتماد على الفهرسة اليدوية نظراً إلى التضخم الهائل في إنتاج الوثائق.

هـ - **من الاستاتي إلى الديناميكي**: كان تبادل المعلومات في البداية عبر الإنترنيت من خلال تبادل الملفات والوثائق ذات الطابع الاستاتي، أو للعرض فقط ومع ارتقاء الشبكة فنياً، انتشر الطابع التفاعلي المتمثل في حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد، علاوة على تفاعل المتلقي ديناميكياً مع المادة المعروضة، فلم تعد الوثائق مقصورة على النصوص والأشكال الثابتة، بل يمكن أن تشمل أيضا عناصر برمجة تسمح للمتلقي بالتفاعل معها.

- المنظور العربي: هناك فرق كبير ما بين المتلقي السلبي البارد، وحيوية التفاعل الإيجابي، وستكون الغلبة في النهاية لصاحب الرسالة الثقافية المتسمة بالتفاعل، وتحث على المشاركة، وديناميكتيها تكون على شكل رجع الصدى، الذي يعكس مطالب المتلقين وأهواءهم، وبناء عليه لم يعد كافياً نقل رسالتنا عبر الإنترنيت، ويقتصر جهدنا على عرض الجوانب المختلفة لمادتها، بل مراعاة جاذبية تصميمها، ومداومة تحديث مضمونها، وأن نراعي كيف يتلقى المستقبل هذه الرسائل، وكيف يستوعبها، وكيف يدمجها في روتين حياته اليومية.

و - **بين الباحث البشري والآلي الذكي**: فتحت الإنترنيت بوابات الفيضان المعلوماتي على مصراعيها، وكَثْرَةُ المعلومات أصبحت مشكلةً نواجهها، ومن

الصعوبة في مكانٍ أن نُعَوِّلَ على الوسائط البشرية وحدها لمسح الشبكة دورياً، بحثاً عن المعلومات المطلوبة، ولا بد من أتمتة هذه العملية باللجوء إلى الروبوت المعرفي أو البرمجي كوكيل آلي ترجع إليه الأمور بهذه المهام الصعبة والروتينية الشاقة، والروبوت المعرفي خادمُ الإنترنيت المطيع الدؤوب الدائم التجوال بين أرجاء الشبكة، لتنفيذ المهام الملقاة على عاتقه، وهو يتمتع بقسطٍ كبيرٍ من الذكاء الاصطناعيٌ، يمنحه القدرة على الاستنتاج والتحليل والتوقع، وهو مستقل في اتخاذ القرارات وفقاً للسلطات الممنوحة له، وإقامة الحوار مع زملائه ليعملوا كفريقِ عملٍ واحدٍ متكاملٍ أقرب إلى مملكة النمل. نتيجة للمعدل المتزايد والمتسارع لزيادة ضخامة حجم المعلومات، ازداد اللجوء إلى الوسائل الأوتوماتيكية للبحث والتحليل والتنظيم وأهمها التالي:

- آليات البحث الفائق التي تمزج بين البحث بمدخل الموضوع (البحث في العمارة الإسلامية) والبحث عن لفظ بعينه أو مجموعة ألفاظ بعينها، في متن النص مثلاً: نبحث عن لفظ (الكعبة) أو (الحرم المكي).

- منظمات المعلومات الفائقة السرعة التي تقوم بفهرسة المعلومات وتبويبها وتخزينها.

- روبوتات الأرشفة تقوم بأرشفة مواقع الشبكة.

- المنظور العربي: نحن نواجه في معركتنا الثقافية على شاشة الإنترنيت جيوشاً جرارة من روبوتات المعرفة، التي تقتحم علينا مواقعنا عبر الشبكة، لتأخذ منها المعلومات تحللها وتبادلها، وتضيف إليها، وتعيد صياغتها، وتكيفها وفقاً لأهواء أصحابها، وإسرائيل ربما تكون السباقة في استخدام هذه التكنولوجيا الرفيعة، في توظيف تكنولوجيا (الوكالة الآلية) لتعوض عجزها الشديد في الطاقة البشرية، وعلينا أن نُحَصِّنَ أنفسنا ضد هذا (التطفل الإلكتروني)، ونحمي تراثنا بحيث لا ينهب في غفلة منا، من قبل (لصوص الليل)، وعلينا أن نبحث عن كيفية المواجهة بين هذا التلاحم العجيب بين الذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا الوكالة الآلية، وأن نلحق بهما وهما مازالا في المراحل الأولى لتطورهما.

ز - من الواقعي إلى الخائلي: يزداد استخدام مفهوم الخائلي في دنيا الإنترنيت، ونظرا لحداثته وازدياد أهميته في المجال الثقافي سنخصه بقراءة مفيدة.

وهي التالي: - **الخائلية:** هناك جماعاتٌ خائليةٌ ومؤسساتٌ خائليةٌ ومعابدُ خائليةٌ ومعامل خائليةٌ و(خائلي) هو كل ما يحاكي الواقع، إلى درجة يكاد يكون حقيقي وهو ما يتجاوز هذا الواقع وهو يؤخذ مأخذ الواقعي، ويتعامل معه على أنه في حكم الواقع فمثلاً: صورة المرأة خائلية لتناظرها مع الواقع والأفلام السينمائية التي تماثل الواقع، هي من النوع الخائلية والأسطورة المتجاوزة للواقع هي خائلية، مادامت رُسِّخَتْ في ذهن من يتداولونها، ومن هنا لكل عصر خائليته، يمارس بها الإنسان قهر الطبيعة، ويحلم بإرادة لا تتحقق له في دنيا الواقع. هذا وتنوع الخائليات وتعدد مصادرها، بين خائليات من صنع السحر أو وليدة خيال الشعراء، تلك من صنع طوبائيات الايدولوجيا أو أحلام التكنولوجيا. ومن يحب تعقب الخائلية تاريخياً واجتماعياً من المحتمل أن يهتدي بنظرية (أوجست كونت)، عن ثلاثية التنمية الاجتماعية: من اللاهوت إلى الميتافيزيقي، إلى العلمية. ومن يريد أن يغامر ليصل (الخائلية) له أن يتعرض لها بكل دقة وكل حرص، إن عجبه حديث (محمد أركون) عن مراحل تكوين العقل العربي الإسلامي، ونقصد بها، ثلاثية المرحلة الكلاسيكية وهي: مرحلة التأسيس والبدايات، والمراحل المدرسية وهي مرحلة تكريس التقليد والاجترار، والمرحلة المعاصرة لما يعرف بالنهضة الإسلامية، وهذه المراحل الثلاث لا يفصل بينها (محمد أركون)، فيعاد إنتاجها ويختلط فيها العقل بالأسطورة والخيال (عبد الله موسى ١٩٩٩)، إن (محمد أركون) قد يتعثر وهو يناظر بين العلمية في ثلاثية أوجست كونت، وأسْلَمَتُ العلومِ التي ينادي بها بعض مفكري النهضة الإسلامية، وإن جاز أن يكون لكل عصر خائليته، فلا وجه للمقارنة بين خائلية الماضي وخائلية عصر المعلومات، نظراً لقدرة التوليد الخائلي الهائلة لتكنولوجيا المعلوماتية، وهي قدرة تعود إلى قدرة هذه التكنولوجيا على التجريد والمحاكاة والتمثيل الرمزي، وما توفره للتفاعل الديناميي مع الواقع، أو ما يحاكيه أو ما

يماثله من نظم ونماذج، واتخذت خائلية عصر المعلومات أشكالاً متعددةً، ودرجات متفاوتة من خلال محاكاتها للواقع، من حيث البيئة التي تسكنها الكائنات الخائلية، فالإنترنيت تمثل فضاءً عاماً تسكنه خائليات عدة جماعات، خائلية تتآلف عن بعد، وتجارة إلكترونية للبيع والشراء عن بعد، ومعارضُ خائليةٌ لبيع الكتب، ومكتبات رقمية خائلية تجمع فيها الوثائق الالكترونية. إننا نعيش مرحلة (الهجرة إلى الخيال) إنها هجرة جماعية ينزح خلالها شباب الإنترنيت إلى مواقعها العديدة، يتصفحونها ويتفاعلون مع ما تعرضه من خيارات ومعلومات، ورغم هذا الإبحار وما فيه من إثارة، يبقى هذا المستوى الخائلي قاصراً في جوهره، لأن الفروق كبيرة عندما تزور متحف اللوفر، مثلاً، من خلال تصفح مقتنياته والقيام بزيارة نموذج يشابه هذا المتحف باستخدام الأسلوب الواقعي الخائلي، لأنه يتنقل خلالها الزائر بين ردهات المتحف، ويشاهد مقتنياته بصورة أقرب ما تكون إلى الخيال، كأنه يزور بالفعل المتحف وما أن يغير اتجاه مساره حتى يتغير المنظر بأكمله، وتكبر الصور عندما يقترب منها، وتصغر عندما يبتعد عنها، ويتغير منظر التماثيل عندما يغير حركة رأسه أو حركة عينيه، فالواقع الخائلي هو الرتبة الثانية، وهو يمثل ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المعلومات، (المحاكاة الرقمية): إنها ثمرة هندسة الخيال الجامعة بين العلم والفن والخيال والتكنولوجيا، مستغلةً خداع الحواس من أجل إقامة عالمٍ وهميٍّ. وربما يظن البعض أن هذا من قبيل الخيال العلمي، كلا إنه واقع حقيقي عملي يمارسه الباحثون في معاملهم، فيندفع إليه الرأسماليون بسبب اقتناعهم بجدواه الاقتصادي: من ترفيه، إلى تصميم، من أمور العلاج والجراحة، إلى التعليم والتدريب.

- **المجموعات الخائلية**: إن نزعة التواصل مع الغير هي نزعةٌ متأصلةٌ لدى الإنسان، صحيح أن هناك حوار بين الإنسان والآلة والإبحار في محيطات الإنترنيت، وليس هناك ما هو أروع من هذا الإنسان، وهو يقيم حواراً مع إنسان مثله، يشاركه همومه واهتماماته، ويتبادل معه معارفه وخبراته، ولم يعد هناك شيء لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيه غيره، ومن الطبيعي أن تنمو عند الإنسان الرغبة في التواصل، لما نشاهده من اغتراب وانكفاء على

الذات وانقطاع الصلة مع جار السكن وجار العمل، بل الأسرة ذاتها فلكلٍ تلفازه، وقد نفسر هذا: في سرعة انتشار الجماعات الخائلية في الإنترنيت التي تجمع بين أصحاب الاهتمامات المشتركة وأهل التخصص الواحد وأصحاب الرأي وجماعات المنافع وجماعات السمر وتبادل المعلومات والنوادر ويمكن في هذه الحال لأي عضو في الجماعة الخائلية أن يبث حديثه لجميع أفراد أعضائها دون استثناء، أو يخص به فريقاً أو إنساناً بعينه دون آخر، ويمكن للإنسان أن يقدم نفسه تحت أسماء مستعارة، ويمكنه أن يتنكر في شخصيات متعددة، وما أكثر ما تقمصت النساء شخصيات الرجال، وتقمص الصغار شخصيات الكبار والمشاهير شخصيات النكرات. إنها بحق لعبة الذات الواحدة والهويات المتعددة كرنفالات عصر المعلومات وحفلاته التنكرية في ضيافة وسيط الإنترنيت للتواصل عن بعد. لقد تطورت أساليب الجماعات الخائلية بصورة كبيرة، من حيث أساليب الحوار وأماكن اللقاءات ومقارها: صالات الاجتماعات العامة، وغرف اللقاءات الخاصة، وأركان للقاءات الثنائية، ويمكن للشخص أن يزور تلك القاعات دون أن يعلن عن نفسه، (طاقية الإخفاء الرقمية) أو يتواجد في أكثر من مكان في وقت واحد، أما فيما يخص الحوار بين أعضاء الجماعات الخائلية فيتم عبر البريد الالكتروني، ويمكن استخدام كاميرات الفيديو المركبة فوق شاشات الكمبيوتر لتحقيق التهاتف المرئي، وقريباً تضيف تكنولوجيا الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد (الرؤوس المجسمة الناطقة)، فتنوب عن أصحابها أثناء لقائهم الخائلي للحوار عن بعد. وهذا يجعلها قريبة من الواقع، ويرى بعضهم أنَّ في ذلك ثورةً حقيقيةً في عملية التواصل الإنساني فهذه شفاهة عصر المعلومات، وقد تخلصت من قيود المكان وقيود الجنس (ذكرا أو أنثى) وكذلك اللون والفوارق الاجتماعية الأخرى، وهنا تنطلق يد الفرد في إقامة شبكة علاقاته على اتساع العالم، وعلى الطرف النقيض من هذه النظرة المتفائلة، هناك من يشك في جدوى هذا النوع من التواصل، وهناك فرق كبير بين التواصل الحي المليء بالانفعالات والإيماءات، والتواصل البارد من خلال التواصل الالكتروني، الذي

يحد من قدرة الفرد على نقل أفكاره وأحاسيسه، إضافة على كونه عرضة للخداع والتنكر وإمكان استغلاله لأغراض غير أخلاقية أو قانونية، والشعور بالانتماء إلى جماعة ما لا يتم بالتواصل فقط، بل من خلال الاهتمامات المشتركة، ومعايشة الظروف نفسها، ويطرح المتشائمون سؤالاً مفادُهُ: كيف لإنسان هذا العصر أن يتواصل مع غيره عن بعد في حين أنه غير قادر على التواصل مع جاره وشريكه وزميله بل أفراد أسرته، فلكل منهم تلفازه، وذلك الإبحار في الفضاء المعلوماتي ألا يؤدي إلى انعزال الفرد عن واقعه ومجتمعه وجماعته الفعلية، تحت وهم الانتماء إلى جماعة الإنترنيت الخائلية، وتصبح كأنها الواقع عينه، ويبقى السؤال هل التواصل خلال الإنترنيت نافذة لتحرير الفرد؟ أم هي درع تعفيه من التصدي للواقع أم هي مهرب لتفريغ شحنة إحباطاته من هذا الواقع؟!

- **الواقع الخائلي:** هو مفهوم آخر يختلف عن المفاهيم المثيرة التي أضافتها تكنولوجيا المعلومات إلى حياتنا، فهو بيئة اصطناعية لممارسة الخبرات كما في دنيا الواقع، ومثالنا عليه هو تدريب الطيارين على الأرض قبل أن يطيروا في الجو، ولتقريب المفهوم إلى الذهن لابد من مقارنة ما بين نظامين، نظام يعمل بأسلوب النظم الخبيرة ونظام يعمل بالواقع الخائلي، فنظام الخبرة يسجل تجارب الطيارينَ المخضرمينَ في الطيران وكيفية تصرفهم في المواقف الصعبة، وذلك بصياغة ما يتخذونه من قرارات وإجراءاتٍ في مجموعةٍ من القواعد على النمط التالي: ماذا تفعل إذا حصلَ هذا الطارئ أو ذاك؟ فتخزن هذه القواعد في قاعدة معرفية، تستثار بواسطة طيار متدرب عن طريق توجيه الأسئلة وتلقي الإجابات، وشتان الفرق بين قاعدة المعارف الخبيرة السابقة التسجيل والإحساسِ الفعلي بهذه الخبرات من خلال ممارستها عملياً باستخدام محاكي الطيران الذي يعمل بأسلوب الواقع الخائلي، وهو ببساطة نظام أرضي يحاكي كل ما يحدث في الجو، يضع الطيار المعني في بيئة مشابهة للبيئة التي سيواجهها أثناء طيرانه. إنَّ نافذة نموذج الطائرة في هذا المحاكي الخائلي ليست زجاجاً عادياً، بل شاشات عرض متصلة بكمبيوتر مخزن فيه جميع بيانات الطائرة ومحركها. وكذلك

مسارات الرحلات الجوية وطبيعة الأجواء، وبيانات المطارات وممرات الهبوط والإقلاع وطرق الاقتراب إليها، أثناء تشغيل محاكي الطيران يتوالى عرض الصور على شاشة النافذة بشكل دينامي يتغير وفقاً لوضع الطائرة وموضعها ومعدل هبوطها وصعودها وتسارعها أو تباطئها. والآن لنترك نافذة الطيران هذه، ونتحول إلى نظارةٍ مركبةٍ فوق قبعةٍ متصلةٍ بجهاز كمبيوتر، يرتديها الشخص المتفاعل مع النظام الخائلي، سواء كان محاكي للطيران أم لغيره. بالطريقة نفسها يتغير شكل ما يعرض على شاشة هذه النظارة مع تغير حركة الرأس وهو ما يناظر حركة الطائرة في مثال محاكي الطيران عندها يخيل لهذا الشخص وكأن العالم يتحرك من حوله مع حركة رأسه. كما يحدث في الواقع، تمثل هذه النظارة الفريدة بداية لصنع سلسلة من وحدات التعامل مع نظم الواقع الخائلي، التي تعمل بأسلوب المحاكاة الرقمية، ويضاف إليها القفاز الحساس ذا الأسلاك الذي يرتديه المتعامل مع النظام ليلمس أو يمسك به الكائنات الخائلية، والحلة الحساسة التي تنقل حركة جسده وأعضائه إلى النظام الذي ينقل بدوره إلى (الحلة الحساسة) ردود فعله لتضغط حلة البيانات على مواضع جسده وعضلاته، ويخطط البعض إلى استخدام هذه الحلة الحساسة وما يمكن أن تشارك فيه من أوهام، وما يطلقون عليه من الجنس الخائلي من أصحاب الأجساد الرقمية، ورغم تعدد أشكال نظم الواقع الخائلي وطرق التعامل معه، تبقى الفكرة المحورية لتكنولوجيا الخائلية هي مفهوم الشعور بالانغماس في تلك العوالم الصناعية المبنية من الأرقام والرموز، وتعليق إدراكنا هذا يولد الشعور بالإحساس بعدم واقعيتها. ويتولد الشعور بالانغماس بفعل ثلاثة عوامل متضافرة: - خداع الحواس - توليد الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد - رد فعل الجسد ديناميكياً مع حركة الرأس - أو حركة العين أحياناً - وحركة الجسد والأطراف - أو الأصابع. أما عن تعليق الإدراك: يكون بتوهم الخائلي كأنه حقيقي، وليس هو من الصعب فهي تجربة نفسية يمارسها الإنسان كثيراً، عند مشاهدته الأفلام أو المسرحيات أو قراءة الروايات، أو عند ما نتقبل النوادر والمبالغات، وهكذا أسقطت نظم الواقع الخائلي الحاجز الرابع. لينفذ صاحبها إلى ما وراء

شاشة الكمبيوتر، فيجوس عالم الوهم متحرراً من قيود الجسد، وقيود قوانين الطبيعة، وقوانين المجتمع، فلم يعد أمامه عائق من أن يخترق الجدران ويهوي من أعلى الشواهق ليرتطم بالأرض، دون أن يصاب بخدش، وهو يتجول في المفاعل النووي دون أن تصهره حرارته، أو يقتله شعاعه القاتل، وكما يُمَكِّنُ الواقع الخائلي الإنسان من الإبحار في المكان، يُمَكِّنُهُ من الإبحار في الزمن الغابر واقتحام أزمنة المستقبل القادمة أو الخلط بينها مما يسمى بالخلط الزمني. فتكنولوجيا الواقع الخائلي ليست تكنولوجيا أخرى، وإنما نقلة نوعية من مرحلة المعلومات إلى مرحلة أخرى أكثر تطوراً، أساسها نظم المحاكاة الرقمية، إنها المعلومات وهي تعمل، وقد تجسدت بصورة كائنات خائلية تدفع وتلمس ويضغط عليها، وقوى فعلية تجذب وتضغط، أصوات تعلو وتنخفض وأضواء تتوهج وتختفي. وحتى عندما انحازت الشفاهة على السمع، والطباعة إلى النظر، فان الخائلية تستهدف هذا المزيج من السمع والبصر واللمس وهذه المحاكاة تتم من خلال نماذج رياضية أو من خلال تمثيل رمزي آخر، وإنَّ دقة محاكاة النظم الخائلية من دقة نموذجها الرياضي أو التمثيلي دون طبيعة الواقع الذي تحاكيه، ورغم هذا الفارق تبقى نظم المحاكاة مؤثرةً وفاعلةً ومهمةً، تماماً كما الطائرة مؤثرة ومثيرة، رغم أنها لا تحاكي الطيور في طيرانها، فهي ثابتة الأجنحة، بينما الطيور ترفرف بجناحيها، وكما كان الكمبيوتر مؤثراً ومثيراً، لكنه يعمل بصورة مختلفة جداً عن تلك التي يعمل بها المخ البشري. إنها تكنولوجيا المعلومات الانقلابية، ستغير كل شيء، كيف نلعب ونفكر. ونعمل ونتواصل. وينذرنا الآخر من أن هذه الخائلية ستصبح كعقاقير الهلوسة نوعاً من الهروب من الواقع، ليقع المستخدم في فخ هلوساته، فخ ملاذه الرقمي، فتنسيه أوهامه حقائق الواقع ومشكلاته وتحدياته، وهناك من يبدي قلقه من استعمال العنف في مغامرات العوالم الخائلية ومعاركها الإلكترونية، دون وازع ولا رابط. وهناك من يتوقع أن عوالم الخائلية ستعاني مما عانى منه الواقع من استعمارٍ وتهميشٍ واستبعادٍ وصراعٍ طبقي وتفرقةٍ عنصريةٍ وطبقية واستغلال. ونحن لا نستطيع أن نمتلك القوة – تكنولوجية كانت أم غير تكنولوجية – دون القبول بمخاطرها.

- **تطبيقات الواقع الخائلي:**

أ - **محاكاة الواقع القائم:** مثالنا على ذلك: التدريب على المركبات، أو التجارب في المعامل الخائلية، فيمكن للطالب أن يتعرف على خصائص دقائق الذرات والجزيئات والجينات، والتحليق مابين المجرات، والغوص في أعماق المحيطات، ويمكنه أن يقلص من حجمه ليسيل مع الدماء في شرايين الجسد، وعلاوة على ذلك تستطيع تكنولوجيا الواقع الخائلي، إقامة عوالم ميكروية أو حضانات معرفة، يمارس فيها الطالب حرية التعبير والتعليم بالاكتشاف من خلال التجربة والخطأ.

ب - **خلق عوالم من صنع الخيال:** لتحاكي، أو تعيد ما ليس له نظير في عالم الواقع، وهي قد تحاكي التطور البيولوجي عبر العصور الجيولوجية، أو تعيد بنا القصور القديمة أو الطقوس الجنائزية في المعابد القديمة، ويمكننا أن نفارق عالم الماديات لنقيمَ عوالم رمزية من أبجديات الأشكال والأرقام والمفاهيم وما شابه. لتتجسد تلك المجردات أمام أعيننا في حيوية ناشطة تكشف لنا عن أسرارها ومغزاها وعلاقتها، وقد نستخدم هذا الأسلوب الخائلي الرمزي لتجسيد تقلبات البورصة وبياناتها ومعاملاتها السريعة التغير.

ج - **تعزيز حواسنا وقدراتنا الجسدية:** يمكن أن يمدنا الواقع الخائلي بعيون نرى بها الأشعة تحت الحمراء، أو الأشعة فوق البنفسجية، وبآذان تلتقط ما هو خارج نطاق الذبذبات المسموعة، وبأطراف نطال بها ما لا يطال، وبأصابع طويلة دقيقة نحيلة نمسك بها الدقيق والمائع، بل هناك تطبيقات عدة لتكنولوجيا الواقع الخائلي في مجال الفن، وتوفر هذه التكنولوجيا بيئةً فنيةً طيعةً تتسم بمرونة فائقة بالنسبة للفراغ أو الألوان أو الخطوط ومواضع الإضاءة والظلال. علاوة على الفن الخائلي الذي يتيح للمتلقي أن يرى العالم بعيون مختلفة ويضع نفسه موضع الفنان. أما عن تطبيقات الواقع الخائلي في الترفيه والفيديو فحدث ولا حرج، فهي أكثر المجالات جاذبية للاستخدام والاستثمار، وأجيال الصغار التي شبت في

صحبة الأجيال الأولى من ألعاب الفيديو الالكترونية، تتلهف على شيء أكثر إثارة وأقرب محاكاة للواقع، وليس هناك أفضل من العوالم الخائلية. ليمارسوا فيها مغامراتهم في غزو الفضاء وسباق السيارات ومعارك الطائرات المقاتلة، وحكايات ألف ليلة وليلة والبساط السحري، أو لينطلقوا في دنيا الخيال العلمي، يلهون بكائناته الخرافية.

- الواقع الخائلي (مغزاه الثقافي):

ترى ما هو المغزى الثقافي لتكنولوجيا الواقع الخائلي؟

تعميق معرفتنا بحواسنا - تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا - تعميق معرفتنا بعالمنا - المساهمة في معرفة المخ البشري - تنمية القدرات الذهنية - سرعة اكتساب الخبرات - كسر احتكار الصفوة العلمية لظاهرة التعقيد. وسنتناول كلاً من هذه البنود كالتالي:

أ - **تعميق معرفتنا بحواسنا:** نحن نعرف الكثير من الدفين والدقيق والبعيد والسحيق والهيولى، فنحن لا ندرك أكثر الأمور التصاقاً وأهمية لنا. فنحن لا نعرف كيف تعمل حواسنا على وجه الدقة؟ وكيف تعمل لغاتنا؟ ولا ندرك طبيعة العلاقة بيننا وبين أجسادنا. ناهيك عما نجهله من أسرار مخنا البشري، وعلاقته بتلك الأجساد والحواس واللغات، فبالنسبة للحواس مازالت معرفتنا قاصرة عن فهم كيف تدرك العين الأشكال في تفاصيلها وكليتها؟ وكيف تتذوق الأذن الموسيقى في أنغامها وإيقاعها ومعماريتها؟ وكيف تشعر أصابعنا بتلك الفروق الدقيقة بين ملمس الأشياء ودرجة استوائها؟ وفوق كل هذا كيف تتناغم هذه الحواس؟ وكيف تعمل متعاونة مع المخ البشري كي ندرك من خلالها العالم من حولنا ونتعامل معه؟ إنّ تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن النظر إليها بصفتها معمل تجريب لإعادة اكتشاف حواسنا في امتزاجها وتعاضدها. وهذه التكنولوجيا تتعامل مع الحواس بصورة مباشرة، وتوفر في الوقت ذاته وسائل آلية بمحاكاة هذه الحواس وتعزيزها، وهذا يتيح الكشف عن مزيد من الأسرار.

ب - تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا: إن الخائلية تعمق معرفتنا باللاوعي نتيجة ممارسة الحياة دونما خوف أو خجل، نتيجة ممارستنا الحياة في عوالم الواقع الخائلي فتبدو خفايا اللاوعي على السطح، وقد تحررت من قيود النفس والجسد وضغوطات المجتمع. أما علاقتنا بأجسادنا فقد حان الوقت لإعادة اكتشافنا لها، وأخذنا أجسادنا كقضية مُسَلَّم بها لا نتذكر وجودها إلا إذا أصابتنا العلل، أو فُرِضَتْ علينا فرضاً، ونحن نمارس رياضة لياقتنا البدنية. إن الواقع الخائلي سيقيم علاقة مباشرة بين الكمبيوتر والجسم البشري، لنرصد نبض عروقه وفعل عضلاته وحركة أطرافه، وكيف يتأثر بالعوامل الخارجية، وردود الفعل الإرادية وغير الإرادية، وإنْ الواقع الخائلي سيدعوننا لاكتشاف ذاتنا عبر العلاقات التي تربط بيننا وما هو خارجنا من كائنات خائلية وواقعية، وهذه العلاقات ستبرز وتتكشف من خلال وسائل التفاعل العديدة، التي توفرها تكنولوجيا الخائلية.

ج - تعميق معرفتنا بعالمنا: بفضل وجود المحاكاة وأساليبها، سنتمكن من خلال الواقع الخائلي، من تقديم العالم بطريقة يسهل علينا فهمها وتمثلها، سيضخم الصغير الذي لا تستطيع عيوننا المجردة رؤيته بدقة ومتابعته، ويقلص لنا الكبير الذي يتعذر علينا احتواؤه، ويطمس لنا التفاصيل ليسهل علينا استخلاص الجوهر، إن كانت شرطاً لاستيعابها، ويظهر تفاصيل الأجزاء إن كانت شرطاً لاستيعابنا طبيعة الكل الشامل، وأساليب المحاكاة تساعدنا على التعامل مع القضايا بمرونة مع ثنائية الوجود (الزمان والمكان) مع متناهيات الكبر من الفضاءات الكونية إلى الأزمنة الجيولوجية، ومتناهيات الصغر من الجسيمات المادية والبيولوجية والزمني الصغير جداً، من وحدات النانو ثانية والفمتو ثانية، فيكون الواقع الخائلي وعوالمه الميكروية بمنزلة (ماكيت) نقيم فيه نماذج المستقبل، ونختبر فيه سيناريوهات توقعاتنا عما يحمله لنا هذا المستقبل. إن تكنولوجيا العالم الخائلي تجعلنا نرى العالم بصورة أفضل ومختلفة، وتخلصنا من أسر النظرة القديمة نظرة عصر

النهضة القائمة على الرؤية من زاوية محددة وثابتة، وهذا النمط ثبت بأذهاننا وأصبحنا لا نرى الأشياء إلا من وجهة نظر واحدة، وعلى العكس من ذلك سيسمح لنا الواقع الخائلي أن نرى الأشياء من وجهات نظر متعددة ومتغيرة في الوقت ذاته، وقال لنا (آينشتاين) أن خبراتنا نسبية، أي ما نراه يتوقف على موضع المكان الذي ننظر منه وكذلك على موضعنا على محور الزمن. وقد حاول (بيكاسو) متأثراً بنسبية آينشتاين أن يرسم أشكالاً من مواضع نظر مختلفة: من الأمام ومن الجانب ومن الخلف، ومن الداخل أحياناً، ولكن كانت تحده في جهده هذا شبه المستحيل إستاتية لوحاته وفيزيولوجية عيونه وقدرات يده ومدى تخيله، وجميع هذه القيود من الممكن اليوم تجاوزها، لتتوفر لنا رؤية الأشياء من موضع نظر متغير، بصورة ديناميكية لا متناهية. ويبقى السؤال رغم كل هذا: هل يمكن أن يغير هذا بالفعل من رؤيتنا للعالم ومن نظرتنا للآخرين؟

د - **معرفة المخ البشري:** إن تكنولوجيا الواقع الخائلي ستساعدنا على معرفة كيف تعمل حواسنا، وعلى رأسها حاسة البصر، وهي في هذه الحالة تساعدنا في فهم المخ البشري والذي تشغل وظائف البصر شطراً كبيراً من نشاطه الكلي، ويتعاون الذكاء الاصطناعي مع الواقع الخائلي الذي يعمل من جانبه لأجل الكشف عن وظائف المخ اللغوية، والتي تشغل هي الأخرى قدراً كبيراً من نشاطه، فيفوق بذلك حاسة الإبصار، وبذلك نكون قد قطعنا شوطاً لا بأس به في فك طلاسم المخ البشري.

هـ - **تنمية المهارات والقدرات الذهنية:** إن الإنسان يفضل أن يتعامل مع المحسوس كرؤية وتجسيد، ومهما قالوا عن الرقمنة ومرونتها ومزاياها وتقطعها، تبقى العين ترى الأشياء متدرجة منسابة مستمرة من دون تقطع فجائي أو تغيرات، وتَعَقُدُ العالم هذا فرض علينا أن نجرده على شكل أرقام ورموز وعلاقات، ونبقى في حاجة إلى أن نتمثل مضمون هذه الأرقام الناشفة، نراها أمامنا تنمو وتنزوي، تتراكم وتتلاشى، ونحن نريد أن ندرك معنى

الرموز ومغزاها، نراها مرةً مقرونةً بمعناها ودلالتها داخل سياقها الفعلي، ونقتفي أثر العلاقات في نشأتها مرة أخرى وصيرورتها، وهي ترتفع وتنخفض كالموج، وتتفرع كسواقي المياه مرة أخرى وكم مرة قال آينشتاين أنه يرى أفكاره حول الطبيعة متجسدة أمامه قبل أن يجرد هذه الأفكار في صورة معادلات رياضية، وحذا حذوه عالم البيولوجيا (جيمس واطسون) عندما قام مع زميله (فرانسيس كريك) ببناء نموذجٍ من الرقائق المعدنية والأسلاك لحَلَزُوْنهما الثنائي الشهير لجزيء (ألدنا)، قبل تجريده هذه الظاهرة البيولوجية في رمزية لغة الوراثة وأبجديتها الرياعية. نعم لقد أبدع العقل البشري وهو يحول المحسوس إلى مجرد، وحان الوقت لهذا العقل أن يمارس الإبداع المعكوس، والمقصود تحويل المجرد إلى محسوس، يعني كيف تتحول الأرقام والرموز إلى شواهد قائمة، والعلاقات عبارة عن جسور عابرة، والبنى المعرفية إلى بنى حقيقية، نتجول في سراديبها، نهبط ونصعد سلميات تراتيباتها. وقد حولت مطبعة (جوتبرج) الأفكار إلى نقوش غائرة في مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب من الورق ماديته بعد أن حولته إلى وثائق الكترونية. وسؤالنا اليوم هو: هل تكنولوجيا العالم الخائلي يمكن أن ترجعنا من اللامادي إلى المادي مرة أخرى؟ وهل ما نسمعه عن تكنولوجيا الطباعة (الطباعة ثلاثية الأبعاد) التي تحول الصور والأشكال إلى مقابلها المجسم، هي بداية رحلة العودة إلى عالم الماديات والمحسوسات؟ وهذا الترحال بين المحسوس والمجرد سيكون بمنزلة (تدليك ذهني) يحفظ للعقول حيويتها، ويحميها ضد داء التصلب والجمود، وربما تضيق معه الفجوة التي تفصل بين النظرية والتطبيق، وبين الخبرة والعلم، وبين الإبداع والتلقي. إن عالم الواقع الخائلي يمكن أن يكون مجالاً خَصْباً لفهم إشكالية المعنى اللغوي، التي حيرت الفلاسفة والعلماء عبر القرون. وقال لنا علماء اللغة وفلاسفتها أن المعنى ينشأ ويتحور ضيقاً واتساعاً، حرفياً ومجازياً، مرتبطاً بممارستنا الحياتية، واكتسابنا الخبرات العملية والذهنية، وأمكننا فهم الظاهرة الطبيعية المعقدة من خلال

تبسيطها والتدرج من البسيط إلى المعقد، وعلى نفس الاتجاه نستطيع فهم ظاهرة المعنى تعليمية متدرجة، من خلال نماذج (أنطولوجيات) مبسطة نقيمها في دنيا الواقع الخائلي، تتدرج فيها العلاقات والظواهر من الأبسط إلى الأعقد، بصورة مدروسة ومخططة من خلال هذا التدرج الأنطولوجي، ينمو فهمنا بالتدرج لمعرفة كيفية انصهار المعاني في صلب أفكارنا وخبرات حياتنا، ومفهوم الأنطولوجيات المبسطة هذا يستخدم بالفعل، في بحوث المنطق الحديث الخاصة بالمعنى اللغوي.

و - **اكتساب الخبرات**: إن إنسان هذا العصر الذي تتهالك فيه الخبرات بسرعة تفوق اكتسابها، ليس لديه رفاهية الوقت لاكتساب هذه الخبرات عن طريق الأسلوب النمطي لثلاثية: اكتساب الخلفية النظرية، ثم التدريب العملي، فإتقان المهارات من خلال التكرار والممارسة في الواقع العملي. علاوة على ذلك إنَّ تعقد الخبرات واتساع نطاق فاعليتها، يجعل من ممارستها على أرض الواقع لا يخلو من المجازفة ناهيك عن الكلفة. إن الواقع الخائلي يوفر لنا مجالاً عملياً لسرعة اكتساب الخبرات، وتضييق الفجوة بين المعرفة وتطبيقها، وبين حقائق الواقع والوعي بها. مثلاً: سيسمح التدريب الخائلي أن يكتسب الجراح خبرة إجراء الجراحات الدقيقة، والراقص خبرة القيام بالحركات الصعبة، والمدير خبرة اتخاذ القرار السريع والحَرِج، في بيئة تجريبية مرنة، يقومون فيها بتدريباتهم حتى يصلوا إلى درجة المهارة الواجبة. وقد دانت لسيطرة الآلة ثلاثية: البيانات والمعلومات والمعارف، وآن الأوان للخبرات التي تقوم على هذه الثلاثية، أن تخضع هي الأخرى على لسيطرتها. وما أن ننجح في ذلك حتى يصبح باستطاعة الإنسان تخزين خبرات البشر، وهي تعمل بنوك للخبرات الحية لا مجرد قائمة من الوصايا، يتركها المجربون لغير المجربين.

ز - **كسر احتكار الصفوة العلمية لظاهرة التعقد**: أصبحت المعرفة العلمية معقدة للغاية، لا يقدر على الإلمام بها إلا صفوة من المتخصصين، وفي

ذات الوقت أصبحت الثقافة العلمية من المطالب الأساسية للحياة في عصر المعلومات واقتصاد المعرفة. إن تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن أن تساهم في (دمقرطة التعقد) المعرفي بأن تجعله في متناول عامة الناس عبر المحاكاة، إنّ هذه الأساليب ستمكن الإنسان العادي أن ينفذ ببصره وبصيرته داخل نواة الذرة، ويشاهد العمليات الكيميائية التي تحدث داخل الخلايا، ويتتبع مسار الإشارات الكهربائية التي تسري داخل الجهاز العصبي، وأن ينظر ببصره إلى أعلى ليراقب الأجرام في أفلاكها، ويلاحظ كيف تتغير البيئة من حوله. وكيف تتولد الأعاصير، وتتآكل الصخور، وتنشأ الزلازل، إن تكنولوجيا الواقع الخائلي هي لغةُ تواصلٍ جديدةٍ، لغةُ أكثرُ قدرةٍ من كل اللغات على إيصال الحقائق وزرع المفاهيم الصحيحة، وإزالة المفاهيم الخاطئة، وهذه وسيلتنا للتخلص من السطحية وممارسة متعة التعامل المباشر مع التعقد الذي هو حق للجميع. ولا بد هنا من سؤالين هما: هل سيخفف سكنى الإنسان لعوالم الواقع الخائلي من قلقه القديم السرمدي الذي يفصل بين إرادته ورغباته وحقيقة واقعه؟ هل لنا أن ننتبه لهؤلاء الذين يتحدثون عن الخلود الرقمي وإعادة البعث الخائلي. بمعنى أن تفنى أجسادنا في عالم الواقع، ونظل مع ذلك أحياء خالدين (رقمياً)، بعد أن نختزل إلى قواعد بيانات ومعارف، يسجل فيها كل تفاصيل أجسادنا وعقولنا وسلوكنا وأحداث حياتنا.

- الواقع الخائلي العربي:

إن الحديث عن تكنولوجيا الواقع الخائلي عظيم لما تحقق منها على أرض الواقع، ولا شك أنها تتقدم بخطى سريعة، وتتراجع كلفة تطويرها واستخدامها بمعدلات متزايدة، وفي الفقرات السابقة حاولنا أن نثبت أهمية هذه التكنولوجيا الثقافية: تعليماً وفكراً وإعلاماً وترفيهاً وتراثاً. ويتوجب علينا أن نلحق بها من البداية، فكم هو مؤلم وموجع أن يسمع المرء أن حرب الخليج كانت أول تجربة عملية شهدها الكون لتكنولوجيا الواقع الخائلي

(نبيل علي ١٩٨٨) وهذه إسرائيل تعمل اليوم على بناء نماذج خائلية لمدينة القدس العربية وأن جامعة (كارنيجي ميلون) و(متحف اللوفر) يجريان تجاربهما الخائلية على كنوز مصر الفرعونية. وما أخطر أن يطول انتظارنا، لنجد أنفسنا في النهاية فئران تجارب لمغامراتهم الخائلية أو سوقاً مستهدفاً لصناعة الجنس الخائلي، بعد أغرقوا أسواقنا بعري أفلامهم المحرمة، وأحاديث الغواية المدفوعة عبر الخدمات الهاتفية. ومدارس الوطن العربي بحاجة إلى معامل خائلية لتعويض النقص في المعامل الحقيقية، أو القيام بما يتعذر القيام به في تلك المعامل، ومتاحفنا بحاجة إلى بيئة خائلية لعرض مقتنياتها في سياق تاريخي ومعرفي أوسع، كي لا تبقى تلك المقتنيات سجينة الصناديق والجدران وكي يتحول التاريخ إلى مادة حية تساهم في صنع الحاضر وعقل حاضريه، ونحن بحاجة أيضاً إلى اكتساب القدرة لبناء مدننا القديمة، وجوامعنا ومعابدنا وقصور خلفاءنا وملوكنا، وإلا أعاد بناءها غيرنا في إطار مخططاتهم لصناعة سياحة خائلية موازية لسياحة الواقع. وفي النهاية نحن بحاجة إلى تكنولوجيا الواقع الخائلي، لتدريب الكوادر المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات وغيرها من فروع التكنولوجيا المتطورة.

الفصل الثاني

(لو عرفت أسباب جهالتي لصرت حكيماً)

جبران خليل جبران

منظومة ثقافة المعلومات
تحت عدسة ثقافتنا العربية

- دور ثقافة المعلومات تاريخيا في الغرب:

إننا نجد المعلومات في كل شيء، في الخلية والمجرة والذرة، ونجدها في محيط الأرض وفي الكائن البشري وفي الخرائط الوراثية وفي بنية المجتمع البشري، سواء نظرنا إليه ككائن بيولوجي أعضاؤه: مؤسسات الحكم والاقتصاد والدين والتربية والإعلام وأجهزة الرقابة والأمن والقانون، أو نظرنا إليه كنسق رمزي: معرفي ثقافي تسري داخل بنيته كأفراد ومؤسسات وجماعات. ولكن لو نظرنا إليه تاريخياً لوجدنا الحضارة الإنسانية كنظام للمعلومات فالإنسان يحيا ويموت، ولن يترك وراءه شيئاً سوى المعلومات، والكلمة هي التي تقاوم الزمن وعندما تموت الحضارة تبقى نظم معلوماتها ومعارفها، فالحضارة الرومانية تأسست أصلاً على فكر الإغريق وهو الفكر الذي لازال يعيش بيننا حتى اليوم، وتكنولوجيا الرومان هي بالتالي وريثة الحضارة اليونانية، ومنظومة ثقافة المعلومات تتكلم بلسانها عن مراحل تطورها داخل المنظومة الاجتماعية، ولنبدأ بالكتابة الهيروغليفية: وتعني النقوش المقدسة بلغة المصريين القدامى، وقد سيطر عليها كهنة مصر الفرعونية. وأصبحت وسيلتهم للسيطرة على الناس في دينهم ودنياهم، وفي توزيع الأراضي أو في معرفة أسرار التحنيط ودفن الموتى وطقوس المعابد، وهي كتابة سادت قروناً معتمدةً على رسم الصور حتى عجزت عن الوفاء بأمور التجارة، في العصور القديمة، عندها خرجت للوجود الأبجدية

الفينيقية ملبيةً تلك المطالب، وعبرت هذه الأبجدية عن المفاهيم المجردة للربح والخسارة، كما سجلت المعلومات عن الملاحة، ونستطيع القول أنه كان القصد من الفينيقية حفظ المعرفة عن طريق الكتبة والكهنة وهذا أدى بدورها إلى صعود الفكر التجاري على حساب سلطة الدين. وبقيت الأبجدية الفينيقية سائدة حتى ظهور الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، على يد (يوهانس جوتبرج)، ولكنه كان يجهل ما سيفعله صاحب المذهب البروتستانتي بآلة طباعته تلك، والتي وصفها بنفسه (أنها أعظم فضيلة للرب على عباده)، ولولا طباعة الإنجيل وتوزيعه مترجماً باللغات القومية ما تحررت أوروبا من هيمنة رجال الدين، القائمة على احتكار المعرفة الدينية، وكان فضل الطباعة قد غمر البشرية كلها، فبواسطتها انتشرت المعرفة غرباً وشرقاً، ولن تقف بعدها عند حدود حفظ المعرفة، فتهاوت على أثرها سلطة رجال الدين والإقطاع، وزالت سلطة المتحدث الارتجالي على مستمعيه مباشرة لما قبل عصر الطباعة، وتهاوت نظم العبودية كلعبة الدمونو، وتحقق للإنسان خلوته مع كتابه، فنمت لديه النزعة النقدية العقلانية، وتسارع محو الأمية، وتطور التعليم، وتوالت الاكتشافات العلمية، وأنتجت الطباعة أول نظام تكنولوجي لإنتاج الجملة وهذا ماتبناه أهل الصناعة فولدت بذلك الحداثة: - معتمدة على الطباعة - والإنتاج الضخم فأشاعت الطباعة: المعرفة وتكنولوجيا الصناعة التي ولدتها المعرفة، وقام المخطط على ثلاثة محركات: (الديمقراطية. والعلمانية. وحرية الفكر) وبعدها ظهر الكمبيوتر في منتصف القرن العشرين، وأظهر جدارته لمعالجة المعلومات ونشر المعرفة وتوظيفها، وبعد أن نجحت المعرفة عن طريق البرمجة في جعل المعرفة حيةً فعالةً، لا معرفةٌ سجينةٌ هزيلةً، راحت تعمل: في تصميم المباني والمحركات والرسوم وضبط الحسابات ومراقبة الميزانيات ودعم القرارات، ولا تعلم الصغار والكبار، وتوجه الصواريخ والأقمار الصناعية، وتضبط المفاعلات النووية. وانصهرت المعرفة في الكيان الاجتماعي بفضل نظم المعلومات، وعاد للمجتمع توازنه وإنسانيته ووفاقه مع نفسه وبيئته، وأتاحت للمجتمع وعصر المعلومات

حداثة جديدة قوامها : المشاركة الايجابية بدل الديمقراطية الشكلية والعلمية محل العلمانية بمعناها الإيديولوجي وحرية الثقافة الشاملة بدل حرية الفرد وصولاً إلى حرية المجتمع ككل. معنى ذلك: أن يتمسك المجتمع بثقافته، وأنْ يحافظ على هويته، واختيار نمط حياته وتنميته التي يريد وحماية بيئته، عندها : تتقلص سيطرة الأقوياء على الدول النامية - وهيمنة المراكز على الأطراف - وتنتهي سلطة النظم والمؤسسات - وهيمنة الإنسان على الطبيعة التي لوثت المياه والهواء والأخلاق ويتحرر المتلقي من قبضة الفنان ويتحرر المشاهد من سلطة الإعلام وتنتهي سلطة المؤلف على قارئه. وأصبح مهندسو الذكاء الاصطناعي الذين نجحوا في إكساب آلة المعلومات القدرة على حل المسائل وبرهنة النظريات يسعون اليوم على إكساب هذه الآلة القدرة على التعلم ذاتياً (توليد المعرفة الجديدة) وقد دخلت تكنولوجيا المعلومات المجال الخائلي والتي تسعى بدورها على اكتساب الخبرات وتخزينها بنفسها، أي (تعليب المعرفة) التي سبق توظيفها على شكل خبرات عملية تعمل رهن إشارة الخبراء لمواجهة المواقف الصعبة الطارئة، مثل: حل المشاكل، واتخاذ القرارات، وهنا تنتقل المعلومات من السابقين إلى اللاحقين. ولا تفوق قدرة الإنسان لحل المشاكل إلا خلقها .

- نظرة طائر حزين سريعة على تاريخنا الثقافي:

لابد من تفعيل المعرفة داخل منظومة المجتمع، وهي حلقة مكونة من ثلاثة عناصر: - اقتناء المعرفة - استيعابها - توظيفها، وفي الحقيقة هذه الحلقة المعرفية تكاد تكون مفقودة من مجتمعنا، وبخاصة توظيف المعرفة في حل مشكلات المجتمع وتنمية الفرد ومواهبه، وفي معظم الأحيان ينتهي الأمر عند اقتناء المعرفة دون استيعابها في إطار الظروف الاجتماعية وهذا لا يعود إلى النزعة اللا علمية فقط ومعاداة العلم والتشبه الزائف به، بل يعود إلى ضعف امتصاصنا لرحيق المعرفة، وذلك لأسباب عدة منها : تربوية - تنظيمية - سياسية - اقتصادية، ولا نستطيع السكوت عن: الغوغائية الدينية - والإرهاب الفكري المتطرف، وكلنا أمل في تكنولوجيا المعلومات وما تتيحه لنا

من تفتيح مسامنا المعرفية لاقتناء المعرفة واستيعابها وتوظيفها ولا عذر لنا بعد اليوم إن تقاعسنا في استغلال ما تقدمه لنا هذه المعطيات الجديدة، ونتيجة ذلك سيئة للغاية، ستأتي المعلومات وحل مشكلاتنا من مصادرها التقليدية، ويترتب عليها ترسيخ السلطة الكامنة ورائها بالإضافة على كبح جموحنا عن توليد معرفة جديدة لدينا، وعندها سنبقى نشكو من (أنيميا معرفية) مهما تعددت نظم الكمبيوتر لدينا وانتشرت مواقعنا على الإنترنيت والمعلومات بطبيعتها حرةٌ طليقةٌ متغيرةٌ دائماً، تموت لتتجدد، وقد ثبت بالدليل القاطع أن: حراس الدين، وبيروقراط الحكم، وتكنوقراط التربية هم الأشد حرصاً على تقييد حرية المعلومات وتداولها، حتى المعلومات لن ترحمنا أو تغفر لنا حرمانها من حريتها وحقها في الانطلاق. سندفع الثمن غالياً نتيجة المعاداة بين مجتمعنا وتكنولوجيا المعلومات. وعلينا أن ندرس العوامل الاجتماعية المؤثرة في التنمية المعلوماتية من جانب، والآثار الاجتماعية المترتبة على هذه التنمية من جانب آخر، (وعافية المجتمع) لا تتوقف على تنمية موارد المعلوماتية بل تتوقف على قدرة الامتزاج مع عناصر قوة المجتمع، علماً أن للمعلومات قدرةً هائلةً لدفع عجلة التقدم نحو الأمام.

- كيف يرى الغرب ثقافة الإنترنيت؟:

لقد انتهى الحديث عن جوانبها الفنية، ودخلت الجانب الاجتماعي والثقافي، وسرعان ما أسفرت عن وجهها بصفتها نادٍ للثقافة في المقام الأول، وهي بنية تحتية لصناعة الثقافة تتعامل مع جميع عناصر الثقافة من: تراث قومي أو إبداع شعري أو منتجة للسلع والخدمات والأصول الرمزية. وتساهم في تشكيل الوعي الاجتماعي، وتكامل منظومة الثقافة مع منظومة التربية والإعلام والاقتصاد، وهي تمثل حاضنة وبيئة حوارية لكل الثقافات، وكان اهتمامنا بالأمس فقط بالبيئة لحماية التنوع البيولوجي من الانقراض، بسبب التطبيق الأعمى لتكنولوجيا الصناعة. أما اليوم أصبح همنا كيف نحمي التنوع الثقافي من الانقراض هو الآخر، بسبب إساءة استخدام تكنولوجيا المعلومات وهيمنة سياسة القطب الواحد (الولايات الأمريكية) وهيمنة اللغة

الإنكليزية، وأصبحت هذه القضية المحورية شاغل الجميع، بعد أن اتضح ما للإنترنيت من إمكانات تؤهلها لتصبح أمضى أسلحة الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية والأمنية أيضاً. وقد انعقد بهذا الخصوص مؤتمر (استوكهلم ١٩٩٨) وخلص المؤتمر إلى ضرورة النظر إلى تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي تنموي وضرورة تكاتف الشعوب والأمم من أجل التصدي لظاهرة التجنيس الثقافي الجاري اليوم على قدم وساق.

- كيف يرى العرب ثقافة الإنترنيت؟:

على الجبهات جميعها تمثل لنا الإنترنيت تحدياً ثقافياً صعباً سواء في مضمونها أم في تراثنا الثقافي وقيمته العالمية وفاعلية ثقافتنا الرسمية وغير الرسمية، وكذلك حوارنا مع الغير أو مع أنفسنا ونحن معرضون لثقافة داروينية أصبحنا من خلالها معرضين لفجوة لغوية خطيرة، تفصل لغتنا عن لغة العالم المتقدم تنظيراً وتعليماً واستخداماً وتوثيقاً، كما نحن مهددون بضمور في إنتاجنا الإعلامي والسينمائي وإبداعنا الفني، ومهددون بسرقة تراثنا من فنون شعبية وأغان ومقامات موسيقية وأزياء، وبنفس الوقت أمامنا فرصة لتثبيت معالم ثقافتنا بصفتها ثقافة إنسانية عالمية أصيلة وتعويض تخلفنا في كثير من المجالات، والعمل الثقافي يتطلب منا إعادة النظر في سياساتنا بصورة شاملة تجاوباً مع ثقافة الإنترنيت في إطار إستراتيجية ثقافية شاملة وفقاً لتوصيات مؤتمر اليونسكو في (استوكهلم) وما أعدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعندما تتصهر ثقافة المعلومات في مجتمعها تصبح ثقافةً منفتحةً للمستقبل متفاعلةً وفاعلةً، ثقافة غير منغلقة على ذاتها، تشخص الماضي بأشعتها السينية، فتكشف عن مرض السل الذي أصاب نسيجها ومنع تنفسنا من خلالها، فينتزع المواطن حقه وأن يرى بعينيه ويسمع بأذنيه من منظور مختلف، يتحرر من سلطة التلفاز ومن زيفه وألاعيبه وتضليله الإعلامي، وثقافة المعلومات اليوم بقبضة الأقوى، يفرض بها عولمته وأممية قراره وكونيته. وعند تفعيل ثقافة المعلومات لابد لنا من الخطوات التالية: - نديرها، نملك حرية النفاذ إلى مصادرها، وانسيابها الحر، وذلك

لخلق ثقافة وعي جديد. كتب (مارشال سالي نز) التالي في الثقافة: إن نمو الوعي الذاتي الثقافي عند ضحايا النظام الاستعماري السابق، هو أحد أكثر الظواهر إدهاشاً في تاريخ البشرية في القرن العشرين). وقد عبر مسئول إيراني سياسي رفيع المستوى، قائلاً: (إننا نعتقد أن التهديد الرئيس لمجتمعنا في الوقت الراهن هو تهديد ثقافي). وفي عام ١٩٩٩ أعلن صامويل هنتغتون: (يمكننا أن نتوقع صدام حضارات هائلاً، وكل من هذه الحضارات تمثل هوية ثقافية بدائية. من الواضح أن الاختلافات الرئيسة في التطور الاقتصادي والسياسي بين الحضارات تكمن جذورها في ثقافتهم المختلفة، وأن الثقافة والهويات الثقافية تشكل نماذج الاندماج والاضمحلال والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. وفي هذا العالم الجديد تعد السياسات المحلية سياسات عرقية، أما السياسات العالمية فهي سياسات الحضارات والتنافس بين القوى العظمى حل محله صراع الحضارات)

أ - **تعريف الثقافة:** لقد أصر (إليوت) على التعامل مع الثقافات الأخرى وفق شروطها الخاصة بها فقال: (يمكننا أن نتعلم احترام كل ثقافة أخرى ككل متكامل، مهما بدت أدنى من ثقافتنا، أو مهما كنا محقين في أن نستهجن بعض سماتها: إن الهدم المتعمد لثقافة أخرى ككل، هو خطأ لا يمكن إصلاحه، وعلى الدرجة نفسها من شرور معاملة البشر كحيوانات والتنوع في الحضارات هو أمر يستحق التقدير. لذا فإن الحديث عن ثقافة عالمية عامة أمر رهيب فثقافة عالمية واحدة موحدة هذه ليست ثقافة على الإطلاق. ستنتج عنها إنسانية منزوعة الإنسانية. بل يجب علينا أن نطمح إلى ثقافة عالمية عامة لا تقلل من أهمية خصوصية الأجزاء المكونة لها). وإنَّ الأديان المختلفة لا تشكل نزاعات بل ترضي الحاجات الضرورية لدى الإنسانية.

ب- أنواعها: بالنسبة لمغزاها من منظور معلوماتي:

أ- **الثقافة كمنظومة من القيم:** تتضمن - كنسق اجتماعي - المعتقدات والقوانين والعادات والتقاليد ونمط الحياة المعيشية والمعايير المختلفة الضابطة.

ب - **الثقافة كرؤية أيديولوجية:** ينظر من خلالها الفرد إلى نفسه والعالم والكون وإلى مجتمعه، وهذا يوضح لنا أن المعلوماتية هي منظار آخر نرى فيه العالم عبر الشاشات ولوحات القيادة بالإضافة إلى تكنولوجيا المعلومات أداة فعالة للحكم على الأمور بفضل إحصائياتها.

ج - **الثقافة كعدسة كاشفة:** عن الهوية. والانتماء، ومضامين أنماط الثقافة الخمسة (التدرجية. الفردية. القدرية. المساواتية. الاستقلالية). وهي بمضمونها تعبر عن الانتماء القومي. وتكنولوجيا المعلومات هي المحافظة على هذا التراث القومي الذي نعتز له، وبخصوص فهم التراث نوجز ما ورد في تقرير التنوع البشري الخلاق والذي رأى أنه يخضع لرؤية أحادية، تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية (جابر عصفور ١٩٩٧)

(رؤية ترى الأثر الضخم لا البسيط المكتوب أو الشفاهي، تحتفي بالاحتفالي لا العادي وبالمقدس لا الدنيوي. وإنَّ تغيير هذه النظرة إلى التراث يتطلب سنداً قوياً من تكنولوجيا المعلومات بعد اتساعه وانتشاره. وبالتالي ترصد الثقافة الحياة اليومية، تقدم خدمات عظيمة للغة سند الهوية ورمز القومية.

د - **الثقافة كتواصل:** تنقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال، وهنا يحصل اللقاء الأساسي والمباشر بين المعلومات ونظمها، فيتم من خلاله انتقال المعاني والرموز والخبرات.

هـ - **الثقافة كسلاح ضد القهر:** هي تدفع باتجاه الابتكار والإبداع وتتصدى للظلم والعدوان وهنا يبدو دور تكنولوجيا المعلومات وشبكة الإنترنيت كسلاح قوي بيد المقاومين الأحرار، ومن خلالها نسمع صوت الضعفاء والمهمشين، ونسمع بالمطالبة بعدالة توزيع الثروة، وفرص العمل التي أضاعته الشركات في غياب الدولة، وطالبت بلغة أكثر شفافية وأكثر تعبيراً عن الواقع في الإعلام، لاكما يتصورها مُنَظِّروها، وتربية أكثر التصاقاً بالألفية الثالثة.

- فالثقافة العربية كما عرفها الدكتور عبد السلام المسدي (أنها مناط الشخصية العربية، ومستودع قيمها ووعاء حكمتها، وحقيقة هويتها

الحضارية، فهي ثقافة إنسانية أصيلة، شاملة لمظاهر المادة والروح، ذات عراقة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية وقيم الحق والعدالة والمساواة واحترام المعرفة، ثقافة تتمثل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان، تتفرد بجهاز لغوي سليم ليس له مثيل في السعة والمرونة) (عبد السلام المسدي. كتاب العربي/٢٠١٠) لسنا وحدنا الذين نعتز بثقافتنا بل كل شعوب الأرض تعتز بثقافتها، ونحن ندرك أهمية تنوعنا الثقافي في تقوية العلاقات الاجتماعية، ونمتلك القدرة على الحوار مع الغير بكل صدقيه، فالبيئة والمصير والعيش المشترك، والتحديات تصهرنا في بوتقة ثقافتنا العربية (وهذا ما أكده عصام الخفاجي بشأن خرافة تقول: إن الحديث عن التنوع يخدش الوحدة الوطنية والعربية).

ونحن ندرك أن الثقافة هي ما يبقى بعد زوال كل شيء، بينما المعرفة تتجدد وتبقى، كلما استهلكتها ازدادت عمقاً واتساعاً، يمكننا من بناء نموذجنا الخاص (مجتمع المعرفة) يعني تربوياً: خلق فرص للتعليم أمام الجميع، والتصدي لتهميش لغتنا العربية من قبل العولمة وإقامة بيئة إبداعية أمام الطلبة، والتصدي للاستبعاد وإخراجنا من دائرة الفعل المعرفي عن طريق طبقية المعلومات: والتصدي لعملية انتهاك حقوق الإنسان فنحن بأمس الحاجة إلى تكنولوجيا الطاقة النووية وتكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا اللغة العربية، وهذا رهن بقدرة مجتمعاتنا على اللحاق بمجتمع المعلومات.

والثقافة بحد ذاتها لا تقبل التهميش. لكنها هُمِّشت من قبل العولمة، ولا أمل في إقامة مجتمع المعلومات بدون أن يكون الوطن العربي كتلة واحدة، وهذا تحد هائل لخلق ثقافة وعي عربي.

أيكون قدرنا نحن المهتمين بالثقافة العربية في هذا الزمن القلق أنْ نتوزع داخل معسكرات متباينة متناقضة، لا يجمعنا خطاب مقاوم واحد في خندق واحد؟ لم لا يكون قدرنا وشرفنا أن نواجه هذا الفكر المدمر الإقصائي بفكر مقاوم احتوائي؟ فنحن نخوض معركة وجود أو لا وجود على صفوف الجبهة الداخلية، وأن نواجه الفكر الإلغائي التهميشي بالفعل الرفضي عندما نخوض غمار الحرب الحضارية على صفوف الجبهة الخارجية عندها نصون هويتنا

فنستحق بجدارة واقتدار شرف الأمانة الثقافية. ب: ما العلاقة بين الثقافة والمعرفة؟ ليس أمامنا بعد كل ما هدرناه، إلا موارد المعرفة المتجدد الذي لا يفنى، وتوظيفها على يد العرب كل العرب مبدعين ونخب. وموقفنا من التكنولوجيا المتطورة سواء كان إحجاماً من قبلنا أو تحجيماً بفعل غيرنا، غير مقبول فهو تقاعس لا يمكن تبريره أو تفسيره.

- **مجتمع المعرفة:** إن الصناعة التي أفرزت مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الزراعة، والمعلومات التي أفرزت مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الصناعة، وهذه قفزة نوعية تفوق سابقتها كثيراً بالآمال التي تحملها أو المخاطر التي تتضمنها وتعددت التسميات من (مجتمع المعلومات) إلى (مجتمع المعرفة).

- **مجتمع المعلومات:** يعني الفيض الغزير من المعلومات والاستعمال الحر لها، تنظيم الأفكار وتمثيلها رقمياً لسهولة الوصول إليها. ينشغل بالبنى التحتية التي توفر وسائل الاتصال للنفاذ إلى مصادر المعلومات.

- **مجتمع المعرفة:** يعني مجتمع قائم على المعرفة، تعتبر كأهم موارد للتنمية وهو مجتمع مغاير لسوابقه.

- **الفجوة المعرفية:** يرى خبراء الثقافة من تربويين واجتماعيين وفلاسفة وناشطي حقوق الإنسان ومناهضي العولمة ما يلي:

- **التربويون:** يرون أن القضية تربوية لا تحقق تكافؤ الفرص ولا المساواة، ولا تسمح بالنفاذ إلى مصادر المعلومات، حتى يحقق المتعلم التعلم ذاتياً مدى الحياة، وتنمية القدرات الذاتية للجامعات ومراكز البحوث باستغلال الإمكانات التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات وفي مقدمتها الإنترنيت.

- **الاجتماعيون:** يرون الفجوة المعرفية، كعدم المساواة الاجتماعية عبر الدخل والسن والنوع (ذكر/أنثى) والفارق بين المدينة والريف ومستوى التعليم، يرون لابد من نظرية اجتماعية تقضي على الفجوة المعرفية.

- **نشطاء حقوق الإنسان:** يرون هذه الفجوة المعرفية، انتهاكاً لحقوق الإنسان، والعولمة تعمل على اتساع هذه الفجوة، بسبب نزعتها للسيطرة والاحتكار، فتحرم المتعلم من حقه بتنمية ذاته وقدراته، بحرمانه من النفاذ إلى المعلومات بالصيغة الأمريكية وحقه في التعلم في مواصلة تعليمه.

- **مناهضي العولمة:** يرون أن العولمة تعمل على اتساع الفجوة المعرفية، بسبب نزعتها الاستقطابية وحرصها على نهب خيرات العالم وأمواله.

- **الفلاسفة:** يرون الفجوة المعرفية مسألة أخلاقية أولاً وأخيراً.

ج- **كيف نواجه الهيمنة الغربية؟** سؤال يطرحه الدكتور عبد السلام المسدي نحو وعي ثقافي جديد/٢٠١٠/ (يتراءى لنا أن نقض الهيمنة الجديدة لا يتم فكرياً بنقض فكرة رأس المال، وإنما تتم مواجهتها من الداخل ببيان تناقضها طبقاً لقوانين رأس المال ذاتها وطبقاً لقانون المنافسة وما يستوجبه من أشراط تدور حول مشاطرة الأرباح، ووظائف التضخم المالي وقواعد تنشيط الاستهلاك، وتدور كذلك على معادلتين جوهريتين هما: توازنات القيمة بين المواد الخام الأولية والمنتجات النهائية، وتوازنات القيمة بين أموال المستثمرين وخبرات الفنيين، مما لا يحول أبداً بين طاقة الكفاءات البشرية على مستوى الخبرة المتخصصة ورغبة الإنسان في الالتحاق بركب المستثمرين انطلاقاً من خبرةٍ عاليةٍ ودرايةٍ راقيةٍ ولا شك أن أرفع درجات الاستثمار في عالم اليوم هي التي يجتمع فيها مكونان: أن يكون صاحب رأس المال هو نفسه صاحب الخبرة التكنولوجية المنجزة. وظهر جلياً للجميع الآن أن رأس المال بجشعه الربحي، وباستسهاله تكديس الثروة بواسطة التعامل الافتراضي ينفلت من كل قيد أخلاقي فيجر الكوارث على الجميع، ولا مناص من إقامة تحصينات من قوانين الملاحقة والمراقبة. ولأول مرة نسمع من سادة الغرب دعوات تلح على الاستثمار المالي طبقاً لقوانين العولمة، وإذا لم يحصن بقيم أخلاقية عالية فإنه ينقلب إلى كوارث لا تصيب الذين سببوها وحدهم وإنما الجميع) نرى الهيمنة من خلال الاتفاقيات الدولية للتجارة، وشروط إمداد البلدان النامية بالقروض، والرقابة على صرف الميزانيات العامة للدول النامية، والوصفات العاجلة لإعادة تأهيل البنية الاقتصادية والنصيحة للعالم النامي كي يكف عن دعم الكتاب المدرسي ومؤازرة الكتاب الثقافي التراثي، فأمريكا منحت حق الحماية الثقافية لفرنسا عندما أرادت حماية ثقافتها، بينما رفضته عندما طلبته الدول العربية لحماية ثقافتها، وعلى كل حصيف

أن يقرأ: معنى الشراكة المتوسطية، والشرق الأوسط الجديد، تريد أن تلغي كلمة عربي، نلمس هذا في محاولة إخراج اللغة العربية من مجموعة اللغات المتداولة، وعندما تتعرض الدول المهيمنة لأزمات اقتصادية، مفروض على الدول العربية أن تدفع الثمن وتشتري نفايات السلاح الأمريكي، وتنشط الثقافة الكونية عبر أممية القرار وعولمة المال، وننهي فقرتنا هذه بصياغة: أن الوعي الثقافي من مكونات الوعي المعرفي.

د- بين الهوية والمعلوماتية:

لا مجال أمام العرب اليوم للانخراط بكفاءة واقتدار في المنظومة الإنسانية، بكل أبعادها إلا بجبهة ثقافية عتيدة ووعي ثقافي جديد يتجدد بتجدد المرحلة. فلا ثقافة دون هوية حضارية. ولا هوية دون إنتاج فكري. ولا فكر دون مؤسسات علمية متينة. ولا علم دون حرية معرفية. ولا معرفة ولا تواصل ولا تأثير دون لغة قومية تضرب جذورها في التاريخ تستشرف بعزة وإباء حاجة العصر والمستقبل.

- مفهوم الهوية: أعادت المعلوماتية طرح الهوية من جديد، وهي دائمة التشكل والتغير، تؤثر وتتأثر في محيطها وبخاصة الثقافة المهيمنة عالمياً، والمعلومات تشكل قناة للحوار مع الهويات الأخرى، وترصد بالتالي التغيرات الطارئة عليها، وهي مسألة تراكمية كيفية، واللوحة الذهنية للهوية تتبدل بحسب اللوحة الحضارية الإنسانية، تبعاً لشروط الزمان والمكان وتبعاً للمصادرات المبدئية أو المنهجية. ويتم تشكيل هويات قاتلة: كالهوية المذهبية والطائفية والعرقية والأثنية كما يحصل اليوم لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد.

- لا داعي للانغلاق الثقافي: قد ينكر البعض للهوية حقها في التطور والنمو والتفاعل، فالأفكار يمكن أن تهاجر من مكان إلى آخر. من سياقها الثقافي إلى سياق مغاير، كما أن النظرية العلمية تنتقل من مناخ فكري إلى مناخ آخر. وهي ليست بحاجة إلى جواز سفر ولا إلى هوية.

- الهوية بنت الماضي والحاضر والمستقبل: والمستقبل مرتبط بقدرتنا على اللحاق بالركب الحضاري المعلوماتي، يخصب التاريخ يحوله إلى حركة جدلية

واعدة، وهو نقيض الماضي على المستوى الفردي والجمعي، لأنه يقيس على الحاضر في حركته على المستقبل الواعد، ولا يشغله الماضي إلا بوصفه عنصراً من عناصر الحاضر الذي يقبل التحول نحو المستقبل.

- تبقى الهوية هي الحصن والملاذ، تلجأ إليه الأمم والشعوب أثناء الأزمات فالعرب يؤمنون أنهم أصحاب ماضٍ عظيم، وإرثٍ تاريخي يفرض عليهم دوراً عالمياً، ينبثق من حضارتهم، وهم اليوم يواجهون كوارث الواقع وتغيراته الداخلية والخارجية، دون أي قدرة على التنبؤ والاستشراف والاستباق.

- الهوية تشغل الجميع: الفرنسي اليوم يسأل ما هي فرنسا؟ والياباني يتساءل اليوم عن هوية اليابان، السؤال نفسه طرحه بالأمس عقب الحرب العالمية الثانية، فوضعه في مقدمة الدول الصناعية، فهم خائفون على لغتهم وهويتهم من الانسحاق في ظل هيمنة اللغة الإنكليزية على شاشة الإنترنيت. وانطلاقة المارد الصيني، تسانده ثورةٌ ثقافيةٌ أصيلةٌ توفر فرص التعليم بالتوازي مع فرص العمل، وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الثورة انطلقت من تعاليم كونفشيوس مندمجة مع تعاليم (كارل بوبر بحثاً عن عالم أفضل، القاهرة ١٩٩٩) فيلسوف العلم الشهير، عن كيفية بناء المجتمع المفتوح: القائم على إشاعة العلم والمعرفة، وحرية التعبير ومشاركة الجميع، من أجل بناء مجتمع ديمقراطي خطوة خطوة.

- المعلومات أداة الثقافة الغربية:

أ - **المعلومات أداة لمواجهة التعقد الاجتماعي:** التعقد الاجتماعي سمة اجتماعية أساسية: وكذلك النظم الاجتماعية كنظم مفتوحة تتحرك باتجاه التعقد؛ وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيد الأمر صعوبة، وجعلت كلّ شيء في حياتنا إشكالية نريد لها حلاً: من الترفيه الإعلامي إلى اللغة إلى الهوية، من سلطة الحكم إلى الديمقراطية، ومنهم من رأى أن الكمبيوتر والمعلومات ستجعل حياتنا أكثر تجانساً، بل كانت مصدراً للاختلاف وزيادة في البدائل والاختيارات، نستنتج من هذا أن تكنولوجيا المعلومات هي الداء والدواء، وهي أمضى الأسلحة في مواجهة التعقيد، بفضل قدرتها على التعامل مع الظواهر

المعقدة، واحتواء الكم الهائل من البيانات والمعلومات، كما توفر الوسائل العلمية من برامج وإحصائيات لمعالجة هذا الكم الضخم، لانتزاع الجوهر وخلق النظام من رحم الفوضى وقد آن الأوان كي نواجه التعقد على حقيقته وبهذا نضع أيدينا على الأيدي الخفية التي استسلمنا لها طويلاً.

ب - **المعلومات والتكامل المعرفي:** إذا كانت تكنولوجيا المعلومات عامل هدم للحواجز الفاصلة بين العلوم: طبيعية كانت أم إنسانية، وبذات الوقت تعمل على تضييق الحواجز والفواصل بين العلوم والفنون، وكذلك بين المعارف والخبرات، لقد ضاقت بنا حلقة الوقت كي نفهم ونمارس الخبرة أولاً، ونمارس المعرفة الكامنة وراءها ثانياً. وقد استطاعت المعلومات إحداث التكامل المعرفي، وتطبيق نظرية المعلومات، في الفيزياء والبيولوجيا واللغة ونظرية الاحتمالات ونظرية الاتصالات، وعلم النفس والفلسفة وعلوم الكمبيوتر وعلم الاجتماع والنقد الأدبي والفني.

ج - **المعلومات وتوازن المجتمع:** فهي تعمل كوسيلة للضبط الذاتي، وهي كوسيلة للتغذية المرتدة وتنشأ هذه الأخيرة عن سريان المعلومات في مسارات مقفلة تربط بين القرارات والممارسات والنتائج وردود الفعل. وبما تحمله التغذية المرتدة تحس منظومة المجتمع مدى الانحراف عن الأهداف المرسومة أو المعايير المقررة لها. وبهذا كانت الدول المتقدمة أكثر تجاوباً مع نظم المعلومات والتكيف وتصحيح أوضاعه. وسؤالنا هل تستطيع نظم المعلومات وتغذيتها المرتدة أن ترأب الشرخ في المجتمع البشري، بعد أن أصبح أكثر اختلافاً؟ لأن هناك انفصالاً بين الفكر والسلوك، وبين النظرية والتطبيق، وبين التعليم والتربية، وبين التنمية والمحافظة على البيئة، وبين التقدم الاقتصادي والرفاهية الحقة، وبين قدرة التكنولوجيا ونتائجها الحقة، وهذا ما يؤدي إلى انفصال الإنسان عن واقعه، وفي نهاية الأمر ينفصل الإنسان عن أخيه الإنسان، ومهمة نظم المعلومات الكشف عن هذه التناقضات الناجمة عن الانفصال. والكشف عن علاقات الترابط، كمطلب أساسي من أجل مجتمع أكثر توازناً وتكيفاً.

د - المعلومات وتصنيع الثقافة: تعتبر المعلومات أهم مقومات البنى التحتية لتصنيع الثقافة. فبجانب توفير موارد المعلومات الثقافية، إلى تمثل تكنولوجيا المعلومات الشق الأساسي في معظم التكنولوجيات الثقافية: تكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا الإعلام وتكنولوجيا هندسة اللغة، وتكنولوجيا الفنون، وتكنولوجيا معالجة وصيانة التراث، واليوم يخضع هذا التراث إلى رؤية أحادية الجانب تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية (جابر عصفور ١٩٩٧) رؤية ترى الأثر الضخم لا البسيط المكتوب أو الشفهي، تحتفي بالاحتفالي لا العادي، وبالمقدس لا الدنيوي وتغيير هذه النظرة إلى التراث يتطلب سنداً من تكنولوجيا المعلومات.

هـ - المعلومات والتنظير الثقافي: لم تعد الثقافة خاصاً أكاديمياً، بل شاغلاً للجميع، بعد أن اتضحت أهميتها للتنمية، وهي من أهم صناعات عصر المعلومات، لقد تاهت إشكالية الثقافة في القرن العشرين بسبب عمق التخصص، وتم الانسحاب من الأسئلة العامة، والتي عادت إلينا لتطرح من جديد بفضل المتغير المعلوماتي، الذي يطرح من الصفر معظم القضايا الثقافية والاجتماعية. والتنظير الثقافي، هو مزيج من فروع العلوم بكافة، وهذا يتطلب سنداً معلوماتياً قوياً، كي يمكن احتواء التداخلات الكثيرة بين الفروع المعرفية، والتنظير الحديث لا يستطيع الفصل بين ثقافة النخبة وثقافة العامة، ويدرس الثقافة وهي تعمل بصورة دينامكية، في إطار الهياكل الاجتماعية والممارسات الاجتماعية في المجتمع، والتنظير الثقافي لا يملك القدرة على المواجهة الاجتماعية العريضة دون سند معلوماتي قوي على شاكلة خرائط ثقافية، ومسوح إحصائية، وقواعد وبيانات لتسجيل الواقع الاجتماعي، والخصائص الثقافية للفئات الاجتماعية المختلفة عامة كانت أم نخبوية، ثم تأتي العولمة لتضيف إشكالية أخرى تتطلب مزيداً من المعلومات فيما يخص الدراسات المقارنة.

- المعلومات أداة لثقافتنا:

أ - بين تعقد الغرب ومحاصرته وتعقدنا الخبيث: الفكر العربي يفكر بطريقة خطية بعيداً عن مهارات التفكير المنظومي، الذي يتعامل مع عدد من

العناصر والعلاقات، فمهارات التفكير الشبكي، تستطيع أن تتعامل مع تعدد المسارات وما يربط بينها، هذا، والفكر العربي يعشق الثنائيات وقانون العلة والأثر، وقد أراد الفكر العربي أن يجعل لكل قاعدة نحوية سبباً من داخلها وعلة من خارجها، تماماً كنزول آيات القرآن الكريم، وهذا الفكر خامل ساكن ومجامل، بحاجة إلى الديناميكية والتفاعل مع عصر المعلومات وليس لديه العدة الكافية للتعامل مع عصر المعلومات، لا على المستوى العام ولا الخاص، مشاكلنا معقدة كورم خبيث عصية على الحل، بينما المجتمع المتطور يحل مشاكله من خلال: التنظيمات والتشريعات وآليات قياس الأداء ومؤشرات الموارد القائمة والرأي وتقييم نتائج القرارات التي توجه الموارد الاجتماعية اللازمة والمناورة بها من أجل احتواء التعقد وإخضاعه للنظم القائمة وما أن يظهر التعقد حتى تتولد الخطابات التي تسعى إلى تفكيك مظاهره وتفتيتها ومحاصرتها، ولكن أين نحن من هذا التعقد الحميد المستأنس السريع الامتصاص، وهذا يمثل وجبة جهنمية من خليط التراكم والعشوائيات، وتشتت الاتجاهات وتضارب الأفكار، ويبقى التعقد معلقاً دون حل أو حسم متربعاً فوق البنى المعرفية والنظم الاجتماعية باستمرار، حتى يصل الأمر حد الانفجار، أو أن نقع في دوامة الدوائر الخبيثة. ولا نجد حلاً إلا تكنولوجيا المعلومات ولا يحل التعقيد إلا فيض من المعلومات يعمل على تحليله وتفتيته وإذابته، ونحن نراكم مشاكلنا نتركها للزمن ليحلها، وتصبح كربطة أفاعي لا تعرف رأسها من ذنبها. وقد أصبحت مواجهة التعقيد واجباً مهما للفكر الثقافي العربي، وما أخطر أن نسلم قضايانا ومصائرنا للأقوياء بعد أن تجاوز التعقيد قدرتهم وقدرة من يقف إلى جانبهم، وسرعان ما تتحول هذه القضايا الاجتماعية والسياسية في أيدي هؤلاء الأقوياء إلى مسائل تكنولوجية يتكفلها أصحاب القرار والمستشارون والخبراء والبيروقراطي وهنيئاً للسلطة التي لا يحل التعقيد سواها.

ب - بين تكاملهم المعرفي وتشظينا: وإذا ألقينا نظرة طائر حزين إلى خريطتنا الثقافية وجدنا سلسلة متقطعة منعزلة متكورة على نفسها، لا

جسور تربط بينها، مليئة بالفجوات والمناطق المعتمة، وعصر المعلومات هذا أبدى عورتنا أمام العالم بتشتتنا المعرفي، وتشرذم فكرنا اللغوي، فلا حوار بين اللغويين والمعجميين، والتربويين والإعلاميين، وعلماء النفس والكمبيوتر وعلماء البيولوجيا، ولا حل إلا بالمعلومات. فلماذا فقدنا البوصلة؟

ج - **بين توازنهم الاجتماعي واختلاله لدينا:** لماذا فقدنا عصا التوازن؟ لن ننجح في توطين المعلومات في تربيتنا العربية، ما لم ننظر إلى تكنولوجيا المعلومات بأبعادها الفنية والعلمية والاجتماعية والتنظيمية، وأن نعمل على تطبيقها وتطويرها، أما إذا فشلنا في تحقيق ذلك لن تحل مشاكلنا، بل ستتعقد وستزداد الفجوة بين من يملك ومن لا يملك، ومن يعرف ومن لا يعرف، ويزداد الانفصال بين الفكر والواقع، وبين الحاكم والمحكوم، وبين التربية ومطالب العصر. وبين أجيالنا السابقة واللاحقة.

هـ - **بين تنظيرهم وتنظيرنا:** غاب التكامل المعرفي فغاب عنا التنظير الثقافي للخروج من مأزقنا، وبخاصة عندما تعددت الفروع المعرفية المغذية لعلم الثقافة، ولا زلنا نجهل ثقافتنا الشعبية، ونشك في تنوعنا الثقافي، الذي يصب في مسار الثقافة العربية ولا بد من المعلوماتية كسند لنا في حل مشاكلنا، ومواجهة العولمة التي تريد إذابتنا. كما يتطلب تنظيم قواعد البيانات اللازمة لثقافتنا الشعبية، ومظاهر تنوعنا الثقافي وخلاصة القول أن لا غنى عن المعلومات في مواجهة مشكلاتنا الثقافية وحسن إستغلالنا لمواردنا.

علم الثقافة وثقافة العلم لدى الغرب:

أ - **علم الثقافة:** أصبحت الثقافة علماً قائماً بذاته، تساهم فيه فروع علمية مختلفة، وعلى رأسها علم الإناسة (علم الأنثروبولوجيا) الرمزية وعلم اجتماع المعرفة، وكلاهما ذو صلة وثيقة بالمعلومات، وعلم الإناسة يطبق الأسس اللغوية، والمنهج البنيوي: الذي يرتكز على علم اللسانيات في تحليل التراث الثقافي نصوصه وبناء المعرفية، ومؤسساته الاجتماعية، - يقوم علم اجتماع المعرفة بدراسة علاقات الترابط بين المعرفة والسياقين الثقافي والاجتماعي اللذين أفرزا هذه المعرفة، وما يشغل دارسي علم اجتماع المعرفة،

تعقب المعرفة وقد تجسدت في تنظيم المؤسسات الاجتماعية، وتجلى هذا في أداء هذه المؤسسات وسلوك العاملين فيها، فلم يستقر علم الثقافة بعد على خريطة الوضع الإنساني، وهو بحاجة إلى زمن طويل، لأنّ الأمر يتوقف على مدى الشوط الذي قطعته العلوم الإنسانية المغذية لعلم الثقافة في طريقها للوصول للعلوم الدقيقة، ومن الصعب أن نصل إلى الموضوعية في العلوم الإنسانية وهو أصعب بكثير من العلوم الطبيعية.

ب - **ثقافة العلم**: وضعت الفلسفة القديمة العلم ضمن عباءتها، إلى أن انفصل عنها على يد اسحاق نيوتن وكان كتابه الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية، بمثابة إعلان رسمي لهذا الانفصال (كارل بوبر ١٩٩٩) ورغم انفصال العلم عن الفلسفة لكنّ صلته بها لم تنقطع، حتى أصبح للعلم فلسفته، وازداد تأثير العلم بالفلسفة، وطالب (جون لوك) فلاسفة عصره أن يأخذوا في اعتبارهم الاكتشافات العلمية وأثرها، وصلة العلم بالفلسفة تزداد اطراداً ووثوقاً، وكثير من منظري الثقافة والفلاسفة يلجأون إلى النظريات العلمية وينهلون منها، وتستعين (جوليا كريستيفا) في نظريتها عن الشعر بنظرية فيزياء الكم (الكوانتم) كما يلجأ (جاك دريدا) في التفكيكية إلى الرياضيات المنطقية، (لكورت جودل). كثر هم الذين جعلوا من نظرية المعلومات ونظرية النظم منطلقاً لعملهم، وكاد العلم أن يتخلص من دوره كأداة للفلسفة ويصبح ضرباً من الفلسفة، وكادت التكنولوجيا أن تصبح نوعاً من فلسفة الأخلاق، والعلم نوعاً من الايدولوجيا، وما كتبه البعض عن (البيولوجيا كايدولوجيا) حول (ألدنا) (د. س لونتن ١٩٩٧) وقد تعاظم دور العلم في الفكر الفلسفي، وأصبحت فلسفة العلم وفلسفة اللغة بشكل خاص، أصبحتا المحور الأساسي في الفلسفة المعاصرة وكادا أن يتطابقا. وفي حاضرنا الراهن، وعصر معلوماته، تطابق علم فرانسيس بيكون على يد (فرانسوا ليوتار). نستطيع أن نطلق عليه (معلوقراطية) مجتمع ما بعد الصناعة، حيث لمح (ليوتار) في (شرط ما بعد الحداثة) في أن العلم لا يستوفي شرط جدارته العلمية إلا إذا دان العلم لمعالجة الكمبيوتر عندها يدخل

الجسم المعرفي الحقيقي الأشمل، وبعبارة واحدة أصبحت معالجة الكمبيوتر شرطاً لعضوية (النادي العلمي).

علم الثقافة وثقافة العلم العربي:

أ - **علم الثقافة:** إن المعرفة منوطة بالمناخ الاجتماعي التي تعيش في ظله، وتنطلق منه، والثقافة مرتبطة بالعمل وتطبَع المعرفة بطبيعة المناخ الاجتماعي التي تنطلق منه. (سامي خشبة١٩٩٤) وكان (ابن خلدون) أول من أشار إلى المعنى العام لمفهوم اجتماعية المعرفة. وعلم اجتماع المعرفة الذي ندعو إليه بمفهومه الحديث، هو المظلة المعرفية للعلوم الإنسانية وبخاصة التربية والإعلام والقيم، وتنمية التوجه النوعي وهذا يتطلب إنعاش الفكر الفلسفي، والتخلص من الثنائيات التي تنخر في جسم الثقافة العربية، ولاشك أن مأزق فكرنا الفلسفي نتيجة طبيعية لانخفاض مستوى العلم والفكر في مجتمعاتنا، وما زال الكثيرون من العلميين عندنا، يعتبرون هذا العلم لا مبرر لوجوده، وقد فات هؤلاء أنه لا بديل إلا الفلسفة إن عجز العلم عن مواجهة التحدي المعلوماتي، ولا ملجأ للعلم إلا الفلسفة. ويرى البعض أنه يمكن فصل العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية، وأسلمة علوم الإنسانيات، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وتربوياً، ولكن هذا غير ممكن نتيجة التداخل الشديد في خريطة المعرفة الإنسانية، وفكرنا الثقافي يسوده النقد الأدبي. وقد نجحت السياسة في تمزيق فكرنا الثقافي، فغاب التنظير الثقافي من: اجتماع واقتصاد وفلسفة علم ومعلوماتية. وللحق نقول لقد ضاع جهد أدباء ومفكرين عباقرة للتنظير شبه المستحيل، كي تقيم من شتات الفكر الإسلامي والعربي صروحاً فلسفيةً ونظرياتٍ علميةً.

ب - **بؤس ثقافتنا العلمية:** إن العقل الثقافي عقل نسبي، وهو متداخل مع ما في الكيان البشري من حقائق يصدقها الحس ولا يستدل عليها ببرهان كالحب والجمال والفن والهوى، بمعنى أنْ تكفر بالشيء أو تؤمن به. فالعقل الثقافي فيه ثوابتٌ مطلقة وثوابتٌ غير مطلقة، ثوابت عند قوم ومتغيرات عند آخرين، قيم تؤسس للفضيلة هي مهملات عند قوم آخرين لا تدخل في سلم

القيم. والعقلانية في القيم الثقافية نسبية بحكم الذات، والموضوع، والسياق. الذات: لأن فيها الأنا والآخر. ونسبية الموضوع: لأن المسائل فيه إما أن تترتب بحكم ما هو كائن أو بحسب الخصوصية. نسبية السياق: يتأثر في الزمان والمكان، وتوازن القوى بين الأطراف الداخلين عليها. والثقافة العلمية مازال الكثيرون يفسرونها بتبسيط العلوم والإلمام بآخر المنجزات العلمية، ويُدْرِجُ البعض ضمن هذا مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن، ويقصرون مفهوم الثقافة على مطها لتحتوي اختصاصهم الضيق لسد فجوات الفراغ الفكري لديهم، علماً أنهم لا يعترفون بهذا الفراغ الفكري لديهم ويجعلون من اختصاصهم إيديولوجيا شاملة أحادية الأبعاد، ويفسرون العالم بناء عليه فيقعون في (فخ شبه العلم) والتسطح الفكري وهكذا كثير من أهل الاختصاص بات بحاجة إلى تأهيلهم فكرياً وثقافياً يحررهم من اختصاصهم. (أسامة الخولي ١٩٩٨)، ونحن العرب نرغب بتثقيف غير العلميين علمياً، وتوعية العلميين ثقافياً، وهناك الكثير من علمائنا بحاجة إلى تثقيف علمي، ليخرجوا من دائرة اختصاصهم وسد ثغرات الفكر لديهم، وعلينا أن ننظر إلى الأشياء من الخارج، ككيانات قائمة بذاتها، منفصلة عنا يمكن ملاحظتها وإخضاعها للتحليل والدراسة، لا كمتوحدين ومنفعلين معها، فتأتي أحكامنا تعبيرات ذاتية صادرة عن محاكمة وجدانية، ولهذا قيل أن العقلية البدائية سابقة على المنطق (يعني لها منطقها الخاص المختلف عن العقل الغربي، والثقافة العلمية تربط الزمان بالارتياد والكشف والتقدم، والنظر إلى الأمام طيلة الوقت، وهو أحد أهم أسباب التقدم العلمي بعكس الزمان الدائري التكراري، والثقافة اللا علمية تدعو إلى الاستقرار والسكون، والنظر إلى الوراء، وهذا يضع قيوداً قوية على التقدم والابتكار، فالعقل العربي خاضع بلا تحفظ لسيطرة الخرافات والغيبيات التي تشده إلى الماضي وتعيق مسيرته.)

أ - علاقة منظومة ثقافة المعلومات بمجتمعها الغربي: وهو يشتمل على ثلاثة مكونات هي:

- العلاقات الخارجية: التي تربط منظومة ثقافة المعلومات بخارجها.

- العناصر الداخلية: لمنظومة ثقافة المعلومات.

- البنى التحتية: لمنظومة ثقافة المعلومات، وتشمل الثقافة السياسية والإعلامية وموارد المعلومات الثقافية، والموارد البشرية التي تشمل عمالة صناعة الثقافة. وهناك علاقة تبادلية بين تكنولوجيا المعلومات والمجتمع الذي يفرزها، وقد فقدت هذه العلاقة التبادلية كثيراً من توازنها نتيجة التطور السريع لتكنولوجيا المعلومات. ولا يزال المجتمع يلهث وراءها للحاق بها، وهناك فجوة كبيرة بين تطور تكنولوجيا المعلومات واستيعابها ومثالنا على ذلك أن هناك تقنيات تكنولوجية، أُرْجِئَ العمل بها فنياً ليصبح المجتمع قادراً على استيعابها، أو توافر المناخ المناسب لتطبيقها، وهذا ما يفسر اهتمام الغرب بالعوامل الاجتماعية. والصحيح أيضاً أن المجتمع لا تشكله السياسة والاقتصاد بقدر ما تشكله وسائل نُظُمِ الاتصال، وهذا مؤشرٌ خطيرٌ يشير إلى تبعية الإنسان للتكنولوجيا وليس العكس. لنصبغ عليها صفاتنا فنحن نريد تكنولوجيا إنسانية تربط الإنسان بإنسانيته وعقلانيته، عندها نكون بحاجة إلى نظريةٍ اجتماعيةٍ جديدةٍ، نظريةٍ لا ترى الثقافة عاملاً مساعداً يدفع المجتمع صوب غاياته كما في نموذج (ماكس فيبر)، ولا تُخْتَزَلُ الثقافة إلى ناتج فرعيٍّ لطور الإنتاج السائد، كما في نموذج (كارل ماركس) ذي المبدأ الاقتصادي، أو شأنها كشأن مؤسسات اجتماعية أخرى كما في نموذج (إميل دور كايم)، نحن نريد نظرية لا تتعامل مع (طور إعادة الإنتاج) بل تتعامل مع (طور المعلومات) وطور المعلومات يعني (طور إعادة الإنتاج) فكل ما ينتجه مجتمع المعلومات من موسيقى وبرامج وأفلام ونصوص قابل للنسخ، ويمكن إعادة إنتاج الخبراء والخبرات وما أن تخترع آلة تكنولوجية إلا وتصبح قادرة على تحويل مؤسسات المجتمع، وكلما تقدمت التكنولوجيا وارتقت المجتمعات كلما تطور المجتمع بسرعة، ومثالنا على ذلك شبكة الإنترنيت وما تشهده من سرعة هائلة، وهناك من يعارضون السرعة الفائقة في عمل المؤسسات الاجتماعية لأنها تعمل وفقاً لمنطقٍ داخليٍّ يسيطر عليها نسقٌ راسخٌ من

المعايير والقيم. ومن المعروف اليوم أن تكنولوجيا الصناعة أفرزت الرأسمالية ومفهوم الدولة ومؤسساتها، والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة: ما هو شكل المجتمع الذي ستفرزه تكنولوجيا المعلومات؟ ومن الصعب الإجابة عن هذا السؤال لكنه سيكون صيغةً وسطى ما بين العلمية والمحلية. إنتاج موزع، حكومات ضئيلة، إدارة لامركزية، مجتمع يبتعد عن التعامل مع الكتل المتجانسة مثال: إنتاج الجملة، إعلام جماهيري، تعليم مجموعات كبيرة من البشر، الإبادة الجماعية أثناء الحروب، ويقول (بيير ليفي): إننا نواجه ظاهرة اجتماعية جديدة تماماً هو الذكاء الجمعي الكلي، الذي يتضاعف بصورة كبيرة جداً، مع زيادة إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها. وزيادة التفاعل المجتمعي، بين عناصر منظومة المجتمع، ويزعم أن هذه الظاهرة غير مسبوقة لا في الدين أو القانون أو الاقتصاد.

ب - **علاقة الثقافة بالسياسة:** من أبرزها إعادة طرح المفاهيم الأساسية للديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحماية الخصوصية الفردية، كنتيجة للعلاقة الثقافية المعلوماتية وقد شُلَّتْ القوانين بفعل المتغير المعلوماتي، فهي غير كافية لفرض الالتزام في أمور مثل: البيانات والأمانة العلمية، واحترام الملكية الفكرية، والمسؤولية الأدبية للخبراء والمستشارين والعلماء وما شابه، وربما نلجأ إلى تقاليد المهنة والوازع الأخلاقي والرقابة الذاتية، وقد أشار تقرير منظمة اليونسكو إلى التالي: إنَّ خيالنا السياسي والاجتماعي أصيب بالجمود والكسل وابتعد عن الطفرات التي حققها خيالنا العلمي، وأدى بدوره إلى قصور ثقافي بين العلم والتكنولوجيا من جهة، وبين مؤسساتنا الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى (جابر عصفور ١٩٩٧) لقد حان لهذا الفكر أن ينزل من برجه العاجي، وأنّ يخلعَ عن نفسه منفعته الخاصة وبرودة تجاويه مع مشكلات الناس، بحجة الحرص على سلامة المؤسسات وأن يتخلى عن أسلوب إدارة الأزمات.

ج - **علاقة الثقافة بالاقتصاد:** لقد فرضت ثقافة المعلومات وصناعتها، طابع إعادة الإنتاج الذي تقوم عليه هذه الثقافة وتلك الصناعة، فكراً

اقتصادياً مخالفاً، فيما يخص نظرية القيمة والملكية الفكرية وحساب الربح والخسارة الثقافية، فلم يعد يكفي في قضايا التنمية حساب العائد المباشر أو الكلفة المادية المحسوسة المباشرة وهذا ما يحسب على المدى القصير دون الطويل، وكما هو الحال في السياسة فالعالم بأمسّ الحاجة إلى نظرية اقتصادية مغايرة لا تحاكي مناهج علوم الطبيعيات بل تنحاز إلى جانب علوم الإنسانيات، من أجل تحقيق الرفاهية الحقة للمجتمع والفرد. إنّ نظام الدولة نجح في عصر ثروات الأراضي والأموال، فهل سينجح في عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية؟ وهناك من يفترض فشل الدولة في حماية الملكية الفكرية مما سيؤدي إلى انهيارها فتغير بهذا دور الدولة من الحارسة المدافعة ضد التهديد الخارجي إلى الدولة الآمرة المنظمة للعلاقات بين الأفراد والمؤسسات، وهي اليوم كمدبرة منزل لا أكثر ولا أقل، تحمي داخلها وما يفد إليها.

د - **علاقة منظومة الثقافة بالثقافات الأخرى:** لاشك أن عولمة الثقافة لازالت بأولها وما نقرأه أو نسمعه بشأن تأصيل الأسس الثقافية لظاهرة العولمة يبقى تصورات متسرعةً للغاية، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن جذوره الثقافية بهذه البساطة، والقصد منها مساندة العولمة، ويمكن لثقافة النخبة أن تسرع عملية تكيفها مع العولمة، بينما الثقافات الشعبية لا يمكن أن تتكيف بذات السرعة وهناك من يقول إنّ الإنترنيت هي التي ستعمل لتحقيق حلم البشرية في إرساء ثقافة قواعد السلام الإنساني، من تنوع ثقافات وتعددها، وقالوا أن هناك وحدة من القيم والمعاني تسمح بوجود أخلاقيات عالمية، وكل البشر ترغب في تخفيف المعاناة، وترفض وأد البنات، وحرق الأرامل، واستغلال عمالة الأطفال والسخرة الجنسية والعبودية (جابر عصفور ١٩٩٧) ولكن المسألة معقدةٌ كثيراً فيما يتعلق بالثقافة الدينية، وهناك من يراهن على حتمية الصراع لا الوفاق، واستحالة السلم العالمي، ومن يقول أن الثقافة متجذرة بخصوصيتها المحلية، والإنترنيت ستفصل بين الثقافات وبين الفئات الاجتماعية، وتفرز المجتمعات الإنسانية طبقاً لمعايير عصر

المعلومات، والعالم سيعاني من داروينية ثقافية متوحشة، تأكل الأخضر واليابس.

و - **علاقة الثقافة بالفئات الاجتماعية:** تفرض علينا ثقافة المعلومات إعادة النظر بالعلاقة بين الفرد والمجتمع، وموقف التعددية الثقافية من منظومة الثقافة، وهذه تستدعي نظرةً جديدةً إلى الذات الإنسانية نظرةً متحررةً تتجاوز: الجسد . والغرائز والعقل والروح. لتخلق من النضوج النفسي نتاجاً للتفاعل الفيزيولوجي مع الرمزي، وتكون الذات الإنسانية مشروعاً رمزياً يتحقق عبر التفاعل الإيجابي، مع عالم الواقع وعالم الفضاء المعلوماتي، وذلك من خلال الممارسة والمشاركة وتقبل المخاطر، والقدرة على اتخاذ القرار والوعي بالبدائل وهذه النظرة تجاه الذات الإنسانية تتعرض لعلاقة الإنسان بالآلة بعد امتزاجهما في عملية واحدة ذات طابع جدلي، تفقده السيطرة على آلته وعلى عالمه وعلى ذاته، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا أدركت الفئات الاجتماعية جميعها : من قادة الرأي والإعلاميين والتربويين ودعاة الدين ماذا تعنيه ثقافة المعلومات بالنسبة للمجتمع ككل. أفراده ومؤسساته وجماعاته وعلاقاته وتحدياته وقال البعض قد تنحصر ثقافة المعلومات والإنترنيت بأيدي قلة قليلة مهمشة، لكنها قوية، فتشكل خطراً على حقوق الأغلبية.

أ - **علاقة منظومة الثقافة العربية بمجتمعها:** من متطلبات ثقافة الوعي: - أن التعدد السياسي، قد يخفي وراءه توحداً ثقافياً كاملاً، والتوحد السياسي لا يعني بالضرورة توحداً ثقافياً، وصراع الهويات الثقافية لا يهزمه التوحيد الثقافي الغاصب، والصراع السياسي بين الأنظمة لا يمكن أن يباعد بين الشعوب، إن كانت تؤمن بالانتماء الثقافي الواحد، ولا أدل على ذلك إلا تشظي الاتحاد السوفيتي، وانفلاق النموذج اليوغسلافي، وتوحيد ألمانيا، ولن ينال التاريخ من إحساس العربي، إنه أقرب إلى أيّ عربي من أي كائنٍ ثقافيٍّ آخر.

إن علاقة مجتمعاتنا بثقافتنا حساسةٌ جداً وسريعةُ العطب، وظهر هذا في مجال التنمية الاجتماعية، والتي تم حصرها في التنمية الاقتصادية

والتكنولوجية، علماً أنَّ الثقافة هي مصدر كل قيمة، وتكنولوجيا المعلومات تعد النموذج الإرشادي للقائمين على التنمية، واليوم يبدو أننا دخلنا طور المراهقة الثقافية، ورغم كل هذا تبقى ثقافتنا هي الحارس الأمين لما يحيطنا بنا ويحضر لنا.

ب - **علاقة الثقافي بما هو سياسي:** لا تزال ثقافتنا وخيالنا السياسي خاملاً وكسولاً وقاصراً عما يجري حولنا من طفرة معلوماتية وثقافية، وهذا ما أدى بدوره إلى قصورنا الثقافي. حجمت الدول المتقدمة حكوماتها نتيجة الخصخصة وازدادت مشاركة المنظمات غير الحكومية في صنع القرار السياسي والاجتماعي. والسؤال هو: ماذا لو فعلنا نحن ذلك؟ ألا يمكن أن تتراجع الدولة في دعمها للرعاية الاجتماعية؟ ألا يصبح المواطن تحت رحمة القطاع الخاص والشركات المتعدية الجنسية؟ وكيف ننسى وصفات الصندوق الدولي، ووصايا البنك العالمي؟

وترتيبات المنظمة العالمية للتجارة؟ والنظام العالمي الجديد وحربه على الإرهاب، لغزو الشعوب ونهب ثرواتها، إنه نفس الدمل القديم لكن بترتيبات جديدة خطيرة. ونجاح مجتمعاتنا العربية في دخول عصر المعلومات: يكون في إعادة ترتيب العلاقة بين الثقافة ومنظومتي المعلومات والسياسة - والدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات في الحراك الاجتماعي وترسيخ الديمقراطية - وترشيد العلاقة بين المواطن والحاكم الذي يمارس التعتيم الإعلامي والسيطرة على التربية - وتسخير الدين لمصلحته - والمجتمعات العربية تريد المشاركة الفعلية بالعمل لا مجرد إتاحة المعلومات.

ج - **علاقة الثقافي بالاقتصادي:** في الوقت الذي نحن فيه بأمس الحاجة إلى الثقافة، تعاني الثقافة ضغوطاً متزايدةً نتيجة الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها الوطن العربي، فهي محورٌ رئيسيٌ في عملية التنمية، لإقامة صناعة ثقافية عربية، ولعل العامل الاقتصادي هو السبب الرئيس في الخلافات السياسية العربية. وبالقدر نفسه يصعب قبول الرأي الآخر والقائل أن تراجع تدخل الدولة في أمور الاقتصاد سيحقق الازدهار ويزيد من فرص

العمل بمفعول التساقط ومقتضاه كما أوضح (إسماعيل صبري عبد الله، ١٩٩٨) في مقام رَفْضِه له، إنَّ تزايد ثراء الأغنياء ونمو نزعة فعل الخير لديهم سيصفي تدريجياً من ظاهرة الفقر، وسيضاعف من فرص العمل، ويقتصر دور الدولة على حفظ النظام وتخفيف وطأة الفقر، وفيما يخص باقتصاد الثقافة فنحن بحاجة إلى مؤسسات ثقافية ديناميكية سريعة التكيف، تستخدم بمهارة فائقة وسائل الاتصال لاتخاذ الإجراءات السريعة، ووضع الخطط والأهداف موضع التنفيذ، بطريقة يمكن رصدها وقياسها وتصويبها، وتقويمها وتعيين العائد المباشر وغير المباشر، ونحن بأمس الحاجة: إلى مؤسسات لا تحتكر الثقافة، بل توزعها وتنشرها - وتقوم بتصنيعها لكن بأسلوب يختلف عن إدارة المصنع.

د - **علاقة منظومتنا الثقافية بالثقافات الأخرى؟**: يهمنا في الحقيقة أن تستفيد ثقافتنا من الثقافات الأخرى، وأن تتلاقح أفكارنا مع أفكار عصر المعلومات، ونقوي ثقتنا بأنفسنا أثناء مواجهة الثقافات الأخرى، سواء عن طريق الحوار أم الوفاق، ونحن نعتز بثقافتنا كونها ثقافة عالمية، تثير وجع العدو الصهيوني الأمريكي. والثقافة الأمريكية بصفتها الثقافة المهيمنة عالمياً على ثقافة عصر المعلومات، لابد من تفهم الأسباب التي أدت إلى المراجعة الشاملة لهذه الثقافة التي قام بها روادها ودرسوا أسسها: (الفكر الإغريقي والمسيحية).

كذلك دراسة التنوع الثقافي في المجال اللغوي (٢٧) لغة لدول الاتحاد الأوروبي وكيف يتصدون للثقافة الأمريكية وخاصة ظاهرة التنوع الثقافي، وأن نشارك الاتحاد الأوروبي تربوياً وثقافياً واقتصادياً، لنتقن فن المواجهة مع الآخر. ولكن القضية أعقد كثيراً خاصةً ما يتعلق بعلاقة الثقافة بالعقائد الدينية. ونحن نشترك مع دول أمريكا اللاتينية، كونهم يتكلمون لغةً واحدةً هي اللغة الإسبانية والدين يغذي الثقافتين العربية وأمريكا اللاتينية، وعانت الثقافتين من مرارة احتجاج واسعة تحت شعار الدين أثناء عملية التحديث (محمد الشبني ٢٠٠٠)، والأهم من هذا كله كيفية مواجهة الضغوط الأمريكية

الثقافية، وأمريكا اللاتينية هي خط المواجهة الأول مع هذه الثقافة، وهناك علاقة تاريخية بين العرب واسبانيا وهذا يسهم في توطيد العلاقات الثقافية بيننا وبين شعوب أمريكا اللاتينية والاستفادة من تجربة جنوب شرق أسيا في التوفيق بين ثقافتهم ومطالب التنمية وتكنولوجيا المعلومات.

هـ - علاقة ثقافتنا بالمكونات الاجتماعية: إنّ الحكومات العربية تستطيع حماية نفسها ومصالحها في ظل الظروف الراهنة والصعبة لدخول عصر المعلومات، ولكن الإنسان العربي يفتقر إلى الحماية بعد أن انطلق الجبابرة من كهوفهم: من إعلاميين واقتصاديين ومردة الثقافة، والانتهازيين والمتلاعبين بعقول الأغلبية فمن يحمي حقوق الإنسان العربي بمفهوم عصر المعلومات إلا بتضافر الجهود من قادة الرأي العربي، ومن ورائهم التربويون والإعلاميون ودعاة الدين من ذوي النزعة الوطنية والقومية، ومن أولى المهمات: التخلص من الأمية الأبجدية، ومحو أمية عصر المعلومات، وهي: أمية الكمبيوتر والمعلومات، وأمية الشكل والرمز وأمية الثقافة العلمية، وتوفير المهارات والخبرات التي تلزم إنسان هذا العصر لتساعده على التكيف، وتوفير مطالب العيش. لقد خرجت السياسة والمال والمعرفة من زمن البطولة الفردية إلى زمن البطولة الجماعية، لتؤجج المنافسة والصراع من أجل البقاء على الهويات، فانتشرت ثقافة الإرهاب والإرهاب المضاد. فالسياسة تصنع القرار، وقطب المعرفة يحرك العلم نحو الأمام، والمال يصنع الثروة، فالسياسة يديرها فريق ملتف حول تصور محدد للاختيارات التي تعدها له مجموعةً متكافئةً، تصنع له الفكر السياسي، لتحقق ما تراه المصلحة العليا للوطن، والعلم تأتي ثماره نتيجة لجهود فريق من العلماء الملتفين حول مشروع متناهي الدقة والمترامي الأطراف، ولهذا كله بات التقلب المالي كارثي بل فاجعة، فتَغَيَّرَ المشهد الثقافي الإنساني واضطرب سلم القيم. ونحن العرب قامت قيمنا على الهوية والانتماء العربي ووحدة اللغة والتاريخ، واعتبرنا الدين مؤازراً لمنظومة القيم، يستوي فوق معيار الهوية بهدف توحيد العرب بمختلف معتقداتهم. بينما تشكلت جبهة خارجية عالمية تعلي من حرية الإنسان الفردية بذاته،

وهذه لا تكتمل إلا إذا قضت على خمسة أشياء تمثل خمس مؤسسات قهرية: الأسرة، والدين، والدولة، والثقافة السائدة، واللغة الموروثة، لكن ثقافتنا رسخت الاعتراف بالآخر الذي نجني ثماره جميعاً على المدى الطويل والقصير، ولا يكون إلا بمحاربة التطرف والإجحاف.

وأعلن النص المقدس: (إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وأرسى الأساس العظيم للتفاضل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وهذا يعني أن المبدأ الأول هو: التنوع والمبدأ الثاني هو التفاضل الذي يعني التنافس الخلاق ثم يأتي الشرح المكمل وهو نص السنة (ليس من فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). وقد رد على الذي احتج بالشعار السلوكي (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) وفسره: (انصره ظالماً برده عن ضلالته). هذا ميثاقنا العظيم الذي يعترف بالآخر، هذا الذي بفضله انصهرت الأعراق والأجناس ثم انسكبت منها عصارتها من العلوم والمعارف فتحولت اللغة العربية إلى منظومة ثقافية معرفية متكاملة، في العروض والنحو والصرف وعلم المعجم والأصوات، ساهم بتطورها نخبة من علماء الفرس وجميع الشعوب التي دخلت الإسلام، لقد انسجمت ثقافتنا مع قانون التاريخ في أن العلم إنساني، وعلى الثقافة أن تذعن له، وليس بوسع أية ثقافة أن تصنع مجدها إلا إذا اعترفت بالآخر. كان (أبو يوسف يعقوب الكندي)، قد خط رسالة من ذهب على واجهة الزمن الذي عاش فيه تدفعها محركات التخاصب بين الموارد في تنوعها، مفادها: (علينا باقتناء الحق وان أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المتباينة لنا، فإنه لاشيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير قائله، ولا الآتي به. فلا أحد بُخسَ بالحق، بل كل يشرفه الحق)، إن الكندي ينخرط كلياً في ميثاق الاعتراف بالآخر. ولا أروع من هذا، عندما يتبناه رجل اختص بالدين ومباحث العقيدة، فهو يقطع الطريق أمام كل إجحاف.

فالمسألة مبدئية وليست مقيدة بأيّ حقلٍ إنسانيٍ: ليست وقفاً على سلوك ولا على أفكار، وليست وقفاً على نشاطٍ فكريٍ بأي مجال، اختص بزمان أو مكان، بدين أو فلسفة أو بلغة أو سياسة، فالحق هنا رمز للمؤسسة الفكرية

الواعية بنفسها، ويقول الغزالي عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في كتابه (المنقذ من الضلال ((لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله) والعاقل يعرف الحق ثم ينظر في القول نفسه، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال علما بأن معدن الذهب الرغام). أما ابن رشد الذي أفتى في القضايا الفلسفية، التي بقيت معلقة من زمن أرسطو وَوَرِثَتْ اللاتينية تَرِكَتَهُ المعرفية وتقر له بالفضل (لئن كان الذي فسر الطبيعة هو أرسطو، فإن الذي فسر أرسطو هو ابن رشد) وكان ابن رشد آية حقيقية في تشييد ميثاق الاعتراف بالآخر، المفضي إلى التنوع الحضاري، وهو من وصل الكيان الفلسفي للإنسان بكيانه الروحي، وربط بين التأمل والإيمان، وصاغ ميثاقه الجديد : (يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم، وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرناهم) وهذا ما تحتاجه الإنسانية اليوم، فالعرب صنعوا حضارة عظيمة، بعد أن تحرروا من عقدة العرق وفي مقدمتها العقدة اللغوية.

ألم يقل الجاحظ: (والإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومانية وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح).

و - **بين ثقافتنا ومواجهة الآخر:** في فن الاستدلال المنطقي الاستنباطي والافتراضي وفي علم التأويل، نحن أولى به من غيرنا، بل هو أولى بنا، إنه منطق علم الأولويات: فالحاجة التاريخية العاجلة بل الهدف الحضاري، هو بناء الوطن والاطمئنان على المجتمع، نبنيه على قواعد سليمة، ومرتكزات ثابتة، ليدخل مغامرة بناء المستقبل دخولاً مُشَرِّفاً ينافس الآخرين حق البقاء في هذا الوجود المغامر، ومن واجب مجتمعاتنا العربية أنْ تَفضَّ كل الإشكاليات الداخلية، والوطن اليوم إما أن يوجد أو لا يوجد، يصمد أمام

الضغوط وإما أن ينهار، وتهدم مرتكزاته، وأولوياتنا ترسيخ مفهوم الثقافة المستقبلية، عندها ندخل من بوابة استشراف الحضارة لنثبت وجودنا وتدافع عن ذاتنا على الجبهة الخارجية، بعد أن نكون أثبتناها على الجبهة الداخلية، فيتأكد السعي إلى ثقافة وعي جديد، مدعوماً برؤية نقدية جديدة. وهذا عمل لابد منه بعد أن تخلخلت كل المسلمات الفلسفية، وضاعت القيم الأخلاقية التي سادت تاريخ البشرية، والعولمة لا أخلاق لها، فإن تجرأنا على أن نتخطى بالشأن الثقافي في مدارات المناورة واستشرفنا تخوم العولمة اعتبرناه انجازاً يتصف بالإقدام والشجاعة، وفزنا في مرتبة الشرف الحضاري، وكسبنا تنقية ذهننا، وتحررنا من عقد الذنب ولم لا؟ فنحن نعيش في مجتمع المخاطر. هو إذا الوعي المضاد للعولمة. إنَّ الوعي السياسي اليوم يمثل المدخل الضروري لثقافة الوعي فقد كان مسموحاً لرجل الفكر أن يمارس الثقافة بالاحتراف، وأن يمارس السياسة بالهواية. أما اليوم فإنَّ الخريطة قد تغيرت على مستوى المفاهيم، ولم يعد مقبولاً منه أن يواصل عمله الثقافي في معزل عن فهم عميق للقضايا المصيرية. والوعي السياسي أصبح بعداً فكرياً وعُمْقَاً تأويلياً لا من حيث هو مفهوم نضالي، أو التزام اتباعي، فهو عند المثقف ولدى الباحث والعالم والمربي تراه ترفاً وحِلْيَةً، يتزين بها كملابس تشع ضياء، لأنه مدرج الارتقاء إلى الثقافة العامة. وقد تسنى للشأن السياسي والمعطى الاقتصادي وتحت سطوتهما أن يحاصرا الشأن الثقافي، وتهيأ للشأن السياسي أن يحاصر مؤسسة الفكر وقلعة المعرفة ليهددها بالنسف من الداخل وما أن انكشف عنه الغطاء حتى بدت جريمته اللا أخلاقية.

إن ثقافة الوعي من حيث هي عمق في المعرفة والتجربة، ومن حيث هي مستند لكل عمل في الشأن الجماعي، تجده عندنا لدى السياسي والمسئول وصاحب القرار استثناء يجلب الانتباه أو التنويه. وقد تحدث الصدمة، الا مجال لثقافة الوعي خارج دائرة الوعي الثقافي؟ ومن هنا تنطلق إعادة النظر في المعايير الذهنية لتستجيب للتحدي التاريخي الجديد. وقد حقق النظام العالمي الجديد نصراً خفياً، لا يضاهيه خطورة وسلطاناً، نصر السلاح ولا

نصر المال: إنه التحكم في القدرة الإدراكية لدى الإنسان، بعد تقليص هامش الحرية في تحليل الخطاب أو في تفسيره وتأويله، أما نقده فلا يمكن التطاول عليه، لأنه سلاح الخطاب في الثقافة المتولدة عن عولمة النظام الجديد، وإننا على أبواب فجر جديد، تذوب فيه آليات التلقي وتحل مكانها آليات (الحقن).

ز - **هل تقوى ثقافتنا على تحقيق الاتحاد العربي:** كان التغيير وما زال ظاهرة ملازمة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية، وهو خاصةً من خصائص الحياة، هدمت الحواجز بين البشر من مكان وزمان، فازداد الحراك السكاني والفكري والتبادل الثقافي بين الشعوب والتدفق المعلوماتي والتواصل مع الآخرين.

العربي يشعر بقوة الدوافع التي تدفعه إلى التوحد الذي واجه مصاعب كبرى من أجل تحقيقه، وجرت محاولات: على المسار الأمني أو السياسي أو الاقتصادي. لماذا نجح الاتحاد الأوربي وفشلنا، فهو يتضمن ٢٧ لغة، منظومته الثقافية متشظية ومنظومتنا متماسكة، ألا يتهدد اللغة الفرنسية خطر الذوبان بالإنكليزية؟ ألم تتحد دول شرق آسيا وتكون سوقاً تجارياً واحداً بعد أن تقدمت بثورتها الصناعية، ونافست في تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

ألا نمتلك اللغة والتاريخ والأصالة؟ ألا توفر لنا تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال وسائل لإمكانية تحقيقه؟ فلا بدَّ من التصدي لمحاولات تقويض الهوية العربية وامتلاك الإرادة السياسية. وهذا يتطلب التالي:

- زيادة المواصلات والاتصالات بين البلدان العربية.
- التعاون الإعلامي والتربوي وبناء النموذج الإرشادي الموحد لدى العرب.
- وضع الأسس القومية والمحافظة على الهوية لغةً وإعلاماً وتربيةً ومواجهة التشتت والفتن.
- بناء البني التحتية التي ينشدها المشروع العربي.
- التركيز على المعلومات والمعرفة بأنواعها.
- العمل من أجل خلق بيئة إبداعية.

والسؤال المحير: كيف نفهم العالم الذي نعيش فيه حتى نفهم أنفسنا؟ والأهم: كيف لنا أن نتصالح مع التنوع بيننا ونحن نبحث عن وجه لكل ألواننا وأطيافنا؟

- إننا بعد قرن من الزمان أو يزيد، ونحن نبحث عن هوية ثقافية، جرت انقلابات وحرقنا المسافات، ومازلنا عند النقطة نفسها. فهل كنا نبحث عن ثقافة لا وجود لها؟ أم تعريفنا للثقافة كان تعريفاً متعسفاً يبحث عن هوية ذات قالب أوحد؟ وهل كان يتجاهل تنوع الماضي وتنوع الجغرافيا وتنوع الأصول وتنوع تفاصيل الحياة اليومية؟ لقد كانت الثقافة وما زالت فكرة علمية راسخة واعدة بلا حدود، فهي من حيث الأهمية كالجاذبية بالنسبة إلى الفيزياء والمرض بالنسبة للطب، وبالتطور بالنسبة إلى البيولوجيا.

- العناصر الداخلية لمنظومة الثقافة الغربية:

تتضمن العناصر الداخلية للثقافة إلى جانب القيم والمعتقدات: الفكر الثقافي، واللغة والتربية والإعلام والإبداع فالثقافة هي كما حددتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٦) تراثاً قومياً إبداعياً وأكدت على علاقة الثقافة بالفئات الاجتماعية وتكاملها مع التربية والإعلام والاتصال.

أ - الفكر الثقافي: لقد نشطت كثيرا جهود التنظير الثقافي في أواخر القرن الماضي لاستيعاب الظواهر المستجدة لمجتمع المعلومات الذي انتشر بين ظهرانينا، وهنا نضع قائمة العلوم والنظريات والخبرات التي أسس عليها التنظير الثقافي الغربي المعاصر على النحو التالي: فلسفة العلم - فلسفة اللغة - فلسفة التاريخ - الرمزية - اللسانيات - سوسيولوجيا المعرفة - سوسيولوجيا العلم - سوسيولوجيا الثقافة - هندسة النظم - الإحصاء الثقافي - تخطيط المدن - ديناميات الجماعة - علم النفس - علم الاجتماع - علم القراءة - علم البيئة - الاناسة الرمزية (الأنثربيولوجيا) - الجغرافيا الثقافية - علم اللاهوت - علم العرقيات (الأثنووجرافيا) - الاقتصاد السياسي - اقتصاد الماكرو والمايكرو - الاقتصاد الاجتماعي - علم الاستشراف - نظرية النقد - نظرية التطور - نظرية الجمال - نظرية

المعلومات - نظرية الأدب - نظرية السرد - نظرية الاعتماد - نظرية الاتصالات - نظرية النظم الاجتماعية - نظرية التربية - نظرية السياسة - نظرية السيطرة. ويضاف إليها تكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية. وعلوم الفقه والدين لما للدين من أهمية في صياغة عقولنا وبخاصة نحن العرب.

ب - **لغة الثقافة:** والمقصود بها لغة وصف الثقافة، وتشمل المصطلحات العلمية التالية: - الاتصال الثقافي - الاحتواء الثقافي - الامتصاص الثقافي - التقاطع الثقافي - النسبية الثقافية - الحتمية الثقافية - اجتماعية المعرفة - ازدواجية اللغة - والتاريخ الكمي - الداروينية الاجتماعية وكلها ذات صلة بتكنولوجيا المعلومات وثقافتها كما تشمل: لغة الفنون - الموسيقى - التشكيل - الشعر - لغة الأدب - لغة المسرح - لغة الأداء الحركي - لغة المعمار. وكان من أهم نتائج تطبيق تكنولوجيا المعلومات في مجال الإبداع، خاصة تطبيق الوسائط المتعددة، إبراز القواسم المشتركة بين لغات الإبداع في إطار علم الرمزية.

ج - **تربية الثقافة:** أصبحت الثقافة علماً مستقلاً بنفسها وصناعةً قائمةً بذاتها وزاد الحاجة إليها تنامي ظاهرة العولمة، وما صاحبها من تداخل أمور الثقافة في أمور الاقتصاد والسياسة وهي تركز على توعية الفرد بالجوانب الاجتماعية للتنمية المعلوماتية، ودور القوى الرمزية في أداء المنظومة المجتمعية ككل، وأن يلم بالفكر الثقافي المقارن ومناهجه، وما تعنيه مفاهيم الأنثربيولوجيا فيما يخص الثقافة النسبية، ومنظومة القيم والقضايا المتعلقة بعولمة الثقافة فيما يخص حقوق الإنسان والأقليات وانقراض اللغات، بجانب الخلفية النظرية، يجب على المهني الثقافي في زمن العولمة، أن يمتهن مهارة التفاوض والحوار عن قرب وعن بعد عبر الإنترنيت.

د - **إعلام الثقافة:** يغطي هذا الفرع الأمور المتعلقة بالثقافة العلمية والمعلوماتية والثقافة اللغوية والثقافة الدينية وثقافة الفنون والتراث. كما يحظى إعلام الثقافة باهتمام كبير من وسائل الإعلام. وتوفر تكنولوجيا الوسائط المتعددة وسائل عدة لجعل الرسالة الإعلامية أكثر وقعاً وأشمل، فلم يعد كافياً أن تُعْرَضُ روائعُ تراثِ ثقافةٍ ما، دون طرحها في سياقها التاريخي

وإبراز صلتها بالحضارة الإنسانية، وإمكانيات مزجها مع تراث الثقافات الأخرى.

هـ - **قيم الثقافة:** إن ثقافة المعلومات وأهمها الحرية الثقافية، والمقصود هنا حرية الجماعات، أن تختار ثقافتها، وأن تحدد هويتها طبقاً لما تراه ملائماً لها ولتاريخها. وتتولد عن هذه القيمة قيم أخرى مثل: احترام ثقافة الغير، وعدم إصدار أحكام قِيمِيَّة على هذه الثقافات، والحفاظ على التنوع الثقافي، وإشاعة قيم التسامح الثقافي.

و - **إبداع الثقافة:** ويقصد بإبداع الفكر الثقافي ذاته، أن أظهر لنا عصر المعلومات عن حاجتنا إلى هذا النوع من الإبداع ويشمل التالي: - استحضار تنظير ثقافي جديد، قادر على التعامل مع المتغيرات في عصر المعلومات.

- ابتكار مناهج جديدة في المزج بين الثقافات فكرها - إبداعها - قيمها - لغتها، وكذلك فيما يخص حوار الأديان والمقارنة بين اللغات العالمية.

- كيفية بعث الحياة في التراث الثقافي ليساهم في معترك الحياة المعاصرة وإعادة كتابة التاريخ الإنساني بتكنولوجيا المعلومات، وبخاصة الخائلي منها والوسائط المتعددة وهناك من يقول إنَّ الإنترنيت ستزيد من الإبداع عبر الإبحار اللامحدود في فضاء المعلومات، وتوفير وسائل التعلم الذاتي يساعد على نمو التفكير المنطقي والمنهجي، وتنمية القدرات الذهنية وخاصة من خلال التعامل مع النظم الآلية والبرمجيات، وهناك من يقول إنَّ الإنترنيت ستحيل الإبداع إلى نوع من الاجترار الذاتي، ليصبح الأدب وثائقياً، والتشكيل، كولاج (قص ولصق) والموسيقى، إلى مزج من الإلكتروني ويصبح إبهار العرض واستغلال إمكانات وسيط الإعلام عوضاً عن مضمون الرسالة، التي ينقلها تحقيقاً لمقولة (الوسيط هو الرسالة) التي أطلقها (مارشال مكلوهان) رائد التنظير الإعلامي.

المكونات الداخلية لمنظومة ثقافة المعلومات العربية:

أ- **الفكر الثقافي:** حاول مفكرون عرب التنظير لثقافتنا لاستيعاب الظواهر المستجدة لمجتمع المعلومات، ولكن الصراعات السياسية حالت دون

تحقيق مآربهم، وفكرنا الثقافي يدور حول نفسه، كهرٍ يلحسُ مبْرداً يستطيب مذاق دمه، ويطرح على نفسه أسئلة قديمة جديدة: ما الأصالة؟ ما المعاصرة؟ ماذا وصلنا من الماضي؟! (عصام الخفاجي ١٩٩٩) هل الأرض تدور حول الشمس؟ ما التطور؟ أسئلة عقيمة لا تنتج شيئاً. ولكن ماذا لو دمجنا أصالة الهوية بحياتنا اليومية؟ ماذا لو استنجدت الثقافة بالعلم؟ ماذا لو استعنا بالعقل على حل مشكلاتنا؟ من يقبل منا أن نقف تائهين بين الماضي والحاضر غافلين عن المستقبل؟ عندها نصبح بلا تاريخ ولا أمل ولا أحلام. من يقف حيادياً إذا تهدد مستقبله ووطنه؟ وهذه اليابان ترفض اللغة اللاتينية عندما فرضها عليها المحتل الأمريكي عقب الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم رائدة العصر بالتكنولوجيا. نعم استسلمت اليابان ولم تستسلم لغتها، وفي إحدى الحروب الأوروبية سقطت إحدى الجبهات المقاتلة، وتوقف إطلاق النار بين الطرفين، ولكن استمر أحد المواقع بإطلاق النار حتى نفدت ذخيرته، فأرسل قائد الجبهة مسلحين وأتوا بذلك المقاتل حياً، فسأله: لماذا تطلق النار وقد سكتت كل النيران؟ فأخرج من جيبه ورقة مكتوباً عليها بلغته رفعها أمام وجهه قائلاً: أقاتل من أجل هذا، إنها لغتي!. الثقافة مشحونة بالعاطفة لأنها تكامل المجتمع ولها مكانتها. والفرد في المجتمع الحي يطور قدراته، يثقف ذاته باستمرار، والدين يعطي معنى للحياة ويقدم إطاراً للثقافة، ويحمي البشرية من اليأس، ومن مهمة الثقافة أن تمنح معنى وغاية للحياة، وبالثقافة وحدها تستحق الحياة أن تعاش. ونحن أينما ذهبنا في دول شرق آسيا تطالعنا: تماثيل بوذا وتعاليم كونفشيوس. وهذا منظرنا القدير (عبد القادر الفاسي الفهري): يجمع بين آخر ما وصل إليه علم اللغة وخصائص لغتنا العربية. ألم ينجح باحثو المغرب العربي في علم الخطاب وأقرانهم المصريين أن يطوعوا علم النص لما تتطلبه نصوصنا؟

ألم يثبت المترجمون في سوريا جدارتهم في الترجمة في جميع فروع المعرفة؟ ألم يثبت الطبيب السوري اقتداره في الاختصاصات جميعها. وثقافتنا مدعوة اليوم للتحاور مع نقيضها بغية المراجعة والبحث عن روافد جديدة تختلط بها،

عندها تخلق أسلوباً جديداً لحياة المجتمع ككل، وباختصار شديد تتضمن الثقافة كل الأنشطة والاهتمامات المميزة لشعبنا العربي، وهذا هو الغرب ينبش ويبحث في تراث الماركسية رغم سقوطها المدوي، لماذا لا نتعامل مع فكرنا النقيض النابع منا أو من عند غيرنا؟ لماذا أهملنا المدارس الفكرية الغربية وجعلناها في قائمة المحرمات؟ وبينما الغرب يستفيد من تجاربه ومن تراكماته العلمية لخلق منظومة اجتماعية إنسانية حديثة، تتكيف مع العصر الجديد، نشكو من غيبوبة، تمنعنا من إضافة مضامين جديدة، ننتزعها من حاضرنا لنضيفها على ماضٍ تولى. واليوم نريد فكراً نافذاً متسامياً يعزز الإبداع الثقافي، وهذا يتطلب ضبط النفس وتحريرها من شهواتها. وما العقل إلا كالأرض البور، إذا لم تعدها للزراعة وتصلحها نبتت فيها الأعشاب الضارة وسكنتها الحيوانات المفترسة، أما إذا أعددتها واستقلبتها جيداً تغيرت طبيعة الأرض، عندها كل بذرة تضعها فيها ستنمو، فهل ندع ثقافتنا يتفسخ جسدها ويتعفن تحت ناظرينا؟، إذاً لندعو الطبيب المختص قبل فوات الأوان، أليست هي الماء الذي يروي منظومتنا الاجتماعية؟ هل تصلبت شرايينها أم أصيبت بخثرة دموية نتيجة الأعمال الجراحية المعقدة؟. ألم يدعي الأمريكي أثناء قصف العراق بأنه يقوم بعمليات جراحية معقدة؟ ليشفي العراق من أمراضه المزمنة. لماذا لا تتعدد الرؤى وتتداخل التخصصات لدينا؟ لماذا لا نمزج بين المناهج الفكرية والخبرات والمعارف؟ ألسنا بقادرين أن نرقى بخطابنا الثقافي من النص الأدبي إلى مناهج البحث العلمي المنضبط؟

ب - **لغة ثقافتنا**: إن ثقافتنا تشكو نقص في المصطلحات والمفاهيم الأساسية، وقد أغنى روادنا الكبار أمثال: (ادوارد سعيد ومحمد عابد الجابري وعبد الرحمن بدوي ومحمد أركون) لغتنا بمصطلحات ومفاهيم تميل إلى الشمولية والدقة. لغتنا هي كياننا الحي، بها نعيش، وعليها نتربى، ومعها نسافر في رحلة الوجود، نأكل بها ونلبس بها نفرح ونحزن بها، نحب ونكره ونعشق بها أيضاً، وعبقرية العربي تتجلى في لغته المكتسبة بالأمومة، لكن تكريس اللهجة المحلية حاملة للرسالة الثقافية بديلاً عن اللغة القومية

هو الانتحار الجماعي على عتبات التاريخ. ولو فعل أحدنا ذلك أو طلب منا برهاناً، نحيله إلى تجارب الأمم، وعلى مواقف سائر الشعوب وعلى قرارات جميع الأنظمة، ووعينا بلغتنا كسلاحٍ حضاريٍ بأيدينا، فإذا زهدنا فيه انقلب ضدنا، وغدا الرامي مرمياً، والقناصُ فريسةً. وهذا يستوجب دقَّ ناقوس الخطر وإطلاق صفارة الإنذار، وتشغيل الأضواء الكاشفة. أما بالنسبة للغة الإبداع مازلنا بعيدين عنها لتخلفنا في جميع المجالات، وعلى وجه الخصوص الفنون، وهنا يبرز (حسام الدين زكريا) المهندس البحري، ليقدم إلى المكتبة العربية أول معجم لمصطلحات الموسيقى العالمية ومفاهيمها وأعلامها ويوثق تراثنا مع تراث الآخرين.

ج - **تربية ثقافتنا**: تحتاج المؤسسات الثقافية العربية إلى تطوير في كل المجالات الرسمية والشعبية، لتصبح قادرة على الحوار مع الثقافات الأخرى، وهذا يتطلب إعداد الكوادر والمناهج الحديثة والتركيز على مناهج التفكير والخروج عن النمطية المتخلفة، وإدراج علوم جديدة وفروع حديثة للمعرفة وثقافة المعلومات ضمن مناهج الدراسات العليا في الفلسفة والإعلام وعلم الاجتماع. ولا ضرر في ذلك، فقد كانت الشعوب وما زالت تقتبس من بعضها البعض، وليس من مجتمع يتطور في عزلة، بل كان يتأثر في تطوره بالشعوب والثقافات الأخرى وعلى مستوى التكنولوجيا، ليست تربية الثقافة تعالياً معيناً عن الحياة، ولا ولعاً مرضياً بالماضي، ولا اهتماماً بالأسلوب بدلاً من الجوهر.

د - **الإعلام ثقافتنا**: يبدي إعلامنا اهتماماً ملحوظاً بالثقافة سواء منها المرئي أو المسموع والمقروء، لكنه لم يركز بعد على المعرفة بأنواعها، ولا على ثقافة المعلومات، مجرد أحاديث إذاعية ومقالات أو ندوات يتناولون فيها القضايا بطريقة فجة وخاطئة، ووسائل الإعلام هذه أصبحت أداة لتسطيح الفكر ونشر الأفكار البسيطة، وتعوزها العمق والجدية والإحاطة ولا تترك أثراً يذكر في نفوس المشاهدين، وسرعان ما تنسى لأنها منزوعة من سياقها، تخضع لألاعيب اللغة والتضليل، ولا تترك أثراً في حياة المجتمع، ونشرات

الأخبار أصبحت (للحقن) والبرامج التلفزيونية يتوسلون بها الهجوم الشخصي، دون التعاون لإخراج فكرةٍ مفيدةٍ لمجتمعاتنا العربية.

هـ - **قيم ثقافتنا:** مما لاشك فيه أن الحرية الثقافية تختلف عن الحرية الفردية، فهي تخص الجماعة، ولا وجود للحرية الثقافية دون الحرية الفردية، وحرمان الإنسان العربي من حريته يعني حرمانه من حقوقه في التصدي لكل معتد آثم. بالثقافة وحدها يجد العربي هدفاً للحياة ويشعر بهويته من خلال استيعاب قيم ثقافته لتصبح قيماً إنسانيةً خاصةً به، ولا حرية ثقافية في غيبة حرية أعضائها. وهل نفهم ثقافتنا من خلال نظرة المجتمع أم المجتمع يفهم بطريقة أفضل من خلال منظومة ثقافته؟

وتاريخنا يُنَبِّئُنا أنَّ من قيم ثقافتنا احترام ثقافة الغير، ويمنعنا من تقييم أو اختزال ثقافة الآخر ويحضنا على إشاعة قيم التسامح الثقافي، فالثقافات ممتزجة مع بعضها تلبي حاجات الإنسان الطبيعية، فيما يخص حوار الأديان وليس صراع الحضارات، والتنوع الثقافي بدلاً من ثقافة سيدةٍ مستبدةٍ، هدفها كسب المال بالحد الأدنى من الجهد.

ثقافتنا على الإنترنيت:

١ - **ملامح الصورة البارزة:** لا يمكن أن تكون صورة ثقافتنا العربية على الإنترنيت، إلا صورة عن المشهد الثقافي الذي يسيطر على الوطن العربي بأزماته وحواراته، وهذا لا ينفصل عن المشهد الاقتصادي والسياسي وعن أحوالنا الداخلية، فهي مرآة كاشفة عن حيوية الشعوب، ونشاطاتها العلمية والثقافية، ولا ينشأ هذا من فراغ، فلابد أن تتوافر لها البني التحتية، القادرة على إنتاجها وإدامة تحديثها وما هي إلا أداةٌ لطرح نتاج الفكر، وأنشطة المؤسسات العلمية والثقافية، وحصاد المؤتمرات والندوات ومناهج الدراسات والبحوث. تظهر همة أفرادها وواقع ظروفها وخطابها الذي يتفاعل بداخلها، إذاً لا بدَّ من مداومة تحديثها ورصد وتحليل ما يقوم به الآخر: الموالي والمعادي، المتقدم والنامي، ونحن نملك الإمكانات الكافية لتحسين أدائنا. ولا نقول أن خطتنا يجب أن تنتظر حتى تتوافر البنى التحتية والظروف

الاجتماعية المواتية، فهي عملية دائمةٌ ومستمرةٌ، ولدينا بطبيعة الحال إمكانات لتحسين الصورة بشكلٍ جيد، ويمكن تلخيصها بالتالي:

- غياب عنصر التنسيق والمشاركة.

- مشهد حزين لثقافتنا العربية ناتج عن تقاعسنا وتكاسلنا أكثر مما يقوم به الآخرون لطمس جهودنا.

- تساهم في تشكيل ثقافتنا فرقٌ متنوعةٌ تختلف طبيعة أهدافها ورسالتها بصورةٍ كبيرةٍ.

- أبرزها مؤسسات الصحف والإعلام الرسمية العربية، وغرف التجارة ومواقع مجلات العربية، منافذ بيع الكتب العربية، وأشرطة الكاسيت والفيديو والموسيقى العربية، أقسام الإذاعات العربية في الإذاعات الأجنبية أقسام الدراسات واللغات الشرقية الأسيوية والإفريقية واللاهوتية بالجامعات الأمريكية والأوروبية، مواقع اتحاد الطلبة العرب بالجامعات الأمريكية، أفراد مسلمون غيورون على دينهم ينشرون مبادئ الإسلام. (نبيل علي، الشارقة ١٩٩٨) - تطغى الأمور المتعلقة بالعقيدة ونظام القيم وبخاصة الأوضاع المتعلقة بوضع المرأة في الإسلام، على كل النواحي الأخرى وباستثناء فنون الزخرفة والعمارة تظل غائبةً تلك النواحي المجهولة والمهملة من ثقافتنا وحضارتنا، كالموسيقى والشعر والأدب والسينما والمسرح واللغة والتراث الشعبي والحرف، ويتركز معظم الحديث في تناول إسهاماتنا الثقافية والحضارية على الماضي وإغفال شبه تام على الحاضر.

- ما يُخجلُ في خطابنا على الإنترنيت انعزاليةُ معرفتنا التاريخية، فهي تنأى عن الدراسات التقابلية الجادة منطوية على ذاتها، لا تطرح قضايا في سياقاتٍ ثقافيةٍ وحضاريةٍ وإنسانيةٍ أوسع. هذا عن المضمون، أما عن أساليب عرضه فتتسم بالبدائية وعدم استغلال الإمكانات العديدة التي تتيحها ثقافة الإنترنيت.

- يتصف نشاطنا الثقافي على الإنترنيت بطابع ردّ الفعل والانفعالية وتعوزه مهارات الحوار، ومناورات التفاوض وكله يتجاهل نوعية المتلقي.

- خطابنا الثقافي الديني ذو طابع صدامي.

- كثيراً ما يتناقض خطابنا الثقافي مع نفسه ليس لغياب التنسيق بل بسبب نقل البعض منا خلافاتهم الداخلية إلى الساحة العلمية للجدل.

- غالبية اللغة على الإنترنيت باللغة الإنكليزية، وكثيراً ما تعد أو تترجم من مصادر عربية من قبل بعض العرب المسلمين المهاجرين، وهؤلاء على الرغم مما لديهم من فهم عميق لعقلية المتلقي الغربي، يعوزهم الفهم العميق والنظرة الشمولية لتجديد الخطاب الثقافي العربي، ولسوء الحظ مازالت معظم المحاولات الجادة لتجديد الثقافة العربية، حبيسة اللغة العربية، لضعف الترجمة من العربية إلى الإنكليزية، ومما يدمي القلب أن غالبية العرب الجادين مازالت صلتهم بالإنترنيت ضعيفة. مقارنة بصورة العدو الإسرائيلي على الإنترنيت.

- **رصد العدو الإسرائيلي على الإنترنيت:** كما يجب علينا أن نرصد النشاط الإسرائيلي في جميع المجالات، ونحشد كلَّ جهدٍ عربيٍ وقوميٍ على مستوى التخطيط أو التنفيذ أو التقويم. وهذا الرصد يضاهي الشأن الأمني أو يفوقه، لأن إسرائيل تعمل على تشكيل صورة للثقافة اليهودية، تقوم بها مراكز بحوث صهيونية داخل إسرائيل وخارجها بالجامعات الأمريكية والأوروبية ومواقع الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم واتحاد طلبة الصهاينة - ومواقع المعابد اليهودية في العالم وبعض مواقع الكنائس المسيحية داعيةً إلى حسم الخلافات بين المسيحية واليهودية. بينما نحن المسلمين لا ننسى بعض الإشكالات البسيطة القديمة، والتي مازالت كرةً من نارٍ نتقاذفها بين بعضنا.

- يغطي الخطاب الثقافي اليهودي خلال الإنترنيت عناصر منظومتي الحضارة والثقافة: من الفلسفة إلى الفولكلور ومن نظرية الأدب إلى قصص الأطفال، ومن معالم التراث الثابت إلى أيقونات المعابد ومن التاريخ إلى سحيقه وقديمه وحديثه إلى قضايا الحاضر، من شعر الجاهلية عند العرب إلى شعراء اليهود في إسبانيا ومن النواح والبكاء على ضحايا الهولوكست إلى طلب الدعم لأصدقاء الجولان، من السكان اليهود والدعاء لهم بالخلاص من

عدوان سوري (لاغتصاب هضبة الجولان)، كما يعكس الخطاب اليهودي على الإنترنيت الاهتمام الشديد بكل المراحل العمرية، والمشكلات الصحية لكبار السن إلى الأزمات النفسية إلى المطالب التربوية لأطفال الروضة ورعاية الشباب، وتظهر الصورة بوضوح بين مواقع بث وتبادل معلومات الثقافة اليهودية عبر الإنترنيت وهذا يدل على أن هناك إستراتيجية متكاملة يجري تنفيذها بدقة وتوزع من خلالها الأدوار.

- يتحاشى الخطاب الديني اليهودي المواجهة مع نظيره المسيحي، وهو يتحالف معه وينسق ضد التيار الإسلامي، ويتجنب نقاط الاختلاف، ويركز على عقلية المتلقي المسيحي وحدود معرفته، والمواضع الحساسة في عقله ووجدانه، والحوار المسيحي اليهودي ذو أهداف عملية، محددة، فهو يسعى إلى انتزاع شوكة الخلاف، ويضغط على الكنيسة الكاثوليكية لإدخال تعديلات في التاريخ المسيحي لخدمة الإستراتيجية اليهودية.

- حشد التأييد الشعبي لليهود وقضاياهم، وذلك بإقحام العنصر اليهودي بالقوة في معظم الأمور لتحظى بالتعاطف العالمي. وكل ممارسة إنسانية ضد حقوق الإنسان يختلق لها شقها الخاص بمعاداة السامية، وهذا اللوبي الصهيوني يقوم بعملية حادة لتكثيف العداء ضد الإسلام والمسلمين، والربط بين الإسلام ومشاكل العصر، وكل ما هو سيئ ومرفوض يرجعونه للإسلام.

- تسعى إسرائيل إلى تحسين صورتها الثقافية على أنها (موازييك من الأفكار والثقافات واللغات)، وتقول أنها تجمع بين القديم (القدس) والجديد (تل أبيب) وبين صحراء النقب والوادي الخصيب في أرض الجليل، كما تجمع بين روحانيات الشرق وثقافة الغرب، وتزعم أنها مهد الحضارات وصاحبة التاريخ.

(علاقة ثقافتنا العربية بالزمن: يقول أرسطو: (لابد من مسة جنون في عقل المفكر).

الزمن هو واحدة من أهم المشاكل التي تواجه الوجود الإنساني، وحركة الإنسان تتجه نحو المستقبل، ويشكل التغير الاجتماعي المسار الوحيد والثابت

في موقف الإنسان من الزمن، باندفاعه نحو المستقبل بلا حدود، ومن هنا يجري تصنيف الشعوب: تقليدية – معاصرة – حديثة.

فالتقليدية: تعيش في كهوف الماضي. أما الحديثة: فتعيش اللحظات الآنية التي تقتضي الإبداع والمبادرة والمغامرة، نحو آفاق وأعماق المستقبل. أما في المجتمعات التقليدية فالتغيير هو تهديد للأمن والاستقرار، وهذا يضمن الحماية الذاتية ضد كل ما يهدد وجودها، يساعدها على التكيف مع ثقافتها. التغيير والديناميكية سمة المجتمع الحديث، والجمود قانون ثابت لدى المجتمعات التقليدية، وهنا نحن أمام ثقافتين: إحدهما حديثةٌ تقبل التحدي والمجابهة، مرنة توليدية تلبي طموحات مريديها، والثانية لا روابط بين عناصرها، وتخاف الغد وتمجد الماضي (عز الدين دياب ١٩٨١). وحيث يزحف الماضي إلى الحاضر ويعيد إنتاج نفسه في المستقبل في المجتمعات التقليدية الجامدة، (ويقول الإنجيل: تكون الحكمة مع القديم) (آلفين توفلر ١٩٩٠). وهذه ثقافةٌ تنتمي إلى مرحلة سابقة يعيش فيه السحر والشعوذة وأخذ الحذر من كل تطور وإبداع، والموقف من الزمن له أهميته في تاريخ الحضارات، حيث يشكل معادلةً صعبةً تواجه الأمم والشعوب في طريق حضارتها وتقدمها، والتحرر من الزمن الماضي وسجونه الجهنمية يشكل بداية الخلاص والانطلاق إلى النهضة الحضارية، وثقافتنا تقدس الماضي الزاحف إلى الحاضر والمستقبل، وهذا يعني توقف التعليم والإبداع والتعلم وجموده هو الآخر، ولا نتحرر من قيود الماضي وخرافاته إلا بالتربية والتعليم، والفرد لا ينظر إلى نفسه والعالم إلا من خلال ثقافته، وعندما تتجمد هذه الثقافة ولا تتجدد تضمحل وتموت. وتَحَوّلُ بالتالي بين الفرد وبين إدراكه لذاته وغيره، وهناك صلةٌ بين تجدد الفرد وتجدد المجتمع فكل منهما يجدد الآخر. (عبد الله عبد الدايم ١٩٩٨) وإليك حادثتين تعبران عن الثبات والتغيير: الأولى يرويها (آلان توفلر) فيقول: (إنّ فتاةً أمريكيةً راحت تبحث عن محلٍ تجاريٍ لبيع الحلويات كانت قد مرت به منذ يومين، وهو قريب من منزلها. وبعد طول عناء لم تستطع العثور عليه، فعادت وهي تبكي وتقول لأمها: هدم المحل

التجاري واستبدل مكانه. والحقيقة لم تكن كذلك، فالفتاة قد تاهت عن المكان. أما الحادثة الثانية: فقد حدث لأحد الطلاب العرب في فرنسا، كان أثناء إقامته يتردد على مكان تباع فيه السيارات القديمة وكان المكان واسعاً. وبعد فترة من الانقطاع عنه، زاره مرة ثانية تحت ضغط الحاجة، وكان على معرفة ودراية جيدة بالمكان، إلا أنه لم يهتد إليه وأنه بالأصل ينتمي إلى ثقافة تقليدية، فسر الأمر بأنه قد تاه عن المكان الحقيقي، وتوجب عليه أن يسأل عنه من جديد، وأخيراً تبين لديه أنه لم يكن تائهاً عن المكان بل حدثت تغييرات بنائية في المكان أدت إلى ظهور مبان جديدة. فلو كانت الفتاة الأمريكية مكان الطالب العربي لأدركت بسرعة أن التغير السريع هو علة غياب المكان، هذه نبضة في نمطية التفكير النمطي المتخلف.

وفي ما يلي يقدم لنا الدكتور (فؤاد زكريا) تحليلاً لواقع الثقافة العربية، ويضع لها وجهين، الأول: عجز الواقع عن اللحاق بالفكر حيث يكون الفكر متقدماً والواقع جامداً. أما الوجه الآخر: في أن يكون الواقع متطوراً أكثر من الفكر، وهذا ما يحصل في المجتمعات المتقدمة حيث يكون الفكر عاجزاً عن مواكبة التطور. أما أزمة ثقافتنا ليست هنا أوهناك إنها متكلسة (فؤاد زكريا خطاب العقل العربي١٩٨٧). وبهذا يريد أنصار الثقافة المنغلقة عقلاً مخدراً نائماً مستلقياً، لا يسأل، مطواعاً، وهم يريدون أن يقولوا لا نريد عقلاً لأنه ليس مطلوباً ولا مرغوباً لدينا، لأن ثقافتهم هابطة (المرجع السابق) يلونون ويشكلون واقعهم على مقاسهم، الماضي محنط لديهم وهم في داخله. (المرجع السابق) وقد قال أحد النقاد إننا نعيش بين سنداق ثقافتنا ومطرقة العالم المعاصر وحركته السريعة. (تركي الحمد. ١٩٩٣) بالعالم يتحول من حولنا وأمام أعيننا، ويقدم سيناريوهات حول المستقبل متغيرة، ونحن أسرى الفتنة الكبرى: صفين وكربلاء وحطين وعين جالوت (نفس المصدر السابق). العالم يتحدث عن المستقبل ونحن نجتر الماضي. وننقسم حوله فتنة كبرى لا وجود لها إلا في ذهن من خان شرفه وكرامته لقاء مكاسب شخصية، فنحن أمة تنتمي إلى الماضي ذهنياً ونعيش في الحاضر مادياً ونريد السيطرة على

المستقبل أمـلاً وحلمـاً، دون أن نمتلـك مفـاتيح المستقبل فكيـف يكـون ذلـك؟ (نفس المصدر) ألم تـستفد أوروبـا مـن التقدم العلمـي الـذي حققتـه الحضارة العربيـة الإسـلامية في إسـبانيا في وقـت كانت تعـاني فيـه أوروبـا مـن التخلف، فالاستعمار جاء نتيجة للتخلـف العلمـي الـذي كـان عليـه العـالم العربـي وليس سبباً لذلك التخلف، وهذا لا يبرئه في حرصه على استمراره لترسيخ التخلف وتعميقه له، لأنه يخدم مصالحه، وكل هذا يعـود إلى عوامـل داخلية وخارجيـة مناوئـة لإحـراز أيّ تقـدمٍ علمـيٍ، وقـد تكـون العوامـل الداخليـة أكثـر فداحـةً. ولكننـا جميعـاً: نميل إلى تحميل الخـارج كل المساوئ لتبرئـة أنفسنا - ونجد الإنـسان الغربـي يهتم بالبحث عـن الأسـباب والعلـل - ويعـني بمـا هـو ملموس ومحسوس من الأشياء، بينما الفكر العربي:

- يـرد الظـواهـر الـتي يعجـز عـن تفسيرها إلى أسـباب غيبيـة أو إعجازيـة فائقةً للطبيعة.

- وهنـاك شبه إجماع من العلماء أن المجتمع العربي منذ سقوط بغداد بيد التتار والمغول، دخل حالة سباتٍ سريريٍ.

- إن ظـاهـرةَ المحـافظـة ورفـض التغيير والتجديد، هـذا هـو الـورم الخبيث الذي يجب اجتثاثه من جذوره لأنـه يحمـل جانبـاً قدسـياً أو ضـربـاً نـشوياً مـن الماضـي (عبـد الله عبـد الـدايم. ١٩٩١). ويـشهد (علـي حـرب) علـى معانـاة جمودنا الثقـافي فيقول: (إننا نقـيس كل شـيء علـى الـنص - الحيـاة - والواقـع والفكر والعمل والحاضر والمستقبل. إنَّ التحررَ من النص شرطٌ لقراءته قراءةً جديدةً مغايرةً وخلاقةً، وشـرطٌ لاكتشاف الواقـع، وباختـصارٍ شـديدٍ لا سـبيل إلى الإبداع ما دمنـا نتعامـل مـع الـنص كـأداة للعبـادة. وكل مـن يعطـي الأوليـة للنص على الحياة والمحافظة على التجديد يسيء إلى الحياة والنص معاً. فهل ثقافتنا قاصـرةٌ عن مواكبـة التكنولوجيا المتقدمة وبالتالي عاجـزة عـن التواصـل مع قيمها؟ وهنا نستطيع أن نقول أن ثقافتنـا: تعـاني مـن أزمـةٍ قِيَمِيـةٍ، فـالقيم العربيـة: (مـزيج غـريـب مـن قـيم الحـضارة الزراعيـة وقـيم البداوة، وقـيم مـن عصـر الانحطـاط، وقـيم الاسـتهلاك الـتي يـصدرها الغـرب إلينـا) (انطونيـوس

كرم. عالم المعرفة. ١٩٨٢) ثم يستطرد الباحث قائلاً: (إنّ العرب غير قادرين على الانصهار في حضارة العصر، لأنهم يحلمون بالحصول على انجازات العلم والتكنولوجيا بعيداً عن النظام القيمي، الذي يسمح بتطويرها، وأن العرب غير قادرين على تقديم البديل لأنهم يرفضون منطق العصر ويدعون إلى منطق الماضي، (نفس المصدر السابق).

والتطور التكنولوجي يجعلنا نقترب من حالة فريدة:

- لن يمر بها الجنس البشري.

- ويستحيل أن تبقى بعدها أمور البشر على ما كانت عليه، عندما يتم صناعة متناهية الصغر (النانو تكنولوجي).

- سوف يتم القضاء على كافة الأمراض والتغلب على عملية الشيخوخة ذاتها.

- سيتميز الإنسان بقدرته على التغير السريع وتوسيع أفاقه إلى مجالات غير محدودة.

- ويدور الآن جدلٌ طويلٌ حول احتمال أنْ يصبحَ القرنُ الحادي والعشرون بالنسبة للأجيال القادمة مجرد مرحلة من التطور في حياة المجتمع، تماثل ظهور الحياة على سطح الأرض، نتيجة التقدم التكنولوجي الذي لن تحده الحدود إنها: (الفرادة أو التفرد). ويمكن الإشارة إلى أبحاث ودراسات متنوعة:

- صادرة عن جماعات إسلامية معظمها يتهم الثقافة العربية الإسلامية بالجمود والاجترار العقيم.

- وإلى هيمنة الأفكار البالية.

- خلافات نشأت في عصر الانحطاط.

- وإلى سوء فهم العلاقة بين الدين والسياسة. (جميل مطر. ١٩٩٨) ويتحدث زكي نجيب محمود: (بمرارة حضارية عن إشكالية الزمن في الحياة العربية المعاصرة، وأورد أمثلة مفجعة من عمق الحياة اليومية التي عاشها وخبرها حول مسألة احترام الوقت والزمن، وهو يرجع بملاحظته هذه إلى

كتاب الاستعماري اللورد (كرومر) الموسوم بـ: (مصر الحديثة) يقول: إنّه على يقين بأن مصر لن تكون ولن تتحول في أي يوم من الأيام إلى بلد صناعي وذلك لسبب عجيب: - أن الصناعة ترتكز في صميمها وأساسها على دقة الوقت في حين أن المصريين تنقصهم هذه الدقة في حياتهم العقلية. ١٩٨٩/ ويتابع زكي نجيب محمود (بأننا جميعاً نعيش في القرن العشرين بكثير من مفاهيم القرن العاشر - نعيش في عصر الصناعة والعلم بمفاهيم ما قبل الصناعة والعلم - ومن هنا يأتي التمزق والتفسخ والحيرة - نعيش في عالم ونفكر في عالم آخر. (نفس المرجع السابق). إذاً النظرة إلى الماضي تحدد موقفها من الحاضر والمستقبل التي تسعى إلى تشكيله وتحقيقه على أرض الواقع. ولو نظرنا إلى ثقافتنا نظرة متعمقة لوجدنا مشكلة الماضي تلتهم الحاضر وتغلق أبواب المستقبل. (في هذا الزمن العربي المحدد بشروطه التاريخية زمن يجمع بين أزمنة متعددة متقاطعة متصارعة دون أن يكون أقربها إلى القرن الواحد والعشرين أكثرها تأثيراً أو حضوراً، والزمن العربي النوعي يقارب بين أقصى مظاهر التقدم، وأقسى درجات التخلف. زمنٌ من المتناقضات المتصادمة أفقياً ورأسياً في البنية الاقتصادية والاجتماعية والدولة بكل مسمياتها (السيد يسين - الفكر العربي - والزمن - أين نحن الآن من مطلع القرن؟ عالم الفكر. المجلد ١٦ عام ١٩٩٨). ويرد جابر عصفور على السيد يسين (الفكر العربي والزمن، أين نحن الآن من نهضة مطلع القرن؟) قائلاً: يتبين لنا: أن الماضي يختزن كل مشاكلنا التي نعاني منها، ويشكل خزان بؤسنا الحضاري - وأن التحرر من الآخر لا يكون إلا بتحررنا من ماضينا المعطل لحياتنا وهو ما يشكل الجانب السيء). ويقول (محمد عابد الجابري في إشكاليات الفكر العربي المعاصر ١٩٨٩): إنَّ الوجه الذي يعكس التوتر والقلق اللذين يولدهما ويغذيهما في الوعي العربي الراهن، والشعور بمأساوية وضعيّة انفصاميّة تنتمي فيه الأنا إلى الماضي، بينما ينتمي فيها الحاضر إلى الآخر). (وهذا يعني أنَّ مجتمعاتنا تعاني من حالة ازدواجية في الصميم على مختلف مستويات وجودها، تتمثل: في وجود قطاعين أو

نمطين من الحياة الفكرية والمادية: أحدهما عصريٌ مستنسخٌ من النموذج الغربي وتابع له. وثانيهما تقليديٌ (أصيلٌ). نموذجٌ تراثيٌ متحجرٌ متقوقعٌ، ونجد النمطين يسيران بخطين متوازيين ومتداخلين ومتنافسين في حياتنا اليومية والاقتصادية والسياسية) (نفس المرجع) وأنَّ النهضة والتقدم لا يتمان إلا من خلال العمل وبناء روح التجديد وعقل الحضارة، ولا بد لكل نهضة من ثورةٍ ابيستمولوجية في الثقافة يُمَكِّنُها من تحرير العقل العربي من الجمود والتبعية والكسل، وهذا مرهون بالتحرر من الموروث الخرافي. والغرب لن يستطيع التقدم إلا بربط الثورة التكنولوجية بالثورة الثقافية. وبعد هذا كله ألم نرض بالتبعية؟ لكنها لم ترض هي بنا!!

فثقافتنا: شعرٌ يموت، ومسرحٌ يحتضر، وكتابٌ بلا قراء، وسينما بلا جمهور وأسئلةٌ مملوءةٌ بآلام الجروح، لعل زهور الأمل البيضاء تنبت في شقوق الظلام، لماذا لم نأخذ بالمدارس الفكرية كالبنيوية (مثلاً) إلا بعد انحسارها؟ والمفجع كيف تركنا إسرائيل تلتف حول رفضنا المعلن للتطبيع معها؟ من خلال صيغ مختلفة من التطبيع الصامت. لماذا تركنا إسرائيل تقتنص اتصالاتنا؟ وكيف نجد بيننا من لا يزال يرى الديمقراطية وحقوق الإنسان أمراً غريباً علينا؟ لماذا هذه الخصومة بين فكرنا القوميٌ والفكر الدينيٌ والسلفيٌ والعلمانيٌ؟ كل ما يجري بيننا يدل على احتضار الفكر العلمي لدينا. يتمثل هذا في عناوين بعض البحوث العلمية: التي عُرِضَتْ في جامعة الأزهر حول (تفسير علمي لأحد مظاهر التسبيح في الجوامع) وآخر جاء عنوانه: (نموذج في التوجيه الإسلامي لفيزياء النسبية: الحد الأقصى للسرعة الكونية) (نربيهم كما نريد أو كما ينبغي أن يكونوا عليه في عالم شديد التنافس. (أسامة أمين الخولي١٩٩٧ – ١٩٩٨). فالقضايا المطروحة في ثقافتنا العربية المعاصرة شبيهة بالتي كانت تطرح في العصر الوسيط البيزنطي حيث دارت معارك حامية الوطيس بين العلماء والكهنة يتساءلون عن جنس الملائكة؟ وعن عدد الملائكة الذين يستطيعون الرقص على رأس دبوس واحد في اللحظة ذاتها؟

- **ثقافة تكنولوجيا المعلومات**: إن إشاعة المعرفة وإتاحة المعلومات تزيدان من فاعلية المجتمع وحيويته فتتسع مساحة الديمقراطية وحصانته ضد الاستبداد. وحتى تحقق تكنولوجيا المعلومات هذا الدور الحيوي لابد: - من تحسين واستغلال مواردها - لا يتحقق الذكاء الجمعي بتوافرها وإنما على تحديثها وتنظيمها وأرشفتها - يتوقف على إشاعة قيم مجتمع المعلومات وأخلاقياته - لا يمكن الفصل بين التنمية والقيم الأخلاقية مثل (توزيع الدخل، والثروات، والمساواة بين الرجل والمرأة وقضايا العمل). وتشير جميع الدلائل على أن صلة تكنولوجيا المعلومات بالأخلاق ستزداد قوةً واطراداً، وبخاصة بعد لقائها مع التكنولوجيا الحيوية، ونحن بحاجةٍ ماسة إلى أن نتخذ من الثقافة منطلقنا وليس العكس. وربما فشلت التنمية العربيةُ السابقة لأنَّ الثقافة لم تكن هي القائدة. هذا بالنسبة للحاضر أما بالنسبة للمستقبل: يعتبر التقدم التكنولوجي أحد الخصائص السائدة في القرن الحادي والعشرين، ويدور الآن جدلٌ حول احتمال أن يصبح القرن الواحد والعشرون نتيجة التقدم التكنولوجي الهائل في مجال الآلات الذكية المفكرة التي تتجاوز قدرات الإنسان الحالي بكثير، فالمجتمع الإنساني يسيل إلى مرحلة ونظام يختلفان عن الماضي والحاضر لدرجة أن هناك من يرى الفارق بين هذه الكائنات الذكية المفكرة وبين الإنسان الحالي، شبيه بالفارق بين هذا الإنسان وبقية الكائنات الحية. إذاً ستستمر عملية التحول والتغيير، فلن يحدها حدٌ أو يقف بطريق تقدمها عائقٌ، وهذا ما يحدد ملامح الغرابة والتفرد في مجالات الحياة جميعها، ويصعب فترة تحديدها، كما يصعب قياس ما سوف نشاهده من تسارعٍ في حركة التقدم والتحول في مجال النانو تكنولوجي والبيوتكنولوجي، وما يترتب عليه من اضطرابات في أسلوب الحياة والعلاقات المصطلح عليها بين البشر من ناحية وبين الإنسان والكون بأسره من ناحية أخرى، وهذا ما يترتب عليه خروجاً عن القوانين والقواعد والمبادئ المسلم بها في العلم. وتأثيره على الجنس البشري خلال المائة سنة القادمة، سيوازي ما يحدث خلال أكثر من عشرين ألف سنة بمعدلات سرعة التغيير الحالية.

وبمعدلات حجم التقدم الذي تم إحرازه خلال القرن العشرين، وهذا سيصيب الإنسان بالذهول والصدمة، ومهما زادت سطوة التكنولوجيا يجب ألا يكون المجتمع تابعاً لها، بل يجب أن تكون هي تابعة له الملبية لمطالبه المتوائمة مع قيمه، وهي تبدو وكأنها مستقلةٌ بذاتها منصهرةٌ داخل الكيان الاجتماعي، ولكن التكنولوجيا غير محايدةٍ فهي لا تتحرر من القيم التي تعمل في داخلها، فهي لا تحمينا من سطوة السياسة وتضليل الفكر، وتكنولوجيا المعلومات تتضح بالتعريف التي وضعته منظمة الأمم المتحدة وهو: أنَّ التنمية لم تعد تقاس بالتقدم التكنولوجي والاقتصادي بل إن الأساس هو توسيع نطاق العلاقات والخيارات أمام القائمين بالجهد التنموي) (جابر عصفور١٩٩٧) وهذا يعني في المحصلة أن غياب المعرفة وعتمة المعلومات سيؤديان إلى تفكك المجتمع وتفسخه، وإن أي تنمية تكنولوجية منزوعة من سياق مجتمعها وثقافته هي تنمية بلا روح، لأن الثقافة هي التي تقود ولاتُقَاد، وتحطم القيود.

وفي هذا الزمن يقاس التقدم بمعاييرٍ جديدةٍ وهي استخدام الطاقة: في البداية كانت عضلات الإنسان ثم الطاقة النباتية والحيوانية إلى طاقة الموارد الطبيعية (فحم - غاز - نفط) ومن أراد التقدم في هذا العصر فليس أمامه سوى الطاقة النووية فهي معيار العصر. فالغرابةُ حالةٌ غيرُ مسبوقةٍ في تاريخ الجنس البشري، والتغيرات الهائلة التي ستحصل ستتطلب قدرات مماثلة لتلك التغيرات اللا محدودة، تغييراتٍ لا تنتمي للبيئة التي ألفناها، وهي بحاجةٍ إلى فلسفةٍ جديدةٍ وأخلاقياتٍ وعلومٍ جديدةٍ لا عهد للإنسانية بها. عندها نتمكن من السيطرة على الرياح وحركة الأمواج وعلى الجاذبية وستتمكن البشرية من التحكم بقوى الحب. وبذلك نتمكن من اكتشاف سر جديد للنار أي سر الحياة (أسطورة بروميثيوس).

الفصل الثالث

كن حكيماً كالأرض، وإلا فادفن في جوفها كل ما درست في الكتب

منظومة الفكر الثقافي

آلات وتوجهات فكر ثقافة المعلومات:

أ - **العقل الإنساني:** إن هذا العقل حير العلماء والفلاسفة، ولازال هؤلاء يسعون إلى إزاحة الستار عن المخ البشري ويتساءلون كيف يعمل؟ وكيف يدرك المعاني والحقائق؟ وكيف ينظمها على شكل كبسولات؟ وكيف يقيم هياكله المعرفية؟ كيف يولد العبارات؟ وكيف يقيم العلاقات مع الحواس؟ وكيف يدرك حقائق الواقع؟ وكيف يتعامل معها بصورة مرنة وكيف يكتسب المعرفة الجديدة؟ وكيف يدمجها مع سابقتها؟ وكيف ينظم تلك المعرفة ويوظفها؟ وما قدرة ذاكرته على حل المسائل؟ وما مفردات أبجديته الذهنية؟

في البداية جعله (أفلاطون) كمقسم هاتف يستقبل مكالمات السماء، ويأتي (ايمانويل كنط)، ليجعله ذا قدرةٍ ذاتية قادرة على التعامل مع المحيط ومفاهيم الوجود، ويرقى بآلة الفكر الإنسانيّ، من كونها لوحاً أبيضاً ذا طابعٍ تسجيليّ، تتعامل مع مفاهيم الوجود الأساسية مثل: الزمان والمكان، وإدراك السبب والأثر، ويأتي (هيجل) ليجعل منه آلةً للمنطق الجدليّ الديناميكيّ. ويجعل منه (كارل بوبر) آلةً ناقلةً للحقيقة من المقدمة إلى النتائج (استقرائية). ويجعله علماء التشريح والكومبيوتر كمؤسسات المجتمع حيث نرى (ميرفين مينسكي) عالم هندسة المعرفة يتصور العقل مُجْتَمَعَاً مكوناً من مؤسساتٍ ذهنية متخصصةٍ تذكر بالنموذج البيولوجي لكل قسم منه وظيفته المتفاعلة مع الأخرى، أما أهل الذكاء الاصطناعي وليد عصر المعلومات، فيرون المخ البشري شبكةً كثيفةً مليئةً بعناصر الذاكرة، ومعالجة المعلومات في المخ شبيهة بالآلة الذكية، تستخدم مهارات اللغة الإنسانية. إذا لم تعد ملكة

الذكاء محصورةً على الإنسان بل أصبحت موجودةً لدى الآلات والنظم، ومجتمع المعرفة له ذكاؤه الجمعي وذاكرته الجمعية وشبكة أعصابه (الإنترنيت)، ونستطيع أن نقرن تطور الفكر الاجتماعي بتطور العقل البشري، فمرحلة الحس الغريزي يقابلها مجتمع الأسطورة، والتعامل مع المحسوسات يقابله زمن الأحجار والمعادن، ومرحلة المجردات يقابله مجتمع المعرفة، والعقل اليوم يتعامل مع الواقع بطريقةٍ غيرِ مُباشرَةٍ عن طريق المعلومات، ولكي ندرك كيف يكتسب الطفل لغته الأم في الإطار الذهني للعالم الشهير (نعوم تشو مسكي) عالم اللسانيات الكبير، وهو النموذج الذي أطاح بالنموذج السلوكي (لسكينر) للمخ البشري متبنياً فرضية (جون لوك) في كونه لوحاً أبيضاً، تسجل عليه المعارف اللغوية من خلال ثنائية الاستثارة والاستجابة، أما (ديفيد هيوم) فقد جعل من العقل مسرحاً لحوار الانطباعات، والأفكار آلة لتجميع هذه الانطباعات وتلك الأفكار من عناصر أصغر شبيهة بأسلوب القص واللصق - وأظهرت البحوث في علم الذكاء وعلم النفس التربوي واللغوي، ضرورة الغوص في التفاصيل الداخلية للمخ البشري وآلياته الذهنية، ويتعاون هؤلاء جميعاً في تحليل ظاهرة الذكاء وسبر أغوار المخ البشري من أجل معرفة كيف تتولد التصورات والمفاهيم كخطوةٍ أساسيةٍ لتحديد أنسب الطرق لتقديم مواد التعليم النظرية واكتساب المهارات العملية، وكيف تختزن أركيولوجيا المخ تراث الحضارة وقد ترسبت في طبقات اللاوعي الجمعيِّ وفقاً لتصور (كارل يونج)، ولقاء علم الوراثة بجيناته سيزيد من أهمية دراسة المخ البشري.

ب - **فكر الآلة:** لقد تمازج الطبيعي بالصناعي وإليك سلة من المصطلحات: ذكاء اصطناعي - حياة صناعية - عوالم خائلية - هندسة المعرفة - تكنولوجيا اللغة - هندسة السيكولوجي - تكنولوجيا الوعي - تكنولوجيا الأعصاب. وهذا يدل أنه سيأتي يوماً يحمل الإنسان قلبه ومخه على ظهره. وتكنولوجيا المعلومات خطت خطواتٍ واسعةً لصنع آلة ذكية، تسمع وتبصر وتستنتج، تحل المسائل، تبرهن النظريات، تجرِّد المفاهيم، تؤلِّف المقالات، آلةٌ مزودةٌ لفهم الكلام آلياً، تنطق صناعياً، تحاور الإنسان، وبهذا

تكون تكنولوجيا المعلومات كسرت احتكار ملكة الذكاء، لتعيده منثوراً على الآلات والأدوات والروبوتات، والنظم والمؤسسات وهنا ظهر (مجتمع التعلم) الذي يتسم بسرعة تكُيفه ونهمه الشديد للمعرفة وقدرته على إنتاجها، وهناك شبكة انترنيت لها وكيلٌ آليٌ ذكيٌ، يلتقط المعلومات ينظمها، يرشحها، ثم يعرضها على الزبائن، وتحدثنا الإنترنيت عن (دويلير) خائلي ينوب عن الإنسان في حضور اللقاءات عن بعد، ويشارك هذا الجسم الإلكتروني برأسه المجسم، في حواره مع الحاضرين، موجودين بالفعل أم خائليين، وسيظهر الروبوت تباعاً أكثر ذكاء وحنكة من الذي قبله، ويتعلم ذاتياً ويدرك بحواسه الصناعية العالم من حوله، وبهذا يكون للإنسان رفيقاً جديداً يقاسمه العمل، ولكن ما المغزى الثقافي من كل هذا؟ أن تكون تكنولوجيا المعلومات قد نجحت في إعادة إنتاج سلعها من برامج وأفلام، فإنها ستعيد إنتاج العمال أنفسهم، وقد نُسخُوا في نظم آلية وآلات ذكية، بكل ما يعنيه ذلك من إعادة صياغة علاقات الإنتاج، ومواصفات الأعمال وحساب قيمتها . وهي متعاونةٌ مع تكنولوجيا الأعصاب ومع الهندسة الوراثية، ومتعاونةٌ مع ما بداخل الإنسان من دماغ، وتعزيز مخه بنسيج صناعي، وتوسيع ذاكرته بشرائح الكترونية، ولا يستبعد أن يأتي دور العضلات والحواس، فهي تطعم الحيويَ بالصناعيٌ، وتمزج البشريَ بالآليّ. إن أهل التكنولوجيا الحيوية المعلوماتية وتكنولوجيا الإثارة الحسية يريدون أن يشقوا طريقاً مباشراً إلى المخ البشري من دون وسيط من المؤثرات الخارجية، كالمناظر والعقاقير أو الصور الخائلية، وكل هذا أصبح اليوم ممكناً، ولا يحد من استخدامها إلا الوازع الأخلاقي والخوف من المجهول، عالم بقدر ما فيه من الإثارة فيه من المخاطر، عالم تتهاوى فيه الفواصل بين الإنسان والآلة، ويتناغم ذكاء الإنسان مع ذكاء الآلة. وتبدو فيه الآلات كالبشر، وهكذا دخلت التكنولوجيا إلى عمق الأنسجة والخلايا .

- آلة الفكر وفكر الآلة العربي:

أ - تجديد العقل العربي: إنَّ مهمة تطوير العقل العربي مهمةٌ صعبةٌ وشاقةٌ للغاية سواء على المستوى الأكاديمي أو التنويري وحتى الإعلامي،

لذلك لابدَّ أن تتضافر كل الجهود المبذولة مع تكنولوجيا المعلومات لتعميق وتطوير الفكر الثقافي وتوطين تكنولوجيا المعلومات وتقنيات التربية الحديثة ولا بد من التالي إذا أردنا تطوير العقل العربي:

- لقد تجاوز تجديد العقل العربي كونه مطلباً ثقافياً، وأصبح مقوماً تنموياً لتأهيل المجتمعات العربية لدخول عصر المعلومات.

- (ولا مجال للإنكار، لا توجد عدةٌ معرفيةٌ لدى عقول نخبتنا، تكفي لبناء مجتمع المعرفة والتعلم وحوار الثقافات.

- وتكنولوجيا المعلومات-تتيح لنا الوصول إلى عقول تلك المكونات الاجتماعية، كي لا تقتصر مهمتنا إلى دراسة العقل العربي العام والمجرد.

- ونحن بحاجة إلى دراسة بيئة العقل العربي وتكوينه ومطالب تجديده، إلى تحليل نتائج هذا العقل، عندها تتضح ملامح الخريطة المعرفية العربية.

ولا بد من التالي:

أ - **حرية الفكر والرأي والإبداع**، مثلاً: هل يمكن أن تكون شجاعتك في الحرب ضد عدوك صادقة وحقيقية، إذا لم تكن لديك شجاعة الجهر بالحقيقة التي تؤمن بها، بمعنى آخر هل إذا كذبت أو جبنت في حياتك الوطنية بين مواطنيك يمكن أن تكون صادقاً وشجاعاً في حربك ضد عدوك؟ على من نطرح هذا السؤال؟ - (من يفضل الأمن على الحرية لن يلبث أن يفقدهما معاً كما يقول: (بينجامن فران كلين). ونحن العرب نفضل الأمن على الحرية، نعيش منذ قرونٍ عديدة، في ثقافة وسياسة تفضلان الأمن على الحرية، وهذا بالضبط ما يجعلنا نعيش، منذ قرون فقراء إلى الأمن والحرية في آن، فلابد من التالي:

ب - أن نعتمد إستراتيجية ثقافية، اللغة العربية فيها ركيزة أساسية.

في اللغة التركيز يكون على شقين: - المعنى ومواقع استخدام اللغة.

- تدريب الطلبة على استخدام الكتابة.
- نريد إعلاماً تنموياً يساعد التربية والتعليم.
- التخلص من عادة التلقين القاتلة للفكر.
- معالجة اللغة العربية آلياً للتنمية المعلوماتية.

الاستراتيجية الاقتصادية: النظر إلى المعلومات كمورد والثقافة كمورد اقتصادي وَتَبَنّيْ مبدأ المشاركة في الموارد، لم يعد تطوير العقل مطلباً ثقافياً بل هو مطلبٌ أساسيٌ لتأهيل المجتمع العربي لدخول مجتمع المعرفة، وقد حاول كل من مفكرينا (محمد عابد الجابري ومحمد أركون وفؤاد ذكريا ونصر حامد أبو زيد) الذين رحلوا إلى العالم الآخر في العام ٢٠١٠ م. والعفيف الأخضر، ونحن بأمس الحاجة إلى دراسةٍ تفصيلية تتناول شرائح اجتماعية مهنية مختلفة مثل: البدويّ والمدنيّ والفلاح والحرفيّ والمدرس والطالب، ولا تهمل الثقافة الشعبية – وبيئة علمية تحمي العلماء وتوفر أدوات البحث ودراسة نتائج هذا العقل، وبهذا تتضح الخريطة المعرفية للعقل العربي (عاطف أحمد ١٩٩٥). ويتطلب من العقل العربي أثناء مواجهته الآخر التالي:

- استعمال الذكاء الاصطناعي بشكل واسع وبخاصة في معالجة اللغة العربية آلياً – دراسة أثر ذوي الياقات المعدنية في فرص العمل في المجالات الدنيا مثل: (عمالة البناء) – متابعة بحوث تكنولوجيا المخ والأعصاب – تجسير الهوة بين العلم وتكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية. والجدول التالي يبين مدى الفروق بين: نمط الفكر الغربي ونمط الفكر العربي: (العفيف الأخضر١٩٩٥) ونترك للقارئ الحكم على ما يعانيه فكرنا من علل وآفات وعثرات.

نمط الفكر الغربي	نمط الفكر العربي
فكر ابتكاري	فكر تقليدي
فكر توليدي	فكر الأمثلة
فكر مفهومي	فكر سطحي
فكر تواصلي	فكر انطوائي
فكر منظومي	فكر دمجي
فكر بداثلي	فكر أحادي
فكر علمي	فكر لا علمي

فكر استشرافي	فكر رجعي
فكر حدثي	فكر قاطع
فكر مبادر	فكر سلبي
فكر محدد	فكر غير محدد
فكر متواز	فكر توفيقي
فكر جمعي	فكر فردي
فكر عولمي	فكر محلي
فكر حوسبي	فكر سردي
فكر تواصلي	فكر انطوائي

ولا شك أن مهمة تجديد العقل العربي مهمةٌ شاقةٌ وصعبةٌ على شتى المستويات بكافة: الأكاديمي – الإعلامي – والتنويري ولا بدَّ من الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات لتعميق الفكر الثقافي واستغلال هذا الفكر لتوطين تكنولوجيا المعلومات في التربية والتعليم العربية ولا بد لنا هنا من تحديد الاستراتيجيات التالية: السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والتربوية والمعلوماتية وفق ما يلي:

- الاستراتيجية السياسية: حرية التفكير.
- الاستراتيجية الاقتصادية: أن ننظر إلى الثقافة والمعلومات كمورد اقتصادي والمشاركة في الموارد.

الاستراتيجية الثقافية: أن تكون اللغة العربية المحور الأساسي.

الاستراتيجية اللغوية: التركيز على المعنى الضمني والاستخدام الصحيح للغة.

الاستراتيجية الإعلامية: أن يكون الإعلام تنمويا لا ترفيهياً.

الاستراتيجية التربوية: أن نتخلص من آفة التلقين السلبي، ونركز على احترام الذات.

الإستراتيجية المعلوماتية: معالجة اللغة العربية آلياً.

ب - **العرب والنظم المعرفية:** لن يواجه العقل العربي في حواره أو صراعه مع غيره فكراً أعزل، بل سيواجه فكراً مزوداً بذكاءٍ اصطناعيٍ ونظمٍ، وروبوتاتٍ معرفيةٍ بل ربما عقلاً أُدْخِلَتْ عليه أساليبُ اليوجينيا (علم تحسين سلالة الإنسان) الإلكترونية. وعلينا أن نستعد لهذه المواجهة وهذا يتطلب منا:

- التوسع في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي في معالجة اللغة العربية.
- دراسة أثر الروبوتات في فرص العمل المتاحة أمام أصحاب المهارات الدنيا كعمالة البناء.
- الاهتمام بدراسة بحوث تكنولوجيا المخ والأعصاب.
- إقامة الجسور العلمية والتكنولوجية بين المعلوماتية والهندسة الوراثية.

أ - **نظرة عامة للفكر الثقافي الغربي:** تشمل خريطة الفكر الثقافي الغربي المدارس العلمية وخطوط المواجهة ومناطق التداخل بينها، وهذا ما يؤكد الأساس المعلوماتي التي قامت عليه تلك المدارس من - البنيوية - إلى ما بعد البنيوية (التفكيكية) - ما بعد الحداثة - مدرسة (فرانك فورت) - ما بعد الكولونيالية - وكلها ذات صلةٍ بما بعد الحداثة.

ب - **الحداثة:** هي وريثة النهضة وحفيد التنوير، تلك الموجة التي أثرت في فكر الغرب ومن بعده فكر العالم بأسره. لقد نجحت الحداثة في تخليص أوروبا من فكر العصور الوسطى، وعرف الوعي الأوروبي واقعه وَحَرَّضَتْهُ أن يلتقط ويحرض وَيُقَنِّنَ ظاهر الواقع، وأن يخلق أدواتٍ معرفيةٍ حديثةٍ للوصول إلى الحقيقة والكشف عن الزيف، وقد نسف فكر (ديكارت) جميعَ الدعائم التي قام عليها فكر القرون الوسطى حيث كان قوس قزح من قبيل المعجزات الإلهية التي لا تفسير لها، وأقام صرحاً فلسفياً متكاملاً، أساسه مطابقة العقل للواقع فهو يتطابق مع الأشياء بقدر ما تتطابق الأشياء معه، فقد ورثت الحداثة من الفلسفة الإغريقية العقل والعقلانية، ورأت الإنسان وعالمه في صورته الكلية، والحداثة جعلت من الإنسان أسمى المخلوقات بعد أن أنزله سقراط من السماء إلى الأرض وانطلقت شرارة الحداثة بعد أن أعلن الإنسان مسؤوليته عن مصيره، وأنه صانعُ تاريخهِ ويأتي تنوير كنط ليحث على تحمل هذه المسؤوليته. وحرر العقل من جميعِ العوائق فلا شرط لإعمال العقل إلا

الحرية. وقد لخص (بيتر برجر) الحداثة في نقاط خمس: الفكر القائم على الأفكار المجردة - الفردية - اللبرالية - التوجه المستقبلي - العلمانية. وقد تمادى الإنسان بثقته بعقله وقدراته فكان اليقين العلمي القاطع وموضوعية المعرفة العلمية التي لا يرقى إليها الشك. والتطابق الميكانيكي بين الفكر والواقع، والإفراط في عقلنة النظم والمؤسسات. فكلُّ شيءٍ يخضع للتقنين المنضبط من الحسابات الفلكية إلى قياس ذكاء الإنسان، من قوانين الطبيعة إلى قوانين السوق، ومن إنتاج الفرد إلى إنتاج الجملة، يعمل كالساعة تحت إدارةٍ مركزيةٍ حازمةٍ وموحدة، فكانت العقلانية المفرطة وأصبح شعار (المعرفة من أجل التكنولوجيا) هو السائد، بعد أن كانت (المعرفة من أجل المعرفة)، ووصلت القضية إلى شعار (التكنولوجيا من أجل التكنولوجيا) وغلبت الوسائل على الغايات، واضطربت الأمور وأصبح كلُّ شيءٍ غير قابل للتوقع، ولكن تكنولوجيا المعلومات خرجت للوجود لتهزأ بكلِّ شيءٍ: بعلاقات الإنتاج الصناعيِّ وتخلخل الركائز الضرورية لمنظومته الاقتصادية حيث كشفت عن مدى الخلل في نظمه السياسية، في الوقت التي وفرت فيه تكنولوجيا المعلومات وسائل عملية للتعامل مع تعقد ظواهر الواقع، ظن فكر الحداثة في غمرة حماسه واندفاعه أنه قادرٌ على احتواء تعقد تلك الظواهر التي كانت تشغله، ولكنه كان يعاقبها إن لم تدين له ولأدواته الذهنية وترتيباته العملية، وكانت نتيجة ذلك الاختزالية والحتمية وما جرته للبشرية من ويلاتٍ وخرابٍ ودمارٍ، عندها كان لابد من مخرج إما حداثة جديدة تطيل في عمر ما سبقها من حداثة، وإما ما بعد حداثة تقتلع تلك الحداثة البائسة من جذورها.

ج - **ما بعد الحداثة:** كما رفض (سقراط) فوضى الفكر اليوناني الذي كان سائداً في أثينا، رفض (ديكارت) فكر العصور الوسطى وفتح بذلك عصر التنوير أمام حداثة الغرب، وهاهم مفكرو ما بعد الحداثة ينسفون جميع الأسس التي قام عليها عصر التنوير، واستند هذا الفكر على فلسفة (نيتشه)، وفلسفته رفضت فكر الحداثة وما بعدها من تطور (فما بعد الحداثة) ترفض النظرة الميكانيكية للعالم وترفض المفاهيم السائدة عن الحرية والديمقراطية، والموضوعية والهوية وما شاكل، وترفض السرديات الكبرى التي قامت عليها

الحضارات الإنسانية، كما ترفض الصروح الفكرية التي أقامها (ديكارت وكانط وماركس وهيجل وكر كيجارد وسبينوزا)، كما ترفض مثالية (أفلاطون) ومنطق (أرسطو)، كما لا تقر بموضوعية ما قام على هذا المنطق من علومٍ وأفكارٍ وطبقاً لهذا التوجه، رُفِضَتْ جميعُ النصوص التي قامت عليها الديانات السماوية بصفتها نوعاً من هذه السرديات، التي يتخذ منها الفكر مظلةً عامةً يلجأ إليها الفكر بحثاً عن المنطلقات، وحسماً للتناقضات، يبرر فكر ما بعد الحداثة هذا التطرف من السرديات الكبرى، بأنها جميعها دون استثناء ما هي إلا نوعٌ من ألعاب اللغة كما طرحها (لودفيج فيتجنشتاين)، وفي رأيهم مهما بلغت هذه السرديات من قدرةٍ على التحليل والتوصيف والتعبير، تبقى عاجزة عن تجاوز التناقضات الجوهرية القابعة في قلب اللغة ذاتها، وفكر ما بعد الحداثة لم يحظ بهذه الأهمية لو توقف على الرفض، وإنما أرادوا بعملهم هذا أنْ ينسفوا فكر الماضي لتحرير الفكر الإنساني من قيوده، كي ينطلق في الأفاق لتأسيس معرفة قوية أكثر صلابة، وأن يعي الإنسان عالمه على حقيقته لا كما يصوره له فكر نخبته، وأن يتحرر من سلطة الخطاب وذلك بالكشف عن التكتيكاتِ التي تلجأ إليها اللغة عند التعبير عن اللغة، وكيف يساء استخدامها في خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة، إذا غاية ما بعد الحداثة هو البناء من الصفر، ولا يقصد بـ (ما بعد) - ولا بغيرها من أنواع الخطية - أنَّ ما بعد الحداثة تتبع الحداثة من حيث الزمن، ولا يُقرُّ فكرُ ما بعد الحداثة بهذه الخطية الزمنية، ولا يضيره في شيء أن يلجأ إلى ما قبل الحداثة منقباً مفتشاً عما يؤازرُ توجهاته، وفكر ما بعد الحداثة ينهض أساساً على التباين والاختلاف لا الإئتلاف والتوافق، ويرى أن تناقضات المجتمع الإنساني باقية ما بقي المجتمع، وهي عصيةٌ على الحسم، وكما يستحيل الوفاق بين طبقات المجتمع، كذلك الأمر ما بين ثقافات العالم المختلفة والآن ما صلةُ ما بعد الحداثة بالمعلوماتية؟ هذه الصلة تتجلى على أحسن صورةٍ لدى (جان بودليار)، الذي يتضمن خطابه الفكري مفاهيم الكود والشفرة والحوسبة والرقمنة وما شابه، إنَّ (بودليار) يعتقد أن مفهوم الكود سواء كود

برمجة الكمبيوتر، أو الكود الوراثي، قد أحدث نقلةً نوعيةً، ويقصد بذلك تلك النقلة من طور الإنتاج إلى طور إعادة الإنتاج، وفي طور الإعادة هذه تنسخ جميع سلع المعلوماتية، من برامج وموسيقى وأفلام ونصوص وأفكار، ولا تتوقف إعادة الإنتاج عند حدود السلع، بل تمتد إلى نسخ العمالة البشرية من: روبوتاتٍ ونظمٍ ذكيةٍ خبيرةٍ، كما هو الحال بالنسبة لكود البرمجة، كما تعاد عملية الإنتاج البيولوجي من خلال آليات نسخ الكود الوراثي القائمة أساساً على الانقسام الجيني، كما تشير دلائل كثيرة على أن تكنولوجيا المعلومات ستدفع بطور إعادة الإنتاج إلى آفاق جديدة، وذلك فيما يتعلق بنسخ عالم الواقع عن طريق نظم المحاكاة الرقمية، باستخدام التكنولوجيا الخائلية، وفي ضوء ما سبق يتطلب طور إعادة الإنتاج نظرةً مغايرةً تماماً إلى مفهوم القيمة والمُلكيَّة. وعلاقة المنتج بالمستهلك، وعلاقة صاحب رأس المال بعمالته: ذهنية كانت أم يدوية، والأهم من هذا كله أن التطور الاجتماعي الجديد يتطلب مراجعة شاملة لعلاقة المعرفة بالقوى الاجتماعية المختلفة، ومصدر القوة لم يعد الموارد المادية بل الموارد الرمزية، من: إعلام وتربية وقيم وأفكار، وهناك من لا يرى بما بعد الحداثة جديداً، ومن يراها رد فعل مؤقت مثل (بيتر برجر) ولكن أخطر نقادها جميعاً وأكثرهم تأثيراً هو (بورجين هيبرماس) ممثلاً للحداثة الجديدة كما تطرحها مدرسة فرانك فورت، ويمثل السجال الفكري بين (هيبرماس وفرانسوا ليوتار) رائد تنظير ما بعد الحداثة واحداً من أبرز ملامح المشهد الثقافي العالمي.

د - **حداثة مدرسة فرانكفورت:** إن فكر مدرسة فرانكفورت مزيج من الفكر الاجتماعي لدى (ماكس فيبر)، وفكر (كارل ماركس) ممثلاً في طور الإنتاج، وهو يرى أن الثقافة ناتجٌ فرعيٌ، أو بنيةٌ فوقيةٌ، لهذا الطور، إن حداثة مدرسة (فرانك فورت) كما يمثلها فكر (هيبرماس)، تريد أن تخرج الحداثة الغربية من أزمتها الراهنة بتخليص الفكر الماركسي من محوريته الاقتصادية، بسبب متغيرات عصر المعلومات، خاصة فيما يتعلق بنظم الإعلام الجماهيري، لذا، إن حداثة مدرسة (فرانك فورت)، لا ترى الثقافة مجرد ناتج فرعي،

وإنما صناعة قائمة بذاتها، مؤسسة اجتماعية ذات درجة عالية من الاستقلالية، تتفاعل مع غيرها في إطار منظومة المجتمع، كما في نموذج (ماكس فيبر)، و(هيبرماس) يريد أن تعمر الحداثة، لأن الحداثة لا ترتبط بمرحلة تاريخية معينة، ولكنها تتجدد كلما تجددت العلاقات بالقديم، والوعي بخصائص ما هو قادم، إن الحداثة لدى (هيبرماس) هي الوعي بالمرحلة التاريخية التي تقيم علاقة مع الماضي، وهي لانهاية لها، وليس لها نمط نهائي معين، وهي في تطور مستمر منفتح على المجهول (نصر حامد أبو زيد ١٩٩٥) هذا ولا ينكر هيبرماس وجود تناقضات وسلبيات في موقف الحداثة الغربية الراهنة، وفي المقابل يرى أن لا أحد ينكر ما قدمته الحداثة من انجازات في العلوم والنظم والأخلاق والحريات والقانون. إن هيبرماس يعتقد بأن حل مسألة الحداثة هو المزيد من الحداثة بالاحتكام إلى العقل وتحقيق شفافية التواصل، بين المجتمع الواحد أو ما بين المجتمعات الأخرى، وتكنولوجيا المعلومات قادرة على تحقيق الشفافية المعلوماتية الاتصالية عبر رجع الصدى الفوري والمتجدد، وهذا – برأي هيبرماس – يجعل المجتمعَ قادراً على تصويب أخطائه ذاتياً، والتكيف مع متغيرات المجتمع، ليلتقي فكر هيبرماس مع كارل بوبر، ويقول بوبر على الرغم من كثرة أخطاء الغرب فهو الأكثر تحضراً وتحرراً من غيره لكونه الأكثر قدرة لتصويب أخطائه بنفسه (كارل بوبر ١٩٩٩).

هـ – **ما بعد الكولونيالية:** هو الموقف الذي اتخذه مفكرو العالم النامي من فكر ما بعد الحداثة، وهم ينظرون بعين ملؤها الشك إلى الدوافع المخفية التي تحرك فكر ما بعد الحداثة، على الرغم من اشتراكهم معه في بعض التوجهات الرئيسية. إن فكر ما بعد الكولونيالية يرى بأم عينه في فكر ما بعد الحداثة نزعات استعمارية ورواسب امبريالية، بإمكاننا أن نسميها كولونيالية مجتمع ما بعد الصناعة، ويتهمون فكر ما بعد الحداثة بأنه يرمي إلى ترسيخ الأوضاع ليعيد صياغة وإنتاج المجتمع الرأسمالي، بطبقيته وطبقاته وطابعه الاستهلاكي، وإن فكر ما بعد الحداثة يصطدم مع فكر ما بعد الكولونيالية في النقاط التالية:

١ - يتخذ فكر ما بعد الكولونيالية موقفاً مناهضاً للحداثة الغربية، وبالمقابل يرى ضرورة استفادة المجتمعات النامية من انجازات هذا الفكر بغرض الإسراع بعملية التنمية.

٢ - يلتقي فكر ما بعد الحداثة بفكر ما بعد الكولونيالية على مبدأ الاختلاف والتنوع، لكنه يختلف معه بزعمه عن استحالة الوفاق والتواصل نتيجة الاختلاف، ويرى فكر ما بعد الكولونيالية في الاستحالة نوعاً من التهرب من الحسم يؤدي بنا كما تقول (ماري تيريز عبد المسيح) إلى الانغلاق في دائرة اللا حسم الذي يكبح إرادة التغيير، وهذا يؤكد دوام الحال مهما تغيرت الأحوال (مصطفى عبده ١٩٩٩)، معنى هذا أن ما بعد الحداثة يخفي نوايا امبريالية متسترة في كل جديد.

٣ - يؤمن مفكرو ما بعد الكولونيالية بالتنوع الثقافي والنسبية الثقافية لكنه لا يصل إلى درجة النسبية المطلقة كما في فكر ما بعد الحداثة، ومع إيمانهم بضرورة الحفاظ على الخصوصية الثقافية لمجتمعاتهم، إلا أنهم يؤمنون أن هذه الخصوصيات يمكن أن تمتزج وتندمج لتصب في النهر الواسع للحضارة الإنسانية، والخلاصة إن مفكري ما بعد الكولونيالية يهدفون إلى مجتمع خال من الهيمنة والاستكبار أكانت خارجية أم داخلية، وعادة ما يلجأون إلى التفكيكية في تحليل خطاب السلطة وقراءة التراث، وفي الوقت نفسه ينشدون حداثة مدرسة فرانك فورت فيما يخص تشبث ماركسيتها الجديدة في النضال والتحرير دون حتمية الثورة كأداة في التغيير.

و - **البنيوية**: قام (فرديناند دي - سوسير)، بتاسيس علم اللسانيات وكانت النتيجة ثورة معرفية شاملة في معالجة اللغة. فاللغة من بعده لم تعد ظاهرة سطحية، من الألفاظ والعبارات والنصوص، فتحت سطحها توجد بنية عميقة متعددة العناصر والمستويات، نَسَقٌ معرفيٌ يربط بين الألفاظ والمعاني، وبين مكونات تركيب الجمل والفقرات، وبين المعنى والسياق، وبين

أصل اللفظ ومشتقاته، وبين تنغيم الكلام ونية المتكلم، وهذه ليست علاقات عشوائية اعتباطية، وإنما يحكمها عدد من المبادئ العامة التي تشترك بها جميع اللغات. وأصبح شاغل الفكر اللغوي بعد دي سوسير هو الكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة، وتفسير عمل الآليات الدفينة لمنظومة اللغة. وبهذا يكون دي سوسير زرع بذرة البنيوية في اللغة الإنسانية وقد امتدت نظرية اللغة إلى مجالات أخرى، لأن اللغة هي واسطة العقد في خريطة المعرفة الإنسانية. وكان أن طبقت البنيوية في مجالات: علم النفس، وعلم الأناسة، ونقد الأدب ونظرية الشعر، - وفي مجال السياسة والتنظيمات الاجتماعية وهذا كان لا يطبق البنيوية على ظاهرة نمو الوعي لدى الأطفال، وأضاف شيئاً جوهرياً عَدَّلَ به النظرية الفرويدية، عندما قال أن وعي الطفل لا ينمو من خلال علاقته بثدي أمه فقط، بل من خلال علاقته بلغة أمه، مؤكداً أهمية العلاقة النفسية الرمزية. وقد قامت البنيوية لدى دي سوسير على ثنائية الرمز والمدلول وبهذه الثنائية وجوهرها الثنائي المعروف. تتضح علاقة البنيوية بالمعلوماتية في فكر (ليفي شتراوس) مؤسس الأنثروبولوجيا الرمزية، وقام متأثراً بفكر دي سوسير بتطبيق البنيوية في تحليل أساطير الشعوب، ليثبت لنا أن هذه الأساطير ليست من شطحات خيال عقول الشعوب البدائية، بل هي بنى معرفيةٌ متماسكةٌ عاليةُ الدقة والاتساق، وقد ذهب (شتراوس) إلى أبعد من ذلك عندما أعلن أن الأساطير شأنها شأن اللغة تعمل وفقاً لمبادئ عامة متمثلة في علاقات الاختلاف: - بين الوجود والواقع - والواحد والمتعدد - والحرية والاحتياج - والتطابق والتباين والخير والشر - والإنسان والطبيعة - والرجل والمرأة، وهذا تشترك فيه كل شعوب الأرض، فلا بد أنها في رأي (شتراوس)، تعكس ما يجري داخل عقل الإنسان ويمضي مؤكداً أنَّ العقل يعمل بصورة ثنائية. أما (ميشيل فوكو) ينقل النهج البنيوي من منظومة اللغة إلى منظومة المجتمع ككل، فقد قام بتحليل علاقة ظاهر المؤسسات الاجتماعية بالبنى المعرفية الدفينة وراءها. وانشغل فوكو بالكشف عن علاقات السيطرة التي تحيكها قوى السلطة داخل كيان المؤسسات

الاجتماعية، من: مصانع ومدارس وسجون ومشافي الأمراض العقلية وعن الكيفية التي تستغل بها هذه القوى أسلحة المعرفة واللغة في تحقيق أهدافها وتقوية مواقفها. كتطبيق عملي لنهجه البنيوي ودرس أساليب العقاب وكيف تغيرت من آلات التعذيب إلى السجون والمعتقلات ثم إلى الحرمان من الحقوق السياسية، وعلينا طبقاً لهذا النهج أن نتوقع أساليب جديدة للعقاب في عصر المعلومات ويكون بحرمان الفرد من حقوقه الاتصالية ومعاقبته رمزياً عن طريق برمجته ذهنياً، وكان هدف التنوير حث العقل على التفكير العلمي المنهجي، ومنعه من تجاوز حدوده المنطقية. وجاء الفكر الماركسي ليجعل من الفلسفة أداة تغيير الواقع لا مجرد رؤية نظرية مجردة، أما (ميشيل فوكو). الذي ينسب إلى البنيوية مرة وما بعد الحداثة مرة أخرى، فإنه يحصر فكره في مراقبة السلطات ورصد مسار تطورها وهي تفرض على المجتمع ما يلائمها من أساليب عقلانية والسؤال هنا هو: هل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أنْ توقفَ أو تُرَشِّدَ نفاذ قوى السلطة قبل أن ترسخ وتعتق في كيان المؤسسة الاجتماعية.

ز – **ما بعد البنيوية:** قامت البنيوية على ركيزتين أساسيتين، هما وجود علاقة عضوية بين الرمز اللغوي ومعناه، ومبدأ الفصل بين الموضوع رهن التحليل البنيوي (أسطورةً كان هذا الموضوع أم تنظيماً اجتماعياً) وبين وجهة النظر الذاتية للشخص القائم على التحليل ضماناً للموضوعية، تختلف ما بعد البنيوية عن هذين التوجهين فالرمز اللغوي – اللفظ على سبيل التبسيط – لا يحيل إلى معنى معين كما في البنيوية، بل يحيل إلى رمز آخر ليظل يدور في حلقة مفرغة يستحيل معه الوصول إلى معنى نهائي، وفي جميع الأحوال المعنى مرجأ، بناءً على الاستحالة والإرجاء، أطلقت ما بعد البنيوية حرية قراءة النص، فهناك عدد لانهائي من القراءات المحتملة لكل نص، وفقاً لخلفية القارئ وهدفه من وراء قراءة النص، وأخيراً انشقت البنيوية على فكر (دي سوسير) الذي اعتبر اللغة الملفوظة أساس التنظير اللغوي حيث نظر إلى النصوص على أنها مقابل جرافيكي للأصل المنطوق. وهنا أعيدت الهيبة إلى النص المكتوب، فكانت نظرية القراءة التي أسسها (جاك دريدا)، والذي أنشأ

منهجاً لتفكيك النص يكشف عن تناقضاته الكامنة وثغرات فكر مؤلفه ومناوراته اللغوية، وبعد التفكيكية انتقل إلى الفلسفة، واتخذ جاك دريدا من - نحو القراءة مدخلاً لمناقشة إشكالية الذاتية فلسفياً - معتبراً أن علاقة المؤلف بنصه مقابلاً لثنائية الذات والموضوع. أما عن توجهات الفكر الثقافي البنيوي علمياً كما تقول (فريال غزولي) يؤشر إلى تعددية المداخل النظرية بتجاورها وتفاعلها وتداخلها: وهذا يؤدي إلى إلغاء الحدود الفاصلة بينها (فريال غزولي ١٩٩٩) وتبدو معظم توجهات الفكر الثقافي الحديث كثيف اللسانيات كثيف المعلوماتية، وقد أثبتت اللغة والمعلوماتية أنهما أداةٌ فعالةٌ لإحداث التفاعل والتمازج بين التوجهات المعرفية المختلفة ووسيلة للسيطرة على تعددها، ومعول هدم للحدود الفاصلة بينهما، ويسري هذا على جميع العلوم والفنون.

أ - **تضاريس الفكر الثقافي العربي:** صحيح أن المعرفة لا هوية لها وإذا اصطبغت بالهويات فلأمرٍ طارئٍ يأتيها من الإنسان: حين يحملها وحين يؤديها. ولكن الثقافة ذات هوية بالضرورة: فهي في مضمونها مجمع للقيم تطمح أن تكون قيماً مطلقة والهوية الثقافية: هي الخاص الذي من إيثاره يريد أن يكون عاماً وهي النسبي الذي يسعى لفك قيوده عن النسبي ليشمل الآخرين فالمعرفة مطلقة والثقافة هويتها، وإن نحن أخذنا بأسباب العلم وتواضعنا على أن الثقافة لا توصد أبوابها أمام العلم المتسائل دائماً والمنقب باستمرار، والمعرض عن نزعات الذات ومغريات الوجدان، عندها يتسنى لنا أن نعيد ترتيب المسلمات التي ظلت ملابسة لنا، عسى أن نقيم بدل الآراء الظنية فيها آراءً يقينيةً. ونظرةٌ سريعةٌ على خارطة الفكر الثقافي العربي نجد صحراء جدباء قاحلةً بتضاريسها وجبالها، حيث: الفكر الديني والفكر العلماني لا يفهم أحدهما لغة الآخر، ولا بقاء لأحدهما إلا بإلغاء الآخر، فهل الانفتاح للآخر يعني التفريط في الذات؟ (طارق البشري ١٩٨٩) والتيار القومي الناصري يأخذ موقعاً ليِّناً من التيارين الديني والعلماني. عبد الناصر رجل أمة كغاندي، قام بثورة تموز /١٩٥٢/ وأعلنت مبادئها: الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي، فكانت صوت المظلومين والمحرومين في مجتمعنا العربي،

شجعت العلماء الألمان للهجرة إلى مصر وتمكنت مصر من بناء قاعدة صناعية ما تزال طائرة أسوان تشهد على ذلك، وعندما أعلنت التنمية شعاراً للثورة اعتبر (بن غريون) ذلك إعلاناً للحرب على إسرائيل، لأن التنمية (حرية) كما قال العالم الهندي الاقتصادي (أمارتيا صن) والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٨ كما أسقطت حلف بغداد، وقامت الثورات العربية في أرجاء الوطن العربي مقتدية بالثورة الأم ثورة /٢٣/ تموز، التي كانت درعاً للجماهير العربية وعوناً للثورة الجزائرية في مواجهة الاستعمار الفرنسي وأعداء الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي والوعي القومي الثقافي وأعلنت قمة الخرطوم الشهيرة لاءاتها الثلاث: (لا للمفاوضات - لا للاعتراف - لا للصلح مع إسرائيل. وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة).

وما زال فكرنا العربي مفككاً، يعاني مرضاً مزمناً يتفاقم مع الأيام، لا معلومات يتبادلها العرب فيما بينهم، على عكس الفكر الأمريكي الغربي الذي يتميز بكثافة المعلومات، ومما يبعث على الأمل أن كلا التيارين القومي والإسلامي يدرك أن التيار الآخر هو السبيل المتاح تاريخياً وسياسياً (طارق البشري) وأكد بدوره (أحمد كمال أبو المجد) على الحاجة الماسة إلى إيجاد صيغة تضبط العلاقة بين التيارين. والفكر العلماني بحاجة لأن يلتقي مع الفكر القومي وأن يجد صيغةً لتزداد فاعليته في ساحة العمل تحت واقع الحَمِيَّة القومية. وإن الفكر العربي سيبقى مشلولاً عاجزاً عن الدخول في مواجهة التحديات في الساحة العربية، ما لم يتحول إلى فكر جذري قادر على صياغة أفكار ومفاهيم جذرية للواقع المأساوي الذي يعيش فيه، وهذا يتطلب إعادة تجذيره تاريخياً في الواقع العربي المعاصر. (حسن حنفي ١٩٩٥) ولا بد هنا من الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات لتنجح عملية التأسيس هذه، ولا بد من القيام بالدراسات المقارنة والتقابلية مع فكر الآخر وبخاصة الفكر الغربي، وإلا يصبح نوعاً من التأسيس العشوائي عن طريق نفي الآخر (يمنى الخولي). ولماذا لانطبق القواعد الفكرية للمدارس العالمية في كل ما نحتاج إليه؟ علماً أننا نطبقها في مجالات عدة مثل: اللغة والأدب والنقد الأدبي.

وهنـاك اتهامـاتٌ متبادلـةٌ بـين مجتمعاتنـا العربيـة: الـشوفينية والفرعونيـة (وهناك من يشكك بالأصالة العربية لبعض الأقطار العربية (مصطفى الفقـي ١٩٩٩) (والباقر العفيف). وكلها دعاوى زائفة وزائلة لا أساس لها من الصحة. وما يجب أن يؤخذ مأخذ الجد هـو تعاون الفكر العربـي في المشرق والمغرب العربي (عبد السلام المسدي ١٩٩٨)، والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة والـذي يدفع إلى القلق الحضاري ويفرضه الوعي الجريح.

د - (هو سؤال متصل بمؤسسة المنظمة العربيـة للتربية والثقافة والعلوم: إلى أيٍّ مدى أم إلى أي حد نحن واثقون من عملها؟ وهل هـي تعمل؟ إن المنظمة قامـت تنشد الوحدة الثقافيـة بـين العـرب، بمعنـى أنهـا تعمـل لانجاز مشروع الوحـدة الثقافيـة، فهـو مهمتـها ووظيفتـها. وترسـخ في الأذهـان أن الوحـدة الثقافية بين أبناء الأمة العربيـة هـي: حلمٌ منشودٌ وليست واقعاً موجوداً، إذاً هـي الحلم المؤجل كمشروع للمستقبل حلمٌ منتظـرٌ وقـادمٌ. بينمـا كـان يجـب التسليم بأن الوحدة الثقافية قائمة بين أبناء الشعوب العربية، وبهذا خاصـمنا التـاريخ ولم نتصالح معه وإذا بالمنظمـة ترسم لنفسها انجـاز مشروع مـا هـو منجز، ترى إلى هذا الحد يختلف منطلق الوحدة الثقافيـة القائمة عن منطق الوحدة الثقافية المنشودة؟ إنه ضرب من اصطناع القضايا حيث لا قضايا أو مزايدة لفظيـة بل ضـرب مـن تشقيق العقـل للشيء الواحـد، ولكن ما الـذي يتبـدل بـالأمر أن المنظمـة قامـت علـى الوحـدة الثقافيـة أو أنهـا قامـت تنـشد الوحدة الثقافية؟ هذا مـن بـاب المشاكسة، لـيس الأمـر سـواء البتـة إنـه إشكال مرجعـي وهـو سـؤال عربـي كبير، ولـيس باسـتطاعتنا أن نطـابق بـين الثقافـة والقـرار الثقـافي، وإنما هـي بين الثقافة من حيث هـي هويـة حضـارية، والثقافـة من حيث هي صناعة إجرائية، كما تبدو في مراسيم التشريع الثقـافي. أما من يحترفون صناعة الفكر فيبخلون بالنقد، ومن يعتبرون أنَّ الثقافةَ جوهرٌ يصوغ فلسفة الذات الفردية ويعتصر منها قيم الـذات الجماعيـة، ومـن يؤمنـون بـأن فلـسفة الثقافـة تقـوم علـى تـشكل الـذات مـن منابـت الفكـر الخـالص، فـالأمر عنـدهم غـير الأمـر والموقـف غير الموقف. وباسـتطاعتنا أن نقـول أن المنظمـة

أضاعت فرصاً من التاريخ منذ أُوكِلَتْ إليها مهمة انجازِ الوحدة الثقافية العربية، إنهما وجهتان من النظر بل فلسفتان من الأشياء: الأولى أن الوحدة الثقافية قائمة بالقوة بين العرب وعلينا إخراجهما من حيز الفعل وهو التسليم الذي سارت عليه المنظمة حتى الآن.

والثانية: أن الوحدة الثقافية قائمة بالفعل بين أبناء الأمة العربية رغم العوائق التاريخية ورغم الحواجز الموضوعية الناجمة عن تعدد الكيانات السياسية، وبموجب هذا الاعتبار يجب التصدي للأعراض الموحية بغياب الوحدة الثقافية. فالتعامل العقلاني مع القضية الثقافية العربية يبدأ عندما: - نتخلى عن استسهال القضايا - عندما نحتكم إلى سلطان الفكر، ونرى بعدسات مجهرية ما لا يراه الناظرون بعامة بالعين المجردة - ولا بد أن ترى أن من الحِكمة: أنَّ أهون على العقل وأقل ضرراً أن ترى الواحد متعدداً من أن ترى المتعدد واحداً، لأنك في الأولى قطعت نصف الطريق إلى الهدف وفي الثانية تكون قد قطعت الطريق على نفسك (عبد السلام المسدي).

ب - **ازمة فكرية في جميع المجالات**: في اللغة والتربية، والإعلام والفكر الديني والإبداع، وأزمة في القيم وتعاسة وبؤس الفكر الفلسفي والتنظير الثقافي، وهنا يتحول أنصاف المتعلمين إلى علماء وأنبياء، جمودٌ فكريٌ وحضاريٌ وحالة سبات أكاديميّة وغياب الحوار والأصالة، وما يشيع عن ثقافتنا بأن العجز متأصل في صلبها نتيجة حكم الطاغية، وهي متهمة بالانغلاق على الذات والسلبية والأخروية، وهل لنا أن نلحق بالفكر الثقافي الذي فجره عصر المعلومات والمدارس الفكرية العلمية الحديثة، إن الثقافة تحتك وتتحول وتتلاقح في مناطق الاحتكاك، لهذا كانت تنقيتها وتشذيبها عندما تنتقل من جيل إلى جيل، وهل لدينا القدرة والجرأة على مراجعة أصولنا الفكرية؟ وحواراتنا على الشاشة الكونية يملؤها السفه والزيف بدلاً من التعاون للوصول إلى فكرة مفيدة. فالأرض والدم يشكلان تركيباً مجازياً قوياً، جسدياً: من الوطن الأب والوطن الأم، والإقليم العربي مشبع بالتوق إلى الكمال والوحدة والتكامل، فهل نَعْتُنَا أننا عرب هو الذي يحدد سلوكنا؟

والعرب لا يريدون ثقافةً متخندقةً، وإنما يريدون ثقافةً فاعلةً ومتفاعلةً ترفض الذوبان والانحلال وثقافتُنا عمليةٌ تاريخيةٌ لها بعدها الكوني.

ونورد في ما يلي خارطة للتفكير أكثر تعقيداً وأشدُ ارتباطاً بمحتوى فكريٍ محددٍ بالقواعد المنطقية: - مفهوم الحركة الانتقالية من الأطروحة إلى نقيضها، ثم إلى المركب منهما - القدرة على فهم الأحداث أو المواقف باعتبارها لحظات في طور عملية ما - إدراك إمكان حدوث تغيرات كيفية نتيجة تغير كمي - القدرة على اتخاذ موقف فكري من النسبية السياقية - إدراك قيمة أطر فكرية عديدة عن مشكلة ما - إدراك عثرات النزعات الشكلية المبنية على الاعتماد المتبادل بين الشكل والمحتوى - القدرة على تمييز المفهوم العقلي للعلاقات المتقابلة في اتجاهين - القدرة على تمييز مفهوم ذاتية التحول - القدرة على تصور المنظومات في ضوء توازنها. تلك مبادئ منطقية ما بعد شكلانية.

- **علاقة الفكر بمنظومة الثقافة:** تُرى هل يلتقي الفكر بالثقافة؟! إن فكر الثقافة عاملٌ مهمٌ وعنصرٌ أساسيٌ في منظومته، والفكر بالتأكيد يرتبط بعناصر منظومة الثقافة، من خلال العلاقات المتبادلة نوجزها في التالي: (لغة الفكر) - فكر اللغة (تربية الفكر) - فكر التربية (إعلام الفكر) - فكر الإعلام (إبداع الفكر) - فكر الإبداع (تراث الفكر) فكر التراث (قيم الفكر) - فكر القيم والمعتقدات. وسنتناول مابين قوسين في هذا الفصل ونترك الباقي إلى الفصول القادمة.

- لغة الفكر الثقافي العربي:

أ - العلاقة القوية بين فكر اللغة والفكر الثقافي، هي أبرز علاقات الفكر في منظومة الثقافة بلا منازع، ولا بد للغة أن تكون نبعاً هاماً للفكر على اختلاف توجهاته ومجالاته ولهذا أقامت اللغة علاقات وطيدة مع جميع فصائل المعرفة الإنسانية: فلسفةً وفناً وعلماً وهندسة أيضاً، وحظيت اللغة بفرع للهندسة خاص لها يدعى (هندسة اللغة) ولحق علم اللغة بالعلوم الأخرى باحثاً عن مناهجه، واليوم وقد نضج الفكر اللغوي حتى أصبح نهجاً

عاماً، يتبناه غيره من العلوم، وكما لاحظنا سابقاً لم يكن علم اللسانيات الحديث مقصوراً على اللغة كما أسسه (فرديناند دي - سوسير) بل تجاوزها إلى جميع العلوم مثل: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاناسة، ويمثل المفكرون من ذوي الخلفية اللغوية أعلى نسبة من منظري الثقافة، منهم: (إدوارد سعيد ونعوم تشو مسكي وفردريك جيمسون وجوليا كريستيفا ورومان جاكبسون وجاك دريدا وادوارد سابير). وكانت اللغة قديماً وحديثاً شاغل الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم، ومعظم الفلاسفة بلاغيون في الدرجة الأولى، وكلُ إشكاليةٍ فلسفيةٍ لها مقابلٌ أو شقٌ لغويٌ، ونحن إذا أخذنا إشكالية (الذات والموضوع) سنجد مهمة اللغة الأساسية هي توصيل ما تفكر فيه الذات داخلياً إلى موضوع يعيه من هم بخارجها، وثنائية ضمير المتكلم وضمير المخاطب (أنا أنت) هي تجسيدٌ لغويٌ لثنائية التوصيل تلك، وهذه الثنائية التي اتخذت منها (جوليا كريستيفا) مدخلاً أساسياً لإعادة النظر في مسألة (الذاتية) فلسفياً. وكدليل على محورية اللغة في الفكر الثقافي، نشير إلى أن فلسفة المعرفة، كادت أن تكون مرادفة لفلسفة اللغة، وهذه بدورها تشمل معظم فروع الفلسفة التحليلية، فالفلسفة في نظر (الوضعية المنطقية) مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية، وقد صرح (كارناب) بأنّ الفلسفة الحقيقية هي مجرد تحليلات تركيبية للغة (نجاح. محسن ١٩٩٨) وهناك روافد أخرى للشق اللغوي من تنظير ثقافي، مثل: نظرية النقد، نظرية الجمال، وسوسيولوجيا المعرفة وديناميات الجماعات، وعلم الاستشراق، ونظرية المعلومات، ونظرية الأدب، ونظرية السرد، ونظرية التربية، ونظرية الاتصالات. وتبدو العلاقة جلية بين اللغة وفكر الثقافة في الكثير من أوجه التقابل بينهما، منها: بين قدرة اللغة على التجريد والطابع التجريدي الذي يتسم به الفكر الثقافي، والتقابل بين لانهائية اللغة المتمثلة في لانهائية تعبيراتها، واستمرار التوسع في معانيها ومجازها، وبين لانهائية الفكر وديمومة توسعه. التقابل بين استحالة التوصل إلى المعنى النهائي للرمز اللغوي واستحالة اكتمال الفكر النظري، كما اثبته

(كورت جودل) بمبدأ عدم الاكتمال الرياضي. وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتجعل من اللغة سندريلا علم الكمبيوتر، فلم تعد اللغة أداةً للاتصال أو نسقاً رمزيٌ ضمن أنساقٍ رمزيةٍ أخرى، بل أصبحت أهم العلوم المغذية لتكنولوجيا المعلومات وأخطر ظواهر مجتمع المعلومات ورابطة العقد بين جميع أنساق الرموز الأخرى، التي تجري في كيان المجتمع.

ب - **هل اللغة وسيط معتم أم شفاف يأخذنا إلى الحقيقة:** إن لمحورية اللغة في الفكر الإنساني والفكر الفلسفي بخاصة، فقد أصبح مدى مطابقة اللغة للواقع الذي تعبر عنه، ومدى نقائها وصفائها كوسيط للتواصل الاجتماعي من أهم إشكاليات البحث الفلسفي والتنظير الاجتماعي، والثقافي والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل اللغة وسيطٌ شفافٌ نقترب من خلاله صوب الحقيقة دائماً: من الصواب إلى الأصوب أو من الزائف إلى الأقل زيفاً، أم اللغة أداةٌ للتضليل والزيف، تبعدنا عن الواقع وتعزلنا عن الحقيقة؟ في ظاهر الحال، وكما يمكن أن تكون أداة للتفسير والتوضيح والإبانة، يمكن لها أن تكون أداة للتضليل والطمس والاقتصاص من الحقيقة، وكل أنواع الخطابات الاجتماعية اللغوية: سياسية أم اقتصادية تربوية أم إعلامية كلها تجيد استخدام حيل اللغة وتكتيكها. هدفها توصيل ما نريد توصيله من رسائلها، والسكوت عما تريد أن تحجبه منها، وهذه الخطابات تعمم في مقام التخصص، وتخصص في مقام التعميم، وتصمت حين يجب الإفصاح، وتثير الضوضاء في مجال ما تريد أن تطمسه، وهذا الغموض استفز فيلسوفنا لودفيج فيتجنشتاين، وراح يضع اللوائح والضوابط التي تضبط اللغة وإجلاء اللبس من معاني ألفاظها ودلالات تراكيبها. وفي رأيه (أن ما يجب أن يقال يجب أن يقال بوضوح) ودون ذلك ليس هناك إلا الصمت. وكيف نصل إلى هذا الوضوح وأن نزيل اللَّبْسَ ونتحاشى الغموض وهذا أمر مستحيل، كما يقول كارل بوبر من خلال نقده لفكر فيتجنشتاين، لأن مهمة الفلسفة ليست فك ألغاز اللغة وإزالة غموضها، على الرغم من إقراره بأهمية التخفيف من الغموض والتقليل من اللبس للاقتراب من الحقيقة (كارل بوبر ١٩٩٩) وهكذا

يتكرر مشهد تأرجح وجهات النظر حول شفافية اللغة وظلمتها على المستوى الاجتماعي العام، والسجال الفكري الذي جرى بين هيبرماس ممثلاً لحداثة مدرسة فرانكفورت وليوتار ممثلاً لما بعد الحداثة. يرى هيبرماس إمكانَ تحقيق درجة عالية من شفافية التواصل الاجتماعيّ من خلال التفاعل والحوار والتصويب الذاتي، بينما يرى خصمه ليوتار تحقق تلك الشفافية ضرباً من المستحيل، وهذا الوفاق اللغوي ما هو إلا أضغاث أحلام. بينما قال الفيلسوف نيتشه بشأنها: إن اللغة تحمل في داخلها بذرة الغموض وعلة اللبس ومرض الزيف، حجته في ذلك إسراف اللغة في التضاد الثنائي مثل: (الماضي والحاضر - المعلوم والمجهول - الحرفي والمجازي) وفي الوقت الذي تدعي فيه اللغة أنها تعبر عن الواقع الذي لا يعرف أصلاً هذا التضاد الحاد ولا يمكن إخضاع ظواهره لصرامة ثنائياته. لأن غالباً ما يكون الواقع طيفاً مستمراً من تنويعات الاختلاف، ومستويات التدرج التي تصل بين أطراف هذه الثنائيات. ومن وجهة نظر أخرى أن اللغة ترسخ في عقل مستخدمها أن لكل فعلٍ فاعلاً، ولكل علةٍ سبباً. وهي أمور في جوهرها ليست من صميم الواقع بل هي من مستلزمات اللغة ومطالب المنطق اللغوي. وذهب نيتشه إلى القول بأن هذا التناقض الجوهري القابع في موضع القلب من منظومة اللغة، هو السر وراء أزمة الحداثة الغربية، وأشار نيتشه بإصبع الاتهام إلى اللغة ليقول بنبرة يشوبها الإلحاد: (إننا لم نستطع أن نتخلص من فكرة وجود الإله لأننا مازلنا نثق في النحو) إذاً لا لغةً دون لَبْسٍ وغموضٍ ولا لغة أيضاً دون حشو زائد وإذا اتسمت اللغة بالشفافية وخلت من الحشو لكانت لغة اصطناعية ميكانيكية لا حياة فيها كما لغة الكمبيوتر ولكن الشعر يبقى مزهواً بغموضه، قائداً لمسيرة تطور اللغة، فهو يلقي وراءه سحباً كثيفةً من الغموض بفضل مجازه، وسماحة معانيه، ونستطيع القول أن جميع اللغات الإنسانية، ولغات الجينات الوراثية، أو لغة الإبداع الفني، تبقى مدينة للغموض والحشو الكامن فيها، بديمومة توسعها وتطورها وابتكاريتها ومرونتها وسرعة تكيفها مع الواقع.

- لغة الفكر الثقافي العربي:

أ - العلاقة السقيمة بين اللغة العربية والفكر الثقافي العربي: في بنية العقل العربي التي أقامها على ثلاثية البيان والعرفان والبرهان، عمل (الجابري) إلى إبراز الصلة بين نظام البيان والعقل، وبين النصوص التراثية والفكر المولد لها، وكان لابد أن يؤدي به ذلك إلى إشكالية اللفظ والمعنى، وأن يتعرض إلى أسس تأصيل القياس البياني، إلى منطق اللغة والآليات اللغوية للتعليل والسببية (الجابري ١٩٩٧) وعندما تناول الجابري قضايا التراث اتخذ من اللغة مدخلاً لمنهجه البنيوي. أما (أركون) جعل من علوم اللغة ركيزةً أساسيةً لإسلامياته التطبيقية، واتخذ منها (إدوارد سعيد) مدخلاً لكشف ما يتستر وراء الخطاب الاستشراقي وموقف الإعلام الأمريكي المنحاز في استخدامه أسلحة اللغة ضد العرب والمسلمين وهنا يبدو ضعف مساهمة اللغويين الكلاسيكيين لدينا في علاقة الفكر باللغة وهذا بدوره أدى إلى ضعف شق (المعنى والدلالة) سواء في تعليم اللغة وتعلمها أو في جهود المجامع اللغوية، وهذا أدى بدوره إلى ضعف مساهمة اللغة في تنمية الفكر، وضاع المعنى في لفظية الصرف وصورية الإعراب وشكلية المحسنات البديعية. وما علينا إلا أن نقر بأن علاقة اللغة العربية بالفكر الثقافي ما زالت واهية، ولا بد أن نعي علاقة الدور العظيم التي تلعبه اللغة في الفكر الثقافي الحديث، ويأمل الكاتب أن يتصدى لهذه المسألة علماء اللغة وعلماء النفس لمعالجة الجوانب اللغوية المرتبطة بأنماط التفكير التي وردت في هذا الفصل.

ب - قدرة اللغة العربية على الشفافية والغموض: تتمتع اللغة العربية بقدرة هائلة على الإبانة، وبنفس القدرة على التحلي بالغموض، ومظاهر اللَّبس والتوسع في المجاز. ويساهم الدارسون العرب، في مجال علم النص وتحليل الخطاب، كما يساهمون في تفكيك الخطاب السياسي والأدبي بهدف إبراز التناقضات والمفارقات الكامنة فيه، ولا شك أن جهدهم هذا يحتاج إلى دعم بحوث اللغة على المستوى التنظيري والاستخدامي.

تربية الفكر الثقافي الغربي: يدور حوار صعب بين أوساط الأكاديميين الأمريكيين حول تربية الفكر الأصيل لدى الطلاب، وهناك من يدين المناهج

التربوية، كونها أتلفت عقول الطلبة، وأفقدتهم صلتهم بماضيهم، وقدرتهم على رؤية حاضرهم، واستشراف مستقبلهم، ويطالب هذا الفريق بالعودة إلى الأصول، وتدريس تطور الفكر الإنساني، وقراءة أمهات الكتب، فهي بمثابة المنارة التي نرى من خلالها الكثير من عالمنا وذواتنا، أما الفريق المعارض لهذا التوجه، فيرى ضرورة أن توضع الأسئلة الكبرى جانباً، ويركز على إشكالية الثقافة الراهنة، من قبيل تلك المتعلقة بالثقافة العنصرية، والعرقية، والبطالة، والقضايا النسوية وحقوق الإنسان وخلافه، ولا شك بأن واضعي مناهج تعليم الفلسفة والإنسانيات يمكن أن يجدوا صيغة وسطى لا غنى عنها للتوفيق بين هذين الموقفين المتناقضين.

- **تربية الفكر الثقافي العربي**: بالحقيقة نحن نواجه تحدياً في تدريس علوم الإنسانيات والفلسفة بخاصة، من مناهج أقسام الفلسفة وعلم الاجتماع وأقسام اللغات عندها لابد لهذه المناهج أن تغطي الخلفية الأساسية من علوم اللغة وفلسفتها، ومناهج الفكر الحديث وفلسفة العلم ونظرية النظم، ونظرية المعلومات وبغض النظر عن تفاصيل المناهج والمقررات، يبقى التحدي في توافر كوادر هيئات التدريس القادرة على عبور حواجز التخصص، واستيعاب المتغير المعلوماتي، واللحاق بما يجري حالياً في تطوير مناهج البحث في علوم الإنسانيات. ومن جانب آخر علينا التصدي بحزم وشدة ضد تلك الفئة العاجزة والقاصرة لمفهوم أسلمة المعرفة من بين أعضاء هيئة التدريس، فهؤلاء يلقنون طلبتهم ما يعتقدونه لا ما يحتاجه هؤلاء الطلبة.

- **إعلام الفكر الثقافي الغربي**: يحظى الفكر الثقافي الأوروبي، وخاصة في فرنسا وألمانيا بقدر كبير من الاهتمام الإعلامي، وقد أقامت فرنسا وألمانيا قناةً ثقافيةً تلفزيونيةً مشتركةً هدفها اغناء الحوار الثقافي الفرنسي الألماني وكما هو معروف فقد لعب الفكر الفرنسي الألماني دوراً مهماً في نهضة أوروبا وصراعاتها على حد سواء، أما في الولايات المتحدة فتسود أمور العلم والتكنولوجيا ساحة الإعلام الثقافي، وكما هو الحال مع غيره من أنشطة الإعلام الأمريكي، تسيطر قوانين السوق على الإعلام العلمي التكنولوجي، تراه يركز على الجوانب الفنية والايجابية، من دون التطرق على الجوانب

الاجتماعية والآثار السلبية، حرصاً منه على علاقته بممولي الإعلانات من عمالقة مؤسسات الصناعة، خاصة في مجالات صناعة الأدوية والهندسة الوراثية وشركات الاتصالات، وقد أدرك العلماء في عصر العلم المؤسسي الضخم، أهمية العلاقات العامة في صناعة صورتهم الإعلامية من أجل اكتساب الدعم الجماهيري والحصول على مصادر التمويل، وكاد العلماء أن يصبحوا مثل رجال السياسة نجوماً إعلاميين، وهنا أصبح للعلم ثقافته وطابعه الإعلاني، ورسالته الإعلامية المقننة الخاضعة لقواعد هندسة الصورة ومعايير الجدوى الاقتصادية.

إعلام الفكر الثقافي العربي: إن الأدب والنقد الأدبي يحظى بالقسط الأكبر من الاهتمام من إعلامنا الثقافي، ولكنه في الأونة الأخيرة نحا إلى التنوع في مجال الإعلام العلمي. وتعتبر المعلوماتية والهندسة الوراثية من أكثر المواضيع جاذبية في مجال إعلام الثقافة العلمية لدينا. ولا زال إعلامنا يسوده طابع الانبهار والإثارة والفانتازيا. من دون محاولة لتقطير المفاهيم الأساسية في أذهان الناس قراءً ومستمعين ومشاهدين بسبب عجز علمائنا عن تبسيط المعرفة العلمية. باستثناء عدد قليل من البرامج الثقافية المسموعة والمرئية، والأبواب الثقافية الثابتة العلمية في الصحف والمجلات نتيجة التعقد الزائد، وعلى علمائنا أن يجمعوا بين أصالة المعرفة ودقة المصطلح وسلاسة الأسلوب العلمي والأدبي.

- **إبداع الفكر الثقافي الغربي:** كان إبداع الفكر الغربي مقتصراً على الابتكارات العلمية والتكنولوجية. في القرنين الماضيين وهذا القرن هو إبداع الفكر الثقافي، والمطلوب مزيداً من هذا النوع من الإبداع وستزداد فرصه ووسائله لأسباب عدة منها: - هناك العديد من المشاكل الثقافية تنتظر حلولاً مبتكرةً، وجميع فروع الثقافة بحاجة إلى إبداع جديد في: اللغة والتربية والإعلام والفنون، وتجديد التراث وصولاً إلى نظم القيم - تبحث علوم الإنسانيات إلى الدخول في مجال العلوم الدقيقة عن: مناهج جديدة تختلف عن مناهج العلوم الطبيعية - إن تكنولوجيا المعلومات ستوجد وسائل عدة لدعم إبداع الفكر الثقافي، وتمثل الإنترنيت تجارب لاختيار نتاج هذا الإبداع -

تزايد الاهتمام بصناعة الثقافة كمورد أساسي للدخل القومي وهذا بدوره سيؤدي إلى زيادة الطلب على إبداع الفكر الثقافي من أجل إنتاجِ سلعةٍ ثقافيةٍ مبتكرةٍ.

- **إبداع الفكر الثقافي العربي:** لاشك أن للمبدعين العرب فرصةٌ أكيدةٌ للإبداع الثقافي وسيجد المجتمع العربي تحديات كثيرة لم يسبق له أن تعرض عليها بقساوتها، ولن تجدي معها الحلول المستوردة، ولن يحلها إلا إبداع أبنائها، للتوفيق بين نقص الموارد وأهداف التربية الاجتماعية. وهذا يعتبر مدخلاً حقيقياً لتنمية الإبداع، ولا شك أن اللغة سيكون لها دور في إشعال جذوة الإبداع.

- أثر المتغير المعلوماتي على الحوار الديني الفكري في الغرب:

أ - **حوار الدين مع الفكر:** يرتبط الدين بالفلسفة والعلوم والفنون، واليوم يوطد علاقته مع التكنولوجيا بعد أن عرفت أبعادها الأخلاقية وهناك كثيرٌ من الكتب والأدبيات تناولت العلاقة بين الدين والفكر الثقافي، ولكن كيف تطورت وجهة نظر الفلاسفة إلى الدين وصولاً إلى الوضع الراهن، ولكن فيما يخص تأثير المتغير المعلوماتي على الحوار الديني الفكري: كان فرنسيس بيكون قد قال: إن ضحالة الفكر تؤدي بالإنسان إلى الإلحاد. والتعمق فيه ينتهي بالعقول إلى الإيمان، أما (جون لوك) فكان يعتقد بقدرة عقل الإنسان على إثبات وجود الله، في حين كان (ديكارت) يعتقد بوجوده كبديهية، ويسأل من أين تأتي الأفكار المثالية إن لم تأت من الله فلا يمكن أن تأتي من الإنسان المحكوم عليه سلفاً بعدم الاكتمال. وقد حاولت الفلسفة المسيحية التوفيق بين النظر العقلي والمعتقد الديني. فالعقل بنظرها سابق على الإيمان، والإيمان بدوره سابق على العقل، وجاء (كانط) وفَصَلَ فصلاً تاماً بين الفلسفة والدين، وفي رأيه أن استخدام العقل في دراسة اللاهوت محاولة عقيمة لا جدوى منها. أما (نيتشه) فقد بلغ به التطرف المناهض للدين إلى حد اعتبر الدين والمعرفة كالماء والنار لا يجتمعان أبداً، واليوم يأتي فكر ما بعد الحداثة لينزع عن النصوص السماوية، كغيرها من السرديات الكبرى مشروعيتها، وهكذا أصبح كلُ شيءٍ باطلاً وقبضةُ الريح، ويبقى عقل الإنسان ومصيره معلقاً بالهواء، بلا

سند من روحٍ أو فكرٍ، وفجأة تخرج إلينا المعلوماتية - ومن دون صفارة إنذار - تخرج إلينا لتضيف لمسة إبداعها باستعلائها وجبروتها الرمزي وبعوالمها الخائلية، التي تستثير العقل البشري وتحفزه كي يعيد النظر في وجوده، علاقته مع أرضه وسمائه ودينه وآخرته. ونستطيع القول: أن البروتستانتية كانت سنداً ودعماً للتقدم الهائل الذي عصف في بريطانيا وأوروبا بعد التخلص من القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية. (سامي خشبة ١٩٩٤).

ب - **حوار القيم مع الفكر:** تماماً كالمنهج الذي اتبعناه في الفقرة السابقة سنأخذ تطور علاقة نظام القيم مع الفكر الفلسفي وصولاً إلى الوضع الراهن. فيما يخص قيم ثقافة المعلومات، وهذا الحوار يدور حول ثلاثة أسئلة هي: هل القيم مطلقةٌ وخالدةٌ أم نسبيةٌ تختلف من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن؟

- هل القيم مُنَزَّلَةٌ من السماء أم هي من صنع الإنسان الكائن على الأرض؟

- ما مصدر الإلزام الأخلاقي؟ الإنساني من داخله، أم قوانين المجتمع وأعرافه من خارجه؟ كانت الأخلاق في فلسفة (سقراط) معايير لانهائية مطلقة على خلاف مع السفسطائيين الذين يرونها متغيرةً من مكانٍ إلى مكان، ومن جيلٍ إلى جيل، وتمضي القرون حزينة لتأتي بعدها فلسفة الأخلاق (لسبينوزا)، وتفترض عالماً خالياً من القيم في نشأته، وعلى الإنسان أن يملأ هذا الفراغ الأخلاقي، فالإنسان هو الذي يضيف هذه القيم على الأشياء. أما (كانط)، فكما جعل الإنسان هو مركز المعرفة، فهو جعله في أعلى عليين في مركز القيم، والإنسان في رأيه هو مشرع للأخلاقيات، تماماً كما هو شَرَّعَ قوانين الطبيعة وهناك من أمثال: (لوك وهيوم) يعتبرون اللذة والألم، هما مقياس كل قيمة، في حين يعتبر البرجماتيون المنفعة هي أساس القيم، و(كارل بوبر) حاول أن يجمع بين أخلاقيات الماضي وأخلاقيات عصر المعلومات باعتباره الحقيقة الموضوعية هي أعلى قيمة أخلاقية، وهي أهم القيم على الإطلاق، واعتبر كارل بوبر أن تحرير الذات باكتساب المعرفة والوعي، هي الوسيلة لإضفاء معنى على الحياة، ويستطرد كارل بوبر بقوله لم نولد أحراراً

ولكن ولدنا وعلى عاتقنا مسؤولية حرية القرار. (كارل بوبر ١٩٩٩) ترى ما العمل في ظل البدائل العديدة التي يطرحها عصر المعلومات؟ وهذا سؤال أخلاقي في جوهره، فالأخلاق في عصر المعلومات هي فن ممارسة الحياة، ترى وكيف نحدد غايتنا في وسط هذا الكم الهائل من الغايات والبدائل التي تطرح نفسها بشدة؟ ومن جهة أخرى فإن أخلاقيات عصر المعلومات لا تقوم على الإكراه والإلزام بالقوانين بقدر ما تقوم على أساس أن ضمير الفرد هو سلطته الأخلاقية العليا، ومن هنا تضطلع أخلاق المهنة، ومواثيق المنظمات غير الحكومية، بدورٍ مهمٍ في بلورة الأسس الأخلاقية لثقافة المعلومات والتي تشمل التالي: - عدالة توزيع موارد المعلومات، واتساع الفوارق في الدخول والثروات وفرص العمل وعدم إساءة استخدام سلطة المعرفة من قبل الخبراء والمهنيين - تجنب الآثار السلبية لتكنولوجيا المعلومات فيما يخص تهديد التنوع الثقافي وحماية الإنسان من استغلال نظم المعلومات واستغلالها كسلاح إيديولوجي.

- حوار الدين والقيم مع الفكر العربي:

أ - حوار ديننا مع الفكر الحديث: كثيرون غيرنا تناولوا حوار فكرنا مع الدين، وكل ما نريد قوله هو إغناء حوارنا مع ديننا في ظل المتغير المعلوماتي، ولا بد من معالجة القضايا التالية:

- إنهاء الخصومة المفتعلة بين ديننا وتوجهات الفكر الثقافي الحديث، وعدم التسرع في إعلان القطيعة معه.

- أن نتصدى للذين يزعمون أن الدين الإسلامي مضاد للعقلانية.

- حسم علاقة الدين الإسلامي بالفنون المختلفة خاصة فن الموسيقى والتشكيل والأداء، وأن نلقي الضوء على أهمية المعرفة التي تكمن وراء تلك الفنون ومن دونها يتعذر تحقيق التكامل المعرفي في عصر المعلومات، كما توفر تكنولوجيا المعلومات منطلقات جديدة لإغناء حوارنا الديني الفكري.

ب - حوار قِيَمنا مع الفكر: سنطّلع هنا لعلاقة بعض القضايا بنظام القيم والفكر:

أن نتصدى جميعاً للتحالفات المعلنة وغير المعلنة، بين السلطات الدينية والسياسية، والتي تعمل على الحد من الحرية الفكرية.

– أن ننمي الشعور بالمسؤولية الاجتماعية لدى الرواد من مثقفينا تجاه جماهيرنا، وهي تواجه التحديات الكبيرة التي ينطوي عليها عصر المعلومات.

– أن نشيع قيم الأصالة الفكرية والتصدي للسرقات والفساد بكل أنواعه، وأن نشير دوماً إلى مصادر المعلومات. أن نتصدى للانتهازية الفكرية التي تنمو في فترات الانتقال وفي غمرة الثورات العلمية والتكنولوجية العاصفة.

– منظومة فكر ثقافة المعلومات: الإطار العام لمنظومة فكر الثقافة: ويتضمن التالي: – العلاقات الخارجية التي تربط منظومة فكر الثقافة بخارجها – العناصر الداخلية لفكر الثقافة – عناصر البنى التحتية لمنظومة فكر الثقافة وتضم:

– الموارد البشرية من مُنَظِّرين. وأخصائي معالجة المعلومات الثقافية التالية: اللغة والتربية والإعلام. موارد المعلومات الثقافية: قواعد بيانات. ذخائر النصوص والخرائط الثقافية، وسنتناول التالي:

- العلاقات الخارجية لمنظومة فكر الثقافة الغربي:

أ – **علاقة الفكر بمكونات المجتمع ككل:** إن (فرانسيس بيكون) أول من بشر بأن العلم وتطبيقاته سيحققان للبشرية الرفاه والرجاء، ودفعت البشرية الثمن باهظاً نتيجة تسويق هذه الأفكار، فما أكثر الحروب والصراعات والكوارث التي حلت بالبشرية، ومظاهر العداء الذي سببها الفكر الفلسفي وهو يمضي في طريقه لا يلتفت على أحد، يفرض تصوراته وأفكاره وأحلامه وانحيازاته وأخيلته، على هضاب الواقع وتضاريسه وغاباته، وهذا ما عبرت عنه (ديستوبيا هاكسلي وجورج أورويل) وتعبيرية (جويا)، وعبثية (كافكا)، وتجريدية بيكاسو. ولطوباثية بيكون (العلموقراطية) نسختها (المعلوقراطية) فيزداد ضجيج عصر المعلومات وعولمته مبشراً بمجتمع الوفرة المادية والمعرفية ويسلام عالمي دائم، بفعل الوفاق الرمزي والشفافية المعلوماتية وهذه أحلام لا تزال تجترها البشرية. فهل أصبحت التكنولوجيا بديلاً عن

الإيدولوجيا إن إيديولوجية الرأسمالية وعولمتها تحيط بنا من كل جانب فلا فكاك من الايدولوجيا . ولم تكن العلاقة بين الفكر والمجتمع أخطر مما هي عليه الآن. فقد تسللت المعرفة وانسابت في كل المجتمع الإنساني، ودخل الفكر والمعرفة في علاقة جدلية مثيرة مع كل قوى المجتمع بطبقيته وفئاته بصورة واعية أحياناً ولاواعية أحياناً أخرى، وأتقنت هذه القوى فن التهذيب، وخففت من فجاجة السيطرة السافرة، مستبدلة بأكثرها فاعلية وسائل رمزية مستتيرة، وهذا ما يستوجب رفع الغطاء عن هذه العلاقات الخفية بين الفكر والمجتمع وذلك باستخراجها من أعماق اللاوعي الاجتماعي، لتبدو ظاهرة للعيان. وهو ما يسعى إليه علم اجتماع المعرفة، فلكل مجتمع بل لكل فرد نظامه المعرفي. والمعرفة ظاهرة اجتماعية ونفسية، ورسالة علم اجتماع المعرفة هي الكشف عن ارتباط المعرفة بالواقع الاجتماعي، وتوصيف الآليات التي تمارس من خلالها المعرفة تأثيرها الاجتماعي. شأنها شأن كثير من العلاقات الثقافية الاجتماعية وتعتبر علاقة الفكر بمنظومة المجتمع إشكالية وتراوحت الآراء بشأنها ما بين إنكار وجود علاقة أصل، وبين التطابق التام بينهما، وكذلك مابين كون المجتمع هو الذي يولد فكره ونظمه المعرفية، وبين كونه صنيعة هذا الفكر وتلك النظم وقد عجز الفكر الإنساني حتى الآن عن تقديم جواباً شافياً للسؤال المحوري وهو: من من أين تنشأ الأفكار؟ فهي مرة تسقط علينا من السماء وأخرى وليدة العقل الإنساني المغامر. يقول (كانط) إنَّ المعرفة متأصلة في العقل، تنمو كما تنمو النباتات من البذور ويراها الصينيون نماذجَ عليا تسعى إليها كل الثقافات، وما يعترض عليه بشدة أهل النسبية الثقافية، بأنواعها: نسبيةٌ تاريخيةٌ ترى لكلٍّ عصر فكره وأنماطُ معرفته، ونسبيةٌ طبقيةٌ: تصنف العالم إلى عالم بروليتاري وعالم برجوازي وعالم أرستقراطي، (عادل السكري ١٩٩٩) ونسبية إيديولوجية: تقسم صنوف الفكر إلى فكر اشتراكي، وآخر رأسمالي، وفكر إسلامي، وفكر مسيحي. هناك كثير من المدارس ترى أن الفكر وليد منظومته الاجتماعية، وأن الوعي الاجتماعي انعكاس للوجود الاجتماعي وبهذه الطريقة يُوَلِّدُ إيديولوجيته بنفسه وليس كما يعتقد أهل الحتمية التاريخية أن المجتمع

مسوقاً إلى غاية بعينها ولا بد أن يصل إليها طال الزمن أم قصر، ويرى (كارل ما نهايم) أن الظروف السائدة هي التي تحدد النماذج المعرفية العليا. والمقولات في نموذج المجتمع (لإميل دور كايم) ذات أصل اجتماعي، وهذا ينطبق على جميع المقولات دون استثناء حتى على مقولة الزمن وتقسيمه إلى سنوات وفصول، ويراها دور كايم إلى إيقاع حركة المجتمع المتمثلة في مواسم حصاده ومناخه وطقوسه الدينية وأعياده الوطنية. (عادل السكري ١٩٩٩) وعند التجريبيين كل معرفة تستمد من التجربة، من خلال التفاعل بين الفرد والمجتمع. أما البرجماتيون لا يعنيهم تفاعل الفكر والمجتمع بل كل ما يعنيهم الآثار والنتائج العملية لتطبيق الآراء والأفكار في البيئة الاجتماعية، وتصل تبعية الفكر للمجتمع إلى أقصاها في النموذج الماركسي، وهنا تبرز ثقافة المجتمع وحصاد أفكاره، وهو ناتجٌ فرعيٌ لطور إنتاجه ونمط اقتصاده، ويرى (أوجست كونت) أن تطور المجتمع تابع لفكره، ويحدد ذلك بثلاثة مراحل للتطور:

١ - الطور البدائي أو الديني.

٢ - الطور الإعلائي أو الميتافيزيقي.

٣ - الطور الوصفي أو العلمي. وهو ما أكده سان سيمون عندما ربط بين النظم الاجتماعية ونظم المعرفة، فالنظم العسكرية ترتبط بالنظم الدينية. في حين ترتبط النظم الصناعية بالنظم الفنية ذات الطابع التكنولوجي، (عادل السكري ١٩٩٩) وإنْ نُظُمَ ما بعد الصناعة مرتبطةٌ بالمعرفة الرمزية المجردة، ويوجد من منظري علم الاجتماع من يقول: أن هناك توافق تام بين الواقع الاجتماعي والنسق المعرفي السائد، وبناء عليه يتبع الفكر تطور الإنسان بالقدر الذي يتبع تطور فكره. فتعددت أوصاف الإنسان عبر الأزمنة: من الإنسان القناص إلى الرعوي إلى الزراعي إلى الصناعي (عادل السكري ١٩٩٩) وفي عصر المعلومات كدنا أن نصفه بالإنسان الاتصالي، وهناك من يصفه بالإنسان النحوي تأكيداً للدور الذي تلعبه اللغة في وراثة الإنسان. لا خلاف أن علاقة الفكر بمنظومة المجتمع ليست أحادية الاتجاه لأنها ذات طابع جدلي تبادلي عنيف. وهنا ربما يمثل مبدأ التآخي الاختياري موقفاً

وسطاً ليناً بين الموقف الذي يرى الفكر صنيعة مجتمعه، والموقف الآخر الذي يرى المجتمع صنيعة فكره (سامي خشبة ١٩٩٤) وفقاً لمبدأ التآخي الاختياري هذا، فإن نشوء الأفكار ليس مرتبطاً بشروط اجتماعية معينة، فالأفكار يمكن أن تكون نتيجة العقول المغامرة، وفي جميع الأحوال لابد من توافر شروط اجتماعية معينة حتى تكون هذه الأفكار فعالةً ومؤثرةً، ونرى أن مجتمع المعلومات يمثل بيئةً صالحةً للتحقق من صحة مبدأ التآخي الاختياري، بعد أن أصبح الأداء الكلي لمجتمع المعلومات متعلقاً بأفكار المغامرين الجدد، أصحاب: النظم والأفكار والبرامج، ويتوقف نجاح هذه الانجازات التكنولوجية على توافر الطلب الاجتماعي، ويبدو كلما تقدم المجتمع وتسارع إيقاعه، أصبح أكثر قابلية لدمج الفكر بنسيجه، وقد أثبتت الإنترنيت صحة هذه الرأي في الدول المتقدمة إعلامياً.

ب - **علاقة الفكر بمنظومة السياسة:** لقد أقام (أفلاطون) الفلاسفة حكاماً في جمهوريته لأنه كان على علم بما للفكر من أهمية في السياسة، وبعد أن أصبح الساسة من غير الفلاسفة راحوا يبحثون عن سند فكري يؤازر قراراتهم وممارساتهم من أجل الحفاظ على القيم والعقائد فوجدوه بسند الفكر الديني، ومرة في الفكر العسكري من أجل الدفاع عن الوطن المقدس، وأخرى في الفكر الاقتصادي من أجل الإسراع في التنمية، وأخيراً اهتدى رجال السياسة إلى الفكر العلمي وسيلة لعقلنة ممارساتهم وتمرير قراراتهم ويرعوا في أن يجعلوا من شبه العلم ومن بريقه وسائل للتضليل والتشويش، ولكن ما أن صارت المعرفة والفكر في خدمة السياسة حتى برز السؤال التالي: المعرفة ممن؟ ومن أجل من؟ وبالحقيقة يفاجئنا الفكر السياسي الحديث بطابعه البرجماتي، من كتاب الأمير (لمكيافيللي) إلى آخر كتاب في الفكر السياسي، بتخلف الفكر السياسي عن تطور المجتمع الإنساني، ونحن بأمس الحاجة إلى مراجعة شاملة لعلاقة الفكر بمنظومة الفكر السياسي، ونحن بحاجة إلى فكر سياسي جديد، يكشف عن وجه الديمقراطية المزيف، (ليحرر سجناء الهواء الطلق)، كما قال (أدو رنو) الذين يعتقدون أنهم أحرار وما هم بأحرار، يساقون إلى صناديق الاقتراع كالقطيع وتحصد آراءهم ومواقفهم إحصائيات

قياس الرأي العام، وتتغذى على معاناتهم إدارات تلقي الشكاوى، ونظم الرد الآلية على رسائل المواطنين، والفكر السياسي أصبح رهينة للفكر الاقتصادي، خادماً لأباطرته، وحان لهذا الفكر أن يبحث عن فلسفة اجتماعية جديدة ترد له اعتباره الأخلاقي، ليتسنى للسياسة القيام بدورها لفرض حد أدنى من النظام، وسط فوضى لن ترحم أحداً، ينذر بوقوعها مجتمع المعلومات، والعولمة السياسية الآن تحاول جاهدة أدلجة رأسماليتها المتطورة، ويتأرجح الفكر السياسي كغيره بين الحداثي وما بعدها، ويعتقد الكثيرون أن الفكر السياسي الحداثي بحاجة إلى تغيير، ويؤمن غيرهم أن (ما بعد الحداثة) مازالت بحاجة إلى نظرية سياسية أكثر تماسكاً وواقعيةً.

ج - **علاقة الفكر بالاقتصاد:** لقد ارتقت علاقة الفكر بالاقتصاد نتيجة عصر اقتصاد المعرفة وصناعة الثقافة، وصارت الموارد الرمزية أكثر أهمية من الموارد المادية، وفاقت أهمية رأس المال الذهني ذلك رأس المال المادي، ونحن ننتظر في لهفة التغيرات التي ستطرأ على منظومة الاقتصاد من جراء ما تفعله بها تكنولوجيا المعلومات، والتي مازالت تبحث عن الأسس التي قامت عليها هذه المنظومة، وخاصة عن مفهوم القيمة ومفهوم الملكية، والقيمة لم تعد تقتصر على (ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل) وأصبحت المعلومة ذاتُ قيمةٍ يمكن قياسها وحساب عائدها، واتسع مفهوم الملكية ليشمل الملكية الفكرية بكل ما ينطوي عليها من قضايا اقتصادية، تحتاج إلى فكرٍ اقتصاديٍ جديدٍ، فكر مناهض لفكر عولمة الاقتصاد، والذي يتم اليوم إعادة بلورته ليعاد إنتاج المجتمع الرأسمالي ونحن بحاجة إلى اقتصاد يعمل على تحقيق تنميةٍ مستدامةٍ، بطبقاته وتناقضاته وسوء توزيع ثرواته وموارده وطابعه الاستهلاكي، ونحن لا نريد فقط تعظيم العائد المادي وزيادة الكفاءة الإنتاجية على حساب فرص العمل ورفاهية العمال.

د - **علاقة الفكر الثقافي بأنماط التفكير الأخرى:** إن الفكر الثقافي يرتبط بالفكر الفلسفي والفكر العلمي والفكر الهندسي، وتناولنا في الفقرات السابقة علاقته بالفكر الفلسفي والعلمي وبقيت علاقته بالفكر الهندسي واليوم أصبحت منظومة الثقافة في غاية التعقيد، وتعرف الهندسة بأنها فن

التحكم في النظم المعقدة. ومن هذا القبيل يمكن أن تزاد صلة الفكر الثقافي بالفكر الهندسي وبدت في الأفق بوادر هذا اللقاء منها: هندسة اللغة، هندسة الحوار، هندسة الخيال.

هـ - علاقة الفكر الثقافي بالمكونات الاجتماعية الأخرى: وهنا يجب كسر احتكار النخبة للفكر الثقافي وإتاحته للعامة من الناس في صورٍ مختلفةٍ ومستوياتٍ متدرجةٍ. وفيما يخص النخبة من مجتمعها: هناك من يرى أنَّ المجتمع يجب أن يوجه فكر نخبته الثقافية القادر أن يسمو بنفسه فوق واقع مجتمعه، متجاوزاً تناقضاته، محققاً طموحاته وتوقعاته، وفي رأي هؤلاء أنَّ تسليم الأمور إلى النخبة الثقافية ضرورة من ضرورات المجتمع الديمقراطي، ويرى فريق آخر أن تسليم الأمور إليها شيء مناف للديمقراطية، ويؤدي إلى حرمان الأكثرية من حقوقها الثقافية. وقد قال (ميلان كون ديرا) الأديب التشيكي الذي كان مرشحاً لجائزة نوبل: لقد اختزلت أوروبا نفسها في خمسين عملاً عبقريّاً لم تفهمها أبداً، انتبهوا جيداً إلى هذا التفاوت المثير للحنق، ملايينِ من الأوروبيين لا يمثلون شيئاً، مقابل خمسين اسماً يمثلون كل شيء. التفاوت الطبقي حادثٌ ضئيلٌ إذا ما قورن بهذا التفاوت الميتافيزيقي، الذي يحول البعض إلى ذرات رمل، بينما ينسب إلى البعض الآخر معنى الكائن.

- علاقة منظومة الفكر الثقافي العربي بخارجها:

أ - فكرنا الثقافي ومنظومة مجتمعنا: قد كان (صاعد الأندلسي) أحد أهم كبار علماء الشريعة في الأندلس وهو أول من وضع حجر الأساس لعلم اجتماع المعرفة في (كتاب طبقات الأمم) لتفسير العلوم والمعارف بالرجوع إلى الواقع الإقليمي والجغرافي (عادل السكري ١٩٩٩) ويقول ابن خلدون أن التقدم الحضاري مرتبط بالتقدم العلمي هذا عن السلف أما الخلف: فيقر بصعوبة ملاحقة فكرنا بمنظومة مجتمعنا العربي وذلك بسبب: - عدم وضوح خارطة الثقافة العربية - انعدام الاهتمام بالفن والموسيقى والتشكيل وجميع فنون الأداء، هذا على جانب الفكر، فماذا عن المجتمع؟

يصعب الحديث عن أيّ فكرٍ بسبب الاضطراب الاجتماعي وضبابية الرؤية والحساسية التي يصعب استيعابها، وقبل هذا يجب أن تخضع مجتمعاتنا لتحليلٍ منهجيٍّ دقيق. فما دور فكرنا الثقافي بأدائنا الاجتماعي؟ ما هو دور التربية والتعليم في الأداء الاقتصادي؟ وأين اللغة العربية من أدائنا السياسي والتفاوضي؟ لماذا لم نستطع تفسير القرار/ ٢٤٢/ الصادر عن مجلس الأمن عقب هزيمة ١٩٦٧؟ هل تمكن فكرنا الديني أن يصوغ ثقافتنا أو يصنعها؟ إذا كانت هزيمة /١٩٦٧/ بسبب عدم تمسكنا بديننا، فهل كانت إسرائيل عصاً بيد الله سبحانه لتؤدب العرب؟ وهل إسرائيل ملتزمة بالدين؟ وكلنا سمع وقرأ ما أعلنه حاخامات إسرائيل بالسماح للمرأة الإسرائيلية بمضاجعة العربي إذا كان ذلك يخدم مصلحة إسرائيل، وهنا نحن بحاجةٍ إلى جهدٍ قوميٍّ كبيرٍ لإعادة اللحمة بين مؤسساتنا الاجتماعية وفكرنا الثقافي المحاصر داخلياً وخارجياً.

ب - علاقة فكرنا الثقافي بالسياسة: إن التنوع السياسي يثري الرؤية الاجتماعية، فكلما تعددت طرق الرؤية قل ما لا يرى. ولا نستطيع الإبقاء على الفكر المعرفي دفين التراب، وقابلية الفكر العربي للحياة تعتمد في توليده لثقافة الوعي عن طريق ممارسات وسلوكيات وخلق أنماط حياةٍ بقيمٍ ومعتقدات جديدة، وأولويات في ممارسة التنوير، وشأننا في هذا كراكب الدراجة الهوائية، لكي يبقى متوازناً عليه أن يبقي الدواسات في حركة مستمرة. ونحن نميل إلى (برنار باربر) ونشاركه الرأي في أن هناك (ميلاً في المدارس الحديثة لإعطاء مزيداً من الاهتمام لتنمية الأفكار أكثر من مجرد نقلها بشكل فعال للغير (وكذلك تحديد) كيف تعد تلك الأفكار استمراراً لتطورات سابقة. ونخلص إلى القول بحقيقة معروفة للجميع: إنّ تطور فكرنا الثقافي وثقافة الوعي مرتبطان بتوفر الحرية السياسية ولا ينمو الفكر المعرفي إلا بتوافر الطلب عليه وعلى منتجاته وخدماته، ونمو الطلب عليه مرتبط بمفكرين قادرين على تسويق منتجاتهم الفكرية والإبداعية. كان أرسطو على حقٍ بيّنٍ عندما قال: أن التوازن بين الثقافات (أنماط الحياة) هو مفتاح تحقيق الحكومة الجيدة، وكلما استبعدت الحكومة أنماطاً من الحياة

تخسر الحكمة، فتزيد من المتاعب لنفسها، والنظم السياسية التي تشجع تنوع الثقافات (أنماط الحياة) تريح كثيراً فالتنوع وحده يحفظ الحياة (نظرية الثقافة ١٩٩٧) فهل العرب هم الصابرون الذين يرثون الأرض؟ أم كما قال لنا أحد قادة الصهاينة: (لكم السماء ولنا الأرض). وفكرنا الثقافي في مهمة صعبة عليه انجازها:

١ - التصدي للمشروع الإسرائيلي الذي يستغل أسلحة الثقافة والقوة العسكرية لدعم سياساته التوسعية.
٢ - أن يشتبك ويحاور السياسة الداخلية ليحصل على حرية الفكر والرأي.
٣ - أن يشارك في وضع منظومة سياسية قومية لا تستثني أحداً.
٤ - أن يوسع من مفاهيمه وأفكاره في علوم اللسانيات الحديث.

وهكذا فكرنا الثقافي مستقطبٌ سياسياً، وسياستنا مستقطبةٌ في دوامة الصراع العربي الإسرائيلي وهذا الاستقطاب المزدوج يبقى إلى أن ينسى فكرنا الثقافي جوانب عدة في علاقته مع منظومته السياسية وخاصة ما يتعلق بأجهزة الإعلام.

ج - **علاقة فكرنا الثقافي بالمكونات الاجتماعية:** فكرنا الثقافي فكر نخبوي، يتوجب عليه أن يفتح قنوات للحوار بينه وبين فكر ثقافته الشعبية، وإلا سيكون مصيرُ هذا الفكر الفشل في الحوار والأداء، وهنا بيت الداء، كيف يَخْلقُ هذا الفكر قنوات غير رسمية للحوار مع الجماهير الواسعة؟ وهل يوجد أفضل من الإنترنيت؟ بالإضافة إلى الندوات والمحاضرات ووسائل الإعلام، لأن فكرنا هو فكر عاجز عن التواصل، وهذا ما يجعله في مهب الريح.

د - **علاقة فكرنا الثقافي بأنماط الفكر الأخرى:** هيمنت علاقة فكرنا الثقافي بالأدب على علاقته بأنماط الفكر الأخرى، وبخاصة الفكر العلمي، كما سيطرت الثنائية الثقافية بين فكر العلوم الطبيعية/ وفكر الإنسانيات، ونأمل أن تساهم تكنولوجيا المعلومات في التخلص من هذه الثنائية، وهناك بعض المبادرات لهندسة اللغة العربية لتأهيلها للمعالجة بواسطة الكمبيوتر وتشمل: معالجتها: نحوياً ورياضياً ومعجمياً وقواعدياً وشبكات دلالية.

هـ - علاقة فكرنا الثقافي بالاقتصاد: تمكنت السياسة من استقطاب فكرنا الثقافي على حساب علاقته بالاقتصاد، وهذا ما يجب تداركه في ضوء عصر المعلومات ومتغيرات العولمة وتزايد أهمية صناعة الثقافة، وعلى الفكر الاقتصادي العربي مراعاة الجانب الاجتماعي والأخلاقي لمنظومة الثقافة وتجديد الحوار مع الفكر الاقتصادي الإسلامي من منظور معلوماتي، وطريقة تفكيرنا مرتبطة بالجانب الاقتصادي، فمجتمع الآلة مرتبط بالوقت، بينما الفلاح لا يعنيه الوقت، فحياته مستقرة في حضن الزمن، والزمن هو الذي يأتي إليه ليجرفه.

العناصر الداخلية لمنظومة الفكر الثقافي العربي:

الفكر الثقافي، يمكن أن نشطره إلى شطرين، الأول: فكر ثقافي قائم بذاته وهو ما تعرضنا له في الفصل السابق، والشق الثاني هي روافد فروع فكر الثقافة المختلفة: فكر اللغة - فكر التربية - فكر الإعلام - الفكر الديني - فكر معالجة التراث - فكر الإبداع والذي يغطي الفنون جميعها وسنتناول في الفصول القادمة كلاً من روافد الفكر الثقافي هذه، ويمثل رافد فكر اللغة أهم روافد الفكر الثقافي. وسيقتصر حديثنا على بعض الخصائص العامة التي تشترك فيها هذه الروافد كلها وأهمها هي: فكر غير خطي - فكر غير استاتي - فكر غير ثنائي - فكر غير تخصصي. أهم خصائصها :

أ- فكر غير خطي: اتسم الفكر الماضي بالطابع الخطي، وذلك الذي يرى معظم الظواهر في هيئة سلاسل متلاحقة متدرجة تتحرك من نقطة بداية باتجاه غاياتٍ محددة مسبقاً وفكر الإنسان ينمو خطياً من التفكير الحسي الغريزي إلى إدراك المحسوسات، ثم التعامل مع المجردات. ومعرفة المجتمعات هي الأخرى ترتقي خطياً من الأسطورة إلى السحر إلى الميتافيزيقا إلى العلم. وعلى صعيد علاقة التكنولوجيا بالمجتمع فقد طرحها الفكر الماضي بطريقة خطية، مثلاً: العلم يكتشف، والتكنولوجيا تطبق والمجتمع يتكيف معها . وأما خطية الفكر التاريخي واضحة في أحداثه المتعاقبة، وسرده ذي التتالي الزمني والمتسلسل، وتأتي فلسفة هيجل لتضيف الغائية إلى الخطية وإحالت التاريخ

إلى مسار جدلي متصل يتحرك خطياً نحو غايات مطلقة، إنها النزعة الخطية التي سادت في فكر الماضي والتي يرجعها البعض إلى تكنولوجيا الطباعة، ونصوصها ذات التتابع الخطي الصلب: من الحروف إلى الكلمات ومن الكلمات إلى الجمل فالفقرات فالنص الكامل. ويمثل الطابع الخطي تناقضاً جوهرياً مع الواقع فمعظم ظواهر هذا الواقع ذات طابع غير خطي حيث النقلات الفجائية والتغيرات العشوائية ومسارات التفكير المتوازية والمتداخلة. ويعتقد الكثيرون أن تكنولوجيا المعلومات قادرة على تخليص الفكر الإنساني من ميكانيكية التفكير الخطي، وقوانين العلة والأثر الكامنة وراءه وبنوا اعتقادهم أن تكنولوجيا المعلومات لا تتعامل مع النصوص فقط، بل مع الصور والأشكال أيضاً، وهي غير خطية بحكم طبيعتها، توفر نُظُمُ معالجة النصوص آلياً وسائل عدة للقفز فوق خطية النصوص مثل حلقات التشعب النصي التي تسمح بالتنقل الحر من أي موضع بالنص إلى موضع آخر.

ب - **فكر غير استاتي:** سريع التكيف مع الواقع قادر على استيعاب ظواهر الأزمنة الكبرى: تاريخية - جيولوجية - بيولوجية، وظواهر الأزمنة الصغرى فهو يتعامل مع ظاهرة الزمن بصورة مرنة، فهو يرى التاريخ من منظور الحاضر، ويحاصر المستقبل بسيناريوهاته وبدائل احتمالاته، ويمكنه استيعاب خلط الزمن الذي يجمع ما بين الماضي والحاضر، والمتوقع، ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تخلصنا من الفكر ذي الطابع الاستاتي، بعد أن طوعت عنصر الزمن، فباستطاعتها تفتيته ووضعه في وحدات متناهية الصغر، أن تقبض عليه وتلعب فيه طولاً وقصراً عبر المحاكاة الرقمية.

ج - **فكر غير ثنائي:** يرى الظواهر في سياقٍ متصلٍ، يستطيع أن يحدد مسار التدرج بين أطراف الثنائيات التي رسخت في أذهاننا، من قبيل مثلاً: ثنائية المثالية والمادية، وثنائية الذاتية والموضوعية، وثنائية العلوم والفنون، وهناك فارق بين تكنولوجيا المعلومات وغيرها من التكنولوجيات فهي تحطم كثيراً من الثنائيات، وأهمها : - ثنائية المادي وغير المادي - ثنائية العضوي وغير العضوي - ثنائية الجوهري وغير الجوهري - وثنائية الواقعي والخيالي

- وهناك العديد من هذه الثنائيات مثلاً: ثنائية الإنتاج والاستهلاك - ثنائية الرمز والمدلول - ثنائية المجاز والحرفي - ثنائية المكتوب والمنطوق - ثنائية البشري والآلي - ثنائية التعليم والتعلم - ثنائية التعليم والتربية - ثنائية المدرسة والعمل - ثنائية الفرد والجماعة - وسيطرت علينا هذه الثنائيات في الماضي مرة نجعلها هدفاً لنا وأخرى وسيلة للوصول إلى الهدف، وكان لهذه الثنائيات كبير الأثر على تفكيرنا مُنْطَلَقاً ومَخْرَجاً، فهي كانت تصوغ غايتنا وتوجه أداءنا وتشكل علاقاتنا وتصوراتنا، عن عالمنا وذاتنا وهي خادعةٌ في عملها تجعل التفكير بين بديلين لا ثالث لهما، تقضي على الطيف المعرفي الموجود بينهما، فيتعذر فهم الطبيعة الجدلية بينهما.

د - فكر غير تخصصي: قادر على اقتحام كل الحواجز بين أنواع المعرفة المختلفة، ومحاصرة كل التداخلات التي تربط بينها، ولا تزال تكنولوجيا المعلومات تعمل لكسر الحواجز المعرفية، بسبب المعالجة الآلية لفصائل المعارف المختلفة، وهذا يتطلب مستوياتٍ أعلى من التجريد، وكلما ارتقى التجريد تلاشت الفوارق بين المعارف المتخصصة، وأصبحت هذه المعرفة أكثر قابلية للتلاقي والتلاقح.

- العناصر الداخلية لمنظومة فكر الثقافة العربي:

إن الفكر العربي ينزع إلى الخطية المفرطة، لأنه لم يكتسب مهارات المنهج المنظومي حيث بمقدوره أن يتعامل مع عناصر متعددة بعلاقاتها، ومهارات التفكير الشبكي القادر على التعامل مع المدخلات والمخرجات وتعدد المسارات التي تربط بينهما، بالإضافة إلى تعلق الفكر العربي بالثنائيات وحبه الشديد لقانون العلة والأثر، ومثالنا على هذه النزعة الفكرية ما ذهب إليه فكرنا اللغوي في إحدى مراحله ليجعل لكل قاعدةٍ نحويةٍ علةً من خارجها، وربما يكون لذلك صلة بأسباب نزول الآيات القرآنية. أما فيما يخص تعامله مع الزمن فالفكر العربي ذو طابع استاتي يفتقر إلى الديناميكية المطلوبة للتكيف مع الإيقاع السريع لعصر المعلومات.

- هل يغادر فكرنا الثقافي حضن أمه الدافئ؟

لقد استقر فكرنا الثقافي في حضن أمه ولم يجرؤ على الخروج منه، ونحن بأمس الحاجة إلى تحفيز وتنوير فكرنا لمواجهة الفكر الغربي، ليضمن له الحضور في عالم الإبداع والابتكار والتجديد، عندها يتطهر من أدران التخلف ويخرج من دهاليز العتمة إلى قداس التنوير والحداثة، فالتغير والتغيير هما الرافعة لتغيير نظرتنا إلى الحياة وإلى محيطنا بل إلى داخلنا، فلا أحد يتطور في انعزال عن المحيط به، والمزيد من المعلومات يغير نظرتنا إلى الماضي والمستقبل، فلا إله يرمي النرد. والواقع يشدنا إليه بتغيراته الاجتماعية السريعة: (فوضى - لا استقرارٌ - تنوعٌ - لا توازن - علاقاتٌ لا خطيةٌ - ومدخلاتٌ صغيرةٌ تعطي نتائجَ مذهلةً. حساسيةٌ متعاظمةٌ لمجريات الزمن) والحقيقة أن الكون يكبر في العمر، وترتفع درجة حرارته، وهناك فقدان للطاقة لا يمكن تفاديه وبهذا تضعف قدرتها على دعم بُنَى أخرى، ولكن التنظيم هو بالضبط ما يغطي منظومة التنوع الداخلي. وهنا تفقد نظرية دارون روعتها ودقتها. (بريغوجين وستنجر ٢٠٠٨).

ونود هنا أن نصوغ الخصائص العامة لروافد فكر الثقافة في صيغة النفي (السلب) والشواش، لأنَّ الفكر العربي وحيد الاتجاه في سمته العام، يبتعد عن التعامل مع ظواهر (السلب) النفي والشواش لإنتاج نظام جديد.

فكرنا العربي يستأنس بالنفي (السلب) والشواش:

إن عالم النفي الساحر الذي يستهل بـ(لا) مثل: اللاوعي - اللانهائي - مدارس بلا معلمين - كتابة بلا ورق - رحلة بلا انتقال. وكلمات أخرى تحمل نفس المعنى، مثل: الوجود والعدم، الإغفال والإلغاء، المعارضة والرفض، الغير والضد، النقد والخلاف، الهلامية والتعقد، ونحن لا ندعو إلى الفوضى أو إلى العدمية وإنما هدفنا دمج ما هو إيجابي بما هو سلبي بدون إسقاطه من حساباتنا، لنحصل على جواز سفرٍ للدخول في الأماكن التي يتعذر دخولنا إليها، كالمناطق المهجورة والأماكن المحرمة، وتجسير الجسور فوق الفجوات، ونحن نهدف إلى إدراج النفي في تفكيرنا لما له من أهمية، ولا نسقطه من حساباتنا بل نعيد الهيبة إليه.

فهي دعوةٌ للتكامل والتوازن حتى لا نواجه عصرنا ونحن معاقون لا نستطيع التصدي أو اللحاق بالركب الحضاري، هنا يحضرنا ما قاله نيتشه: (نحن ننزع إلى السلب ولا بد لنا من فعل ذلك، لأن ثمة أشياء بداخلنا تصر على البقاء، وتصبو إلى الإيجاب) ويكفي فكرنا الثقافي أنه خضع لكل ما هو إيجابي عبر تاريخه الطويل بإنجازاته وانحيازاته، فهو فكر قطعي، محدد، موجه، يخشى كل ما هو زائغٌ أو متداخلٌ أو متشابهٌ، ينفر من الغموض والاختلاف يهوى الإجماع، ولا يقوى على الصبر أمام المشكلات، يحمي نصوصه من حرية التأويل وتعدد القراءات، يمنع استعمال: (البنيوية التفكيكية والحداثة). من أين لنا أن ندرك ألاعيب السياسة والإعلام واللغة واحترام البيئة؟ وفشلنا في فهم البنى الاجتماعية واللغوية والفكرية وجميع الظواهر، وهل يمكن أن يكون للفوضى نظريتها الناظمة؟ وللتَّعقدُ آليته وهيكله ونسقه واتساقه؟ لقد سقطنا أسرى وحيارى إزاء البساطة المفرطة، وهناك مظاهر عديدة لا تخضع للحس الطبيعي ولا للمنطق أو قانون العلة والأثر، ولا للفعل ورد الفعل. ناهيك عن قائمة الثنائيات: الشكل والمضمون، والرمز والمعنى، السلفية والمعاصرة، وتمسكنا بهذا يعني أننا فقدنا بصرنا وبصيرتنا، والفكر الغربي تخلى عن هذه الثنائيات عندما انطلق، فهي وسيلة لتنظيم الفكر ولا غاية لها، وهكذا استرحنا منعمين في حضن وعي معرفي زائف وما علينا إلا أن نلحق بقوائم العبث والفوضى كل ما يتجاوز قدرة عقولنا: من نظم ومعلومات وإشكاليات، وليس لنا إلا أن نحمي أنفسنا من تيار الفكر الهادر، وبهذا تتراكم طبقات الجهل لدينا. ولا يهدأ بال بعضنا إلا وهو يرمي الآخرين بوصمة الجهالة، حتى تأتي إليه من ذوي الجهالة هؤلاء الحقائق والمعارف والنظريات القائمة على استيعاب ظاهرة النفي هذه، وقد اندرجت في إطار الخطط والاستراتيجيات وتشكلت على هيئة وسائل عملية في كل ما يمارس علينا.

رحلة التنقيب عن النفي (السلب): والآن نجوب حقول المعرفة الإنسانية المختلفة من الفن إلى العلم، من التربية إلى الإعلام، من الهندسة إلى الفلسفة ليتضح لنا دوره في اغناء المعرفة الإنسانية على اختلاف مراحلها، ولابدَّ من

التساؤل في نهاية كلّ فقرةٍ لاستدراج العام إلى الخاص العربي لمواجهة الفكر الغربي.

نتائج رحلة التنقيب عن النفي (الشواش):

الشواش ونظرية الوراثة: احتل الشواش مكاناً متقدماً في نظرية الوراثة، لأنها تقوم في الأساس على (الشواش) والعشوائية في الصدفة حيث قامت على فرضية الانتخاب الطبيعي، وقد رفض الكثيرون هذه العشوائية كتفسير لتطور الكائنات الحية، وقد حاول البعض وضع نماذج رياضية تحاكي عملية التطور باستخدام الكمبيوتر لإثبات عدم صحتها إحصائياً، ويبقى عنصر الشواش يبحث عن رفيقه ليكتمل ويتكامل معه إلى أن حمله إليه علم البيولوجيا الجزيئية، واكتشف سر الكود الوراثي الذي أودعه الخالق (كموسومات) نواة الخلية، وهو يتألف من كلمات ومقاطع تصيغ التعبير الوراثي، يختزن بدوره معادلات توليد البروتين، مادة الحياة الرئيسية، وأثبتت دراسات البيولوجيا الجزيئية أن النص، الوراثي الكامن في النواة يحتوي فائضاً أو حشواً زائداً، وفيه تكرارٌ وَلَبْسٌ وإشكاليَّةٌ، وثبت أنه سبب (الخطأ الوراثي) المؤدي بدوره إلى تنوع الكائنات وتطورها، لكن عملية التطور نفسها ليست بالعشوائية المحضة، وإنما شكل من حرية التعبير الوراثي، محكومٌ بقواعدَ نحويةٍ دقيقةٍ، تحدد مجال الحرية، وتجعل معالجة المعلومات الوراثية تسير في هذا الاتجاه ولنفس الغاية المعينة وهو السر وراء تنوع الحياة وارتقاء الكائن البشري، والنص الوراثي للإنسان يتضمن فائضاً لغوياً أكثر غزارة ومرونة من غيره من الكائنات، ونحوه الوراثي أكثر بلاغة من غيره، وهذا ما يزيد في احتمالات الصدفة، ويزيد في قدرة الكود الوراثي على التعبير (البيولوجي) وعلينا أن نعي مغزى القواسم المشتركة بين لغة الجينات واللغة الإنسانية، ونعي أن تطور الكائنات وليد هذا المزج بين (الشواش) و(الايجابي) بين عشوائية الصدفة والانتظام بالنحو، بين حرية التعبير والقيود التي تحكم الاحتمالات الممكنة، فلا تعارض بين ما أوردناه وقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وما أروعها من قدرة إلهية عظيمة في أبهى

صورها متمثلة في هذا الكائن الإنساني. وكيف انبثقت العضوية من اللا عضوية؟[1] وكيف انتظمت بقدرته الإلهية عشوائية الطين؟

ب - **الشواش والدماغ البشري:** الشواش عنصر ملازم لمخ الإنسان في تطوره أو وظيفته أو في بنيته أو بطئه المميز في تطوره عبر العصور الجيولوجية، أو أثناء نموه الفيزيولوجي من الولادة حتى فترة النضج، والحيوان يولد ومخه مكتملٌ، بينما الإنسان يحتاج إلى سنوات عدة، ليتجاوز الفعل ورد الفعل والمؤثرات مثل القدرة على التخيل والتجريد وقراءة الرموز، عندها يتأهل للقيام بالعمليات الذهنية الراقية هذا عن صيرورة نضجه، أما عن بنيته فهو يختلف عن مخ الحيوان بانشطاره إلى شقين مختلفين: النصف الأيمن والنصف الأيسر ولكل شق مهامه وكيفية تنظيم تلك المهام، بينما دماغ الحيوان متماثل، والإنسان ليس بحاجة إلى هذا التماثل وربما كان الحيوان بحاجة إلى هذا التماثل ليتحاشى مهاجمة الحيوانات المفترسة، وعدم تماثل مخ الإنسان يجعله أقل حذراً من الحيوان، ولكن هذا السلب (عدم التماثل) هو نوع من التكامل.

- **وظائف الدماغ البشري:** له القدرة على التخيل والحدس والمنطق والمزج بينها، يساعد الإنسان على التكيف مع محيطه وبيئته، والتعامل مع (الشواش) والسلب ملازمٌ لمخ الإنسان في تطوره ونموه أو بنيته العامة أو وظائفه، وهو بطيء في تطوره ونموه. والمخ البشري يدين لهذا البطء بتميزه في تطوره عبر العصور الجيولوجية أو في نموه الفيزيولوجي من ولادته حتى اكتمال نضجه، وإذا كانت الحيوانات تولد بمخٍ مكتملِ النمو، فالإنسان يحتاج إلى سنواتٍ عدةٍ ليتأهل للقيام بالوظائف الذهنية الراقية، فيتجاوز غريزة الفعل ورد الفعلِ ويمتلك القدرة على الخيال والتجريد والتعامل مع الرموز هذا فيما يخص نضجه وتطوره، بعد أن كانت تعمل الشبكة الدماغية في حدها الأدنى بمبدأ الإثارة والإحباط، لأداء الوظيفة الذهنية الأولية، وهو يختلف في بنيته: عن

---

1 - التراب والطين يعتبران من المواد العضوية، ولكن نقول خلق الحيَّ من الميت وخلق الميِّتَ من الحي.

مخ الحيوان في عدم تماثله فيختلف نصفه الأيمن عن نصفه الأيسر من حيث المهام الموكلة إلى كل منهما، أو الكيفية التي تنظم بها هذه المهام، والإنسان ليس بحاجة إلى هذا التماثل خلافاً للحيوانات التي هي في أمس الحاجة إليه ليقيها ما يسكن الغابات، حيث يمكن للمعتدي أن ينقض عليها ويعتبر هذا التماثل كجهاز رادار يحدد مصدر الاعتداء المرتقب، وذلك من خلال مقارنة الإشارات التي يتلقاها نصفا المخ المتماثلان. ولهذا كان الإنسان أقل ترقباً وحذراً من الحيوان ولكن سلبية التماثل نوع من التكامل، وتكامل النصفين هذا يكسبه المرونة والقدرة على المزج المنطقيّ والحدسيّ والخياليّ والواقعيّ والتعامل مع الشيء ونقيضه، فما هي وظائف المخ؟ إنها تؤهل الإنسان على التكيف مع مطالب الحياة وبيئتها وواقعها، وهذه كلها تجعل من التعامل مع السلب أمراً أساسياً، وبإمكاننا القول أن وجودنا قائم على التعامل مع السالب والموجب، وعنصر السلب يساهم في وظائف المخ على جميع مستوياتها : الدنيا والوسطى والعليا، في المستوى الأدنى تعمل الخلايا العصبية – وحدة البناء الأساسية للمخ – بمبدأ الإثارة والإحباط، وأداء الوظائف الذهنية الأولية، وبالتالي هو حاصل تفاعل السلب والإيجاب، تلك موجب الإثارة وسلب الإحباط. وثبت عملياً أن عدد الخلايا العصبية المحبطة أو المطفأة، تفوق الخلايا المثارة أو المتوهجة، إنه اقتصادٌ الفيزيولوجيٌ يعمل على ترشيد استخدام الموارد البيولوجية. تمثل معالجة المخ للمعلومات سواء تلك الوافدة عبر الحواس أو التي تنتقل إليه من الذاكرة الآلية – الأساسية التي يعتمد عليها المخ البشري في تأدية وظائفه الوسطى. وقد قال عالم اللسانيات الأعصابية (ميشيل واتنكا)، مبيناً لنا الدور الحاسم الذي يلعبه السلب (النفي) الشواش في تأدية وظائف المخ الوسطى (إن قدرة العقل على معالجة المعلومات تعتمد بصورة أساسية على (فَقْد) المعلومات لا الاحتفاظ بها) فقدرة العقل على التجريد تقوم على حذف التفاصيل من أجل إبراز الجوهر واستخلاص المغزى من الشواش والضوضاء التي تغلفه. إن الفقد الذي نعنيه هو عملية الاختزال التي تصوغ المعلومات، الفعل في هيئة بنى وأنماط مفهومية لأن المفاهيم هي لبنةُ المعمار الفكري التي يمكن لها أن تتفاعل فيما

بينها . لتوليد معرفةً جديدةً، وهذه خاصية فريدة لمخنا البشري، تلك التي تحيل السلب: فقداً واختزالاً إلى الانتظام: بناءً وأنماطاً لتزيد من قيمة المعلومات وتفاعلها وهي تلك الخاصية التي يحلم بها مهندسو الذكاء الاصطناعي في محاولتهم إضفاء نوع من الذكاء الاصطناعي على آلتهم الصماء، وهم اليوم منشغلون كيف يكسبونها نعمة النسيان. حتى يمكنها التعامل مع الواقع خارجها بمنطق إحصائي منطق (الكذب النبيل) الذي يحمله التعميم الإحصائي الذي يخفي تفاصيل الحقيقة بحثاً عن الكليات والمؤشرات، وذلك بتجاهله الشارد وغير المطرد واختزاله للمتواتر والمتقارب. وفي ذروة إبداع العقل: وهو يكتشف. يخترع. يبادر. يزداد تعامل المخ البشري مع عنصر السلب يقول علم النفس أن الإبداع هو: (وليد ذلك التوازن بين الالتزام بالقواعد وخرقها، وإقامة الفروض وتفنيدها وتحطيم ما هو قائم، وإعادة بنائه، إنه الإبداع ينتج عن التضاد عندما ينتقل العقل خلالها ما بين التركيب والتحليل والعكس). وكيف لنا أن نحجز بلايين الخلايا العصبية عن التنقل من القسم الأيمن إلى القسم الأيسر، ومن حقها أن تلهو بموجبها وسلبها لتبتعد عن أحادية الفكر ودوجمائيته واستاتيته؟ وهل من تعارض بين ذلك والمهمة التي أوكلها إلى الإنسان خالقه العظيم؟ لتبدع كما شاء لها الخالق (سبحانه وتعالى).

ج - **الشواش والفلسفة:** إنَّ تاريخ الفلسفة وتطورها منذ عهد أرسطو وأفلاطون يعتبر مثالاً للتأرجح بين الانحياز إلى الإيجاب كما نراه في فكر فلاسفة: مثل: وسبينوزا وبرج سون، ونشاهد الانحياز إلى السلب: في فلسفة هيجل التي قامت على صراع الأضداد، وفلسفة نيتشه التي قامت على إلغاء ما قبلها من الصفر، والفلسفة التي أخذ بها فكر ما بعد الحداثة هي: مبدأ التباين، وعلى نقيض فكر الحداثة: مبدأ التطابق. نلاحظ مدى جدية العقل لفرض هيمنته وجبروته ليصبح حلمه واقعاً، وبين ارتداده صاغراً، يؤرقه الشك مُقراً بضعف النفس وحقائق الواقع وقوانين الكون، وفي تأرجح الفكر هذا يبقى الفكر سالكاً مساره الحلزوني المتصاعد، نحو الأعمق والأصدق والأشمل، ليؤكد قدرة الإنسان للإمساك باليقين الذي ظل يفلت منه دون

لحاق أو اكتمال وقد قيل في علاقة السلب مع الفكر الكثير من قبيل (إن سقراط أكثر الناس حكمة لأنه أكثرهم جهلاً) ترى السنا بحاجة إلى فكر فلسفة جديد، يمارس حقه في التنقل بين جميع أنواع العلوم بين الإيجاب والسلب، بين العلم والميثولوجيا، بين نظرية النظم ونظرية الفوضى، بين نظرية المعلومات ونظرية النقد، بين نظرية التربية ونظرية السيطرة، بين العولمة والعولمة المضادة؟! وقيل حديثاً (من لم ينتقد لا يعتقد) ألا يكفي ما قلناه سابقاً عن أهمية النفي أو (السلب) دليلاً على رسوخه في عالم الفلسفة؟ وكيف لنا أن نواجه عالم اليوم بعدتنا المعرفية المتهالكة؟

د - السلب (النفي) الشواش وتاريخ العلم: إن رحلة العلم هي رحلةُ أخطائه كما ذكر (توماس كون ١٩٩٢) في كتابه (بنية الثورات العلمية) حيث جعل من الخطأ شرطاً لعملية العلم، وكما قال كارل بوبر: لا يعد العلم علماً ما لم يكن قابلاً للتفنيد، ويحمل في طياته بذرة تخطئته، كما رفض (كارل بوبر) وضعية مدرسة (فينا) التي ترفض كل ما يندرج في نطاق العلم، إلا ما يمكن إثباته علمياً، والعلم ليس رهينة الإثبات، وهو يتقدم من خلال إقامة الفروض ونقضها أو نقضها بالسلب، ويقصد إثبات الشيء باستحالة إثبات ما يناقضه، وثبت أن المعرفة تحصل بالتجربة والخطأ، وخطأ النظرية (كما يقول لا كاتوش) لا يعني رفضها بل نحتفظ بها حتى يحل محلها أخرى صحيحة، أو لنقل بأقل خطأ، فالنظريات لا يحكم عليها بمعيار الخطأ والصواب، والمهم أن نبقى في حالة بحث دائم عن حقائق جديدة لدعمها أو تقويضها، وقد ثبت أن العلم لا يتطور بطريقة خطية، كما أوردت (يمنى الخولي ٢٠٠٠). يسير في طريق وعرة، وكل عقبة تقهر، تتبعها قطيعة معرفية، مع الفكر القديم انطلاقاً صوب الجديد وترى (يمنى الخولي) أن كل قطيعة معرفية تعتبرُ تجسيداً وبلورةً متألقةً لفعل الإنجاز والإبداع وإضافة جديدة وخطوة إلى الأمام (محمد عابد الجابري ١٩٨٧). ولعلنا نسأل: كما سأل (د. فؤاد زكريا) عن مدى الخطورة عندما نضع النص القرآني بإعجازه العلمي في مطابقة بعض نصوصه بمقولات العلم، والمحكوم عليها سلفاً أنها لا تقوى على الصمود ولا بد من أن تجد من يقوضها. فالعلم حمال أخطاء فكيف نسقطه

على القرآن الكريم وهو حمال أوجه كما أرشدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؟ .

هـ - السلب واللغة: تنتشر مظاهر الشواش والسلب في منظومة اللغة على اختلافها في الجملة، والصوت، والسياق، والحرف، وفي محاولة علم اللسانيات الحديث الارتقاء باللغة إلى مستوى العلم الدقيق، اهتدى بعلم الصوتيات الذي اهتدى بدوره بعلم الفيزياء، وصنفت الأصوات: كالجهر، والهمس، ساكن ومتحرك، الشدة واللين، الصائت والصامت، كما طُبِقَ في فروع اللغة الأخرى: الجمود والاشتقاق، في الصرف، والتقديم والتأخير في النحو، والحرفي والمجازي في الدلالة، والأصيل والدخيل في المعجم، هذه أدوات اصطلاحية لصياغة ظواهر اللغة بطريقة منضبطة، وصورية، حتى تخضع للتنظير المنطقي والرياضي ولمعالجة الكمبيوتر. لكن بظهور علم اللغة الحديث عن طريق (دي - سوسير) تجاوزت اللغة مستوى الاصطلاح أو ما يسمى وصف اللغة، ودخلت إلى علاقة الدال بالمدلول، وعلاقة الرمز بمعناه، وهي علاقةٌ محوريةٌ تحكم أداء المنظومة اللغوية جميعها، واللغة بصفتها وسيلةٌ لنقل المعنى، وقد حررها (دي - سوسير) إن الفكرة العتيقة الماضية التي تزعم أن الرمز غلافاً يحوي المعنى في طياته، ومعنى الرمز تحدده العلاقات التي تربطه بخارجه وليس بداخله، وبكلمة واحدة معنى الرمز: هو مجموع اختلاف مدلوله عن مدلولات باقي الرموز)، فمثلاً كوكب القمر نعرفه من خلال معرفتنا للفروق بينه وبين الأجرام السماوية الأخرى التي قد تكبره أو تصغره، وهي فروق تؤدي بدورها إلى معرفة تلك التي تفصل بين الأجرام السماوية وموجودات الكون الأخرى. وللتوضيح نقول: قطعة الحصان في لعبة الشطرنج تحدده اختلاف حركته عن حركات القطع الأخرى مثل الفيل، إذا ليس هناك معنى محدداً بداخله، وإنما يحدده اختلافه مع غيره، لقد ذهب الشواش في طريقه ليصل إلى آلية أساسية في التوليد اللغوي والاستيعاب، كما في اللغة الوراثية التي تعتمد مفهوم الفائض أو الحشو، أما في اللغة فيقصد بالفائض اللغوي: تلك العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمقامية التي تربط بين الحروف والكلمات والجمل والفقرات، التي

يمكن غض النظر عنها لكونها فائضاً، واحتفاظ النص اللغوي بقدرته على نقل المعنى. إن فائضَ العلاقات والقرائنَ التي يحتوي عليها النص، يُمَكِّنَنا من قراءة المعنى بسهولة، وهذا الفائض ليس عيباً بل هو سندٌ لمرونتها ومصدر قوتها، يحصنها ضد التشويش والخطأ والغموض، كما يساهم في قلب المعنى، جاعلاً من الوعد وعيداً ومن المديح ذماً، ليبقى المعنى متواصلاً بين المتكلم والمستمع، وهذا الفيلسوف (فيتنجشتاين) يواجه مشكلة إشكالية المعنى اللغوي من الإغريق وحتى اليوم، وكان الباب الذي ولج منه هو الانطلاق من السلب أو (الشواش) عندما قرر وضع نظرية للمعنى دون شرط مسبق لفهم الجوهر. وسؤالنا كيف نبعث النسغ في جسم لغتنا الرائعة ونعدها لعصر المعلومات في التنظير والتعليم والتربية؟ وعلم اللغة لا يخضع للتخصص وإنما إلى الرياضيات والمنطق والإحصاء والبيولوجي والسيكولوجي وعلم الاجتماع وعلم الكمبيوتر. وعلينا تحرير لغتنا من متخصصيها ونزعتهم التي يغلب عليها الطابع التقريري، وذلك بعد أن أصبحت إشكالية اللغة من الشمولية بحيث يستحيل تناولها من خلال التخصص وهذه كلها مجالات مليئة بالسلب.

و - **الشواش والفيزياء**: نحن لا نقصد بالشواش أو السلب، الفعل ورد الفعل في الميكانيكا أو الكهرومغناطيسية، نقصد أعماق المادة التي تساهم في تشكيل بنيتها وسلوكها وتفاعلها. وتحت تأثير نظرية نيوتن القاطعة لحساب حركة الأجسام وسرعتها، شاعت النظرة بأن العالم يتحرك وفقاً لقوانين محكمةٍ يعمل كالآلة بنظامٍ وبإيقاعٍ ثابتٍ ودائمٍ وإن لم يطرأ أمر ما حتى جاء (آينشتاين) وقلب قوانين نيوتن على رأسها، وكما أن سرعة الأجسام تتوقف على كتلتها، فالكتلة هي الأخرى تتوقف على سرعتها، وجعل من الزمن الذي طال ثباته، متغيراً هو الآخر فولدت النسبية لتموت قطعية فيزياء نيوتن، وكل ما جرته وراءها: من حتميات البيولوجيا، والجغرافيا والتاريخ واللغة والثقافة، ليت الأمر وقف عند هذا الحد ليخرج إلينا (هيزنبرج) بمبدأ (عدم اليقين). لتفسير سلوك الجسيمات في حركتها المرتعشة ويستحيل تحديد سرعتها وموضعها بصورة قاطعة. وبهذه الطريقة أصبح عدم اليقين أساساً لتفسير الظواهر الطبيعية وهكذا انتصر (السلب) الشواش في الفيزياء وحقق

موقعاً متميزاً في نواة الذرة (وحدة البناء الأولية في مواد الكون) وبتأسيس (هيزنبرج) لنظرية (الكوانتم) يرفع بالشواش إلى أعلى علّيِّن عندما أطاح باستمرارية الموجات والأطياف مستبدلاً بالاستمرارية عنصر المفاجأة والتدفق المتقطع، فلم يعد الضوء في جوهره ذلك الشعاع الموجي الساري المتصل بل تدفقات متقطعة متعاقبة تتألف من مزيج للطاقة والكتلة، هذا على المستوى الميكرو المادي، أما على مستوى الماكرو، فجميع النظريات المختلفة لنشأة الكون تتبنى معظمها مفهوم المادة والمادة المضادة، وهكذا حصل انقلاباً في رؤيتنا للكون الذي لم يعد تلك الآلة التي تعمل في خطية واستمرار، بل هو نظام يعمل بظل قوانين غير خطية وهذا ما يجعله عرضةً لعدم الاستقرار والتقلبات والنقلات النوعية والتعدد، وهذا ما يجعلها تبدو فوضوية لفرط اضطرابها، ولكن هذا الكون يبقى مستقراً بفعل نظامه الداخلي وآليات التصحيح الذاتي الكامنة داخلها. إنه ذلك اللقاء بين السلب والعشوائية والانتظام، وتتوالى هذه المشاهد في الكيمياء ومن الميكانيكا إلى الديناميكا الحرارية، والسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف لعدم اللا يقين ألا يخيفنا عندما يخفي عنا رؤية الواقع بصورة أعمق؟ وكيف نحكم بالخلاف الذي يفتعله البعض بينه وبين يقين العقيدة واستمرار القانون الطبيعي؟

ز - الشواش (السلب) والرياضيات: الإيجاب والشواش (السلب) تقوم عليهما مادة الرياضيات والمنطق والحساب والجبر أو الإحصاء الرياضي، ولم تكتمل المنظومة هذه إلا بعد اكتشاف الصفر، وما كان للجبر معنى لولا اكتشاف الموجب و(السالب) التي تسبق حدود معادلاته وتكافؤاته ولم تنفذ مادة الرياضيات إلى عالم الفيزياء الموجبة (كهرباء – صوت – ضوء) إلا بعد اكتشاف الأرقام غير الحقيقية والتخيلية، أما مقولات الرياضة المنطقية فمآلها إلى الحكم بكونها صواب أو خطأ، وهل لنا أن ننسى فضل أهل القمار على تطور علم الإحصاء الرياضي الذي اتخذ من لعبة النرد وعجلة الروليت مدخلاً أساسياً له، فمن يستطيع أن يوفي السلب حقه في عالم الرياضيات لو اقتصر دوره في صياغة الأبجديات الرياضية، دون أن نتناول علاقة السلب مع جوهر الإشكال الرياضي، والذي كشف لنا عن طبيعته (كورت جودل)

مؤسس علم الرياضية المنطقية وهو العلم الذي لعب دوراً أساسياً في تطور الكمبيوتر ونظام المعلومات وباكتشافه مبدأ (عدم الاكتمال) ثبت لانهائية الإشكال الرياضي بمعنى ما أن تقوم نظرية جديدة لحل إشكالية معينة إلا وتنتج عنها إشكالياتٌ رياضيةٌ جديدةٌ، وهكذا أطاح مبدأ عدم الاكتمال بأمل راود علماء الرياضيات هو الحصول على معادلات أو قوانين جامعة مانعة، لكن مبدأ (عدم الاكتمال) فتح الباب أمامهم - أي علماء الرياضيات بل العلماء بكافة - كي ينطلقوا في فضاء معرفيٍّ لانهائيٍّ بحثاً عن الصواب أو الأقل خطأً والأعمق والأقل ضحالةً ومبدأ (عدم الاكتمال) ذاع صيته في جميع أنواع المعرفة الإنسانية وفي جميع فروع العلوم: البيولوجي والسيكولوجي من الفيزياء إلى الفلسفة، ومن علم الاجتماع إلى علم الفلك، ومن نظرية المعلومات إلى نظرية النقد وعلم القراءة، وهنا يمكننا القول بعد اكتشاف مبدأ (عدم الاكتمال) أو السلب في روعة اكتماله أن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة في أي من المجالات المعرفية الإنسانية، فالبشرية أسقطت من قاموسها كلمة (نهائية) فالإبداع هبة الخالق لكل البشرية والسؤال هو: عن مدى تقبل كهنوتنا العلمي والثقافي لما يعنيه مبدأ (عدم الاكتمال)؟ ومتى يخفف الماضي من قبضته علينا؟

ح - السلب والمنطق: للمنطق الصوري علاقةٌ أساسيةٌ مع عنصر الشواش لأنه ميزان الحكم على صدق المقولات أو بطلانها، والمنطق المعكوس: استخلاص المقدمات من النتائج وكذلك إثباتها بالنفي، وهذا يؤكد الموقع الحصين للشواش، في الحقل المنطقي، وشأن السلب والمنطق لا يقتصر عند حدود هذه الأمور التفصيلية بل يتجاوزها لما هو أبعد وأشمل، والمنطق الأرسطي ظهر مدى قصوره في التعامل مع: القضايا الذهنية، واللغوية، والهندسية، والاجتماعية. بسبب قطعية المنطق الصوري الذي يتعامل مع المجرد واللازمني والمحدد، فإما القضية لديه خاطئة أو صائبة، ولا شيء بينهما لا يميز إلا الأبيض أو الأسود دون طيف للتدرج الممتد عبرهما وبسبب استاتيكيته وصرامته وصوريته قطع صلته بالواقع المعيش: احتمالاته وديناميته وزمنه، كما ثبت قصور منطق الرتبة الأولى لأرسطو في التعامل مع

اللغة: حذفاً ولبساً ومجازياً وفوائضها وهنا تنازل عن مثاليته مقراً بضرورة التعامل مع مظاهر السلب وعدم الاكتمال ومبدأ عدم القطع. ونحن نقدر عالياً هذا المنطق الجديد في جميع مجالات: اللغة والفيزياء وعلم النفس وعلم الاجتماع والكمبيوتر والدفاع الجوي ونظم التسليح وإقامة نظام المحاكاة في التخطيط والاختبار.

ط - السلب وعلم النفس: ينطوي علم النفس على السالب والموجب، فهو يناقض الأنا بالآخر، والوعي باللاوعي، انفتاح وانطواء، خير وشر، واللاشعور واللا محسوس، واللا عضوي، واللاإرادي، هذه منفياته، وقد هذبت نظرية رمزية الوراثة من شواش الانتخاب الطبيعي، وهذب (لا كان) من بدائية الغرائز وعشوائيتها التي ركز عليها (فرويد) أثناء تحليله للنضج النفسي، ويضيف إليها بعداً آخر جاعلاً من النضج الاجتماعي نتيجة تراكم وتداخل فعل الغرائز مع نمو ملكة اكتساب الأنساق الرمزية: من لغة وموسيقى ومجردات.

ولولا التقاء الشواش مع الإيجاب لما تعلم الطفل لغته الأم حيث يساهم في النضج الذهني والسؤال المدهش كيف يكتسب الطفل بهذه السرعة لغته الأم برغم تعقدها وصعوبتها، والكلام العشوائي من الكبار والصغار المملوء بالأخطاء والضوضاء والاقتضاب والتغير والتنوع. ورفض (نعوم تشو مسكي) تفسير علماء النفس السلوكيين لهذه الظاهرة، على اكتساب الخبرات عن طريق المؤثرات السلوكية وردود الفعل، وقال: إنَّ الطفل يولد بملكة لغوية أو حد أدنى من المبادئ العامة للغة المشتركة بين جميع اللغات، وبهذا يستطيع الطفل أن يكتسب أنماطاً من اللغة ومفرداتها من خلال الاستنتاج المنطقي والتفكير المنهجي، موجهاً هذا العموم اللغوي بما يتفق ومطالب لغته الأم. والسؤال لماذا اتخذنا هذا الموقف السلبي من علم النفس؟ وكيف يتم هذا مع ما نشاهده من تداخل علم النفس في علم الاجتماع والإعلام واللغة والإدارة والهندسة الوراثية والذكاء الاصطناعي؟ وماذا لو طبق علم تحسين السلالة البشرية انجازات الهندسة الوراثية وعلم النفس الحديث، وجعلوا مورد الذكاء

هو الآخر مصدراً لطبقية جديدة أساسُها الذكاء هذه المرة لتضاف إلى قائمة اللوائح التي تفتك بنا فما هو مصيرنا؟

ي - **الشواش (السلب) والفن:** يستأنس الفن بالشواش وبفكرة الانبعاث من العدم والانطلاق من اللاشيء، وقد ارتبط الفن التشكيلي في علاقته الحميمة بالشواش بحكم كونه أكثر تمرداً وانطلاقاً، كان هدف الفن التشكيلي هو تصوير الواقع المجسم ثلاثي الأبعاد، ونقله إلى مسطح ثنائية الأبعاد، والتسطيح يعني إلغاء البعد الثالث إما بالإيهام بوجوده بخداع المنظور، وإما بإسقاطه تماماً، ويظهر لنا السلب في تألقه بانتقال الفن التشكيلي إلى التجريد وسعت التجريدية التحليلية إلى تحطيم الأشكال، وإعادة ترتيب حطامها حتى سميت باللا موضوعية وعلاقة السلب بموضوع الفن التشكيلي لا تقل إثارة عن علاقته بأسلوبه. وظل الفن في عصر النهضة مقتصراً على ما هو جميلٌ وسامٍ ومتسقٌ، يغدو ويروح بين الكنائس خادماً لها، وسرعان ما رمى الفن بعيداً ذلك التقليد الجمالي وتخلص بالتالي من وظيفته، وأصبح للقبح نصيبه بين جدران المتاحف والمعارض، ورأينا تلك اللوحة الجميلة ذات الوجه القبيح لـ (رامبرانت) وما أروع تصوير الهولندي العبقري في توازنه بين (سلب) الظلال و(إيجاب) الضياء، وهذا الفيلسوف (نيتشه) يحترم القبح، ليأتي (بيكاسو) هذا العبقري في الفن التشكيلي ليجعل من القبح غايةً تبتغى وقد قال: (إن كنت بصدد انجاز عمل فني مهيب عليك أن تخطط من البداية بحيث يكون مآله في النهاية القبح) ولهذا أصبح الفن يحتفظ بنظرته البريئة واليوم أخذ الفن يحاكي فنون القبائل البدائية ورسوم الأطفال. ألم يقل بيكاسو: (لقد احتجت إلى ١٢ عاماً لأرسم كرامبرانت و٦٠ عاماً لأرسم كطفل) وما بعد الحداثة قام الفن على أساس (الجليل) المقزز والمروع. وكل ما يستفز المتلقي. الشواش في مجال الأدب: وتفصح اللفظة (لا) التي أصبحت لازمة في مصطلحات النقد الأدبي والفني أدب اللا أدب، مسرح اللامعقول، قصة بلا حبكة، وهناك مصطلحات أخرى مثل: مسرح العبث، أدب الصمت، الفن ضد الفن، موت المؤلف وموت الرواية، وكان أدب (كافكا) أكثر قدرة على التعبير عن الواقع من غيره، مما يطلقون عليه الأدب الواقعي وهذا يشير برأي

البعض إلى رفض الأدب لواقع العصر، وإلحاحه على تغييره، فلم تعد وظيفة الأدب ملء الفراغ بالوهم المصنوع أو بالأكاذيب المريحة، وتبقى وظيفة الفن هي: الانتهاك كما قال: (لورانس داريل)، وتبدأ الحداثة مع البحث عن أدب مستحيل كما قال (رولان بارت)، وعلى الأدب أن يرفض النظام المفروض أو المكتشف، وكل ما هو مفروض عليه، والفن يصبح فناً عندما يصبح ضد الفن ذاته، وأن نتساءل دوما ما الفن؟ وفي الأدب غدت النظريات الحديثة تستكشف ما وراء النص ودلالات مواضع الصمت، وكشف النقاب عما سكت عنه الكاتب، وما تبطنه معاني ألفاظه وعلاقات جمله وفقراته، ألم يحن الوقت لنستدعي الحمقى بسلبهم (وهذا ارازموس بكتابه (في مديح الحماقة) من الكوميديا اليونانية مروراً بالجاحظ وشخصية الأحمق وذكائها الفطري، وطيبتها ونقدها اللاذع، مستخدمة الكشف عن رذائل الادعاء والكبرياء الكاذب، ولا أخلاقية المجتمع ووحشيته (سامي خشبة ١٩٩٤) وكل لاعقلانية فيها عقلانية، وكل عقلانية فيها لاعقلانية.

أما بالنسبة للموسيقى: فهي أرقى الفنون وأكثرها تجريداً، وقد ظلت تعتز بأنساقها ونغماتها على مدى العصور، وهذه مدرسة (فينا) بزعامة (أرنو لد شون برج) تسمو بالموسيقى سلباً حتى طورها اللا نغمي أو اللا مقامي، فإن موسيقى اليوم تتخلص من آلتها، بعد أن أصبحت مركباتُ الأصواتِ التي تعمل بالكومبيوتر قادرةً على توليد أنغام الآلات المعروفة، واستحداث أنغام لم يسبق لآلات أن أخرجتها. موسيقى بلا نغمات وبلا آلات ولم يرض أديبنا الكبير (العقاد) عن الموسيقى ولا عن الشعر الحر، وله عذره في ذلك فهذا (سقراط) لم يرض عن اختراع نظام الكتابة، وفضل عليها أسلوب الشفاهة الذي كان سائداً في زمنه.

ك - الشواش (السلب) ومنظومة المجتمع: منذ نشأة علم الاجتماع انقسم العلماء إلى فريقين: فريق يؤمن بتطور المجتمع ونظمه، من خلال الوفاق وذوبان الخلافات، والتوفيق ما بين الآراء السائدة في المجتمع، بالتفاعل والبحث عن القواسم المشتركة والفريق الآخر: يصر على حتمية الصراع بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة واستحالة الوفاق

الاجتماعي، ويرى كارل بوبر: أن المجتمع الذي يخلو من الصراع هو مجتمع لا إنساني. هذا على سوية معينة، والآن لنبحث عن الشواش (السلب) والاضطراب بين الهيكلية الاجتماعية: - القوى الرمزية - القوى الاقتصادية - القوى العسكرية - القوى السياسية - القوى الرمزية: كل ما يتعلق بالإعلام والتربية ونظام القيم والثقافة. والقوى العسكرية: الجيش والشرطة، وظيفتها سلبية تقوم على القمع والردع في الداخل والخارج وفرض الواقع بقوة السلاح. أما القوة السياسية: فلها أسلوبها الخاص في استخدام الشواش (السلب) ويعد أن حالت إلى أختها القوة العسكرية بغلظتها وهمجيتها وصرامتها، تلجأ هي إلى الحيل والكذب والتضليل والتمويه وأقنعة الكياسة، تراوغ وتخادع، تتآمر مع الحليف، تساوم وتقايض من هو بين الحليف والخصم، فهي تَقْتَنِصُ الممكن لمصلحتها مابين موازين القوى والقانون والقيود، ولا تقرب الفضيلة، فمتى كانت السياسة تخضع للفضيلة؟ وخاصة في عالم اليوم. وفيما يتعلق بالاقتصاد فالسلب (الشواش) هو اليد الخفية التي تحرك الاقتصاد بسلبه (الاستهلاك) وإيجابه (الإنتاج)، وآليات السوق المستترة تضبط طرفي المعادلة، ويكفي الاقتصاد شواشاً أن التقدم الاقتصادي لا يعني بالضرورة تنمية اجتماعية حقيقية. والشواش أو (السلب) يعسكر في ساحتي الإعلام والتربية والمتلقي مخدَّراً تحت رايته مسترخياً، فالإعلام يخفي عن الناس ما يشاء بصمته، وكذلك التربية تخفي بمناهجها ما شاءت من المعرفة التي لا تريد لطلابها معرفتها، نحن لا نريد الإعلام هراوة بيد السلطة بل نوراً للمواطن، ولا نريده بوقاً لخدمة التاجر، ولا نريد التربية لخدمة الحاكم، بل نريدها لخدمة الوطن والإقليم العربي، فهل بقدرة علماء الاجتماع العرب وضع نظرية اجتماعية تستوعب متغيرات العصر وتميط اللثام عن مشاكلنا التي تغلي وتغرغر تكاد أن تنفجر وكل المعطيات تقول أن مرحلة اجتماعية قد زالت ومرحلة أخرى طلت فهل هي مواجهة أم معانقة؟ إنها مواجهة شعبية مع الحكام الذين أقسموا يمين الولاء لإسرائيل وحماية حدودها، مقابل وجودهم في الحكم، بينما المقاومة العربية في سوريا ولبنان وحماس تهزم العدو

لإسرائيلي. نعم، صدق من قال (لو أراد العرب الانتصار على العدو الإسرائيلي لفعلوا).

ل - **الشواش والتربية**: من أجل أن يسترد الإنسان إنسانيته والمجتمع عقلانيته واتساقه وتوازنه، ارتفعت الأصوات عالياً تنادي بفلسفة تربوية ليس هدفها الإبقاء على ما هو قائم بل تنمية النزعة إلى التغيير ونقد الواقع من أجل تصويبه واغتنائه ولنتتبع مظاهر الشواش في عملية التعليم ذاتها معلومات كاسحة وانفجار للمعرفة وتسارع حركة العلم، أصبح ضرورياً أن تتعامل مناهج التربية مع سلب الإهلاك، وتحت هذا الزخم والطوفان لابد من إحلال الخبرات والمعارف والعلوم والمهارات بأخرى جديدة وذلك لسرعة تقادمها، وهدف التعليم هو أن نعلم الإنسان كيف يتعلم ذاتياً أبد الحياة أي كيف يهلك قديمه ليستوعب الجديد ويمارسه؟ وفيما يخص بالسلب وعلاقته بجوهر عملية التربية والتعلم، إن علم النفس التربوي أثبت أن الإنسان يتعلم من خلال التجربة والخطأ، وهناك أنواع من التفكير تنطلق من السلب: كالتفكير الخلافي، والجانبي، والتفكير التفنيدي والنقدي، فما أشد حاجتنا لثورة تربوية شاملة تطيح بالمنظومة التربوية. وما أبعد المسافة بين ما ذكرناه وبين فلسفتنا التربوية السائدة، ونحن بأمس الحاجة إلى ثورة تربوية حقيقية، يقودها المعلم والمتعلم، لننظر ما يجري داخل فصول الدراسة ومنازلنا وإعلامنا، والساعات الخصوصية التي شوهت العلاقات الاجتماعية.

م - **الشواش والهندسة**: إن الهندسة هي وسيلتنا للتحكم في النظم المعقدة، بفضل تحويلها الأفكار إلى واقع ومع ذلك فتعاملها مع السلب شرطاً كي تتمكن من مواجهة التعقد من احتمالات واقع الاستخدام والمفاجأة والتشغيل، ويبدو موقع السلب في هندسة التحكم التلقائي، حيث تعمل نظم التحكم بمفهوم الدائرة المغلقة لقياس مدى الخطأ، أو الحيود بين الأداء المتوقع والأداء الفعلي، ويقاس الحيود من خلال وسائل التغذية المرتدة ليغذي هذا الحيود أو الخطأ كما يسمى أحياناً، إلى آليات التحكم التي تعمل على تلاشي الفرق المتوقع والفعلي، وبسبب نزعة الهندسة العملية لا تفترض الهندسة اكتمال النظريات ولا القواعد الرياضية، وتعوض نقصها بإتباع

الأسس الامبيريقية التقريبية، التي رُسُخَتْ بالخبرة، وهي تلجأ إلى الحدس إذا تعذر القطع، حتى أصبح الحدس عندها نهجاً مستقراً يسمى (الحدسيات) وليس عامل الأمان عندها إلا ضرباً من ضروب الجهل، وهي تتوق في حداثتها إلى مواجهة السلب صراحة ومباشرة، وذلك بنسف المبادئ الهندسية الراسخة، وكل هذا القدر من مزاحمة السلب لم يشف غليلها، وهذه هي الهندسة المعمارية التي كانت تفخر وتعتز بتوازنها وتماثلها وبخطوطها المستقيمة، علماً أنَّ لاشيء في الطبيعة مستقيم، إنها تحطم أشكالها، ويشدها الحنين إلى كل ما هو مائل وغير متماثل ومنحرف، وعلينا أن ننظر إلى الهندسة نظرةً شاملةً حيث كاد أن يصبح لكل فرع هندسته: هندسة اللغة - الهندسة الطبية - هندسة البرمجيات - هندسة الطاغية - هندسة البيئة - هندسة الزلازل - الهندسة المجتمعية كبديل ليبرالي للتخطيط المركزي.

ن - **الشواش (السلب) والمعلومات:** ليس هناك عمقاً أكثر من لقاء الشواش مع المعلومات: نظرياً وتطبيقياً، وتدلُّ عليها تكنولوجيا المعلومات ثنائية الواحد والصفر وكمية المعلومات التي تتناسب طرداً مع عدم التوقع كما حددها (كلود شانون) في نظريته، فكلما كانت المعلومات أقل توقعاً زادت كميتها والعكس، فهندسة الكمبيوتر وهندسة البرمجيات بالعديد من مظاهر السلب كاللامركزية واللا قطعية، والمعلومات تكاد تغير نظرتنا إلى مفهوم السلب وموارد المعلومات تزداد قيمتها - خلافا للموارد المادية - مع زيادة استهلاكها، حيث يؤدي هذا الاستهلاك إلى توليد معلومات جديدة، وهذا يدل على قدرة العقل لتحويل السلب إلى إيجاب. فهل المعلومات نعمةٌ أم نقمةٌ؟

- لماذا نبجل الكبير ونستخف بالصغير وما هو دون؟

أ - **أهمية الصغير:** يتميز العلم الحديث باكتشافه قيمة الصغير وخطورته واستغلاله لقدراته الكامنة على المستوى المادي من خلايا وجزيئيات وذرات وجسيمات وفيروسات وجينات، أو الصغير الزمني (زمنيات) المتمثل في تقلص وحدة الزمن التي يتعامل معها العلم والتكنولوجيا، وتقاس بالمايكرو ثانية والنانو ثانية والفمتو ثانية. والصغير الرمزي من الأصوات: (فونيمات)

وسيسمات الدلالة وسمات النحو صعوداً إلى ذروة الصغير الرمزي، المتمثل في بناء الوحدة المنطقية متناهية الصغر (الصفر والواحد)، التي فجرت ثورة المعلومات وأدت إلى الإقرار بعظمة الصغير التنظيمي، بعد فشل التنظيمات الضخمة في التجارب مع طابع السرعة الذي يميز عصر المعلومات، وترتفع الأصوات حالياً عالياً بالعودة من العولمة إلى ما هو أصغر إقليمياً كان أم محلياً. – ما سلبيات الاستخفاف بالسلب؟ واليوم أصبح (السلب) فاعلاً ومتفاعلاً مع المادي واللامادي والفيزيقي والرمزي والفردي والجمعي، وهو بهذا الشيوع أصبح رابطةَ العَقْدِ بين كل مجالات المعرفة المختلفة حتى بين الإنسان وعالمه. هو السلب يعلن عدم اكتماله ليحثنا على العمل والسعي صوب الكمال، ويحمل راية الاختلاف، من أجل المزيد من الإبداع والاكتشاف، يفك يحطم من أجل تركيب أكثر اتساقاً، وبناء أكثر رسوخاً. ولاشك أن احتقارنا للسلب له أسبابه: التربوية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية، وما نود الإشارة إليه هو الموقف السلبي من السلب الذي أدى إلى الوقوع في الاستعارة الأنطولوجية كما يقول البعض، وقد خدع هذا البعض ظاهر اللفظ وراح (يُبَجِّلُ الكبير والكثير وما فوق). ويستهين (بالصغير والقليل وما دون) ونقول لهؤلاء أنه لم يكن لحضارةِ اليومِ أن تقوم لها قائمة لولا أن غيرت نظرتها إلى ثلاثية الاستهانة (الصغير – القليل – وما دون).

ب – **أهمية القليل:** انفصلت العلاقة بين القلة، وقلة الشأن، بعدما أثبت البيولوجي والفيزياء وعلم اللغة إمكان توليد اللامتناهي والمتعدد من القليل المحدود، ومثالنا على ذلك: سلسلة التفاعلات الكيميائية والانشطار النووي.

على الصعيد المادي، ولانهائية التعبيرات اللغوية على المستوى الرمزي، فاللغة كما يعرفها أهلها: (هي الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة) وذلك بفعل آلية التكاثر والتفاعل، والتوليد الرُمزي. ولم يعد القليل يشكو من الضآلة بعد أن عرف طريقه إلى اللانهائي.

ج – **أهمية ما هو جزيء وجسيمات ثاوية:** ظهرت أهمية ما هو تحت السطح وتحت النص، لفهم ما هو فوق، ولا يمكن فهم ما هو فوق دون اكتشاف

البنى العميقة والآليات الدفينة وراء هذه التجليات، وقد سعت النظريات الحديثة: البنيوية وما بعدها، والديناميكا الحرارية إلى اختراق التعقد الذي يفصل بين الظاهر والباطن (التعقد الذي يبدو قدر ثابت) والذي يغيب عن ظاهر الأشياء لا يضيع سدى بل يغوص ليستتر في طيات باطنها وهذا يفرض علينا تتبع أثره أيا كان عمقه حتى يبدي لنا فهم تجلياته. فمثلاً نجحت البيولوجية الجزيئية في عزل جزيئاتٍ خاصةٍ تلعب دوراً مهما في آلية الحياة.

والحقيقة إننا نعيش في عالم غير مستقر غير متوازن، مضطرب إنه يخدم الوظيفة العليا للإبداع، مات عصر الآلة وتفتت مجتمعها، ويبدو أن الجنس البشري اليوم في طور التحول، وربما يلعب العلم دوراً مهماً في هذه اللحظة من الانفجار السكاني، ومن الضروري أن تبقى قنوات العلم مفتوحة على المجتمعات، وتطور العلم حالياً أخرج الغرب من المناخ الثقافي للقرن السابع عشر الذي ولدفيه، والعلم في هذه الأيام يحمل رسالةً عالميةً أكثرَ قبولاً لتراثيات ثقافية مختلفة. ويقول (جاك مونو) أحد العلماء المعاصرين (يجب أن يستيقظ الإنسان من حلمه الألفي، ليدرك عزلته وانفراده. ويرى نفسه الآن كغجريٍ يعيش على حواف العالم الغريب، عالم أطرش لا يسمع موسيقاه، ولا مبال لآماله ولا لآلامه ولا لجرائمه) يا لها من نغمة تَراجيدية. أليس العلم طريق للتواصل؟ أليس هو حوار مع الطبيعة؟ أليس العقل في طريق الانتصار؟

الفصل الرابع

(من الخطر أن تعيش دون خطر)

ثقافة اللغة العربية

أ - **نظرة شاملة للغة:** إن اللغة قائمة على قاعدتين هما: تفكيك الخطاب الذي هو وجه من وجوه تحليله، ولكنه يتميز بالكشف عن المضمنات التي تقولها بنية الكلام، والقاعدة الثانية: هي إنتاج الخطاب وهو الوجه العملي من المعرفة، وإنتاج الخطاب هو شكل من أشكال التواصل مع سبق الإصرار بإبلاغ المقاصد التي يراد لها أن تنفذ إلى الحد الأقصى، وفيه امتزاج بين الفن والعلم وبين الموهبة ومهارة الاكتساب، وهذا يوصلنا بدوره إلى البعد التداولي، ولا بد هنا من استحضار المنطق، ومعلوم اليوم إنَّ اللسانيات تتكئ على فلسفة الذهن وعلم النفس وعلى علم الحاسوب، وقد أكتسب البحث في الظواهر اللغوية قيمة بالغة، تلامس أسئلة كانت إلى وقتٍ قريبٍ محظورةً ميتافيزيقياً، وهي الحقيقة الحاضرة في الواقع المتعين، والغائبة عن الوعي الآسر، حقيقتها بلاغةٌ جديدةٌ تنشأ في العقل.

إن لغتنا تحملنا في جوفها وهي الهواء الذي نتنفسه والرحم الذي يحضننا ويحيط بنا، والأداة التي نتعامل به مع الواقع وندرك بها العالم، هي قدرنا الذي يكشف عن ذاتنا الاجتماعية، تشكل حياتنا، تكشف عن جذورنا وعن عقليتنا، هي شائعةً ومجهولةً، تمارس سلطتها علينا، نحيل بها المحسوس إلى مجرد ونجسد بها المجرد، إنها الجسر بين الذات والموضوع، تترجم ما في ضمائرنا لتستحيل إلى أدوات تشكل الحياة كما يقول (ابن خلدون) وتوجه أداء المجتمع وسلوك أفراده جماعات ومؤسسات. وأهم ما قيل في اللغة ما قاله (جابر عصفور ١٩٩٧) على لسان شاعر صقلية (اجنازيو بوتيتا): (إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل، وتسد أفواهها، وتشرد من بيوتها، ويبقون مع ذلك أغنياء فالشعب يفتقر ويستعبد ما أن يسلب منه اللسان الذي تركه

له الأجداد، عندها يضيع إلى الأبد) واللغة تعمل عملها في طبقات اللاوعي على اختلاف مستوياته، ونظراً إلى شموليتها وشيوعها فهي مسؤولية الجميع: مسؤولية التربية والإعلام والمنظمات الثقافية والنخب مسؤولية الشاعر والعامل والمدرس والطالب والكاتب، فاللغة هي الأم التي ترعى كلَّ ناطق بها وكأنه طفلها الأثير. تزهر وتنمو إن تمرد عليها شعراؤها ولا تضيق ذرعاً بصلابة علمائها وتغفر تجاوزها.

ب - **أهمية اللغة:** اللغة هي الذات والهوية، وهي الأداة التي تصنع منها المجتمع، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها في مجتمعها ومعجمها ونصوصها ونحوها، وهي من أبرز السمات الثقافية، وما من حضارة إلا وَصَاحَبَتْهَا نهضةٌ لغويةٌ، إنَّ لغتي هي عالمي، وحدودها حدود عالمي، وما من صراعٍ بشريٍ إلا ويبطن في داخله صراعاً لغوياً، ويمكن أن نصيغ تاريخ البشرية على أساس صراعاتها اللغوية وحضارة اليوم تسعى لتلوين الكثير من اللغات بلونها ونحوها: من جوانبها السياسية والاقتصادية والمعرفية والأخلاقية، وجاءت تكنولوجيا المعلومات وهندسة الوراثة لتضع اللغة في قمة الهرم المعرفي، وما من فرع من فروع الفن، أو فرع من فروع العلم إلا وله صلته باللغة، وعلى صعيد السياسة والاقتصاد أصبحت اللغة أشد الأسلحة الإيديولوجية ضراوةً، بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والتجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيري، التي أصبح وابل رسائلها تفعل ما كانت تفعله في الماضي منصات الصواريخ الموجهة. ولا يناظر ضراوة اللغة إلا صمودها، فهي القلعة الحصينة للذود عن الوحدة والهوية القومية، ولا يناظر جبروت اللغة إلا حنانها، وكيف لا؟ واللغة الأم هي شريكة ثدي الأم في إيضاح وعي الصغير، فهي راعية المتعلم، وملهمة المبدع وهادية المتلقي.

ج - **تعددت الآراء بشأنها:** ورغم هذه المحورية والأهمية لـ (اللغة) ورفقتها للحضارة ظلت اللغةُ لغزاً حير الفلاسفة والعلماء، فهي تقبع تحت طبقات اللا وعي ترتدي الغموض لباساً، ولما كانت هكذا، تعددت وجهات النظر بشأنها: بعضنا ينظر إليها كسلوك وبعضهم ينظر إليها غريزة نولد بها، وفريقٌ يراها تجلياتٍ سطحيةٍ محسوسةٍ، وقرائنَ سافرةٍ، وآخرون يرون تحت هذا المظهر

السطحي بنيةً عميقةً من: علاقات الألفاظ والتراكيب والنصوص، وهناك من يراها نظاماً للتواصل، ومن يراها آلةً للفكر. ومرآةً للعقل، ومن يراها لعبةً اجتماعيةً وراءها صراع القوى الاجتماعية المختلفة، ومع عصر المعلومات تعاظم الدور الذي تلعبه القوى الرمزية وعلى رأسها اللغة في صياغة شكل المجتمع الإنساني الحديث، وأصبحت اللغة بأمس الحاجة إلى منظور جديد، منظور يعيد النظر في منظومة اللغة جميعها من الجذر وحتى الفرع.

- نظرةٌ شاملةٌ عن اللغة العربية:

أ - أهمية اللغة العربية: إنَّ لغتنا العربية هي أبرز وأعظم ملامح ثقافتنا العربية، ترتبط بهويتنا ووجودنا، صمدت ودافعت /١٧/ قرناً/ كسجل أمين لحضارة أمتها، فهي شاهدٌ على ازدهارها وانكسارها، شاهد لنا من حضارة وإبداع ونحن نقود الحضارة، كما هي شاهد على تخلفنا وتبعيتنا للآخر، والحرص على لغتنا العربية ليس من أجل الناطقين بها، بل هو واجبٌ إنسانيٌ وروحيٌ تجاه المسلمين من غير العرب خاصة، وواجبٌ قوميٌ تجاه عرب المهجر، حيث أصبحوا يشكلون كتلةً لا يستهان بها، تستطيع أن تخدم قضايا التنمية العربية والدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية من مواقع أكثر قوة، وما نشاهده اليوم من حملاتٍ مسعورةٍ من أجل تفتيت التكتل الإسلامي في ظل العولمة، ولغتنا تشكل مترسةً صواعق، إنَّ الخطر جدٌ فظيع يتربص بنا، تخطط لنا العقول الجبارة لإخراج لغتنا من دائرة الحياة.

ب - إعاقتنا اللغوية كعرب: تفشت ظاهرة إعاقتنا اللغوية وأصبحت عاهةً دائمةً وجميع عللنا وآفاتنا بسبب علل لغوية (تمزق وحدتنا، وتحرمنا من الدقة، وتبدد جهدنا، تعوق تقدمنا وتسامي الروح والجسد والعقل والقلب) أمين الخولي كتاب. مشكلات حياتنا اللغوية). ورغم الجهود المبذولة تبقى مشاكل لغتنا عصيةً على الحل، لأن معرفتنا بلغتنا قاصرة وسببها التالي:

- عدم الإلمام بالجوانب العديدة لإشكالية اللغة، فنحن نتناول المشكلة من جانبها التعليمي أو المصطلح، إننا نذهب بعيداً عن المشكلة، نبحث عنها في الزمان والمكان الخاطئ، دون أن نجرؤ على مس المشكلة في جوهرها، عندما

تتداخل قضية اللغة مع القضية الدينية أو الاجتماعية أو سياستنا الوطنية أو القومية، وهنا تقصفنا الصواعق، ولا يروق هذا للحرس القديم من سدنة اللغة العربية التقليديين من حيث نبرته وفحواه.

- قصور العتاد المعرفي لمنظرينا اللغويين بعد أن أصبحت ساحتنا اللغوية ساخنة يتداخل فيها الفلسفي والعلمي والتربوي والإعلامي بل التكنولوجي.

- القطيعة المعرفية التي يقيمها الحرس القديم بين اللغة والفلسفة الحديثة التي تولي اهتماماً للغة تنظيراً واستخداماً، وتزداد حدة القطيعة مع المدارس الفكرية مثل البنيوية والتفكيكية والحداثة وما بعد الحداثة، لموقفها من الدين (فلا توجد ثقافات خالصة ومميزة وثابتة فكل ثقافة تستقي من مشاربَ متنوعةٍ وتعتمد على الاستعارات، والثقافة في حالةٍ دائمةٍ من التفاعل والاختلافات الثقافية، نجمت عن تحدياتٍ فرضتها البيئة والتواصل مع الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية والضغوط البيئية أو الهجرات أو التجارة، كل هذا كان ولا يزال خميرةً لتقدمنا العلمي والثقافي إنَّ الثقافة هي التي تصنعنا وليس البيولوجي. إننا نغدو ما نحن عليه من خلال نمونا في إطارٍ ثقافيٍّ معيَّنٍ، ولا نولد على هذه الشاكلة، فالعرق والجنس والعمر هي تركيبات ثقافية، وليست ظروفاً غيرَ قابلةٍ للتغيير وهذا يشير إلى أننا يمكن أن نتغير نحو الأفضل - راقب طفلك في نموه - فكيف لا نأخذ بحصاد المدارس الفكرية السالفة الذكر رغم عدم إقرارنا بفكرها؟! وأين التنظير اللغوي العربي الحديث؟! - خطأ في التشخيص اللغوي: نوزع أخطاءنا يميناً ويساراً، إلى المدارس إلى الجامعات إلى الإعلام، حتى أدانَ بعضُنا لغتنا الحبيبة التي لا تعيش إلا في حضن أبنائها الأوفياء لها، يا له من اتهام ظالم للغتنا، وحان الوقت للتصدي لمثل هذه المفاهيم الخاطئة، ولا سبيل لذلك إلا من خلال التحليل الدقيق للعلاقة بين منظومة اللغة ومنظومة المجتمع من منظورٍ ثقافيٍّ معلوماتيٍّ، وواقع اللغة العربية الراهن بأمس الحاجة إلى نظرةٍ أشمل تتجاوز حدود الواقع اللغوي الراهن، سواءً من قبل اللغويين وأصحاب المعاجم والمجامع من التربويين والإعلاميين. وإشكالية اللغة من التعقد والشمولية

بحيث لا يمكن تناولها من منظور التخصص الضيق، أو النظرة الاجتماعية القاصرة، ويصعب إرجاؤها أو تناولها بعيداً عن إستراتيجية محددة واضحة، في إطار خطة قومية شاملة.

- خطورة دور اللغة في عصر المعلومات:

أ - أهمية اللغة في منظومة الثقافة الغربية: إن الثقافة أصبحت محورية في عملية التنمية في مجتمع المعلومات، وأدت اللغة دورها كونها محوراً أساسياً في منظومة الثقافة، ونتيجة لذلك أصبحت معالجة اللغة آلياً عن طريق الكمبيوتر هي محورُ تكنولوجيا المعلومات، واللغة هي النبع الحقيقي التي تشرب منه هذه التكنولوجيا، واللغة هي التي تحدد الأداء الكلي للمجتمع، سواء بالنسبة إلى داخله أو من خارجه، والمقصود بداخله: أنماط إنتاجه المعرفي والإبداعي، وحصاد الإنتاجية الكلية وأفراده ومؤسساته. ونقصد بالخارج هي العلاقات التي تربط المجتمع مع غيره من المجتمعات، وهي العوامل الإستراتيجية التي تحدد ثقل هذا المجتمع في إطار التكتلات الإقليمية، هذا ولم يقتصر أهمية دور اللغة في المجتمع على التربية والثقافة، وهو الدور الذي لعبته اللغة على مر العصور، فقد خلقت لنفسها أدواراً جديدةً بعد أن امتزجت مع التكنولوجيا، فبرز دورها الاقتصادي والسياسي. وهذه الأدوار المستجدة أصبحت من أهم العوامل في رسم الخريطة الجيو اقتصادية والجيو سياسية.

ب - اللغة والعولمة: إذا كانت العولمة صراعاً أو وفاقاً، فاللغة شأنها خطيرٌ وعظيمٌ، ففي حال الوفاق: يكون للغة شأنٌ عظيمٌ في حوار الحضارات، وأنصار العولمة سيتخذون من اللغة عملاً مهماً في عولمة الثقافة، وهؤلاء لا يقرون بالخصائص الثقافية للشعوب والأمم، ويقفون بشدة ضد النسبية الثقافية والنسبية اللغوية مستندين على التنظير اللغوي الحديث، حيث تندرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة، فاستوعبت هذه النظرية جميع القواسم المشتركة للغة، ومواضع تباينها واختلافها، وقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهني للغة، الذي يفترض كونها غريزةً إنسانيَّةً يشترك فيها

البشر كافة، أما إذا كانت العولمة صراعاً، لنعود هنا لما قاله (محمود أمين العالم) في دفاعه عن الخصوصية اللغوية، يقول: شرعت العولمة السائدة، في ممارسة سيطرة تامة للغة من لغات هذه الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما ينتج عنها من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة، معنى ذلك تهميش اللغات والثقافات القومية واحتوائها واستجرارها اقتصادياً وثقافياً (محمود أمين العالم ١٩٩٧) وهذا ما يؤكده المشهد اللغوي الكوني لاسيما في مجال الإعلام والمعلومات، وساعدت الإنترنيت في تدفق فيضان معلومات تطغى عليه اللغة الإنكليزية، وهذا أمر أفزع جميع الأمم غير الناطقة بالإنكليزية، وقد انتابها خوفٌ شديدٌ على لغاتها القومية وهي توشك على الهزيمة أمام الإعصار المعلوماتي الإنكليزي تحت ضغوطٍ اقتصاديةٍ وثقافيةٍ قويةٍ، إنها الإمبريالية الثقافية، كما يمكن وصفها بالداروينية اللغوية).

ج - **نزعة للتكتل الإقليمي عبر اللغة:** رافق العولمة نزعةُ التكتل الإقليمي وهذا ليس مجرد المحافظة على الهوية، وإنما تُحَرِّكُهُ دوافع اقتصادية وسياسيةٍ وأمنيةٍ في المقام الأول، والساحة الأوروبية تشهد تيارين متناقضين، أحدهما يدعو للتنوع اللغوي، والآخر يميل للانغلاق في إطار التوحد اللغوي، والاتحاد الأوروبي يعتبر التنوع اللغوي مصدراً لقوته في مواجهة القطب الأمريكي، بأحاديته اللغوية. بينما تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف مع النمسا وسويسرا. ولمجموعة الدول الاسكندينافية مشاريع مشابهة للتكتل اللغوي. وعلى مستوى ما فوق إقليمي يسود الساحة السياسية العالمية نشاطٌ متزايدٌ لإحياء التحالفات اللغوية مثل: الأنكلوفونية والفرانكفونية والاسبانوفونية. وتقف اليابان بلغتها صامدةً ضد هيمنة القطب الواحد، وبرغم انجازات اليابان التكنولوجية في مجال صناعة الاتصالات والالكترونيات، فقد أيقنت أن مصيرها في عصر المعلومات والإنترنيت رهن بمصير لغتها اليابانية، وراحت اليابان تعمل على الخريطة الجيو لغوية، وكانت البداية في مشروع الجيل الخامس في بداية الثمانينات، كردٌ فعل تكنولوجيٍ بهدف كسر هيمنة اللغة الإنكليزية وتوقف العمل بالمشروع نتيجة ضغوط أمريكية تكنولوجية اقتصادية سياسية. ولم يتوقف الجهد الياباني عن الذود عن اليابانية،

وراحوا يركزون على الجهد التكنولوجي للترجمة الآلية من جانب، واليوم من جانب آخر يركزون على استغلال تفوقهم التكنولوجي في مجال المعلوماتية من أجل انتزاع الزعامة اللغوية لتكتل الدول غير الناطقة بالإنكليزية.

- تنوع التواصل اللغوي واتساعه:

إن التواصل اللغوي عن بعد عبر الإنترنيت، قلب مفهوم التواصل اللغوي رأساً على عقب، سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، أو من حيث النوع والشكل واتساع نطاقه وتعدد مطالب فاعليته، مثالنا عليه: التواصل كتابياً عبر الإنترنيت من خلال البريد الالكتروني، النقاش، الذي يدور عن بعد، يتم عن طريق الكتابة المحضة والتي تختلف عن النقاش وجهاً لوجه، لسبب بسيط: إنَّ شفاهة الحوار المباشر (الكلام) مملوء بالانفعالات تساعدها وتؤازرها حركاتٌ مثل: حركات اليد والعينين وخلجات الشفاه وتغيير ملامح الوجه، وأوضاع البدن. وأسلوب الكتابة هذا يكشف عن مناطقَ لازالت مجهولةً حتى اليوم، في علاقة الشفاهة بالكتابة، وهي العلاقة التي لازالت محصورةً في الجوانب الإملائية، من دون التعرض للجوانب الأخرى الاتصالية، كالذهنية مثلاً، أو النفسية والمعلوماتية. ويتفق الجميع أن التواصل عبر الإنترنيت الذي تسوده كتابةٌ بدائيةٌ انتقاليةٌ، تمهد لتواصلٍ أوسع، تواصل ما بعد الكتابة حيث يندمج المكتوب بالمسموع، بالإضافة إلى المرئيِّ من الصور الثابتة والمتحركة، نحن أمام ثورةٍ في أسلوب الاتصال الذي اعتاده البشر منذ الأزل. وليس لدينا أي تصور عن طبيعته، وتوجهاته وآثاره النفسية والاجتماعية واستخداماته الشخصية وغير الشخصية، ولكنه بالتأكيد سيطرح العديد من الأسئلة المحورية حول العلاقات بين أنساق الرموز المختلفة: نصوصاً وأشكالاً وأصواتاً نذكر منها: العلاقات بين نبر الكلام وتنغيمه، وبين إيقاع الموسيقى ونغميتها. أو تلك الخاصة لمساهمة الصور في فهم النصوص، واستغلال تحليل النصوص لغوياً في فهم الصور ذاتها، وكثيراً ما تتضمن النصوص إيضاحات تساعد القارئ على فهم الصور. كما سيتحاور الإنسان مع الآلة، وهذا سيفوق الحوار مع البشر. ولن يقتصر الحوار البشري الآلي على إنسانٍ يسأل، أو يسترجع المعلومات، وآلة تبحث عن

المعلومات فتظهرها على الشاشة، هو حوارٌ أعمق بكثير، حوارٌ تبدو فيه الآلة أقرب إلى النديم البشري، آلة: تغازل - تناور - تجادل - تتجاوب مع أهواء متحدثها وتكتيكات حواره، وهذا الديالوج (الإنس آلي) يتطلب فهماً عميقاً للعلاقة بين لغة الإنسان الطبيعية ولغة الآلة الاصطناعية، وهو الأمر الذي سيقتضي تَمَعُّناً دقيقاً في كيفية اكتساب الآلة مهارات اللغة من جانب. وكيفية اكتساب الإنسان لغته الأم من جانب آخر. والأهم من هذا كله دراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا التواصل يتقاسمه الإنسان والآلة، لقد أثرت تكنولوجيا الطباعة في الشفاهة والكتابة. وأثر التلفزيون في لغة الصحافة والحوار، وسيكون لهذا التواصل (الآنس آلي) نتائجه التي يصعب التكهن بها، يفسر ذلك الاهتمام الذي يبديه مهندسو اللغة، بفهم آليات المحادثة وتحليل بنيتها، للوصول إلى ما سمي بـ (هندسة الحوار). والآن يحق لنا أن نتساءل: هل سيؤدي التواصل البشري هذا إلى ضمور التواصل بين البشر، أم سيحفزهم في تشوقهم لحب الحوار مع نظرائهم من بني البشر؟.

أ - **مأزق اللغة العربية في عصر المعلوماتية:** إن الراصد للغة العربية يرى حرباً صامتةً ناسفةً تتكشف حيناً وتتقنَّعُ أحياناً أخرى وَتَقَنُّعُهَا أخطر من تكشفها، لأنه يستنجد بسلاح المسكوت عنه، وهو أوقع في النفوس ولهذا الترصد أسبابه الموضوعية: لأنَّ هناك قلقٌ يساور الكثيرين من كبار المهندسين الكونيين الاستراتيجيين، وقد يصل بهم القلق إلى درجة الخوف، وبعضهم إلى درجة الفزع، أما حقيقة الأمر فهو احتمال تزايد الوزن الحضاري للغة العربية، في المستقبل المنظور فضلاً عن المستقبل البعيد، وهؤلاء يعترفون بالحقيقة الموضوعية لأن اللغة العربية هي لسان ٣٣٠ مليون عربي وهذا يمثل مرجعية لـ: ٩٥٠ مليون مسلم غير عربي كلهم تواقون لاكتساب اللغة العربية والجميع يناصرونها في أضعف الإيمان. واللغة العربية حاملةٌ للتراث وناقلةٌ للمعرفة وشاهد حي على الجذور التي استلهم منها الغرب حضارته الحديثة في جميع فروع العلوم، وهذا يخيفهم أكثر من اللغة الصينية ولا يغفل هؤلاء المهندسون الساهرون على البرمجة الجماعية الكونية للذهن عن الرسالة الحضارية والروحية التي حُمِّلَتْ بها اللغة العربية وهم العارفون بأن التماهي بين الذات واللغة لم يبلغ تمامه في الثقافات الإنسانية كما بلغه عند العرب.

ب - ونحن العرب نعاني حالةً قديمةً جديدةً من غياب إرادة الإصلاح اللغوي، علماً أننا لم نقصر في إظهار الحَميَّة على لغتنا القومية، لقد استلقينا وتخدرنا بين ذراعي لغتنا، فهل تنمو اللغة بشكل تلقائي وتتعافى من عللها دون تدخل من أحد؟ إننا نعاني أزمةً لغويَّةً على الصُعُد جميعها (تنظيراً وتعليماً، نحواً ومعجماً، إبداعاً ونقداً وتوثيقاً) وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف بعداً فنياً يتعلق بمعالجة اللغة العربية آلياً بواسطة الكمبيوتر، وقد أصبحت اللغة شرطاً أساسياً للحصول على عضوية (نادي المعلومات العلمي) ومظاهر مآزقنا عدة منها: - سياسةً لغويةً ميتةً لم تر النور، ومما يدمي القلب قبل العين معارضة الكثيرين لعملية التعريب في الجزائر، إذاً لماذا قدمت الثورة مليون شهيد؟! وهذه مصر العروبة لا تستطيع فرض الالتزام بما أصدرته من قرارات وتشريعات بعدم استعمال اللغة الأجنبية في لافتات المحلات التجارية وإذا أردت أن تعرف مدى الفجوة الفاصلة بين سياستنا اللغوية وواقعنا اللغوي ما عليك إلا أن تقارن تضمينات الخطة الشاملة العربية للثقافة التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والعلوم، من توجهات وتوصيات وبين جدية الدول العربية في التنفيذ.

- المجامعُ هزيلةٌ، سقيمةٌ، ضامرةٌ انتقائيةٌ في إشكالية اللغة العربية، تأخذ ما تقدر على تناوله لا ما تحتاج إليه اللغة بالفعل، وتجاوب هذه المجامع مع المتغير المعلوماتي مازال في الحد الأدنى، وعن إقامة مَجْمَعٍ لغويٍ عربيٍ موحد تكون له سلطةُ التشريع لازال حلماً بعيد المنال.

- **أهمية اللغة في التربية والتعليم**: لا تعكس مناهج التعليم ولا استراتيجياته ولا سلوك معلميه وأداء طلبته، ما للغة من أهمية في التعليم والتربية، وينحصر الجهد الإصلاحي على مناهج تدريس اللغة العربية بدون مراعاة لعلاقتها بتدريس المواد الأخرى، وليت الجهد التربوي الإصلاحي بلغ الحد الأدنى من النجاح، ولم يعطِ إلا مزيداً من ابتعاد الطلبة عن لغتهم، وعدم تذوق ثمارها وفضائلها.

- **تعريب فاعل في سوريا**: يعارض كثير من الأكاديميين ورواد الثقافة عملية الترجمة، ولهذا صلةٌ وثيقةٌ بتقاعس الأكاديميين في شأن اللغة العربية،

وطريقة التلقين السلبية التي تسود طرق تعليمنا . فما الذي يمنع أن يتم التدريس بلغتنا الأم وذلك لترسيخ الفهم وتأصيل المفهوم، وَيَجْمَعُ الطلبةُ بأنفسهم المعرفة من خلال المراجع الأجنبية فيجمعوا بين اللغتين، فنحن نعيش عصر انفجار المعرفة، فلم تعد كافية مذكرات المعلم، وحصرها داخل قاعات الدرس، ونبارك جهود أطباء سوريا الذين تلقوا تعليمهم باللغة العربية، وتفوقوا على أقرانهم العرب ممن تلقوا تعليمهم باللغة الأجنبية، وذلك في الاختبارات التي تم اجتيازها للالتحاق بالدراسات العليا في الجامعات الأمريكية والأوروبية، وتحية إلى رواد تعريب التعليم الجامعي والى الهيئة العامة للكتاب التي أخذت على عاتقها ترجمةَ كتابٍ كلَّ شهرٍ ونشره.

- **ضمور الثقافة اللغوية وغيابها:** تزايد أهمية اللغة العربية بسبب أهميتها للثقافة العلمية وغابت على أيدي أصحاب الأقلام وقادة الرأي لدينا، وهناك وعيٌ غيرُ كافٍ لدى القيادات السياسية بخطورة المسألة اللغوية.

ج - **جدارة اللغة العربية وتحديات العولمة:** لقد أثبتت اللغة العربية جدارتها في أن تصبح لغةً عالميةً على مرِّ العصور، وشهد التاريخ الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات مختلفة، كما نجحت في أن تكون أداةً فعالةً بنقل المعرفة حتى قيل فيها: (عجبت لمن يدعي العلم ويجهل العربية) خصائصها من منظور فقه اللغة: - التزامها بالقاعدة الرائعة فيما يخص التوازن اللغوي والتوسط، - فهي تشترك بخصائصها مع اللغات الأخرى على مستوى فروعها جميعاً (كتابة وأصواتاً وصرفاً ونحواً ومعجماً) وتتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق وتناغم بين فروعها جميعاً، واللغة العربية يمكن معالجتها آلياً عن طريق الكمبيوتر، وبسبب جدارتها عالمياً وبفضل توسطها اللغوي يسهل تطويع النماذج البرمجية المُصَمَّمَةَ للغة العربية، لتلبية مطالب اللغات الأجنبية وعلى رأسها الإنكليزية (إمكان استخدام نظم الإعراب والصرف الآلية المصممة للغة العربية، في مجال اللغة الإنكليزية) وبعبارة واحدة يمكن القول: إن اللغة العربية لغوياً وحاسوبياً يمكن النظر إليها حاسوبياً ولغوياً بلغة الرياضيات، على أنها فئةٌ عليا تندرج في إطارها كثيرٌ من اللغات الأخرى، وفي هيمنة العولمة تتعرض اللغة العربية لحركة تهميش شرسة

بفعل طغيان اللغة الإنكليزية على المستويات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية من استتباعها واحتوائها اقتصادياً وثقافياً (محمود أمين العالم ١٩٩٧) وتواجه الآن حرباً ثقافيةً ضاريةً تشنها العولمة ضد الإسلام واللغة العربية لشدة الارتباط بينهما، وليس العربية وحدها وإنما لغاتٌ كثيرةٌ من العالم.

د - **اللغة العربية بين التكتل والضياع:** ما يكسر ظهر اللغة العربية ضرتُها اللهجات المحلية، وتباين اللهجات شرقاً وغرباً وقد ركز عليها الاستعمار والاستشراق، وجعل منها مرضاً خبيثاً ليفتت الكيان العربي، وعلينا أن نعيد النظر في هذه المشكلة من رؤيةٍ معلوماتية، وفي توجهات المنهج الحديث لعلم اللسانيات الاجتماعية وعلم الاناسة الرمزية، ولهجاتنا لا تقارن بعدد لهجات الآخرين وحدتها، ويمكن أن نتغلب على هذه المسألة بالتكتل الثقافي العربي بمساندة وسائل الإعلام وإحياء اللغة الفصحى.

هـ - **ما وظيفة لغتنا العربية في عصر المعلوماتية؟** نحن لم نستخدم لغتنا وظيفياً في الحياة اليومية الواقعية، أن نستخدمها في إبداء الرأي وأن ندافع عنها، في التفاوض والتبادل والهاتف والتراسل، يشهد على ذلك ضعف مهارات الاتصال لدينا: كتابةً - وقراءةً وشفاهةً - واستماعاً) وليس هذا بسبب قصور لغتنا فهي تملك الكثير من المؤهلات لتكون لغةَ حوارٍ فعالة، لأننا مازلنا أسرى اللغة المكتوبة غير ملمين بالعلاقات اللغوية التداولية التي تربط مابين أدائنا الشفهي وأدائنا الكتابي. وقد ركز الغرب على دراسة لهجات اللغة العربية بغية تنميطها وكشف أنساقها إلى أن تهيأ كل شيء لنبذ اللغة العربية، وإحلال بناتها محلها ليحصل للغة العربية ما حصل للغة اللاتينية. فاللغة هي الحامل للمنتج الثقافي، وهي الجسر الأعظم للمسوق الإعلامي، وهي السيف الأمضى في الاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلل إيديولوجي، واللغة هي أم المرجعيات: في تشييد الحضارة، وفي بناء صرحه الثقافي، ولحرب اللغات خطط واستراتيجيات أهمها: ترويج منافع المدنية الحديثة - بمنتجاتها المعيشية وبمبتكراتها الفنية - وبإنتاجها التكنولوجي والرفاهة والدعة، ولا خيار للعرب إلا نهضةٌ فكريةٌ قوامها العقل الصارم، وساعدها المتين حريةٌ في

الرأي وفي التعبير وفي التواصل القائم على النقد المسئول، وعلينا أن نعيَ الوظيفةَ الجبارةَ التي تؤديها اللغة القومية ولن يؤديها بديلٌ آخر على وجه القطع والإطلاق، إننا نخوض معركة وجود، لا يغتفر فيها خطأٌ واحدٌ البتة، لأن هذا يستدعي معه مضاريات من صنف التكاثر الهندسيّ، إنها حربٌ بين الثقافات، وتطاحن في الهويات، وهي في النهاية صراعٌ على النفوذ اللغوي بلا هوادة. ولا نُخْدَعُ بما بين الغرب من تناحراتٍ وتناقضاتٍ في المصالح، فما يريده الغرب تصفية حسابات قديمة معنا، ولا ننسى ما قاله الجنرال الفرنسي (غورو) عندما ركل ضريح صلاح الدين الأيوبي برجله وقال: (ها قد عدنا يا صلاح الدين).

- **علاقة اللغة الأجنبية (بفروع المعرفة):** أهمية اللغة على الخريطة الإنسانية: تعتلي اللغة التل، وتنظر إلى خريطة المعرفة الإنسانية، فتزداد أهميتها يوماً بعد يوم، وهي ترتبط بعلاقات وثيقة مع الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، ومع الفنون بأنواعها، وقد وطدت علاقتها أخيراً بالهندسة، من خلال الذكاء الاصطناعي، التي تدعمه اللسانيات الحاسوبية، واللغة تتفرد بشبكة علاقاتها مع العلاقات المعرفية، وموقعها الفريد هذا على خريطة المعرفة الإنسانية يخولها أن تكون ركيزةً أساسيةً للمعرفة على اختلاف أنواعها، وكونها وسيلة لفهم تاريخ تطور الفكر الإنساني، وتحليل حاضره واستشراف مستقبله، فاللغة قمة العلوم الإنسانية ورفيقة العلوم الطبيعية وقلب الفلسفة النابض بالمحبة ورابطة عقد الفنون والعلوم وتكنولوجيا المعلومات، وهندسة معرفتها، ولغات برمجتها.

- **موقع لغتنا العربية على ساحة المعرفة:** إن اللغة ترتبط بعلاقات وثيقةٍ بالفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، ومع الفنون بأنواعها، ومع الهندسة من خلال الذكاء الاصطناعي التي يساهم فيها علم اللسانيات، فاللغة عمودٌ أساسيٌ للمعرفة على اختلاف أنواعها ولا غنى عنها البتة في دراسة الفكر الإنساني ونحن بأمس الحاجة إلى نظرةٍ شاملةٍ للغة العربية وعلاقتها بفروع المعرفة، ومثالنا على ذلك - علم اللسانيات: إنَّ عالم اللسانيات يَعْلَمُ علم اليقين بأن اللهجة التي تنعت بالعامية أو بالدارِجَةِ هي

من أقوى الطاقات الثقافية الحاملة لخصائص الإبداع، في الشعر، اللغة أداته، وأداة السرد للأديب، وأداة الحوار. أما علاقتها بفنون الرمز: كالموسيقى والتشكيل ومع التقدم في اللسانيات والمعلوماتية يسعى بعضهم إلى وضع الأسس العلمية لما اعتدنا أن نسميه مجازاً بلغة الأدب ولغة المسرح ولغة الموسيقى ولغة الأداء الحركي، وهذا سيمكننا من تحديد مدى شاعرية الشاعر وروائية الرواية، وبهذا نعرف خصائص كلُّ جنسٍ من الفنون عن الأجناس الأخرى، ويستقل الشعر عن النثر الأدبي، لأن هناك من يقيس شاعرية الشاعر بتوليد تراكيب لغوية جديدة تتجاوز التراكيب المختلقة. (السيد إمام ٢٠٠٠) وتبقى العامية حاملة للطاقات الثقافية الإبداعية: في الغناء وفي الشعر شعبياً أو ملحوناً أو نبطياً وفي النص المسرحي، وفي سيناريو الأفلام التلفزيونية والسينمائية، ولن يكون عالم اللسانيات مُخْلصاً للمعرفة المتجردة، ولا منصفاً لحقائق التاريخ الموضوعية، لو أنه زعم أن على العرب أن يهجروا لهجاتهم المحلية في الأغنية وفي المسرح وفي السينما ليقفوا كل إبداعاتهم الفنية على الفصحى. ولكن الانحراف التاريخي هو في تلهيج الخطاب الثقافي بما هو خطاب يتحدث عن الإبداع، وبما هو كلام نَصِفُ فيه الإبداع، وبما هو كلام نصف فيه الفن ونحلله وننقده فهو لغةٌ نتحدث فيه عن لغة. أما الخطاب الثقافي محمولٌ على نظام لغويٌ، بينما الخطاب الواصف للثقافة أو الناقد للإبداع محمولٌ على نظام مغاير له. كانت اللغات الأجنبية فيما مضى عدواً إيديولوجيا عندما كان الصراع الحضاري معتمداً على الاكتساح العسكري، وكانت المذهبيات رأس الحربة، فإن اللهجات المحلية المهددة لبقاء اللغة العربية الفصحى هي العدو الثقافي الأشرس، لأنها تنتصب حليفاً موضوعياً للعولمة الأمريكية وحليفاً له وليس كأي حليف. والمثال الثاني:

- العلاقة بين ميزان الصرف العربي وثرائه الاشتقاقي الذي لا تدانيه لغة من لغات العالم، وبين علم البيولوجيا الجزيئية القائمة على لغة الجينات وعلم نفس الذكاء، فيما يخص التناظر بين توليد المشتقات صرفياً والتوليد البيولوجي وتوليد المفاهيم.

المثال الثالث: العلاقة بين فنون الخط العربي والفنون التشكيلية وهندسة الديكور والمعمار، وهذا يتطلب إعداد فريقٍ من الباحثين قادرٍ على تجاوز التخصصات النوعية وتعددها ولا بدمن إعدادهم وتدريبهم على: علم اللسانيات - فقه اللغة العربية (تراثنا اللغوي) - هندسة النظم - فلسفة اللغة - تكنولوجيا المعلومات.

- اللغة الأجنبية بين أن تقود أو تُقَاد:

تختلف طبيعة علاقة اللغة بكل فرع معرفي، وفقاً لطبيعة هذا الفرع ومجال تخصصه ومناهجه. إلا أن مسار تطور العلاقة بين اللغة قد اتخذ نمطاً يكاد أن يكون موحداً في البداية، فيه تكون اللغة الطرف الخاضع لنهج الفرع المعرفي الذي تتفاعل معه، إلا أنها سرعان ما تنتقل من جانب الخضوع. إلى جانب إخضاع فرع المعرفة ذاته لنهجها. وفي سعيها إلى الارتقاء إلى مراتب العلوم الدقيقة، كان من الطبيعي أن تستعير اللغة مناهجها من العلوم التي سبقتها في هذا المنهج. ولكن سرعان ما صنعت اللغة لنفسها نهجاً خاصاً بها، على درجة عاليةٍ من التأصيل والشمولية مما جعلها تستقطب الآخر، ولا عجب بذلك، لقد كانت اللغة وستبقى وراء كلُّ معرفةٍ وكلُّ خبرةٍ يكتسبها الإنسان. وبناء عليه لا يخضع العام اللغوي إلى الخاص المعرفي، ويبدو استيعاب الفروع المعرفية ضمن الأصل اللغوي العام منطقياً جداً إذا لم يكن ضرورياً، وبهذه الطريقة تتفاعل فروع المعرفة جميعها مع رابطة اللغة، في تناغم علمي تكنولوجي، وهكذا ارتقت اللغة من تابع علمي وفرعاً معرفياً متخصصاً إلى أن أصبحت نهجاً علمياً عاماً، يمكن تطبيقه على العديد من الفروع العلمية المعرفية، وفيما يخص ذلك سنستخلص الدلائل دعماً لما نفترضه من عمومية النهج العام للغة.

- اللغة العربية بين أن تقود أو تقاد:

أ - نعرض مثالاً واحداً عن علاقة اللغة العربية بالمنطق والفلسفة: قام العرب القدماء بإخضاع اللغة العربية لمنطق أرسطو وكانت خطوةً جريئةً لا تخلو من القسر والتعسف لأنها خطوةٌ ميكانيكيةٌ قسريةٌ، فاللغة العربية مرنة

متنوعة، والمنطق الأرسطي صارم وقاطع، وقد فعل ذلك ليوثق اللغة العربية بالمعرفة، وبعلوم الفقه والدين بخاصة، ولكن المنطق كان قاصراً في ذلك الوقت على الرتبة الأولى، ونتساءل اليوم لماذا توقف أكاديميو اللغة عن متابعة ما بدؤوا به وقد توافرت لديهم رتبٌ أعلى وأكثر مرونةً وَسَعةً من المنطق الأرسطي أسوة بما فعله أقرانهم الأوروبيين، وبات تمنطق اللغات حاجةً ضرورية لمعالجتها عن طريق نظم الذكاء الاصطناعي، وآلات استنتاجها المنطقي. أما بالنسبة للفلسفة: كان لقاءٌ مثيرٌ ومثريا بين الفلسفة الإسلامية واللغة ممثلة في علم الكلام وفلسفة الإغريق، وسؤالنا هو كيف نعيد هذا اللقاء بين الفلسفة الإغريقية واللغة العربية؟ علماً أنه لم يحدث تراكم فكريٌ يسمح لنا بالتعمق في علاقة الفلسفة باللغة، وهي العلاقة التي تعتبر من أهم منطلقات فكر ثقافة المعلومات بل من ركائزها ذي التمركز اللغوي. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل الحل أن نستعير من الفكر الغربي مناهجه دون نتائجه، أم نأخذ من هذا الفكر مضامينه التي تتلاءم مع تفكيرنا ونقيم عليها مناهج تخصصنا؟ ولا نملك جواباً على هذا السؤال. ولكن لابد من دراسة علم اللسانيات الحديث، ودراسة فروع الفلسفة والتوسع في تدريس الفلسفة وفي أقسام اللغات وخاصة نظرية المعرفة وفلسفة اللغة - تحليل دقيق للمدارس الفلسفية المعاصرة كالبنيوية والحداثة وما بعد الحداثة والتفكيكية: والقصد من ذلك مضاهاة خصائص اللغة العربية مع الجوانب اللغوية التي مارستها تلك المدارس الفكرية - دراسة كيف نجح الفكر اللغوي الفرنسي والإنكليزي في إقامة صلات وثيقة بين لغتيهما والمنطق الحديث ذي الرتب الأعلى، متجاوزاً منطق أرسطو بصُوْرِيَّتِه وقَطْعيَّتِه.

- **علاقة اللغة الأجنبية بالفلسفة:**

أ - **رفقةٌ مستدامةٌ:** إن علاقة اللغة بالفلسفة تنطلق من علاقة كلتيهما بالفكر، واللغة والفلسفة في علاقة حميمة جداً دامت ونمت على مر العصور، من سقراط إلى أرسطو وانتهاء ببنيوية (شتراوس) وتفكيكية (جاك دريدا)، ولعبة اللغة في فكر ما بعد الحداثة، وخلال هذه الرحلة الطويلة نضجت

العلاقة بينهما من مستوى التبادل المعرفي المتمثل في ثنائية اللغة كأداة للفلسفة والفلسفة كأداة للغة، إلى أن وصلت إلى شبه الانصهار الكامل.

ب - **اللغة أداة للفلسفة:** من الطبيعي أن تستقر الفلسفة في حضن اللغة كبديل لا غنى عنه للتعبير عن مقولاتها، قبل أن يرتقي الفكر المجرد الصوري سواء كان الرياضي أو المنطقي، حتى الدرجة التي تسمح بتطبيقه في المجال الفلسفي، وهكذا وجدت الفلسفة في اللغة أداتها المثلى، لأن اللغة هي الوسيط بين الذات والموضوع، إنَّ اللغة هي حلقة الوصل بين الذات العارفة، أو المعرفة، وما تسعى إلى معرفته من موضوعات خارجها. وكما هو معروف فإن إشكالية الذات والموضوع هي إحدى الإشكاليات الرئيسية للفكر الفلسفي. وتصور فلاسفة الماضي إمكان مطابقة العقل مع الواقع باستخدام الكلمات بصورة منضبطة ودقيقة، والدليل على ذلك انشغال فلاسفة اليونان برموز اللغة ومعانيها، وما قام به أرسطو من تصنيف أقسام اللفظ، ودلالات الأفعال، وهو ما يمكن اعتباره محاولة من الفلاسفة القدماء لإخضاع اللغة إلى نوع من التجريد والضبط، حتى تَسلَّسَ للتحليل الفلسفي. ولكن هيهات، كيف المطابقة بين العقل والواقع؟ فقد ظلت معضلة المعنى لغزاً محيراً للفلاسفة عبر الزمن، وكانت كل محاولة تنقلهم من إشكالية أضيقَ وأبسط، إلى إشكالية أعقد وأكبر. حتى جاء (فيتجنشتاين) ووضع نظرية للمعنى من دون الحاجة إلى معرفة ما هو المعنى. وعلى الرغم من كل هذا تبقى اللغة مدخلا للفكر الفلسفي.

ج - **الفلسفة أداةٌ للغة الأجنبية:** كي ترقى اللغة معرفياً إلى مصاف العلوم الدقيقة كان لابد لها من اللجوء إلى حضن الفلسفة، فأوجد (دي سوسير) علم اللغة الحديث، من فلسفة (بيرس) الرمزية، مدخله لصياغة العلاقة اللغوية المحورية، التي تربط بين الرمز اللغوي ومدلوله، وأتى من بعده (نعوم تشو مسكي) مؤسس أكبر مدرسة للتنظير اللغوي المعاصر، ليتخذ من فلسفة (كانط) أساساً لتنظيره اللغوي، الذي افترض وجود قدرة ذاتية خفية في العقل الإنساني، وهي فرضية بنى عليها نعوم تشو مسكي نموذجه الذهني، كبديل للنموذج السلوكي، الذي ساد قبله على يد (سكينر) وتابعيه،

وافترض تشو مسكي أن هناك غريزةً لغويةً تتوارثها البشرية، وفي عدم وجود وسائل وطرق عملية تثبت ذلك لجأ إلى التجريد الفلسفي ليبرر وجود مثل هذه الغريزة، ومن أجل تفسير الكيفية التي يكتسب بها الأطفال لغتهم الأم، قام بتطويع هذه الغريزة للمطالب الخاصة للبيئة اللغوية التي نشئوا بها. وما أن استحالت اللغة في هذا النموذج الذهني إلى غريزة بشرية حتى أصبح من الضروري أن تتصف هذه الغريزة كباقي الغرائز بخصائص عامة يشترك فيها كل البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم الاجتماعية. وهنا يبرز مفهوم (النحو الفلسفي) كما أطلق عليه بعضهم والذي وضع أسسه تشو مسكي، كأداة لتفسير هذه الغريزة اللغوية. وتأسس هذا النحو على عدد محدود من القواعد والقيود المجردة والمبادئ، يمكن من خلالها الحكم على صحة الجمل نحوياً، وكذلك تحديد القواسم المشتركة بين لغات العالم، وتفسير الاختلاف بينها جميعاً. لقد اتخذ من النحو أي (التركيب)، محوراً لها، وهو المنحى النظري الذي يعارضه أهل الدلالة اللغوية، أمثال (فيلمور ومناجيو)، فهم يرون ضرورة اعتبار المعنى، لا التركيب، هو المدخل الطبيعي لتناول إشكالية اللغة. ومرة أخرى يعاود اللغويون اللجوء إلى الفلسفة بحثاً عن منابعَ جديدةٍ لتناول معضلة المعنى، ودراسة المعنى تطورت على يد الفلاسفة أكثر من اللغويين.

د - اندماج اللغة الأجنبية والفلسفة: حاولت الفلسفة أن تفلت من قبضة اللغة عن طريق توطيد علاقتها بالرياضيات، على أيدي فلاسفة من أمثال (ديكارت وليبنتز)، وعن طريق المنطق الرمزي، على يد (فريج وكانط)، غاية الفلسفة أن تصنع لنفسها لغةً مجردةً خاصةً بها، لغةً تخلو من لَبْسِ اللغات الطبيعية وغموضها، وما ترسب في هذه اللغات عبر الزمن، من انطباعاتٍ تقترب من مستوى الإيديولوجيات. ولكن بعض الفلاسفة أسرفوا في تجردهم الرمزي، حتى وصل بهم الأمر إلى أن أحالوا الجماليات إلى الرياضيات، وجعلوا للأخلاق نوعاً من الحساب، ولم تكن لهذه النزعة الفلسفية ذات الطابع (اللا لغوي) أن تستمر، فقد أتى (فيتنجنشتين هو ورسل) ليعيدا للغة مجدها الفلسفي التليد، وقد جعلا من ثنائية الذات

والموضوع ثلاثيةٌ محورُها وسيط اللغة، هذا الوسيط المعرفي الذي لا يمكن تجاهل دوره في أقامة الصلة بين حقائق الموضوع والذات، التي تستوعبها وتعبر عنها . وهكذا انتقل مركز الثقل المعرفي من المعرفة إلى اللغة، من دراسة الوجود إلى دراسة كيف ينشأ معنى الوجود، وأصبح بمعناه الواسع بديلا للمنطق، وصار شاغل الفلسفة معنى الظواهر، لا الظواهر نفسها . وبعدها قال كارل بوبر، علينا أن نقيم فلسفة علمٍ جديدةً محورها البيولوجيا بدلا من الحالية التي تنطلق منها الفيزياء. معنى هذا أنَّ الفلسفة ستلتقي مع اللغة على جبهة أكثر سخونة وتفصيلاً، مع اللغة وهي تمارس سلطتها ليس على مستوى الايدولوجيا وإنما على مستوى البيولوجيا الجزيئية ولغة جيناتها، وبهذا انتقلت الفلسفة إلى كونها مدخلاً للبحث الفلسفيّ.

- علاقة اللغة العربية بالفلسفة:

أ - عودة العناق بين اللغة العربية والفلسفة: عملت الفلسفة الإسلامية لقاءً مثيراً وغنياً بين اللغة ممثلة في علم الكلام وفلسفة الإغريق، التي أحسن الفكر الإسلامي وصالها . وقد تناول كثيرون هذا الجانب من فلسفة السلف. وما يهمنا : كيف يعود الوصال بين اللغة العربية والفلسفة بعد طول انقطاع؟ وبالحقيقة لم يحدث تراكم فكري يسمح بالتعمق في علاقة اللغة العربية بالفلسفة، وهذه العلاقة أصبحت من أهم ركائز فكر ثقافة المعلومات ذي التمركز اللغوي. والسؤال هو: هل الحل أن نستعير من الفكر الغربي مناهجه دون نتائجه أم نقتنص من مضمون هذا الفكر ما يتلاءم مع فكرنا ونقيم عليه مناهج خاصة بنا؟ وإذا كنا لا نستطيع الإجابة على هكذا سؤال، باستطاعتنا إقامة جسور بين فكرنا الفلسفي واللغة العربية، ومثالنا على ذلك: - التوسع في دراسة اللسانيات الحديثة في أقسام الفلسفة. والتوسع في تدريس الفلسفة في أقسام اللغة العربية خاصة نظرية المعرفة وفلسفة اللغة. - دراسةُ كيف نجح الفكر اللغوي الفرنسي والإنكليزي الحديث في إقامة صلات وثيقة بين لغتيهما والمنطق الحديث ذي الرتب العليا، متجاوزاً منطق أرسطو بصوريته وصرامة قطعيته - تحليل دقيق للمدارس الفكرية المعاصرة من منظور اللغة

العربية، والقصد هو مضاهاة خصائص اللغة العربية مع الجوانب اللغوية التي تعرضت لها تلك المدارس الفكرية.

ب - **اللغة أداة للفكر الفلسفي العربي:** - قليلون هم رواد الفكر الفلسفي العربي المعاصر أمثال: حسن حنفي، ومحمد أركون ومحمد عابد الجابري، وبقية المفكرين لم يتخذوا من اللغة ركيزةً أساسيةً لهم رغم الدور الخطير الذي لعبته اللغة العربية في فكر العرب وتاريخهم. وكما قال كبيرنا أمين الخولي: (ما من علة في فكرنا إلا وراءها علةٌ لُغَويَّةٌ) وكانت اللغة أداة الهجوم على الفلسفة بمنطق الغزالي في (تهافت الفلاسفة) حيث انصب نقده على فكر ابن رشد في الجانب اللغوي، فتهافت ابن رشد (كما يرى إمامنا) قضية لغوية. ومع تطور التكنولوجيا وقربها من المناطق الحميمة من مخ الإنسان ووجدانه وجسيماته، عندما تتفجر ساحات فكرنا قضايا فلسفية، ذاتُ أبعادٍ لغويَّةٍ، وهنا يتوجب علينا اهتمامنا باللغة من أجل دورٍ فلسفيٍّ عظيمٍ.

ج - **الفلسفة أداةٌ للغة:** تكون حاجة الفكر العلمي للفلسفة كلما اقترب الفكر من مشارفه القصوى أو عندما يصطدم بعقبات منهجية موضوعية، يصعب احتواؤها في النظريات القائمة، وبالنسبة لنا لم نلحق بعد بالثورة العلمية التي حدثت في الغرب في مجال علوم اللسانيات، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفكرنا اللغوي سيبقى بعيداً عن عالم الفلسفة فلا شيءٌ يحفزه أو يحثه على اقتحام الفلسفة، فأين تلك المشارف القصوى وتلك العقبات؟ وما نريده ألا يستسلم لمثل هذه الاستنتاجات المنطقية وإن بدت كذلك، لأن معظم الفكر اللغوي الحديث خاصة ذلك الذي يدور حول نظرية تشو مسكي واتخاذ اللغة الإنكليزية نموذجاً لغوياً ونمطاً يقام عليه صرح اللغة العمومية التي تتفوق على جميع اللغات، أما الموقف بالنسبة إلى العربية أشدُّ حرجاً كونها عضواً في أسرة اللغات السامية واللغات الهندوأوروبية، وتختلف اختلافاً جوهرياً: صرفياً ونحوياً ومعجمياً) ولا فكاك لنا من النهج اللغوي القائم على النموذج الإنكليزي، في تنظير العربية إلا باللجوء إلى الفلسفة بحثاً عن نظرية حديثة، ويشجعنا على ذلك، أننا لسنا وحدنا في هذا التوجه،

يشاركنا فيه كثيرون من المناهضين لنعوم تشو مسكي، ولهذا نهتم بالحوار الجاد بين فلاسفتنا ولغويينا حول مسألة المجاز اللغوي، فهي لم تحظ بما تستحقه من دراسة في فكرنا الحديث، وخاصة ما يحدث في مجال علم الدلالة وعلم النص وعلم المعاجم والتوليد المعجمي، وأصبح واجباً ملحاً حتى لا يبقى المجاز بصفته الوسيلة اللغوية الأساسية في توسيع المعنى، ويبقى الفكر بالتالي بعيداً عن متناول الفكر العربي الحديث، ولا يقل أهمية عنه إعادة قراءة تراثنا اللغوي من خلال نظرةٍ حديثة، نريد أن نرى بلاغة (الجرجاني) وقد كشف عن أسرار اللغة ودلائل إعجازها، بوضعها تحت مجهر الدلالة الصورية القائمة على الرياضيات المنطقية، وأن نقارن بين فكر سيبويه المعتزلي وفكرنا اللغوي الحديث ذي الطابع الانعزالي.

- **علاقة اللغة الأجنبية بالعلوم:**

أ - **علاقة اللغة الأجنبية بعلم النفس:** أصبحت اللغةُ نظاماً لاكتساب العادات أو أي نوع من السلوك يكتسب من الخبرة أو التجربة والخطأ، ولا يمكن اختزالها بهذا، فهي تربط بين الثنائيات كما قال (سكينر)، فاللغة تختلف عن السلوك فهي تقوم كما أسس لها (دي - سوسير وتشو مسكي) على بنيةٍ عميقةٍ قوامها نسقٌ معرفيٌّ كامنٌ في العقل، وتقوم على السؤال التالي: ما هو نسق المعرفي هذا؟ وغاية السؤال: ماذا يوجد بداخل عقل الإنسان من معارف؟ كيف نشأ هذا النسق المعرفي، بمعنى كيف يكتسب الطفل لغة الأم؟ حيث تمنحه أمه نسقاً غير منسقٍ أو مرتبٍ ليصبح منهجاً. كيف يمكن توظيف هذه المعرفة بالنطق والكتابة وما السر وراء الصفة الإبداعية للغة وما الذي يجعلها قادرةً على توليد التعبير اللغوي؟. إذاً هناك بنيةٌ عميقةٌ في المخ البشري لمعالجة المعلومات اللغوية، بنيةٌ على مستويات عدةٍ من حيث البعد والقرب من اللاوعي. ومن الممكن أن تصبح آلياتُ الذهنِ اللغوية مدخلاً لفهم طبيعة عمل الآليات الأخرى: الإدراك البصري والحدس، ويمكن متابعة النشاط اللغوي من: النطق والسمع. توليد الكلام. الكتابة والقراءة. الخطأ والصواب. وهكذا أصبحت اللغة هي الأساس لعلم النفس المعرفي.

ب - علاقـة اللغـة بالبيولوجيـا: مـن الطبيعـي أن تكـون علاقـة اللغـة بالبيولوجيا أكثر علاقاتها العلمية إثارةً وأهميةً، وذروة العلاقات المعرفية التي تتمثل في لقاء اللغة قمة العلوم الإنسانية مع البيولوجيات التي تَتَسَنَّمُ عرش العلوم الطبيعية، وهي بهذا تمثل أقصى صورِ المواجهة بين اللامادي والمادي، وبين الرمزي والعضوي، واللغة تكمن في صلب العملية البيولوجية أي في صلب نواة الخلية وسادت اللغة فروع المعرفة الأخرى، ويسود العلاقة بين اللغة والبيولوجيا طابع التكافؤ ممثلة في: لغة الوراثة، واقترض علم الوراثة من اللغة كثيراً من أُسُسِهَا، وقد جر الكود الوراثي وراءه كثيرا من المفاهيم اللغوية، وتوسل علم الوراثة باللغة في كثير من أسسها: النص الوراثي. الجملة الوراثية. النحو الوراثي. الفائض الوراثي. المعجم الوراثي. الخطأ الوراثي. بلاغة وراثية ومُحَسِّنَاتٌ بديعيةٌ وراثيةٌ، فالبيولوجيات تمتلك مفتاح كلمة السر اللغوي، وربما لا يكون سَبْرُ إشكالية اللغة من خلال الرياضيات والمنطق كما يقول تشو مسكي، بل يكون من خلال البيولوجيا مطبقا علم اللسانيات الأعصابية، بكشفه عمل الآليات الفيزيولوجية اللغوية، التي تمثل: عنصر العتاد (الشق المادي) الذي يبنى عليه (الشق اللامادي)، وهو الشق المعرفي اللغوي داخل المخ البشري، وكلنا أمل أن يمدنا علم اللسانيات الأعصابية بالشواهد العلمية والعملية التي تؤكد أو تنفي صحة الافتراضات التي قام عليها علم اللسانيات. ولا شك أن التقدم في فهم العلاقة اللغوية / البيولوجية، ستكون له آثاره العميقة في كثير من المجالات العلمية والتكنولوجية، في التربية ونظم الاتصالات والكمبيوتر، وفي مجال التربية نجيب عن السؤال الصعب، وهو: كيف يتعلم الإنسان وكيف يدرك الأشياء؟ وكيف يذكر ويتذكر ويتناسى وينسى؟ وما أهم الوسائل التي تزيد من فاعلية التعليم؟ يعني بهدف إسراعه وزيادة قدرة المتعلم على استيعاب ظواهر التعقيد. أما على صعيد نظم الاتصالات والكمبيوتر فالتقدم رهنٌ بمدى فهمنا البيولوجية/اللغوية وقدرة مهندسي اللغة والكمبيوتر على محاكاة عمليات الذهن، وتطوير نُظُمِ معلوماتٍ ذكيةٍ أكثر تجاوباً وحساسية.

ج - **علاقة اللغة بالرياضيات**: علينا أن نتخلص من سجن الرياضيات التقليدية كما علّمنا إياها إقليدس، ولننظر إلى الرياضيات بمغزاها الواسع، أي بصفتها علم التعامل مع المفاهيم الصرفة والمجردات والعلاقات التي تربط بينها . في الوقت الذي تزخر به منظومة اللغة من مفاهيم ومجردات وعلاقات، فاللغة تمثل تحدياً هاماً للرياضيات. والسؤال كيف تتعامل الرياضيات القاطعة مع اللغة الغامضة الملتبسة ومع فوائضها وتميعها، فاللغة لم تخضع لمعالجة رياضيات إقليدس، وبخاصة ظاهرتها الإبداعية التي تكمن وراء قدرة الناطقين بها، وهي قدرةٌ توليد عددٍ من الجمل، وترجع هذه الظاهرة إلى خاصة أساسية للتعبير اللغوي، يعبر عنها بمصطلح التداخل الحلقي، ويقصد به: أن الجملة الفعلية يمكن أن تتضمن شبه جملة اسمية، في الوقت الذي تتضمن شبه جملة فعلية أو أكثر، وظل هذا التكرار الحلقي عائقاً أمام تقدم أهل الرياضيات على تناول إشكالية اللغة، إلى أن جاء برتراند رسل ووضع أسس النظرية الصورية للغة وهذا بدوره كان مدخلاً لتطوير اللغات الاصطناعية لبرمجة الكمبيوتر، ومهدت الطريق أمام تشو مسكي ليقيم نموذجه الرياضي للغات الإنسانية، لقد أحال النحو التوليدي الذي أقامه تشو مسكي النحو اللغوي إلى سلسلة من القواعد (المعادلات) التي يمكن من خلالها توليد جميع التعابير اللغوية الممكنة إلى عكس النحو التقليدي الذي يكتفي بإعطاء أمثلة من حالات الاطراد والشذوذ والتي مهما تعددت لا يمكن أن تعطي لانهائية اللغة.

د - **علاقة اللغة بالمنطق**: إن العلاقة وثيقة بين اللغة والمنطق، وتحدث كثيرون عن علاقة نحو اللغة العربية بمنطق أرسطو ذي الطابع القاطع والتي تعزى إليه النزعة الاطرادية لدى معظم نحاتنا في سعيهم الحثيث إلى تفسير الشاذ اللغوي في إطار المطرد، وحتى يومنا هذا يحاول بعضهم دون فائدة تذكر إخضاع اللغة لمنطق أرسطو منطق الرتبة الأولى، فكيف يكون ذلك وفيه تستحيل المقولات اللغوية إلى مجردات لا صلة لها بالواقع الذي تعبر عنه؟! إن منطق أرسطو ذي الرتبة الأولى فشل في التعامل مع اللغة بغموضها

واحتمالاتها ولبسها، وأن يتناول الحدث اللغوي في زمنيته وانفعالاته، والآن لنتساءل: - كيف لهذا المنطق الصوري الذي قطع صلته بالواقع أن يتعامل مع اللغة وثيقة الصلة بهذا العالم؟ ترى كيف يفسر لنا علاقة المقام بالمقال؟ وكيف له أن يتعامل مع اعتباطية العلاقة بين اللفظ وما يدل عليه؟ نحن إذاً بحاجة إلى منطقٍ ممتدٍ يقيم كهمزةٍ وصلٍ بين مجردات المنطق وواقع اللغة. - وكيف لهذا المنطق الصوري القاطع أن يتعامل مع الظواهر اللغوية غير القاطعة مع المحتمل. والعارض. والواجب والجائز. والمفروض والمتوقع ومع الشك واليقين؟ إذا نحن بحاجة إلى منطقٍ (طوريٍّ) يخفف من حدة القطع التي يتسم بها المنطق الصوري الأول، منطقٌ يقبلُ ألفاظاً من قبيل: ربما . من الجائز. في أغلب الظن. في المتوسط بقدر. يقل أو يزيد - وكيف لهذا المنطق القاطع الذي يتعامل مع فعل الكينونة (الفعل المضارع) أن يعبر عن ظاهرة الزمن في اللغة، سواء في ارتباط زمن الفعل ماضيه ومضارعه بزمن الحدث منصرمه وراهنه وقادمه، أو من حيث البنية الزمنية الداخلية للفعل ذاته وهو الشروع في الفعل والانتهاء منه وتكراره واستئنافه وتدرجه، (مثل أمثلة: الشروع أخذ يظهر الانتهاء. استنفد الحلول والتكرار: تأرجحت الآراء) وهذا ما يطلق عليه أهل اللغة السمات الجهوية فنحن بحاجة إلى منطق زمني. وكيف يفسر لنا هذا المنطق الصوري القاطع اختلاف القصد؟ عندما نهجو ونحن في حال المديح، وعندما نسخر ونحن في حال الجد، وعندما نستخدم الصفات ذاتها على الرغم من اختلاف دلالتها وفقاً لما تقترن به من موصوفات، فكيف نميز الفرق بين دلالة معنى (الصغر) في (فأر صغير) وفيل صغير ومعنى الحدة في (سكينٍ حادٍ) و(نظرةٍ حادةٍ) ومعنى العظمة في (دولةٍ عظيمةٍ) و(حدثٍ عظيمٍ) نحن بحاجة إلى تفسير النوايا. وهكذا فرضت اللغة شروطها على منطق أرسطو ليتخلص من قطعيته وصوريته ولا زمنيته وبرودته وانعزاليته ويتعامل مع حرارة الواقع وتفاصيل أحداثه وكائناته، فتفرع منطق أرسطو القاطع إلى فروع فأصبح شجرة مورقة. وهذا لا يعني أننا أصبحنا في غير حاجة إلى منطق أرسطو الأصلي في تحليل بعض الظواهر اللغوية.

هـ - **علاقة اللغة بعلم الإحصاء:** تم استخدام الإحصاء منذ نهاية القرن الماضي في تحليل بعض الظواهر اللغوية البسيطة مثل: استخدام معدلات الحروف والألفاظ، والصيغ لتحليل أساليب الكتاب ووضع نُظُمٍ لأغراض التعمية والتشفير وخلافه، على الرغم من هذه الأهمية العلمية لهذه الاستخدامات، إلا أن العلاقة العلمية، بين اللغة والإحصاء لم تنشأ إلا في منتصف القرن الماضي، عندما خرج علينا (كلود شانون) بنظرية المعلومات القائمة على الاحتمال الإحصائي، كأساس لقياس كمية المعلومات. فكلما قل توقع كمية المعلومات زادت كميتها، وكلما أصبحت شائعةً ومتوقعةً قلت كميتها مثالنا على ذلك: إنَّ نبأً عن قتلِ جنديٍّ إسرائيليٍّ طفلاً فلسطينياً يتضمن كمية معلومات أقل من نبأ قتل فلسطينيٍّ احتمى بحضن والده في حرم المسجد الأقصى. وقد سعى كثيرون إلى تطبيق نظرية المعلومات في المجال اللغوي، إلا أن اللغة لم تخضع للاختزال الإحصائي لنموذج شانون المتمثل في ثنائية (المرسل والمستقبل) وقناة الاتصال التي تصل بينهما ولاقت نظرية المعلومات نجاحاً باهراً على مستوى معالجة الإشارات الميكانيكية والكهربائية، وعجزت أن تتعامل مع مضمون اللغة الذي يتعذر اختزاله إلى مجرد سلسلة من الرموز وبهذا أغفلت نظرية المعلومات عنصر المعنى بتركيزها على تجليات الظاهر المحسوس، أو شق المبنى دون المعنى، وربما كانت نظرية شانون القائمة على ثنائية المرسل والمستقبل هي بمنزلة نظيرٍ معلوماتيٍّ لمنهج سكينر السلوكي القائم على المثير ورد الفعل، وتحت الحاجة إلى مطالب لغوية، ظهرت الحاجة إلى إحصاء جديد يستطيع أن يتعامل مع البنية للسياق اللغوي، ليكشف لنا عن علاقات الترابط والتماسك بين فقراته وجمله وألفاظه، وتلك التي تربط بين ظاهر العبارات وما تبطنه من معانٍ وإشارات، وخرج إلى حيز الوجود علم اللسانيات القائم على ذخيرة النصوص، الذي يعدنا بانجازات ضخمة في إيجاد المعاجم والإحصاء اللغوي وعلم الأسلوبية، ونظرية المعلومات ومجالات أخرى كنظرية الأدب ونظرية النقد وعلم الحدسيات.

- **علاقة اللغة العربية بالعلوم:** أكدنا في الفقرات السابقة على أهمية الدراسات عبر التخصصات في فكر عصر المعلومات، ولكننا نضيف أن تعدي التخصصات وتعددها، فيما يخص علم اللغة، أكثر أهمية من غيرها من العلوم، وهذا هو الأساس اللغوي للمدخل الطبيعي لزرع بذرة تعدي التخصصات وتعددها، ولا بد هنا من إنشاء مركز بحثي متخصص في مجالات علاقة اللغة العربية بتكنولوجيا المعلومات، وتكنولوجيا الأعصاب والهندسة الوراثية، على أن تشمل خطة المركز البحثية، دراسة علاقات اللغة العربية بفصائل العلوم المختلفة.

- **علاقة اللغة الأجنبية بالفنون:** إن علاقة اللغة بالفنون تقع ضمن إطار الفكر العام، لعلم الرمز العام، وعلم السيمولوجيا الشامل، كما أسس له دي - سوسير في تناوله لثنائية الرمز والمدلول. إن علاقة اللغة بفنون الكلمة، كالشعر والأدب والمسرح، أسيرة ثنائية (الأداة والاستخدام): اللغة أداة التعبير للشاعر، وأداة السرد للأديب، وأداة الحوار لكتاب المسرح. أما علاقتها بفنون الرمز الأخرى كالموسيقى والتشكيل، ما زالت على مستوى التعميم فالتحليل العلمي الدقيق، ومع التقدم في علوم اللسانيات والمعلوماتية، يسعى بعضهم إلى وضع الأسس العلمية لما اعتدنا أن نعبر عنه مجازاً بلغة الشعر ولغة الأدب ولغة المسرح، ولغة الشكل، ولغة الموسيقى، ولغة الأداء الحركي. ويتردد على أسماعنا حديث عن إعراب الأشكال والمقطوعات الموسيقية، مثلما نعرب جمل اللغة. وهذا سيمكننا من قياس شعرية الشعر، وروائية الرواية، وسينمائية السينما، ويقصد بهذه المفاهيم المجردة التعبير عن الخصائص الجوهرية التي تميز كل جنس من الفنون عن الأجناس الأخرى، ليستقل الشعر عن النثر الأدبي، ويكون للسينما لغتها الخاصة، التي تتجاوز لغات الفنون المندرجة فيها، فعلى سبيل المثال هناك من يقيس شعرية الشاعر بقدرته على توليد تراكيب لغوية جديدة تتجاوز نطاق التراكيب المختلفة، التي يمكن أن يولدها نحو اللغة (السيد إمام ٢٠٠٠) وتحاول نظرية المعلومات أن تربط بين فنون الرمز باختلاف فروعه، بغض النظر عن الوحدة الرمزية التي يتعامل معها كل

فرع من هذه الفنون. فنظرية المعلومات لا تفرق بين كون الرمز رقماً أو حرفاً أو صوتاً أو لوناً أو إشارة كهربائية، وعلى صعيد تكنولوجيا المعلومات، فإن تكنيك الوسائط المتعددة يمثل أرضا خصبة، لدراسة العلاقة بين اللغة وفنون التشكيل والموسيقى، وكيف تمتزج هذه الأنساق الرمزية مع بعضها البعض، وان علاقة علم اللغة بنظرية الأدب، ستنمو في شكل علاقة تبادلية، غاية في الثراء، وأهل اللغة يحتاجون إلى نظرية الأدب لاغتناء نظرتهم إلى إشكالية المعنى اللغوي، في حين يحتاج أهل الأدب في تناولهم المعنى - خاصة فيما يتعلق بالمجاز - إلى أدوات لغوية كنظام السمات والحقول الدلالية التي يمكن من خلالها تفتيت معاني الألفاظ والجمل إلى عناصر أولية، كخطوة أساسية لتركيبها من جديد، بهدف إخضاع بعض الظواهر الأدبية إلى نوع من التحليل العلمي والحكم الأكثر دقة.

- **علاقة اللغة العربية بالفنون:** أهمل فكرنا الثقافي المعرفة الكامنة وراء الفنون، ويصعب على الكثيرين منا التصديق أن وراء فنون الشعر والموسيقى بل فن الرقص، نوعاً من المعرفة لا يكتمل من دونه وعي الإنسان بحقائق ذاته وواقعه، وقد ضيقت تكنولوجيا المعلومات المسافة الفاصلة بين العلوم والفنون، وهذا ما جعل من فكر الفنون مقوماً أساسياً في فكر عصر المعلومات، ولابد أن تكون اللغة وسيلتنا الأساسية كي تنقشع تلك الظلمة التي تغطي جانباً واسعاً من فكر إبداعنا. إن التوجهات الحديثة لتحليل لغتنا، تعارض الفصل بين لغة الشعراء ولغة العامة، وبين المجازي والحرفي، مثلما تعارض حالات أخرى من الفصل اللغوي المتمثلة في ثنائيات الاشتقاق والجمود، والفعلية والاسمية، والتعدية واللزوم، وأيقن الكثيرون أن هذه المتقابلات لا تمثل طرفي نقيض بقدر ما تمثل طرفي علاقة، يربط بينهما مسار متصل لا يمكننا من الإمساك بتلابيب المعنى اللغوي، إلا إذا تتبعنا تدرجات الطيف الممتد على هذه المسارات المتصلة. وعلينا أن نطرح جانباً ثنائية الحرفي والمجازي، والتي ترسخت في أذهاننا، فالمجاز ليس حكراً على لغة الإبداع بل ظاهرة طاغية في حياتنا اليومية.

- **علاقة اللغة الأجنبية بالهندسة:** هي علاقة أقامتها اللغة مع الهندسة من خلال تكنولوجيا المعلومات، واللغة تمثل بالنسبة للهندسة موضوعاً متميزاً ومثيراً، إذا نظرنا إليها كنظام معقد متشابك، وإذا نظرنا إلى الهندسة بصفتها فن السيطرة على النظم المعقدة فولد بذلك مصطلح جديد (هندسة اللغة) كفرع متخصص من فروع هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي. وبالحقيقة تتميز الهندسة بقدرتها على تناول الموضوعات التي تفقد الأساس النظري المكتمل، وذلك بفضل أساليبها التقريبية وأغراضها العملية. وفي ظل هذا المفهوم، تصبح اللغات عموماً، واللغة العربية خاصة، في حاجة إلى الهندسة من آجل سد النقص، النظري والعملي،. فكما مهد الإحصاء اللغوي للإنتاج العلمي النظري الدقيق، يمكن للهندسة أن تسد بأساليبها التقريبية فجوات التنظير اللغوي، والتي ستبقى هناك مادام هدفنا المزيد من التعمق النظري، ومهندس اللغة لاتهمه في الدرجة الأولى أمور مثل النقاء اللغوي، وأصالة الأسس العملية، بقدر ما يهمه تطبيق المتاح من العلم والخبرات بل الحيل الفنية أحياناً، بهدف تحقيق نتائج عملية، وربما يلجأ إليها المنظرون اللغويون لبلورة نظرياتهم واختبار فروضهم. وعلاقة اللغة بهندسة الكمبيوتر علاقة (هات وخذ) وفي مجال اللغة يستخدم الكمبيوتر لإقامة النماذج اللغوية وتحليل الفروع اللغوية المختلفة، وهذه قائمة بتطبيقات الكمبيوتر في مجال علم اللسانيات: الصرف الحاسوبي - النحو الحاسوبي - الدلالة الحاسوبية - المعجمية الحاسوبية - علم النفس اللغوي الحاسوبي. وبالمقابل اقترض علماء الكمبيوتر أثناء تطويرهم للغات البرمجة، الكثير من أسس اللغات الطبيعية، وهي اللغة التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، وما زالوا يلهثون وراء التقريب بين هذه اللغات الاصطناعية واللغات الطبيعية، بهدف تسهيل التعامل مع الكمبيوتر دون وسيط مبرمج، والهدف الأسمى لبرمجة الكمبيوتر أن يتعامل معه الفرد مباشرة وبلغته الطبيعية، لا من خلال لغات اصطناعية مثل: البيسيك والفورتران والكوبول وخلافه، وأصبحت معالجة اللغات الطبيعية آليا بواسطة الكمبيوتر، أحد أهم المقومات الأساسية في

تصميم معمارية نظم المعلومات، ودليلنا على ذلك، أهم العلوم الأساسية التي قامت عليها معمارية أحدث أجيال الكمبيوتر وهي التالي: علم النفس. علم وظائف الأعضاء. المنطق. اللسانيات. وكل هذه العلوم ذات صلة وثيقة باللغة. وقال بعضهم: أن العلم الحديث لا ترسخ قواعده إلا بقدر تطبيقه على الكمبيوتر، هنا نقول أن علم اللغة الحديث، دخل مصاف العلوم الدقيقة، عندما قام على النموذج الرياضي للنحو التوليدي، وهذا يتميز بقابلية عالية للمعالجة الآلية والتطبيق الهندسي العملي.

- **علاقة اللغة العربية بالهندسة:** إن اللغة العربية أحوج من غيرها إلى الهندسة لكثرة الفجوات في تنظيرنا اللغوي الحالي. وأن الهندسة بأساليبها العملية تستطيع سد ثغرات من الفراغ التنظيري، وإذا لم نفعل ذلك، سيطول بنا الوقت انتظاراً، لاكتمال الأسس النظرية لمعالجة اللغة العربية آليا. إن هندسة اللغة العربية وتطوير التنظير لها، لابد أن يسيرا جنا إلى جنب، لأن كل منهما يتغذى على إنتاج الآخر، وهندسة اللغة لا تقتصر على المهندسين دون غيرهم بل من الممكن أن يساهم فيه التربوي واللغوي وعلماء الكمبيوتر.

- اللغة في إطار منظومة الثقافة:

أ - مواقع التقاء اللغة الغربية بعامة بالثقافة:

بالحقيقة ان موضع اللغة هي موضع القلب من منظومة الثقافة ونحن نتناول اللغة في الإطار الشامل لهذه المنظومة، وعلاقة اللغة بعناصرها المختلفة وهي - فكر اللغة ولغة اللغة - وتشمل المصطلحات اللغوية المستخدمة في فروعها المختلفة في تعليمها وتوثيقها ومعالجتها آلياً: - تربية اللغة - إعلام اللغة - اللغة وعلاقتها بنظام القيم والمعتقدات. إبداع اللغة.

- **مواقع التقاء اللغة العربية بالثقافة:** لا يمكن حل أزمة اللغة العربية دون دراساتٍ واسعة لعلاقاتها بالثقافة وستبقى أهمية علاقة اللغة بخارجها بنفس أهمية ما يجري داخل منظومتها إذا لم تزد عليها، فاللغة هي استخدامها في الدرجة الأولى، وتكمن عظمتها في شيوعها وانتشارها، علاوة على كونها نسقا رمزيا معرفيا، يقوم على العلاقات أصلا (العلاقات الصرفية

والنحوية والمعجمية) ومن أهم مواضع التقاء اللغة بالثقافة، علاقتها الخاصة بالفكر، وهذا لم يحظ بما يستحقه من الأهمية من قبل الباحثين العرب.

- **علاقة اللغة الأجنبية بالفكر:** لاشك أنه توجد علاقة بين اللغة والفكر، تتضح لنا عندما نربط بين تجريدية الفكر وحقيقة نظام اللغة الذي يعمل على مستوى المفاهيم والمجردات من مقالات وعلاقات وتقابلات، وهي وسيلة لإدراك الظواهر الثنائية (الزمان والمكان) ثنائية الوجود الحاكمة، وبالتالي إدراك ظواهر الكون من حوله، ونحن نستشعر حركة الزمان من خلال اللغة، وهي تعبر في زمنيتها عن الماضي والحاضر والمستقبل، وعن الشروع والانقضاء، وعن التوقف والاستئناف والتقطع والاستمرار. ونستشعر المكان حولنا من خلال اللغة وهي تعبر عن القريب والبعيد واللصيق وعن الغائب والحاضر وعن المحدود والشاسع وعن الامتلاء والفراغ، ويأتي المجاز بروعة صوره، ليجسد لنا إحساسنا بالزمان، جاعلاً من الوقت سيفاً إن لم تقطعه قطعك، ومن العمر قطاراً تدور به عجلات الزمن، من هبوط الليل رداء يرخي سدوله وتخيم علينا ظلمته. وبروعة التشبيه ذاته يجسد المجاز اللغوي إحساسنا بالمكان عندما يجعل من العزلة قمقماً، ومن الوجود سجناً، إن ضقنا ذرعاً بهذا الوجود، وعندما يسوغ لنا يبتلعنا اليم وأن نبكي الأطلال، وأن تعوي الرياح، وأن تنهب المركبة الطريق نهباً. إنها علاقةٌ محيرةٌ بين اللغة والفكر، وهناك مجموعة من الأسئلة نطرحها منها: هل اللغة تصنع الفكر أم الفكر يصنعها ؟ - هل اللغة تقيد الفكر أم تحرره؟ - هل اللغة مرآة للعقل أم للعقل مراياه المتعددة؟ - وهل اللغة هي لغة الفكر الوحيدة أم أنها أهم لغات هذا الفكر أم هي مجرد واحدة من أهم لغاته المتعددة؟ وهذه التساؤلات الطبيعية تعكس علاقة اللغة بالفكر وكلنا أمل أن تساهم تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا المخ والأعصاب في الإجابة عن هذه الأسئلة وعن سؤال: أ - هل اللغة تصنع الفكر أم هو الذي يصنعها؟ يقول أهل الحتمية اللغوية أن الثقافة وليدة اللغة، وهي تصنع الفكر. وهناك من يرى أن الفكر الأسطوري وليد التواصل اللغوي الشفاهي، والفكر النقدي هبة التواصل اللغوي المكتوب، لأنه سمح للقارئ أن يختلي بنصوصه ويعيد قراءتها، ويتمعن في مضمونها،

ويتهمنا الآخر – نحن العرب – بإهمال عنصر الزمن، وعدم احترام الوقت، وهذا ما يعتبرونه سبباً بل قصوراً في تعامل اللغة العربية مع خاصية الزمن، المتمثل في ثنائية الماضي والمضارع، مقارنة باللغتين الإنكليزية والفرنسية، ويكشف اتهامهم هذا عن عدم إلمامهم بالأساليب المتنوعة والتركيبية والصرفية المعجمية، التي تعبر بها العربية عن الزمن، وعلى النقيض من ذلك هناك من يقول إن اللغة هي اصطلاح من صنعنا، فكما خلقت الآلهة الأشياء بتسميتها، نحن بدورنا نهب الألفاظ معانيها ودلالتها، ويبقى الفكر في أزمته وتقدمه، يضع مفاهيمه ومصطلحاته في وعاء اللغة، لأن اللغة إبداع الكاتب، وخيال الشاعر، وابتكار العالم، وتحليل الناقد، وتصنيف المعجمي، وقرار المعجمي، وكما ذكرنا سابقا علاقة اللغة بالفكر هي (هات وخذ) ودليلنا على هذا الكيفية التي نتعامل بها مع ظاهرة المجاز، وكذلك تلك التي يتعامل هو معنا بها. تدفع ممارسات الحياة المستجدة بالمجاز اللغوي إلى توسيع معاني الألفاظ، ومدى استخدامها، فهي تشبه حركة الاقتصاد مجازا: بحركة الموائع، عندها تعبر عن سيولة نقدية، وفيض نقدي، وتدفق أموال، وتشبه الإنترنيت ببيت العنكبوت، والحياة اليومية تولد المجاز، لتلعب هذه الاستعارة دوراً في تشكيل ممارسة الإنسان لحياته، وعندما نجعل من الاستعارة المجازية ومن النقاش حرباً نخوضها، لمهاجمة الآراء والدفاع عن وجهات نظرنا، وإسكات الخصوم ومحاصرة الأفكار، تتحول مع تكرار استخدامها إلى أداة فعالة لتوجيه فكر الإنسان وسلوكه، ولا شك أن موقفنا من النقاش سيتغير بصورة جذرية، إذا تراءى لأهل المجاز تحول النقاش غزلاً بدلاً من الحرب، ليتهم يفعلون، عندها يحل التودد لشريك النقاش (لا لخصمه) والتآلف والتعاطف والتناغم وشقاوة المحبين محل الدفاع عن وجهات النظر والهجوم على آراء الخصوم، ومحاصرة الأفكار والعصف الذهني، وتكميم الأفواه وتصفية وجهات نظر المعارضين.

– **هل اللغة تقيد الفكر أم تحرره؟**: تبدو العلاقة التبادلية بين الفكر واللغة، واضحة تماما فقد يسمو الفكر بلغته أو ينحط بها، كذلك يمكن للغة أن تسمو أو أن تنحط به، ويشهد تاريخ الفكر أن اللغة من أشد الأسلحة

الإيديولوجية عنفاً، وهي الوسيلة للسيطرة على الفكر، ويكفي دليلاً على ذلك استغلال سلاح اللغة في منع تفسير النصوص الدينية مجازاً، ودليلنا على ذلك ما يقوم به بعض المصححين في دُوْرنَا الصحافية من قيود على كُتَّابِنَا في استخدام المجاز، فهم يرفضون عبارات من قبيل: خلق الأفكار. وبعث التراث. ويذكرنا هذا بما قام به (جورج أورويل طوبائيته ١٩٨٤) عندما وضع اللغة على رأس أسلحة القهر الأيديولوجية في يد الأخ الكبير، فصممت لغة الكلام الجديد كما أسماها أورويل بحيث تخلو من المجاز، وتضع قيوداً صارمةً على معاني الألفاظ، فمعنى فقد الحرية يجب أن لا يخرج عن استخدام المعاني المناظرة كحبس الطير في قفصه) ومعنى القوة يجب ألا يخرج عن معنى الشد والإرخاء كما يقول علم الفيزياء، ولم تستهدف صرامة اللغة محاصرة العقول فقط وإنما كل بدائل التفكير الأخرى، وإن اللغة في سعيها الدؤوب لملاحقة التوسع المعرفي تتوغل في مصطلحاتها لتزداد تخصصاً وتحديداً، وتصبح من شدة انغلاقها حكراً على المتخصصين، وعائقاً أمام العامة، لاستيعاب معرفة عصرهم وإنَّ إفراطنا في انغلاق لغتنا، تحديدا وتقنينا، يساهم في انغلاقنا في الفكر وانعزاله، فاللغةُ قديماً وحديثاً تمارس سلطتها علينا بسحر أساطيرها أو بلاغة خطبائها. أو بتضليل إعلامها وزيف إعلانها، وتبقى الوسيلة الوحيدة لتحطيم القيود وتحرير الفكر والتصدي للظلم والزيف والجامد والتابع وكل ما هو غير أخلاقي وصحيح وأصيل، ومن خلال مجازها تحررنا من أسر الكلمات والمعاني السائدة، ومن ابتكاراتها تجعل من الإبداع حقاً مشاعاً للجميع، وبمرونتها نكتسب قدرة التعامل بين تناقضات الواقع ومتغيراته، يمكن أن تكون اللغة قيداً أو تحرراً، وعرفت اللغة بأنها الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة، ومثالنا على ذلك: تلك العبارة التي قالها هيرودوت (مصر هبة النيل)، والتي سيطرت على أفكار المصريين، واستملموا لها، وظنوا أن مصر ستبقى سجينة وادي النيل الضيق، فضاق الوادي بسكان مصر فتنادى المصريون بترديد شعار (أن مصر هبة الصحراء) وانطلقت مصر تبحث في طيات رمالها وعن الحياة في بواديها.

- **هل اللغة لغة الفكر أم للفكر لغته الخاصة:** إن اللغة تمارس سلطتها علينا لمصلحتها، فهي مرآة العقل، وهذه مقولة أخاذة ونافذة، رسخت في الأذهان مفهوم التطابق بين اللغة والفكر، وبين بنية اللغة وبنية العقل أداة إنتاج هذا الفكر. فاللغة عند (كلود ليفي شتراوس) وكثيرين غيره، هي شكل من أشكال عقل الإنسان تماثله بنيةً وعملاً، وقد تأثرنا كثيراً بهذه المقولة، وراح كثير من علماء الذكاء نفسه يحاولون البحث بصبر عن مظاهر التطابق، وما أصعبه من تطابق لما بين هذين الزاويتين: زاوية اللغة، وزاوية الفكر. وهناك فريق يعارض بشدة انفراد اللغة كأداة للتفكير، معتبراً ذلك ضرباً من التمركز اللغوي، وانحيازاً للغة على حساب الرموز الأخرى، وحان الوقت لزعزعة مفهوم تطابق اللغة مع الفكر، وهو المفهوم الذي يدافع عنه (نعوم تشو مسكي). ربما بحكم تمسكه بنموذجه الذهني للغة، ويحدوه الأمل في أن يصبح هذا النموذج نهجاً عاماً يمكن تطبيقه على أنساق الرموز الأخرى، مثل لغة الموسيقى والتشكيل، واعتبرت اللغة مدخلاً لسبر أغوار المخ البشري، وهذا قد انحسر اليوم بعد أن أوجد الباحثون مناهج علمية ووسائل تكنولوجية حديثة للكشف عن بنية المخ البشري، وهيكلية ذاكرته ويزداد الاعتقاد أن هناك أكثر من لغة للفكر، وإذا لم يكن ذلك فكيف نفسر وجود فكرٍ سابقٍ على اللغة في الزمن السحيق قبل أن يخترعها الإنسان لها، وهناك من يبشر بلغة - لغة ما بعد الكتابة - تجمع ما بين اللغة وأنساق الرموز الأخرى، كالتشكيل والموسيقى والرياضيات والمنطق والبرمجيات أيضاً، وربما يكشف لنا الزمن، أن العقل يعمل من خلال توزيع قدراته عبر مجموعة من ملكاته أو غرائزه الرمزية، ولكن اللغة ستبقى قادرةً على مفاجأتنا لأنها بارعةٌ في الانتقام لكرامتها ممن يتجاهلها أو يقلل من شأنها، وهي قد تخدعنا فتبدو وكأنها استسلمت ولكن لتنقض علينا فارضةً سطوتها على الفكر الإنساني، فمن يضارع اللغة في مرونتها وسيولتها وقدرتها الفائقة على الجمع بين المتناقضات وبين الوضوح والغموض وبين الإسفار والإضمار وبين الإيجاز والإطناب وبين الحشو والحذف وبين رقة اللفظ وفجاجته، وهي سلاح في يد القوي ودرع في يد الضعيف.

- **علاقة اللغة العربية بالفكر:** كل ما ذكرناه في السابق عن اللغة ينطبق علينا نحن العرب وعلى غيرنا، وقد اهتم بعض منظرينا بالعلاقة بين الفكر واللغة في مجال تناولهم لجذورنا الفكرية وتحليل بنية العقل العربي، والعقل المطلوب عادة في هذه الدراسات هو العقل المشيد للفكر، أي عقل القلة النابغة التي تصنع عقول الكثرة، التي يفترض أنها قادرة على دمج هذا الفكر في الحياة اليومية، وفي الواقع أن هذا الفكر الهابط من أعلى يبقى معلقاً بالهواء دون توظيف حقيقيٍ على أرض الواقع، وهذا لن يحدث دون تحليل دقيق لعلاقة اللغة العربية بعقل الإنسان العربي العادي، وهنا تبرز أهمية علم النفس اللغوي، وهو لا يحظى بالاهتمام اللازم والجدير به لدينا، ويكفي هذا دليلاً على صدق زعمنا أن تلك المقولة الخاطئة التي استقرت وعسكرت في ذهنيتنا عن كيفية قراءة العربي لنصه غير المشكول، والتي تقول بشكل قاطع (أن العربية تفهم لتقرأ) فهي مقولة تتنافى مع أبسط قواعد علم النفس اللغوي، وهي تناقض الحس الطبيعي السليم. الغريب في الأمر أن عملية القراءة تلك على الرغم من شيوعها الهائل وأهميتها البالغة لم يتصد لها أي بحث جاد حتى الآن، يتناول جوانبها المعجمية والنحوية والنفسية، وكلنا أمل أن يقوم علماء النفس اللغوي عندنا بالمقارنة بين خصائص اللغة العربية ومواردها النحوية والمعجمية وبين آليات عمل المخ الأساسية، والتي تشمل التالي:

- القدرة على التعميم - التنسيق بين الحواس - إكمال النقص - الاستخلاص من المشوش - الاستئناس غير الدقيق - الصمود إزاء التعقد - القدرة على الاستنتاج المنطقي والحدسي - عدم التطبيق الصارم للقواعد - التواصل والتعاون مع الذكي الآخر: بشراً كان أم نظماً آلية - التوفيق بين الدوافع المتعددة والمتباينة - التكيف مع البيئة المغايرة - الوعي بالذات - توليد الجمال وتذوقه - إظهار ردود الأفعال تجاه الأحداث والأشياء - إنها بحق: - منطقة بكر في انتظار من (يثير أرضها) ويقلب تربتها.

- **فكر اللغة بشكل عام:**

أ - **قائمة بالمناهج اللغوية وتشعباتها:** كان من إشكالية تشعب جوانب اللغة، وكنتيجة منطقية لاتساع تداخلها مع فروع المعرفة وزيادة تعقدها، ونتيجة لالتقائها مع تكنولوجيا المعلومات. ونتيجة لهذا تعددت المناهج اللغوية النظرية في تناول إشكالية اللغة والأساليب البرمجية لمعالجتها آلياً باستخدام الكمبيوتر، ومن هذه المناهج هي: - النهج التشريعي - النهج الأنثربيولوجي - النهج التوليدي - النهج العقلاني - النهج الرياضي المنطقي - النهج الإحصائي. النهج الوظيفي. - النهج السلوكي الأم بريقي - النهج النصي - النهج الحاسوبي.

ب - **النهج التشريعي:** أن ننظر إلى اللغة كسلوك اجتماعي، وهنا لابد من الضبط من خلال تشريع لغوي، ومثالنا عليه النحو اللغوي العربي، ولا شك أن البعد الديني قد أضفى للغة احتراماً خاصاً على (التشريع). وكان الاهتمام باللغة بسبب الحاجتين الدينية والتعليمية هذا ما أكده الزمن الحاضر والعصور الماضية (جوليا كريستيفا) فالنحو ميزان اللغة العربية - كما ذكر صبح الأعشى - والقانون الذي يحكم كلَّ صورةٍ من صورها، فهو قياس يتبع. أما الاطراد فهو يرتبط بالقياس، والغاية من النحو منع اللحن وحفظ النص القرآني كتابةً وتلاوةً - وهذا ما سَبَّبَ طغيان النحاة (نبيل علي١٩٨٨) فازداد نفوذهم الاجتماعي ولا زلنا نعاني من هذا حتى اليوم.

ج - **النهج التوليدي:** إن قواعد النحو والشذوذ والاطراد والأمثلة على ذلك وشروط الجواز والتفصيل، قد ضيقت على التعابير اللغوية وجعلتها محدودةً جداً، مما أبعدها عن الإبداع والابتكار، فكان المنهج التوليدي الذي عمل على لانهائية التعابير اللغوية، واللانهائية هذه تعتبر أهم خاصية في منظومة اللغة، وهي السر وراء ابتكاريتها ومداومة تجددها وتوسعها، علاوة على ذلك فإن أسلوب توصيف قواعد النحو عن طريق إعطاء الأمثلة لا يلبي مطالب معالجة اللغة آلياً بواسطة الكمبيوتر، وهذه المعالجة الآلية تتطلب الحكم على صحة التعبير اللغوي من عدمه. فكيف يتأتى لنا الحكم من خلال

أمثلة - مهما كثرت - تظل محدودة العدد بحكم طبيعتها؟ وإنَّ نظم المعالجة لابد أن تتعامل مع اللغة على اتساعها، أي على أساس من لا نهائيتها، وهذا ما سعى النحو التوليدي إلى تحقيقه، ويقصد بالتوليد أن تصاغ قواعد النحو في صورة قواعد رياضية، يمكن من خلالها توليد العديد من التعابير المسموح بها في اللغة، تماماً، كما تولد المتواليات الهندسية والعددية العدد اللانهائي من هذه السلاسل، وكما تُوَلِّدُ معادلة الخط المستقيم في الهندسة التحليلية.

د - **النهج الحاسوبي:** يحاول علماء اللسانيات تطوير التنظير اللغوي إلى آفاق بعيدة المدى انطلاقاً من نظرية هندسة المعرفة، وإقامة نماذج لتمثيل أداء اللغة ويقوم هذا على: - نظام رياضي لكتابة قواعد النحو وفقاً للنموذج اللغوي المعمول فيه - تنظيم منهجي لكيفية تسجيل هذه القواعد وعلى مفردات المعجم التي تطبق عليها. وقد ظهرت نماذج نحوية عدة تمثل النتاج الغزير للتفاعل الشديد بين النحويين والدلاليين من جانب، واللغويين وعلماء الكمبيوتر من جانب آخر، نورد هنا قائمة بأسماء النماذج النحوية: نحو وظيفي - نحو وظيفي معجمي - نحو علائقي - نحو الحالات الإعرابية - نحو البنية العامة للجملة - نحو ترابطي - نحو توليدي تحويلي - نظرية الرابط العاملي - نحو مقولي - نحو شبكات الانتقال المعززة نحو بنية الجملة المعتمدة على الرأس.

- **فكرة اللغة العربية:** اللغة العربية أسيرة النهج التحليلي، القائم على إعطاء الأمثلة وهناك محاولات متواضعة لتطبيق النهج اللغوي والنموذج الحاسوبي على نطاق محدود، من نحو اللغة العربية، وقد قام الدكتور (نبيل علي) بوضع ٢٠ ألف قاعدة لغوية، يتطلب اختيار أنسب النهوج والنماذج الحاسوبية بحثاً متعمقاً يضاهي بين إمكانات هذه النماذج والمناهج وبين خصائص منظومة اللغة العربية وكذلك التي تتبع لمنظوماتها الفرعية، والمقصود هنا منظومات: الصوتيات. والصرف والنحو والدلالة والمعجم. وبات الأمر في حاجة إلى مؤتمرٍ قوميٍ عربيٍ أسوة بما فعله اليابانيون، من أجل اختيار أنسب النماذج اللغوية لتلبية مطالب اللغة العربية تنظيراً وتعليماً

ومعالجة آلية، ومع الأسف لم يحظ هذا الأمر بأي اهتمام من مجامعنا العربية، وتستطيع أن تحكم على هذه المبادرة العظيمة أقسامُ اللغة العربية في الجامعات والأكاديميات العربية، وكذلك دار العلوم وكليات الآداب.

- **تربية اللغة بشكل عام:** - تشمل تربية اللغة كل ما يتعلق بأمور تعليمها وتعلمها، سواء كانت اللغة للناطقين بها، أو غير الناطقين بها، وتشمل تنمية مهارات التواصل الأربع: القراءة. الكتابة. التحدث. الاستماع، ويحظى تعليم اللغة الأم بأهمية بالغة هذه الأيام بعد أن ثبتَ أهمية الدور الذي تلعبه هذه الأيام في تنمية فكر الفرد، وتوطيد عرى التماسك الاجتماعي، علاوة على كونها هي الطبقة الأساس التي يبنى عيها تعلم اللغات الأجنبية، والذي يحظى هو الآخر بأهمية بالغة بفعل العولمة، وهناك ما يزيد عن ٥٠ مليون صيني يتعلمون اللغة الإنكليزية، والدليل على ذلك مواقع الإنترنيت لتعليم اللغات وتعلمها، إضافة إلى توفير كمٌ هائلٍ من برمجيات تعليم اللغات ونظم تأليف المناهج.

- **تربية اللغة:**

أ - **أزمة تعليم اللغة العربية:** قيل الكثير عن أزمة تعليم اللغة العربية، سواء عن مستوى محتوى المادة التعليمية أو من حيث تعليم أساليب التعليم ومنهجياته ونتائجه. وأهم أوجه القصور: التركيز على الجوانب الصورية سواء في تعليم النحو والصرف، أو تنمية مهارات الخطابة والحوار. فقد غطت سطحية قراءة النصوص وضبط أواخر الكلمات على حساب عمق استيعابها والربط بين جملها وفقراتها، وإدراك هيكليتها الشاملة. - عدم الاهتمام بعنصر الدلالة أي الجوانب المتعلقة بالمعنى، وطغت الوظائف النحوية (فاعل ومفعول. حال) على معنى التراكيب النحوية، فالطالب نراه عاجزاً عن معرفة التراكيب التالية: رأيته يخرج من الباب، ورأيته خارجاً من الباب، رأيته وقد خرج من الباب فالثلاثة هي أحوال. أما المعنى ففي بطن صاحب العبارة، والشيء نفسه في صيغ الصرف ويصعب على طلابنا تمييز الفروق الدلالية بين أزواج الألفاظ المتقاربة التالية: (تبهرج بَهْرَجَةٌ) (سداد: تسديد) (جليل:

ذو جلال) - إهمال الجانب الوظيفي باستخدام اللغة، وعدم تنمية المهارات اللغوية المطلوبة في الحياة العملية، والناس ينحازون إلى جانب الخطاب على حساب التواصل الفعال - عدم تنمية حاسة التذوق لمآثر اللغة العربية شعراً أم نثراً أم تراثاً - عزوف الكبار والصغار عن استخدام المعجم في لغتهم الأم.

ب - **تعلم اللغة العربية ذاتياً:** هناك فارق بين تعليم اللغة العربية تلقينا من خلال المدرس، وتعلمها ذاتياً في غيبة منه، وهو ما أصبح واجباً لعوامل من أهمها : - أهمية التعلم ذاتياً لتعويض أوجه القصور في تعليم اللغة تلقينا - تلبية مطالب تجديد المعرفة اللغوية تمشياً مع مبدأ التعلم مدى الحياة - تعليم أبناء الجاليات العربية في المهجر الذين لا يتوافر لديهم معلمون للغة العربية وغالباً ما تنقص ذويهم الخبرات والأسس المنهجية لتعليمها، وإذا أردت أن تتعلم اللغة ذاتياً، أو أن تتعلمها عن بعد عبر الإنترنيت، تحتاج إلى جهود بحثية مضنية في مجال علم النفس وإعداد المناهج وتقويم أداء الطلاب، وتصميم البرمجيات التعليمية.

ج - **برمجيات تعليم اللغة العربية وتعلمها:** مازالت برمجيات تعليم اللغة العربية قاصرةً كماً وكيفاً، وتميل إلى استعمال أنماط التعليم التقليدية مثل: ملء الفراغات وأسئلة متعددة الخيارات وما شابه. فنحن بمسيس الحاجة إلى برامج تعليمٍ ذكية، تستخدم أساليب الذكاء الاصطناعي والقائمة على نظم معالجة اللغة العربية آلياً : - الصرف الآلي - الإعراب الآلي - التشكيل الآلي - نظم التلخيص والفهرسة الآلية. ويتفاءل البعض بهذا الخصوص، لأنه يمثل معالجة للبنية التحتية اللغوية (صوتاً وحرفاً ومعجماً)، وليس مجرد تواتر وإحصائيات للجمل والكلمات.

- **إعلام اللغة الأجنبية:** يمكن أن نلخص علاقة الإعلام باللغة في ثنائية (لغة الإعلام وإعلام اللغة) ولابد أن يقتصر حديثنا على إعلام اللغة ويشمل التالي: الثقافة اللغوية كفرعٍ متخصصٍ - من الثقافة العلمية - تعليم اللغة عبر وسائل الإعلام.

- **إعلام اللغة العربية:** يولي إعلامنا العربي اهتماماً جيداً باللغة، وهو يركز على التالي: - عبقرية اللغة - تذوقها، - وصلة هذا بالبيان القرآني،

لكن الثقافة اللغوية في عصر المعلومات، تتطلب ما هو أكثر، وربما تكون دراستنا هذه تساعدنا في تحقيق المطلوب، ولكن هل يمكن للإعلام إنجاز هذه المهمة؟ مثلاً: أن تنقل الوعي باللغة من مستوى النخبة إلى مستوى العامة؟ ولا بد هنا من التالي: - أهمية اللغة في عصر المعلومات - أعراض أزمتنا - تراثنا اللغوي - كيفية توظيف اللغة في حياتنا اليومية - موقع العربية على خريطة اللغات العالمية - التوعية بنظم معالجة اللغة العربية آلياً - علاقة اللغة بفنون الإبداع المختلفة - علاقة اللغة بمنظومة القيم والمعتقدات. ولا بد من التواصل الحي التفاعلي لتعليم اللغة ويعد شرطاً أساسياً لاكتساب المهارات اللغوية. وقد تكون الإنترنيت أكثر نجاحاً في هذا المضمار، وعلى برامج تعليم اللغة إعلامياً أن تدمج في برامجها وسائط تعليمية جديدة، من وسائل إيضاح مرئية ومسموعة ومطبوعة.

- **اللغة الأجنبية في عصر المعلومات، البعد الأخلاقي:** استطاع عصر المعلومات أن يضيف بعداً أخلاقياً جديداً يتعلق بأمرين أساسيين هما: - ظاهرة الانقراض اللغوي الذي يهدد معظم لغات العالم - قضية حقوق الأقليات اللغوية باعتبار، حق التمسك باللغة الأصلية وهي أحد الحقوق الثقافية. وأنَّ ظاهرة الانقراض اللغوي يمكن أن نسميها (بالإمبريالية اللغوية) أو مصطلح الإمبريالية الثقافية والذي شاع استخدامه حالياً وفضلنا أن نسميه (الداروينية اللغوية) لسببين ١ - إنَّ مصطلح الإمبريالية قد ارتبط بأذهان العالم الثالث، ولكنه يخص الدول المستضعفة دون الدول المتقدمة، وهيمنة اللغة الإنكليزية قضية تهم فرنسا، وغيرها من الدول كما تهمنا نحن العرب، وتهم الدول الإسكندينافية، وأمريكا اللاتينية. وتهدد اليابان وتهدد قبائل إفريقيا وأستراليا - ٢ وبمفهوم الداروينية اللغوية) تشير إلى انقراض نصف لغات العالم حسب إحصائيات منظمة اليونسكو، وهذا ما شجع المنظمة الثقافية الدولية لإصدار ميثاقها الخاص في المحافظة على تعدد اللغات، ولاشك أن هناك علاقة بين الداروينية اللغوية ذي الطابع البيولوجي والتقارب الحاصل بين علمي اللغة الحديث وبين البيولوجيا الجزيئية.

وفي ظل (البقاء للأصلح) هو الأكثرُ شيوعاً يعني (اللغة الإنكليزية) التي تخنق غيرها من اللغات، وتكاد تخرج منفردةً لغةً عاليةً (كأمرٍ واقعٍ) ويمكن معرفة أثر هذا من خلال المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والعلمي، وجعلت شبكة الإنترنيت العالم أكثر إدراكا بطغيان اللغة الإنكليزية، والرصيد البشري الاستراتيجي الثقافي بات مهدداً، وتكنولوجيا المعلومات كادت تقضي على التنوع الثقافي، بقَدْرٍ يفوق ما فعلته تكنولوجيا الصناعة بالتنوع البيولوجي. عندما أدركت أمريكا الأهمية البالغة لموارد المعلومات في اقتصاد ما بعد الصناعة راحت تشحذ كل أسلحتها اللغوية تحضيراً لصراعٍ دوليٍّ متوقع على الساحة الثقافية، ولهذا ربطت الولايات المتحدة بين هذا التوجه الاستراتيجي وما شهدته الساحة الأمريكية من تقدم كبير في علوم اللسانيات، وهندسة اللغة، منذ منتصف الخمسينات وشهدت تكنولوجيا المعلومات - الكثيفة لغوياً - تطوراً هائلاً للولايات المتحدة، وجعلت من شيوع اللغة الإنكليزية، رأس حربة في تنفيذ مخططها لسيادة العالم معلوماتياً وثقافياً واقتصادياً، وساعدها في ذلك شبكة الإنترنيت التي طغت فوق لغات العالم نافذةً ومتراكمةً، فاستعادت بذلك حلماً كادت تفقده، وسعت لتجعل من القرن الحالي قرناً أمريكياً لكونه قرناً (رمزياً) لا سلطة فوق سلطة اللغة. وتمارس اليوم الولايات المتحدة من خلال إعلامها واقتصادها وتكنولوجيتها أساليباً مبتكرةً من الضغط الدولي لا يرحم عدواً ولا صديقاً أو حليفاً كبيراً كان أم صغيراً، وهذه فرنسا منارة الأدب والثقافة، تترنح تحت ضربات الإعصار الثقافي الأطلنطي، وتكاد اليابان على مستوى التقانة، والتي تمثل مركز الصناعات الالكترونية عالمياً، أن تعلن انسحابها من صناعة البرمجيات، تحت ضربات برامج ونظم المعلومات الإنكليزية، والذي يرد إليها عبر الأطلنطي، وهذا ما جعل اليابان تهتم بأمور الترجمة الآلية أملاً في كسر عزلتها اللغوية التي فرضتها عليها لغتها الفريدة، ولا يختلف موقف ألمانيا عن بقية زميلاتها سواء على جبهة الثقافة أو التقانة، ولتتكلم الأرقام هنا عن سطوة اللغة الإنكليزية في مجال الإعلام عالمياً: ٦٥ /بالمائة من برامج الإذاعة باللغة

الإنكليزية. ٧٠ /بالمائة من الأفلام ناطقة باللغة الإنكليزية. ٩٠ / بالمائة من الوثائق المخزنة في الإنترنيت بالإنجليزية. ٨٥/من المكالمات الهاتفية الدولية تتم بالإنكليزية. أما على صعيد السياسة والاقتصاد تبقى الولايات المتحدة هي القطب الوحيد بلا منازع. ويعتبر صدى لمصالحها الإستراتيجية الداخلية منها والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية بحملة عالمية لفرض صيغتها الخاصة عن حقوق الإنسان بصيغة أقرب إلى الشكلية والدعائية المزيفة، المضللة بعيدةً عن الجوهر لتطمس الظلم والقهر الذي يحدثه التفاوت الطبقي لذر الرماد بالعيون، وبينما تعلن عن ذلك تتكر على أقلياتها استخدام لغتهم الأم، وهل نسوا ما فعله (فرانكلين) في صراعه ضد أنصار اللاتينية، من أجل فرض لغته المحلية، ويستخدم النظام الأمريكي اللغة الإنكليزية كمصفاة للترشيح الاجتماعي، وكيف أصبح مستوى إجادتها وإتقانها وسيلةً منيعةً للحد من حركة الصعود الاجتماعي لهذه الفئات المضطهدة لغوياً، كما يحد من الفرص المتاحة أمامها، سواء للتنمية الفردية أم الجماعية، وكثيراً ما يبرر النظام الأمريكي أعماله القمعية هذه بالاستشهاد بالجار الكندي، وما أدت إليه الثنائية اللغوية من صراعات بين الناطقين بالإنكليزية والناطقين بالفرنسية، ويعتقد الكثيرون من المنظرين والساسة الأمريكيين في صدق الفكرة القائلة، بأن ليس هناك من تنوع لغوي إلا وله ضريبة اجتماعية باهظة. واللغة بريئة من هذه الافتراءات الظالمة، وهذا لا يصمد أمام التحليل الاجتماعي الدقيق والشامل، وكوامن الصراع الاجتماعي وأساسه الأسباب السياسية والاقتصادية والعنصرية، وكم من الجرائم ترتكب باسم اللغة البريئة، وكم من الضحايا سقطوا في العالم من أجلك أيتها اللغة في الشكل فقط، ولكن أسبابه في الحقيقة سياسيةٌ واقتصاديةٌ في المقام الأول.

إن التنوع اللغوي يثير خوف الأمريكي البائس، الذي يتعثر تحت ثقل هزائمه في أفغانستان وباكستان وينهزم في العراق ذليلاً مكسوراً، يتوجع يستغيث بحكام النفط لنجدته مالياً بعد أن أعلن إفلاس بنوكه. وكيف ينسى الياباني والعالم ما فعله القائد الأمريكي عندما وقعت اليابان وثيقة الاستسلام في

نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث أمر ذلك القائد اليابان باستخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة اليابانية، زاعماً أن اللغة وراء عدوانية الشعب الياباني وهو بذلك يجمع وجهين من الحتمية، وهما: الحتمية اللغوية والحتمية البيولوجية.

- **اللغة العربية في عصر المعلومات، (البعد الأخلاقي):** قد يظن البعض أن اللغة في منأى عن الانقراض طبقاً للآية القرآنية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فما وعدت به الآية الكريمة هو حفظ النص الشريف، ولكن كم من نصوص حفظت على مدى التاريخ واندثرت لغاتها. ولا نقصد من هذا الكلام أنَّ اللغة العربية مهددةٌ فعلاً بالانقراض، وقصدنا ضرورة تقوية تحصيناتنا اللغوية ضد اللغة الإنكليزية الشرسة، وأن ندرك ما يعنيه ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، قرار منظمة التجارة العالمية بعدم اعتبار لغتنا العربية ضمن لغاتها الرسمية. وفي المقابل ما يعنيه من مزايا القرار الذي اتخذه المجلس الدولي للأرشيف باعتبار اللغة العربية ضمن لغاته الرسمية، والأقليات اللغوية في الوطن العربي تمارس حقوقها، ولكن الغرب الحاقد حريصٌ دائماً لإثارة الفتن وإحياء كل ما يفرق العرب، كما فعل عندما حاول إحياء اللغة الأمازيغية في الجزائر.

- **إبداع اللغة الأجنبية:** يمكن تقسيم إبداع اللغة إلى: - إبداع فنون اللغة، من أدب وشعر ومسرح - إبداع اللغة ذاتها. وأخيراً كثر الحديث عن إبداع فنون اللغة، ولم يحظ إبداع اللغة في ذاتها، بما تستحقه من الاهتمام، وعلى الرغم من إبداع فنون اللغة، فهو في جوهره، نتيجة إبداع اللغة بشكل آخر. سنتناول إبداع اللغة ذاتها، ونؤجل الحديث عن إبداع فنون اللغة، والمقصود بإبداع اللغة ذاتها، ذلك المختبئ في صلب منظومتها، ويمكن لكلِّ ناطقٍ بها أن يمارسه، إن للغة ابتكاريتها الخاصة بها، ولا تتوقف الجماعات الناطقة باللغة عن ابتكار العبارات المستجدة، وإضافة المفردات الجديدة إلى معجم اللغة، وإضافة معانٍ جديدةٍ إلى مفرداتها القائمة بالفعل. ويبدو إبداع اللغة في أبهى صوره في بلاغة تراكيبها واستعارة مجازها. يمكن إبداع اللغة نحوياً في قدرتها

على توليد عدد لانهائي من تراكيب الجمل، بفضل ما أسميناه بالتداخل الحلقي، وأما إبداع المجاز فيكمن في قدرة صاحبه على هذا التنقل الحر بين الحقول الدلالية، فهو ينتقل من حقل العواطف البشرية إلى حقل النيران، فيجعل من العواطف لهيباً، يحرق شغاف القلوب، ويؤجج المشاعر، ويكتوي به قلب العاشق، ينتقل من حقل الوقت إلى حقل المال، يجعل الوقت ذهباً وموردا يُدَّخَرُ، ينفق من ميزانيته ويبدد إسرافاً وتبذيراً، وينتقل بين حقل الشخصية وحقل البناء، فهو يجعل من الشخصية صرحاً لها مَدَاخِلُهَا وسراديبها وأبعادها ودعائمها، ومثلها مثل البناء. تتحطم تتهدم، تنهار، ويعاد بناؤها وترميمها، فالإبداع الكامن في اللغة هو (دمقرطةٌ) لحق الإبداع، وهي أول قدرة إبداعية يتمتع بها الطفل خلال اكتسابه لغته الأم وهل هناك قدرةٌ إبداعيةٌ أروع من أن يتعلم الطفل لغته دون مدرس، يستنتج قواعدها بمنطقه الغريزي، من تلك العينة العشوائية التي تتنامى إلى سمعه البكر من لغة الكبار، إن إبداع اللغة يوفر جرعةَ الإبداع اليومية، فتضمن لعقولنا نموها وحيويتها ويقظتها، ولكل مهارةٍ لغويةٍ إبداعها الخاص، فكما هناك إبداعاً للكتابة، هناك إبداعاً في القراءة تنفذ إلى قرار النص، وتعيد تأليف مؤلفه، وهناك إبداعاً في التحدث، وهناك استماع مبدع يستوعب ليتفاعل، يقبل يرفض في صمت، ويعلق الحكم مرجئاً للبوح به في الوقت المناسب. ولاشك أن عصر المعلومات يتطلب إبداعاً لغوياً جديداً، إبداعاً مختلفاً عن كتابة النصوص لتتآلف وتنصهر في وسيلة الاتصال المتعددة مع أنساق الرموز من صورٍ وأصوات، وإبداعاً جديداً في فن قراءة النصوص غير الخطية يلم شتاتها وشظاياها ويقتفي أثر تشعبها الداخلي، وتَنَاصَهَا الخارجي مع غيرها من النصوص، وإبداعاً جديداً في الحوار عن بعد، تحدثاً واستماعاً، ولا يرى الحرار نوعا من عشوائية التفوه بالكلام، بل هو بناءٌ يخضع لهندسة الحوار، تتآلف فيه الآراء وتتباعد. وتُخَلّصُ فيه النوايا وتتآمر، وتحيل الأسئلة وردودها إلى ما قبلها لتمهد الطريق إلى ما بعدها وفقا لغايات المتحدثين وتكتيكات حوارهم.

- **إبداعات اللغة العربية:** الإبداع كثيرٌ في لغتنا العربية، من سخاء في اشتقاقها لا يضارعه اشتقاق في لغة أخرى من روعة نظامه وانتظامه، ونَحْوٍ مرنٍ وثراءٍ في التراكيب، وقدرة عالية المستوى في الإيجاز والإيعاز، ومفردات وفيرة غزيرة المعنى، يفوقها تعدد مرادفاتها وكثافة المعنى، وفوق هذا نملك نصاً قرآنياً سماوياً جامعاً، ومرجعاً لغوياً متاحاً للجميع، وقد شارك السلف والخلف في الكشف عن روعة إبداع كتابة العربية بلاغة وفصاحة، واليوم طغت الكتابة الرديئة، وكادت أن تطرد الكتابة الجيدة. ونحن اليوم بحاجة إلى جرجاني جديد يهدينا إلى الكتابة الجديدة، لا لتشخيص الكتابة الرديئة وإنما لحاجة ماسة إلى نظم الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ونحن نحتاج إلى وقت طويل لنصل إلى درجات أرقى على سلم البلاغة. ويمكن أن تساهم تكنولوجيا المعلومات ليس في علاج الكتابة الرديئة، وإنما في دراسات الأسلوب لنماذج حديثة من الكتابة الجيدة، ومن أهمها نثر شعراء مثل: نزار قباني وأدونيس وغادة السمان، وتحليل الكتابات العلمية والمقالات الصحفية المؤثرة كمحمد حسنين هيكل. واقتصر إبداع اللغة العربية على مهارات الكتابة، دون المهارات اللغوية الأربع التي أشرنا إليها، إن القارئ العربي بأمَسِّ الحاجة إلى تحديث قراءته وفقا لمطالب عصر المعلومات بمستوياتها الأربع المختلفة: - قراءة متعجلة - قراءة انتقائية -- قراءة عادية - قراءة متعمقة.

- منظومة اللغة:

- **الإطار العام لمنظومة اللغة: - مكوناته:** مجموعة العلاقات الخارجية التي تربط منظومة اللغة بالمنظومات الاجتماعية، وهما منظومتا السياسة والاقتصاد، وعلاقة اللغة بالمجتمع، وعلاقة اللغة بمنظومات اللغة الأخرى، والفئات الاجتماعية المختلفة، والتي تتعامل مع منظومة اللغة.

- **مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة اللغة** - عناصر البنى التحتية لمنظومة اللغة وتضم التالي: السياسة اللغوية. الموارد البشرية (منظرون موثقون محققون). موارد معلومات لغوية. ذخائر نصوص تراثنا اللغوية.

- **تعريف اللغة:** لقد اختلف العلماء في تعريف اللغة، فهي في معظمها تبحث عن الأسس والأركان التي تؤدي إلى ضبط مفهوم اللغة في عمقه واتساعه، وقد عرف (لالاند) الفرنسي اللغة، بأنها، (بمعناها الواسع هي كل نظام من الرموز والإشارات يصلح أن يكون وسيلة للتواصل) ويعرفها سابير (أنها وسيلة للتواصل الإنساني تحديداً، يهدف إلى توصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز) وقد ذكر (فنجن شتين) أنّ مهمة الفلسفة عبارة عن معركة ضد البلبلة التي تحدث في عقولنا نتيجة استخدام اللغة) هذه التعاريف تسعى لإيجاد تعريف يقف على اللغة بشكل سليم يعكس كُنْهَ عناصرها وحقيقة مكوناتها، (فابن جني) يعرف اللغة (بوصفها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) ويعرفها آدم شاف (أنها تعني كل إنتاج متسق لأنواع الرموز والدلالات المؤدية لوظيفة حقيقية في كل خطاب إنساني) ونحن ندرك أهمية اللغة من خلال قول سقراط لجليسه (تكلم حتى أراك) والإنسان لا يستطيع أن يفكر دون لغة. وكان سقراط مدفوعاً بهاجس فكر السفسطائيين القائم على ازدواجية المعنى والتحايل على اللغة، وهدفهم تحويل الحجة القوية إلى حجة تافهة، والتافهة إلى حجة قوية، كما يفعل تجار السياسة ورجال الميديا اليوم، بدلا من الدقة والوضوح (وهذا نعجز عن فهمه إلا من خلال الإلمام بالظروف الدينية والاجتماعية والسياسية التي نعيشها (ستيس ولتر١٩٨٤) فالمضللون يعتمدون على اللغة المراوغة التي تتأسس على البلاغة الساحرة والفصاحة التي تتوس بين الاستدلال والإفحام السريع المعتمد على الإبهار، وهؤلاء ليس هدفهم البحث عن الحقيقة وإنما هدفهم البرهنة على أية قضية بغض النظر عن اقتناع الفرد بها.

- **مجموعة العلاقات الخارجية لمنظومة اللغة الأجنبية:**

أ - اللغة هي التي تشبك المجتمع في شبكة من علاقات الوفاق تقيمها بين أفراد المجتمع ومؤسساته، فلا وفاق ولا مجتمع بدون لغة، وطرفا العلاقة يصوغان بعضهما، وتؤكد لنا الفلسفة اللغوية أنه لا يمكن التصدي للإشكالية

اللغوية ومعضلة المعنى، دون رصد اللغة أثناء عملها في السياق الاجتماعي، فنحن الذين نعطي الألفاظ معانيها من خلال قيامها بنشاطاتها، وكل نشاط اجتماعي يقابله (لعبة لغة) كما يذكر (فيتجنشتاين) والبيع (لعبته الإعلان) وممارسات السياسة لعبتها الإعلام. والنشاط الاقتصادي لعبته دراسة الجدوى الاقتصادية ولغة الأرقام والإحصائيات. والنشاط العلمي لغته اللغة المتمثلة في الفرضيات وصياغة النظريات وحيثيات البراهين باستخدام المنطق والرياضيات، وتأثر الفكر اللغوي بفكر (داروين) وراح يقسم اللغات ككيانات حيةٍ بدائيةٍ وراقيةٍ ويخضعها لقانون البقاء للأصلح، يعني اللغة الأرقى، وظهر خطأ هذا المفهوم عندما اكتشف الأوربيون أن معظم لغاتهم انحدرت من اللغة السنسكريتية، وهي لغة أهل الهند القديمة، فقد أثبت التنظير اللغوي الحديث أن مستوى التعقيد واحد في جميع اللغات، إنَّ رقيَّ المجتمعات وتخلفها لا يتوقف على بنية اللغة بل يتوقف على استخدامها من قبل الجماعة الناطقة بها . ومستوى تقدم مجتمع ما تحدده أنواع خطاباته وشفافيتها .

ب - **علاقة اللغة الأجنبية بالمنظومة السياسية:** اللغة مصدر للقوة وهذه حقيقة أدركها رجال الحكم والسياسة من عصر الفراعنة في مصر وحتى ساسة الرومان، وقد برع رجال السياسة باستخدام أسلحة اللغة: فهي تبطن أكثر ما تظهر - تستخدم المقولات المُقَوْلَبة - تلهب مشاعر الجماهير - تخمد نار سخطهم - تسلبهم إرادة التغيير - تفرض التبعية على الشعوب المستعمرة من خلال فرض فرنسا اللغة الفرنسية على مستعمراتها، بينما تفتخر بلغتها الفرنسية، واعتبر المحتل أن اللغة العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر، واليابان التي استسلمت ولن تستسلم لغتها، وهي نفسها حاولت فرض لغتها اليابانية على كوريا، والمخابرات الأمريكية تبدي اهتماماً بالغاً في ترجمة لغات العالم آلياً، بما فيها لغتنا العربية إلى اللغة الإنكليزية، هدفهم من ذلك كشف أسرار الشعوب وما يشغل أذهانها، ومن جانب آخر صار تأمين تدفق البيانات عبر شبكة الإنترنيت والمحافظة على خصوصية البيانات الشخصية أحد

المشاكل السياسية التي تتطلب إجراءات عاجلة ورئيسية على المستوى التشريعي، ويعتمد تأمين المعلومات على فهم محتواها، وستساهم اللغة بفهم كل هذا، كما هناك جهد آخر لفرض تعمية المعلومات للمحافظة على سريتها ولها شقها اللغوي هي الأخرى.

ج - **علاقة اللغة الأجنبية بالمنظومة الاقتصادية:** اليوم تمثل التكنولوجيا صلة الوصل بين اللغة والاقتصاد، ومع نشأة الصناعة وما صاحبها من حركة نزوح إلى المدينة، برزت أهمية اللغة كمورد اقتصادي، وظهرت الحاجة إلى وضع الضوابط ومواصفات التوحيد القياسي لتقنين عمليات التواصل اللغوي داخل المجتمع هذا شأنها فيما مضى، أما اليوم فتحتل اللغة موقعاً ممتازاً في المنظومة الاقتصادية كنتيجة منطقية باعتبار صناعة الثقافة وصناعة النشر تأتيان في رأس قائمة صناعة عصر المعلومات وكل هذا له علاقة وثيقة باللغة

د - **علاقة اللغة الأجنبية باللغات الأخرى:** نتيجة العولمة وسيطرة ثقافة المعلومات تزايدت أهمية العلاقة بين لغات العالم جميعا، واللغة بحكم طبيعتها تنزع إلى الشيوع والى العموم، فانشغل علم اللغة بالبحث، عن نحو عام تتدرج في إطاره جميع لغات العالم. ونظام المعاجم ينحو بدوره نحو توءمة اللغوي (نظام النحو)، يريد نقل المعجم من مستوى الحرفة إلى مستوى علم المعاجم الدقيق، الذي يتناول إشكالية المعجم عبر جميع اللغات. وسيبقى يراود البشرية حلمها القديم بعالم يتكلم لغةً واحدةً، حتى أثبت الواقع مدى صعوبة تحقيق هذا الحلم، وهناك صورة حديثة لهذا الحلم البعيد المنال يؤكده عصر المعلومات وأدبيات اللغة والكمبيوتر، وهذا ما تردد في التوراة عن لغة أهل بابل، التي نطق بها أهل الأرض جميعاً، والبشرية يحدوها عشق وحنان قديم إلى وحدة اللغة، ما يدل على شوق وتوق إلى شفافية التواصل، وإسقاط الحواجز اللغوية، وفتح الطريق أمام حوار الثقافات وامتزاجها لا صدامها، وبناء عليه فإن العولمة الحقة عبر اللغة تعني: التواصل وهذا ما تسعى إليه

تكنولوجيا المعلومات من خلال الترجمة الآلية. وتشمل علاقات اللغة بمنظومة اللغات الأخرى ما يلي: - الدراسات المقارنة والتقابلية بين اللغات في إطار النظرية العامة للغة - مظاهر الاحتكاك اللغوي من افتراض الألفاظ والأساليب وما شابه. - الترجمة بين اللغات - تعليم اللغات الأجنبية.

هـ - **علاقة اللغة الأجنبية بالفئات الأخرى:** إلى جانب الأغلبية العامة الناطقة باللغة، توجد فئات من مستخدمي اللغة وتشمل: باحثين. معجميين إعلاميين. كتابا. تربويين. معلوماتيين. طلبة. وكل منهم له مطالبه الخاصة من منظومة اللغة، وكذلك طبيعة مساهمته في صيانتها أو تقويضها، وأساس العلاقة بين اللغة وجماعتها في كون اللغة مسؤولية أهلها، ولا تجدي مراسيم الحكومات ولا قرارات المجامع ولا إبداع الكتاب في إحداث نهضة لغوية حقيقية ما بقيت الجماعة الناطقة بها عاجزة عن الوفاء بدينها الاجتماعي تجاه لغتها الأم.

- **مجموعة العلاقات الخارجية:** التي تربط منظومة اللغة العربية بخارجها:

إنَّ علاقة اللغة العربية بمجتمعاتها، تنبع من علاقة العربية بالنص القرآني ويتوقف مصير العلاقة اللغوية الاجتماعية، على تجديد النظرة لعلاقة اللغة بالنص الشريف.

أ - **اللهجات العربية وثنائية الفصحى والعامية:** من أعقد القضايا في الوقت الراهن علاقة اللغة العربية بمجتمعها، ويقول بعضهم أن هذا التنوع يهدد تماسك الوطن العربي، وعقبةً صعبةً أمام توحده ووحدته، كما يمكن أن يكون هذا التنوع مصدراً للثراء الثقافي، بشرط أن نستأنس مظاهره والوصول إلى قواسم مشتركة تربط بين هذه اللهجات، ونحن نقف بشدة وشجاعة ضد إحلال اللهجات المحلية محل اللغة العربية الفصحى، وذلك لتفرع اللغة العربية إلى فروع، كما اللغة اللاتينية التي تفرعت عنها اللغات الأوروبية. وقد ذكرت (نيللي حنا) في دفاعها عن استخدام اللغة العامية، حيث تقول: (إن

استخدام العامية في التعليم الأساسي نوع من التحديث الاجتماعي وأعطت دوراً مهماً لفئات اجتماعية بعيدة عن السلطة الحاكمة، ومنحتها فرصة المشاركة في الحياة الثقافية والإنتاج الفني والأدبي) (نيللي حنا ١٩٩٩).

ب - **علاقة اللغة العربية بمنظومتها السياسية**: ونوضح كيف يمكن للغة أن تصبح من أشد أسلحة الفعل السياسي في الخارج والداخل فهل ننسى (آل) التعريف في قرار مجلس الأمن الرقم (٢٤٢) (من أراض لا من الأراضي العربية) وكيف ذاع إعلامنا مصطلح دول الطوق قبل انعقاد مؤتمر مدريد، لقد قامت الدول العربية بترجمته وإشاعته دون وعي منها، فاستغله الإعلام الإسرائيلي والأمريكي، ونشره وقصد به تصوير إسرائيل المعتدية صاحبة الترسانة النووية والتي تفوق دول الطوق العربية مجتمعة في دخلها القومي (حمامة وديعة) مسالمة تلك التي تحيط بها الصقور العربية من كل صوب، وهي دولةٌ صغيرةٌ بأمس الحاجة إلى سماحة جيرانها وتوزيع موارد المياه وإعادة رسم الحدود، وإعادة تخطيط القدس الشريف. أما بالنسبة لسياستنا الداخلية فهم يستخدمون (توسيع نطاق الملكية) بدلاً (من خصخصة القطاع العام) وأمراض الصيف بدلاً من (وباء الكوليرا) ووصف التنمية الاجتماعية بالتأنّي بدلاً من الكساد والانكماش، وما أخطر ما فعلته في النفوس والعقول هذه العبارات، وهذه الجزائر: تمثل النموذج السياسي الأول باللغة العربية، تبنت حركة تعريب نشطة، واعتبرت اللغة العربية أحد الحصون القوية لصد المحتل الفرنسي، وكادت الجزائر حديثاً أن تحلَّ بها ردةٌ لغويةٌ خطرةٌ في إطار ما يسمى اليوم حزب الجزائر وحزب فرنسا، (فهمي هويدي ١٩٩٣) وسوف يتصاعد ويتنامى صراعنا اللغوي مع إسرائيل، في حال حلَّ نوع من السلام في المنطقة لتوظف المرحلة لمصلحتها، وهي تمارس حرباً عسكريةً كاسحةً وقد تلجأ إسرائيل إلى حربٍ ثقافيةٍ لغويةٍ (سياسياً واقتصادياً وأمنياً) وتتمتع إسرائيل ببعض المزايا التنافسية علينا الإقرار بها، ليتسنى لنا المواجهة لها، منها: - محورية اللغة في الثقافة اليهودية، وقد أثبتوا قدرتهم في إحياء اللغة

العبرية بعد اندثارها، ونجحوا في إشاعتها داخل كيانهم المغتصب، رغم تعدد العرقيات والثقافات والمستويات الاجتماعية - التنوع اللغوي داخل كيان العدو الصهيوني، وما يحمله من حوار الثقافات والترجمة بين اللغات. - العرب الناطقون بالعربية داخل الكيان الإسرائيلي.

ج - **علاقة اللغة العربية بمنظومة اللغات الأخرى:** تفرض علينا ثقافة المعلومات تأكيد العلاقة بين لغتنا العربية واللغات العالمية الأخرى، من خلال: - الاهتمام الكبير بالترجمة تبين لنا قلة المترجمين ما دفعنا للترجمة الآلية من اللغات الأجنبية (الإنكليزية والفرنسية) إلى العربية نتيجة التضخم الكبير في الإنتاج العلمي والفكري وسواه، وكذلك ترجمة العربية إلى الأجنبية. - توسيع الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية خاصة، لأن العربية تتسم بالتوسط والتوازن بين اللغات العالمية ويمكننا الاستفادة من ظاهرة العولمة بخصوص المشهد اللغوي العالمي، وهناك من يرفض إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة، التي تندرج تحتها جميع اللغات الإنسانية حديثها وقديمها، وهذا ما استقر عليه التوجه العلمي منذ نصف قرن، وحجتهم أن العربية هي لغة القرآن، ولا بدً من نظرية خاصة بها. وقد نسي هؤلاء ما نعتز به، وهي عالمية القرآن وعالمية لغته بالتالي. وهو ما يفرض أن تكون هذه اللغة من أوليات اللغات التي تنضم إلى النظرية الكونية.

د - **علاقة اللغة العربية بالمنظومة الاقتصادية:** أكدنا سابقا على أهمية اللغة كمورد اقتصادي تتعذر من دونه إقامة صناعة ثقافية ناجحة في مجال التعليم أو الترفيه أو التثقيف، وهناك جهات تتبنى استيراد المناهج والبرامج التعليمية في حالة عجزنا عن توفير حد مقبول من الاكتفاء الذاتي، وبات مفروضاً علينا إعادة النظر من منظور اقتصادي إلى قضايا تعريب التعليم وما يتعلق به من أمور، والتوسع في المدارس والكليات التي تُدَرِّسُ باللغات الأجنبية، وما يترتب على ذلك من نزيف للعقول وزيادة ميزانيات التعليم، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الكلفة المتوقعة من هذا الاستيراد؟.

هـ - **علاقة اللغة العربية بمستخدميها:** إن ثنائية الفصحى والعامية هي أبرز مشاكل العلاقة بين اللغة العربية وفئات مستخدميها، وتفاوتت الآراء في علاج هذا الداء اللغوي، بين التشبث بالفصحى رغم التعلق بالعامية، والإقرار بسيادتها كونها اللغة الحية الشائعة والمستخدمة. وتوزعت بين عربية السلف مروراً بالفصحى ثم الفصيحة بعدها الوسيطة ثم العامية، وهناك من يتخذ موقفاً توفيقياً، مقترحاً أن يؤخذ من العامية ما يكتب، ومن الفصحى ما ينطق، ولازال هذا خارج نطاق البحث المنهجي المتعمق؟ والسؤال اليوم هو: أين تلك الدراسات التي تناولت بجدية علاقة منظومة اللغة بالمعجمي والإعلامي والكاتب والناقد والتربوي؟

العناصر الداخلية لمنظومة اللغة الأجنبية:

إن البنية الداخلية لمنظومة اللغة تقوم على أساس محوري، مكون: - من نظام قواعد يشتمل على قواعد الفروع اللغوية المختلفة. الصوتيات. الصرف. التركيب (النحو). الدلالة ويضاف إليها قواعد نظام الكتابة - نظام المعجم الذي يشمل مفردات اللغة ومعانيها. - المعالجة الآلية للغة. ومجموع هذه العناصر الثلاثة تصب جميعها في عنصر الاستخدام اللغوي والذي أصبح المحور الذي تدور حوله منظومة اللغة خلافاً للماضي.

أ - **علاقة النحو بالمعجم:** إن العلاقة بين نظام القواعد والمعجم، إحدى الخصائص الأساسية التي تميز لغة عن أخرى، كانت النظرة إلى المعجم بالماضي تابعاً لغوياً لنظام القواعد. إلا أن أهميته ظلت تزداد باطراد حتى كاد الوضع ينقلب لتصبح اللغة بصرفها ونحوها ودلالتها، كامنةً في جوف المعجم، حيث يمكن استخلاص قواعد الصرف والنحو والدلالة من شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط بين مفردات المعجم ومعانيه، وتصاغ قواعد النحو وفقاً للنموذج أو المنهج اللغوي المتبع، وتتفاوت النماذج اللغوية في درجة اعتمادها على المعجم: عن طريقة تنظيم مداخلاته ومحتواه، وفي جميع الحالات لابد أن يوفي المعجم بمطالب الفروع اللغوية المختلفة: مطالب الصوتيات، فيما يخص

كيفية نطق الكلمات، ومطالب الصرف، فيما يخص الاشتقاق والتصريف، ومطالب النحو التركيبي، فيما يخص أنماط السياق الذي ترد فيه المفردات، التي تحدد معاني الكلمات، فمعاني الفعل (أصاب) تختلف نسبة للسياق الذي ترد به، كما في (أصاب السهم الهدف) بمعنى اخترقه، أصاب فلانٌ فلاناً في مقتل بمعنى قتله، (أصاب فلان بقوله) بمعنى صدق فيه.

ب - **المعالجة الآلية للغة**: وتتضمن شقين أساسيين، هما: الشق الأول: ويشمل نظام البرمجة المستخدمة في المعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر للفروع اللغوية المختلفة، مثل: نظام الصرف الآلي: الذي يقوم على تحليل الكلمات إلى عناصرها الاشتقاقية، والتصريفية، أو يعيد تركيبها من هذه العناصر، مثال، تحليل كلمة (بإيجادها) حرف الجر: (الباء) والضمير المتصل (ها) وساق الكلمة (إيجاد)، والذي يحلل إلى الجذر (وجد)، على صيغة (إفعال) - نظام الإعراب الآلي: الذي يقوم بإعراب الجمل آلياً. نظام التحليل الدلالي الآلي: الذي يستخلص معاني الكلمات استناداً إلى سياقها. ويحدد معاني الجمل استنادا إلى ما يسبقها وما يلحقها من جمل. إضافة على قواعد البيانات المعجمية والقواميس الإلكترونية ومنهجيات هندسة اللغة. الشق الثاني: ويشمل التطبيقات التي تقوم على النظم اللغوية الآلية التي ذكرناها، وتشمل بدورها - الترجمة الآلية - التدقيق الهجائي والنحوي - الفهرسة والاستخلاص الآلي - البحث العميق داخل مضمون النصوص - فهم الكلام ونطقه آلياً.

العناصر الداخلية لمنظومة اللغة العربية:

أ - **نظام وقواعد اللغة العربية**: لازالت اللغة العربية كما هي عليه منذ قرون عديدة، فهي أسيرة الجمود وحالات الاطراد والشذوذ وشروط النحوي والوجوب والجواز والتفصيل. وغاب عن العرب الثورة العلمية في مجال علم اللسانيات والمنهج التوليدي لا التحليلي، وهناك قلة من الباحثين العرب في الولايات المتحدة يقومون بمساهمات ممتازة في تحديث التنظير للغة العربية،

تعلن عن نفسها في أدبيات جمعياتهم العلمية التي أقاموها بصورةٍ سنويةٍ مستفيدةٍ من الثورة المعلوماتية والعلمية.

ب - **نظام المعجم:** وقد شمل الجمود والتكلس حتى نظام المعجم منذ قرون، وقد يُدْخِلُونَ إلى المعجم كلمات ومفردات جديدة، دون المس بنظامه العام ومحتوى بياناته، التي توصف من خلالها مداخلاته. وقد اهتم معجمنا العربي بالخاصية الاشتقاقية التي يتميز بها صرفنا العربي ما تستحقه من عناية، إلا أنه أغفل مطالب الفروع اللغوية الأخرى، وبخاصة في مجال النحو التركيبي، بسبب اعتماده على الجذور، والمعجم العربي يمثل بنية معقدة، ولكن هذه البنية التقليدية اليدوية عاجزةٌ عن تناول مثل هذه البنية متعددة المستويات. فهو يمثل شبكةً كثيفةً من علاقات الاشتقاق والمترابطات والترادفات. والأضداد. فلا بد من اعتماد الأساليب الحديثة في بناء قواعد البيانات.

ج - **معالجة اللغة العربية آليا:** هناك مبادرات عدة لتطوير معالجات آلية لفروع اللغة العربية المختلفة صوتاً وحرفاً ونحواً ومعجماً. تمثل تلك المعالجات اللغوية الأساسية البنية التحتية التي يمكن أن تقام عليها نظم أعمق لمعالجة اللغة العربية مثل: نظم الفهم الآلي العميق لمحتوى النصوص ونظم التلخيص الآلي التي تعتمد على فهم المحتوى وليس الاعتماد على الإحصائيات وتواتر الألفاظ والجمل.

الفصل الخامس

لا يصير الحق حقاً بكثرة معتنقيه ولا بقلة مريديه

/ أبو حيان التوحيدي /

ثقافة الإعلام وخطورته

أهمية الإعلام والاتصال وخطورته:

أ- **التواصل الإنساني شرط من شروط البقاء** (المنظمة العربية للثقافة والعلوم. الإعلام العربي حاضراً ومستقبلاً، تونس ١٩٨٧) وقد بدأ من النقوش على الصخور وحتى الأقمار الاصطناعية اليوم، فهو وراء كلٌ وفاقٍ أو صراعٍ، وتبرز أهمية الإعلام من الرسالة التي يحملها إلكترونياً وسرعة تدفقه وطرق توزيعه واستقباله، وكسب الإعلام من خلال ذلك أهمية قصوى لدى منظومة المجتمع، فهو شرطٌ أساسيٌ لنمو الصغار ورأس مال الكبار، والدليل على ذلك اهتمام الفلسفة والثقافة بقضاياه، كان محافظاً أو ثورياً، حداثيا كان أو ما بعد الحداثة، وبكلمة واحدة: ساد الإعلام وانتشر بوسائله الإلكترونية وسيطر على الساحة الثقافية، وأطلق عليه بعضهم: ثقافة الميديا، وثقافة التكنولوجيا، وثقافة الوسائط المتعددة، وأصبح الإعلام صناعة ترفيهية.

ب: **ماذا وراء ثورة الإعلام؟** هناك عوامل تقنية واقتصادية وسياسية، تقف وراء ثورة الإعلام نلخصها بالتالي:

- **العامل التقني التكنولوجي**: هو المتمثل في التقدم الهائل في التقنيات مثل: الكمبيوتر. عتاد. وبرمجيات. تقنيات واتصالات وأقمار اصطناعية، وشبكات الألياف الضوئية، وهذه اندمجت مع بعضها مشكلة الإنترنيت، وهي بدورها تنطوي على جميع وسائط الاتصال: المسموعة والمقروءة والمرئية والجماهيرية وشبه الجماهيري والشخصية، وقد تأثرت جميع وسائل الإعلام:

إذاعـةً. تلفزيـونٌ. صـحافةً. وتـأثرت العلاقـات: بـين المنـتج والمـوزع والمتلقـي. فصغر العـالم وكسرت الحـواجز الجغرافيـة والبـشرية، وأسـقطت تكنولوجيـا الواقـع الخـائلي الجـدار بـين الواقـع والـوهمي، وبـين الماضـي والحاضـر، وبـين الاتصال مع كائنات الواقع الفعلي والكائنات الرمزية.

- **العامل الاقتصادي**: بما فيه من سرعة في نقل رأس المال وحركة السلع بصحبة المعلومـات، وهـي بـدورها سـلعةٌ اقتصاديةٌ، وعولمـة وسـائل الاتصال ونظـم الإعـلام هـذه وسـيلة لعولمـة الأسـواق مـن جانـب، وتنميـة النزعـة الاسـتهلاكية مـن جانـب آخـر، وتوزيـع صـناعة الثقافـة مـن موسـيقى وألعـاب وأفلام. وهذا يتطلب تدفق المعلومات لتزداد أهميتها.

- **العامل السياسي**: ويتمثل هذا في الاستخدام المتزايد لوسائل الإعلام، من السياسيين لإحكام سيطرتها على الأمور واستقرار موازين القوى في عالم يمر بالاضطراب والصراعات، وهذا جعل من الإعلام قضيةً صعبةً وشائكةً ومواقع ساخنة.

ج - **الإعلام الغربي وتناقضاته**: يقف الإعلام الغربي كغيره على مفترق طرق رغم الإنسانيات ونظرية الاتصالات، وبذلك حملت معظم فروع الثقافة: لغة وتربيـة وإعلامـاً وإبـداعاً تناقضاً كبيراً، فكان تناقض اللغـة في عتمتها وشفافيتها، وتناقض التربية بين الوفاء لاستقرار مجتمعها ومطالب تغييره، أما الإعلام فيقف حائراً بين رسالة الإعلام وحب الإعلان، وبين الحرص على مصالح الحكام والحرص على مصلحة المحكومين، وبين غاية التنمية الاجتماعية ومطامع القوى الاقتصادية، التي تعطي الأولوية للإعلام الترفيهي لا التنموي. وهل هناك تناقض أكثرُ حدةً وسخريةً بين ما يدعيه الإعلام من كونه أداة للترفيه والترويح عن النفس وما يثيره من عنف ترفيهي وفزع معنوي؟ وبين ما ينتظر منه أن يكون وسيلة للترابط الاجتماعي والعالمي، نجده يستعمل لإثارة التعصب والتفرقة العنصرية والطبقية، وتنمية نزعات الكره تجاه الآخرين أجانب كانوا أم أصحاب فكر متاهضون، ولم تكن مظاهر هذا الحقد معروفةً قبل اليوم، حيث تشغل كل وسائل الإعلام في ضوء عصر المعلومات،

وأصبح الإعلام بأمس الحاجة إلى رؤية جديدة مغايرة تماما كاللغة والتربية، والمنظومة الإعلامية الغربية تعدُ مثالاً فاضحاً لإساءة استخدام التكنولوجيا، ويكفيه دليلا على زيفه حقده الأعمى، واحتقاره للآخر، وتحريضه للفتنة والقتل وكذبه، والفجوة الفاصلة بين غايات الإعلام وواقعه وزيف أقنعته: الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحقيقة دوافعه.

- ممَّ يشكو إعلامنا؟:

أ - **الصدمة الإعلامية العربية:** صدمنا الإعلام الغربي على مختلف المستويات السياسية والتنظيمية والاقتصادية والفنية، ليس بالأقمار الاصطناعية والقنوات الفضائية وحدها نعيش عصر الاتصال. وأن نستجيب لثورة الإعلام، وعلينا أن نقر بأننا لم نرصد مسارات الخريطة الجيو إعلامية الحديثة وهو ما عبر عنه التقرير الاستراتيجي العربي (لعام ١٩٩٩) بضعف الاستجابة إلى عولمة الإعلام (مركز الدراسات الإستراتيجية ٢٠٠٠) فَقَدَ إعلامنا العربي محوريته وأصبح مكبلاً بقيود السلطة، فتاه إعلامنا بين التبعية الفنية والتنافس السلبي على سوق إعلامية إعلانية محدودة، فأصبح رهين الإعلان وخاضع ذليل للدعم الحكومي، بينما يواجه هذا الكم الهائل من الضخ الإعلامي مشتتاً، يعاني من ضعف الإنتاج وشح الإبداع وضمور الفاعلية، عازفاً عن المشاركة في الموارد ووكالات الأنباء لدينا كادت أن تصبح وكالاتٍ لوكالات أخرى، حتى فيما يخص أخبارنا المحلية، وأصبح وهو المرسل أن يكون مستقبلاً للإعلام الخارجي، وكيف ارتضينا أن يبث الآخر الأخبار من حولنا، وسمحنا له أن ينقل صورتنا، وحتى الإنترنيت لم ندرك الفائدة منها بعد، ولا شك أننا تقدمنا بخطوات لا بأس بها في هذا المجال، لكننا لم نصل إلى الحد الأدنى المطلوب. وفي النهاية وقعنا في فخ الإعلام والاتصال: شبكة الإنترنيت، شبكة الأقمار الاصطناعية، شبكة التكتلات الإعلامية. وقد نجحنا في بعض المجالات وطورنا بعض المجالات الصحفية والإذاعية والتلفزيون لكنها تبقى دون الحد الأدنى.

ب - **عن فقدان النظرية الإعلامية؟:** كلنا يدرك أهمية الإعلام ودوره التنموي، ويبدو جليا لنا الغياب التنظيري للقضايا التي يطرحها إعلام عصر المعلومات، ولكن هناك قضايا يطرحها إعلام مجتمع المعرفة، فينعكس على تضاريس الواقع العربي، وخطابنا الإعلامي يخلط مابين السياسات والإجراءات والغايات، ولو تابعنا الدراسات الخاصة بالسياسة الإعلامية والثقافية لاكتشفنا بأنفسنا مدى التناقض بين المقترحات الطموحة والتوصيات الجسورة التي انتهت إليها الدراسة، وبين نغمة التشاؤم التي تتضح بها المقدمات من قيود سياسية واقتصادية وتقنية تكبل وتقيد إعلامنا، (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم١٩٩٩) وعلى المستوى الأكاديمي تعوزنا العدة النظرية والخلفية الفنية المعلوماتية في تناول قضايا الإعلام الحديث وخاصة فيما يتعلق بالإنترنيت، والمربون وأهل الفلسفة وعلم الاجتماع لا ينظرون إلى الإعلام باعتباره هَمّاً تنظيرياً من هموم التنظير.

ج - **تناقضات إعلامنا الأساسية:** يسود إعلامنا طابع الترفيه بعد أن فشل في إنجاز المشروع التنموي ليسوده طابع الترفيه والإعلام على حساب المهام المطلوبة الأخرى، ويقصد مهام التعليم كالتوعية الثقافية وإحياء العمل الجماعي التعاوني، ويعمل تحت ضغوط سياسية واقتصادية تبعده عن غاياته الأساسية، وللإنصاف يعمل إعلامنا في ظل ظروف شأنه شأن معظم نظم دول العالم الثالث، ويعمل في ظلّ ضغوطٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ راهنةٍ تبعده عن غاياته التنموية البعيدة المدى ويكون التحدي اليوم في التوجهات الإعلامية الراهنة تعمل على زيادة هذه الضغوط مما يتطلب سياسةً إعلاميةً مرنةً ومبدعةً.

- **الإعلام الغربي ولعبة القوى الاجتماعية:** يعتبر الإعلام أكثر حضوراً وتأثيراً في المجتمع، وتقف إلى جانبه القوى الرمزية من: الجامعة. التربية. تصنيع المعلومات. ومؤسسات الفن. مراكز البحوث والدراسات والإيديولوجيات، ويمقدورنا أن نتعرف على القوى المشاركة في الإعلام من خلال طبيعة العلاقة التي تربط القوى الرمزية مع القوى السياسية والاقتصادية والأمنية. في الماضي.

– تغيير وتبديل محور التحالفات بين القوى الاجتماعية – بين القوى اللينة وطبيعتها.

أ – **كيف تتغير محاور التحالفات بين القوى الاجتماعية:** تغير محور التحالفات بين رباعية القوى الاجتماعية: الرمزية. والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية (الجيش والشرطة) وكي نبرز طبيعة التغيير في لعبة القوى الاجتماعية بالمتغير المعلوماتي. فقد كان محور التحالف في المجتمع الزراعي الإقطاعي: بين القوة السياسية الحاكمة والقوة العسكرية التي تسانده، من أجل إخضاع الفلاحين كسخرةٍ في الزراعة، بما يتفق ومصالح القوى الاجتماعية المسيطرة. وفي المجتمع الصناعي الرأسمالي، تحالفت القوى السياسية مع القوة الاقتصادية، وأصبح دور القوة العسكرية حسم الصراع خارجياً بعد أن كان مهمته فرض النظام داخلياً، فانزوت القوى الرمزية المتمثلة في سلطة الكنيسة، لتوسيع الطريق أمام الرأسمالية الصناعية ومطالب تمويلها وإنتاجها، وكل الدلائل تشير إلى أن محور التحالف في مجتمع المعلومات سيكون بين القوى الاقتصادية والقوى الرمزية على حساب السلطة السياسية، التي ستعمل على خدمة الاقتصاد وكما انزوت سلطة الكنيسة بفعل المتغير الصناعي ستتوارى القوة العسكرية وتبقى مجرد أداة للردع الصامت بلا ممارسة. وكما قال (ميشال فوكو): كان يكمن فرض السيطرة في استعراض قوة القلة الحاكمة أمام الكثرة المحكومة، أما قوة الحكم في أيامنا هذه قائمة على إبقاء الكثرة على مرأى من القلة الحاكمة، بواسطة نظم الإعلام الموجه (للوقاية) وإما (تشخيصيا) عن طريق استطلاعات الرأي، أو (معالجة) –إن اقتضى الأمر ذلك– عن طريق أجهزة المخابرات والرقابة الإلكترونية، وقد ثبت أن بقاء أيٍّ قوةٍ سياسيةٍ رَهْنٌ بوجودها الإعلامي، وهلاكها قادمٌ إن هي أغفلت هذا الوجود أو أسرفت فيه. وفي ظل هذا التحالف الجديد بين القوى الاقتصادية والقوى الرمزية تاهت الحدود الفاصلة بين عولمة الاقتصاد وعولمة الإعلام، وصارتا تتبادلان موقعي التأثير والتأثر مباشرةً أو غير ذلك، سافرةً مرةً وغير سافرةٍ أخرى، وفي حين ترى

عولمة الاقتصاد في عولمة الإعلام أمضى أسلحتها، كما تسعى عولمة الثقافة إلى أن تتخذ من عولمة الإعلام ساحة لحوار الثقافات وتعددها وتنوعها، وإنَّ مصير المجتمع الإنساني كله سيتوقف على من ستكون له الغلبة في جبهة العولمة: الاقتصاد أم الثقافة؟

ب – **القوى اللينة وطبيعتها**: تُعْتَبر القوى الرمزية أنها قوى لينةٌ، وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن القوى الصلبة تعمل بالجذب لا بالضغط، بالترغيب لا بالتهديد، وتستخدم لغة العقل والقلب من أجل اكتساب الآراء، لا كسب الأرض، ومن أجل انتزاع الإرادة الجماعية، لا نزع السلاح والملكية ومن أجل فرض المواقف وزرع الآراء بدلاً من فرض الحصار وزراعة الألغام، وتوسيع الإعلام أصبح في مقام نشر القوات، والأجندة مقام التكتيك، والهوائيات والفضائيات مقام ترسانات الأسلحة ومنصات الصواريخ. ومن حيث أسلوب الممارسة تختلف القوى اللينة عن القوى الصلبة في أمور عدة منها: القدرة الهائلة على المناورة بالقوى اللينة في الزمان والمكان، بينما القوى الصلدة لا تُسْتَخْدَمُ إلا في الضرورة القصوى، ودون ذلك تبقى نائمة للردع لا للفعل، بينما تمارس القوى اللينة بصورةٍ مستمرةٍ عكس القوى التقليدية الصلبة وكلما رهفت ورقت وخَفَتَ صوتها وضعفت فيها نبرة القوة والفجاجة كلما ازدادت قدرتها، وتغلغل مفعولها لينفذ إلى طبقات الوعي الفردي والجمعي فيفعل فعلته بصورة لا إرادية، وتصبح هنا وسائل الإعلام آلةَ حربٍ مدمرةٍ تتصدى لها بالدروع والمتاريس، وبقي المجاز اللغوي سباقاً وكاسحاً في الحروب، فهو يقابل آلة الحرب التقليدية بين القوى الرمزية والقوى الصلبة، وقاموس الإعلام شبيه بقاموس الحرب بما يتضمنه من مصطلحات: – الهجوم – والتجسس – والعنف – والدفاع – وابل الرسائل – الحملات الإعلامية – المعارك الكلامية – الإذاعات الموجهة – العدوان الإذاعي – الغزو الثقافي – استطلاع الرأي – الغزو الثقافي – الغزو الإلكتروني – الاكتساح الإعلامي – العنف الترفيهي – العنف الرمزي. توضع القوى الرمزية في خدمة القوى الأخرى أثناء الحروب، ويشهد التاريخ من الحروب الصليبية إلى

الحروب الأهلية بين قبائل وشعوب آسيا وإفريقيا، حيث تقف القوى الرمزية إلى جانب القوى العسكرية والسياسية، ويكفي دليلاً على ذلك ما قامت به الإذاعة النازية في الحرب العالمية الثانية، والدور الذي تلعبه المخابرات المركزية الأمريكية من وراء الكواليس، وما مارسته إذاعة أوروبا الحرة في سقوط المعسكر الشيوعي، وأكثر الأمثلة مرارةً وبشاعة ما قامت به إذاعة (ميل كولينز) في روا ندا حيث أشعلت نيران الفتنة القبلية وهذا العمل اللا أخلاقي فاق بحصاده من قبائل التوتسي ما فعلته القنبلة الذرية بهيروشيما وناجازاكي. هذا عن ماضي القوة الإعلامية في مساندة القوى الاجتماعية، أما اليوم فقد تجاوزت دور المساندة بعد أن أصبحت قوةً مستقلةً، ومن الطبيعي بالنسبة لقوة اجتماعية بمثل خطورة الإعلام، ألا تُتْرَكَ للتكنوقراط ولا للمنظرين ولا للفنانين، فكان لابد من تنميطها سياسياً واقتصادياً الذي يضمن استقرار المجتمع، وإعادة إنتاج أنماطه وأطواره ولكن السيطرة على القوى اللينة ليس بسهولة السيطرة على القوى التقليدية الصلبة، ويبدو أن الشعوب تتقبل دمار العمران وتصفية الأجساد، ولا تتقبل العبث بالعقول والوجدان والشرف، استسلمت اليابان ولم تستسلم اللغة اليابانية، وهل نال الاستعمار من اللغة العربية والإسلام الذي توالت هجماته على أمتنا العربية. (ولا يفل اللين إلا اللين) (والطير بالطير يصاد) (والحديد بالحديد يفلح) يمكن أن تنحاز القوى الرمزية اللينة إلى جانب القوى السائدة، ولكنها باستطاعتها أن تنحاز إلى جانب المظلومين والمستضعفين) وتشيع السلام وتسرع التنمية وتزيل الفوارق الطبقية بكل تصنيفاتها.

- لعبة القوى الاجتماعية العربية:

أ - **تحالف السياسي مع الرمزي:** يمكن القول أن القوى الاقتصادية في مجتمعاتنا العربية ما زالت قوى غير مؤهلة لتأخذ دورها الفاعل، لأنها تحت سيطرة الحكومات العربية، ولن تكون طرفاً فاعلاً في تحالف القوى الاجتماعية، وعليه فإنّ محور التحالف في منظومة القوى الاجتماعية هو بين القوى السياسية الحاكمة والقوى الرمزية، وهذا ما أكدته المنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم تحت عنوان الإعلام العربي: (في الحاضر والمستقبل) وقد أوصت بضرورة الحد من سيطرة الحكومات على وسائل الاتصال وصياغة الرسائل (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الإعلام العربي حاضراً ومستقبلاً تونس ١٩٨٧) وأكدته دراسة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. بعنوان وسائل الاتصال الحديثة وأثرها في المجتمعات الإسلامية، وقد أكدت بأنَّ وسائل أعلامنا لا تمارس عملها إلا بضوءٍ أخضرَ من السلطات (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وسائل الاتصال الحديثة ١٩٩٦) وتناولت دراسات أخرى، علاقة السلطات الحاكمة في بلدان العالم الثالث بقواها الرمزية: التربوية والعقائدية والإعلامية، يمكننا القول في ضوء ما انتهت إليه هذه الدراسات أنه يسود طابع التوجيه علاقة السلطة الحاكمة بالمؤسسة التربوية، وطابع المهادنة ورسم الحدود في علاقتها بنظام القيم والمعتقدات، ويسود طابع الدعائي المباشر في علاقتها مع الإعلام، وكي تضطلع طليعتنا الثقافية بمهمتها الراهنة والعاجلة لانتشال أمتنا العربية من كبوتها وتأهيلها لدخول مجتمع المعرفة وعصر المعلومات، على نخبتنا الثقافية أن تهتك أسرار هذا التحالف بين السلطة السياسية وما هو رمزي، وأن تغوص حتى أعماقه وتنظيماته لتتصاعد ثانية إلى السطح، وتصل الجذور للكشف عن بنيته ودوافعه وآلياته، فإعلامنا الموجه يأخذنا بأقصى درجات الجدية، وعلينا في المقابل أن نأخذه بالدرجة نفسها من الجدية

ب - **المشهد الإعلامي: هيكليته طبيعته ليونته:** يعمل المنظرون الغربيون إلى اتخاذ الإعلام محوراً لمنظومة المجتمع الحديث، ويرفض بعض آخر هذه المحورية مفضلاً أن يُنْظَرَ إلى الإعلام كشيءٍ مستقلٍ عن المجتمع، وذلك لتجنب طرح بعض القضايا الحساسة التي يطرحها الإعلام، أو ربما كان ذلك للمحافظة على استقلالية الإعلام خدمةً للعولمة، لأن محورية الإعلام تدل على علاقة الإعلام بمجتمعه، أما بالنسبة لنا لا نرى استقلالية الإعلام أو محوريته يتناسب مع واقعنا أو يلبي أهدافنا، وهذا ما حدا بمنظري الإعلام الإسلامي إلى اقتراح محورية نظام القيم والمعتقدات داخل منظومة المجتمع،

وفي ضوء محورية الثقافة نفضل نموذجاً تنموياً ثلاثياً: القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، يدور حول محورٍ ثقافيّ قلبه محور التربية، والتي تدور حول محور اللغة والتمركز حول التربية بالحقيقة يتسق مع عصر المعلومات ومجتمع التعلم الذي نهدف إليه، والذي يتطلب تداخل الإعلام والتعليم، ومساهمة المؤسسات الاقتصادية في تكملة مهمة مؤسسات التعليم الرسمي.

د - **صراعنا مع القوى اللينة:** يعاني الوطن العربي من تفكك واسع يرافقه سباتٌ جماعيٌ وتشتت وضياع، يتبعه استرخاءٌ وفتورٌ في العزيمة، وغياب الثقة في مؤسسات الدولة، وهذا ما يجعلنا لقمةً سائغةً في فم الأعداء وما أكثرهم في الداخل والخارج، والطريق مفتوح أمامها لتجري الفتنة كالنار في الهشيم، تخترق الكيان العربي في تفككه وطبقيته وفجوات تناقضاته، ويكفينا ما فعلته بعض البلدان العربية عندما انزاحت، تاركةً الإعلام السخيف والرخيص يملأ الفراغ بكل ما هو تافه وهزيل: من حديث الفضائح والخرافة والنفاق، وتلك الشكوى التي تقدمت بها امرأة خليجية إلى القضاء ضد امرأة أخرى بحجة أنها حرضت الجن على زوجها لتفتك به، وما كان من القضاء في تلك الإمارة إلا قبول الدعوى ويمثل هذا اتفاق عدم اعتداء غير معلن مع السلطة الحاكمة وتلك الصحافة المريضة، وقد أدركنا أهمية القوى اللينة كما ذكرنا سابقاً في الداخل، أما من الخارج يكفينا ما فعلته اتفاقيات كامب ديفيد وما استحضرته من أجندةٌ فرضها العدو الصهيوني مستغلاً ضعفنا وتفككنا، ونحن نزعم أننا سنحقق إنجازات هامة على المدى الطويل، تفوق ما حققته القوة العسكرية، وليت العدو الصهيوني وقف عند هذا الحد، بل تدخل في المطبخ التربوي العربي ليحدد لنا ما يجوز وما لا يجوز، وسعيه الدائم لإنهاء اللغة العربية في المحافل الدولية وإسكات الإعلام العربي بحجة معاداة السامية وإعاقة جهود السلام، ولا شك أنَّ إسرائيل قد برعت في استخدام القوى اللينة: ثقافية وتربوية وإعلامية.

- الغرب ولعبة الإعلام والمأزق العربي:

أ - الإعلام وقابليته للاحتكار والداروينية: أظهر الاتصال على مدى العصور قابليته للاحتكار، بدءاً من احتكار كهنة الفراعنة في مصر لنقوشهم المقدسة حتى احتكار أيامنا هذه، حيث تفشى في جميع منظومة الإعلام الرسمي وغير الرسمي مرئياً كان أو مطبوعاً أو مسموعاً، والدليل على ذلك ما يلي: - هناك أربع وكالات أنباء عالمية تحتكر ٨٠/بالمائة من فائض المعلومات - وأربع مجموعات إعلام رئيسية تحتكر ٩٠/بالمائة من الصحافة البريطانية - وهناك احتكار عددٍ قليلٍ من شركات الإعلام المتعدية الجنسية للإرسال المرئي والمسموع الجماهيري، والإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وتبعه في نفس النهج تلفزيون الكابل - وهناك عَشْرُ شركاتٍ للإعلان الأمريكية تسيطر على ٨٠/بالمائة إجمالي الإنفاق الإعلاني في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي يصل إلى ٢٥٠ مليار دولار سنويا . وهذه هي الإنترنيت التي تفاخرت بحرية تبادل المعلومات، ومجانية الوصول إليها قد طاولتها يد الاحتكار، وتشير الإحصائيات أن مائة موقع تحتكر ٨٠/بالمائة من إجمالي زوار المواقع، تاركةً جزءاً بسيطاً لتتنافس عليه ملايين المواقع، كما تشير الدراسات إلى بوادر صراعٍ عالميٍّ لاحتكار الإلكترونيات الاستهلاكية من شاشات الجيب الصغيرة، من الهاتف المحمول إلى كمبيوتر بحجم راحة اليد والكتب الالكترونية، وما من دولة كبرى إلا ولها أباطرةُ إعلامها، مثل: روبرت موردوخ في بريطانيا وبيرلسكوني في ايطاليا، وتيدتيرنر في الولايات المتحدة أو العالم كله إذا أردت الحقيقة، والإعلام الروسي قد بدأ في صنع ملوكه، من تلك القلة اليهودية التي تربعت على عرشه، وأخطر أنواع الاحتكار هو احتكار المحتوى (مضمون الرسالة الإعلامية) موسيقى. أغاني. أخبار أفلام، والمحتوى هو أهم مقومات صناعة الثقافة، ومن يملكه يصبح مسيطراً على اللعبة الإعلامية بلا منازع. وتشير الدراسات إلى أن تطورات تكنولوجيا المعلومات ساهمت في النزعة الاحتكارية لأسباب عدة منها : - ضعف الارتباط العضوي بين محتوى المعلومات والوسيط الذي يتم تبادلها من

خلاله، وخير دليل على ذلك سهولة نقل المواد الإعلانية من التلفزيون إلى الصحافة والإذاعة إلى شبكة الإنترنيت، فالمحتوى الحر ذو السيولة العالية إنه الويسكي بلا قوارير - سهولة السيطرة على الكم الهائل من الرسائل الإعلامية، بفضل وسائل التحكم والرقابة المتوافرة لشبكات الاتصال. - اقتصاد الحجم الذي يعمل لمصلحة الكيانات الإعلامية الضخمة لأنّ وكالات الأنباء الكبرى وحدها القادرة على إنتاج شبكةٍ كبيرةٍ من المكاتب الخارجية، ولا تستطيع إلا الشركات العملاقة للتلفزيون من شراء حقوق نقل الأحداث المهمة، كحفلات الأوسكار وافتتاح دورات الألعاب الأولمبية.

ب - جنون الاندماج: إن الاحتكار يجر وراءه الاقتصاد؛ أي الاندماج الرأسمالي، وبظهور الإنترنيت أدركت القوى الرأسمالية المغزى الاقتصادي للمعلومات، فاقتحمت بصورةٍ غير مسبوقةٍ لم تعرفها البشرية من قبل في الاندماج الكبير وتركيز رأسمالها، هدفها من ثنائية: (الاحتكار والاندماج) إحكام السيطرة العالمية الكاملة على صناعة المعلومات، بمكوناتها الثلاثة: محتوى المعلومات - معالجة المعلومات - توزيع المعلومات، واليوم نسمع عن اندماج كبرى شركات إنتاج الأفلام والتسجيل الموسيقي، ودور النشر والطباعة وألعاب الفيديو، تندمج مع شركات الاتصال وشبكات الإرسال التلفيزيوني وشركات برمجة الكمبيوتر. إنّ القوى الاقتصادية التقليدية تستغل قدراتها التمويلية والتنظيمية لاحتواء كل إبداع، وهي الصفة المميزة لصناعة المعلومات، واليوم صار الإبداع: محتوى وأداء وبرمجة سلعة تباع وتشرى وتحتكر، ويشارك في تسويقه مروجو الإعلانات وسماسرة صناع الثقافة، وكأن التكامل الاحتكاري من القمة لايشبع تجار الاحتكار والاندماج، فقاموا بتكامل أفقي، ومثالنا على ذلك: ما قامت به وكالة رويترز للأنباء بتوسيع نشاطها ليشمل الخدمات الفندقية والنقل السياحي والنشر التعليمي (هربرت شيللر ١٩٩٩). وبهذا يقطع الطريقَ الكبار أمام الصغار لدخول نادي الإعلام والاتصال العالمي. إن الاحتكار والاندماج ينذران بنهاية حرية المعلومات، إنها داروينية إعلامية بكل معنى الكلمة البقاء فيها للأقوى، مالياً

وتنظيمياً، لا للإبداع ولا للأخلاق (وإذا المعلومات سئلت بأي ذنب قتلت) إن أسس الداروينية الإعلامية الجديدة هو احتكار ودمج المعلومات، وهذا ما يجعلها سلاحاً في يد القلة ضد مصلحة الكثرة، إنَّ مصير الإعلام ومشاهديه ومنتجيه ومبدعيه في أيدي قلة قليلة، تفعل المستحيل من أجل السيطرة الإعلامية، فهل لنا أن نشعر بطمأنينة مزيفة؟ إنه الاحتكار الاندماجي الغادر، بالتأكيد لن يتهيأ للأنظمة الشمولية ونظم الطغيان أن تعود ثانية بعد الإنترنيت، نعم من حقنا أن نقلق ونحن نرى إعلام عصر المعلومات وقد أصبح قوة لا تقهر بحد ذاتها، لا يحكمها سوى معيار الربح والخسارة، وفي النهاية تزداد الفجوة اتساعاً بين من يملك المعلومة وبين من يفتقدها، بعد اكتساحها الشاشة الكونية، واستخدامها ضد الصغار سينعكس بؤساً مجتمعياً مأساوياً، يضاف إلى سكان هذا الكون، إنها امبرياليةٌ ثقافيةٌ إعلاميةٌ نازيةٌ معلوماتيةٌ، هذا ما يفرضه المركز الإعلامي على أطرافه ليسلب الصغير حق إنتاج رسالته الإعلامية، فلن يجد أمامه بسبب ارتفاع كلفتها إلا استيرادها، ولا حل أمامه لتمويل نظم اتصاله إلا أن يسود الإعلان على الإعلام، ويتبع أساليب العمل وتنظيماته المفروضة عليه من قبل الشركات المتعدية الجنسية، وهذه الشركات ليس همها أن تصدر برامجها، بل فلسفتها في التوجيه الإعلامي وأساليب أدائه. (محمود حماد ١٩٩٦)

أ - **المأزق العربي والاستخفاف بالصغار:** عندما تظهر تكنولوجيا جديدة تنطلق الوعود الكثيرة لتغازل الفقراء والضعفاء، وفي مجال الإعلام والاتصال ابتدع (مارشال ما كلوهن) القرية الكونية وبدت للعالم كالمدينة الفاضلة الالكترونية، بل كأنها أمرٌ واقعٌ حلَّ بالبشرية، وهل أجمل من العالم وهو أسرةٌ واحدةٌ تسوده المحبة والألفة، إنه الوهم صنعته اللغة بهدف خدمة الإعلام والاقتصاد، وبعدها استطرد ليقول: إنها لن تكون مثالاً للوفاق والمساواة، بل على العكس سيسقط حاجزي المكان والزمان وهذا يزيد من مظاهر التنوع والانقسام، فاجتماع المليارات من المشاهدين أمام الشاشة الكونية ليشاهدوا افتتاح دورة أولمبية عبر الأقمار الصناعية يحلو للبعض أن يرددوه لكنه لا

يشكل مجالاً للرأي العام لتتحاور به الثقافات أو تحسم النزاعات، وتزول الفوارق بين البشر ولا يحقق العدالة في توزيع موارد المعلومات (هانس بيتر مارتين. هارلد شومان ١٩٩٨) وقد أفشلت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية مشروع منظمة اليونسكو القاضي بقيام نظام معلوماتي جديد يضمن الحد الأدنى من توزيع موارد المعلومات والاتصالات، وما دام الصغار غير قادرين على مواجهة هذا الخلل في تدفق المعلومات وتوزيع الموارد، وافقت منظمة اليونسكو لبقاء الأمور كما هي شريطة أن تساعد الدول الغنية الدول الفقيرة في إقامة البنى التحتية لنظم الاتصالات والإعلام، ولكن بريطانيا وأختها أمريكا لم تلقَ صيغة الحد الأدنى هذه آذاناً صاغيةً، ففشلت مشاريع التنمية لليونسكو ففقدت معظم الدول النامية استقلالها الإعلامي، والعولمة تقضم تراثها الشعبي، وتحيله إلى حدائق الملاهي، ووثائق في الأرشيفات الوطنية. وتهدد تراث الشعوب بالانقراض، وهذا بدوره سيؤدي إلى خلل في الميزان المعلوماتي، وتدفيق المعلومات بين الدول النامية والدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا تحولت صناعة الإعلام من صناعة إبداعية إلى صناعة تقليدية كثيفة رأس المال لتغطي مدينة هوليود.

ب - هل يختلف إعلامنا عن ماهية واقعنا؟: (صور ومشاهد مؤلمة)

إعلامنا لا يختلف عن حقائق واقعنا، حيث يسوده طابع التعتيم، وهذه بعض ملامحه: - إعلامنا يشكو من انفصام بين الغايات والقدرات وبين الشعارات والممارسات، وعَجَزَ عن تحقيق أيٍّ تكتلٍ إعلاميٍّ عربيٍّ لأن الإعلام يتبع السياسي. - البحوث النظرية في الإعلام مفقودة، فضلا عن تبعية الأكاديميات للمدارس الغربية وغياب البحوث الإعلامية الجماعية (عواطف عبد الرحمن ١٩٩٩

- نصوص دستورية تنص على: حرية التعبير والنشر، تنتهي (بعبارات بما لا يتعارض مع المصلحة العامة،) (وما نص عليه القانون) فهل أصبح القانون فوق الدستور؟ (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية في الوطن العربي. تونس ١٩٩٩)

- تسرب مشاهدينا إلى بوابات الإعلام الأجنبي لفقدانهم الثقة بالإعلام العربي. ويكفي مثالاً عليه الإذاعة البريطانية ومساحات البث الإعلامي الواسعة.

- صحافتنا نموذجٌ لصحافة الولاء (نفس المصدر السابق) إذاعات تُذيعُ ولا تُسْمَعُ، وكالات أنباء ترسل ولا من مستقبل، ولا زالت وكالات الأنباء الغربية تسيطر على الساحة العربية (عواطف عبد الرحمن: الإعلام العربي وقضايا العولمة. العربي للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٩)

- التدفق الإعلامي غائبٌ بين الدول العربية، ولا وجود لمشاريع إنتاج مشتركة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم١٩٩٩) وفشل العرب في إصدار ميثاق موحد للإعلام العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية تونس ١٩٩٩) ولا تدفق إعلامي بين الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا تونس ١٩٨٧) ومنذ أن أنشئت الجامعة العربية تلاشت الآليات التي يسعى بها العرب لبلوغ أهدافهم القومية وكانت البوصلة العربية تُوَجَّهُ بالمصالح القطرية (عواطف عبد الرحمن. الإعلام العربي وقضايا العولمة. العربي للنشر والتوزيع ١٩٩٩)

- لا اهتمام بقضايا الإعلام من القائمين بالتنمية، وغاب عن بصرهم أهمية الإعلام في التنمية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية. ١٩٩٩)

- لا صناعة إعلامية: وهو مهدد بالانقراض (جابر عصفور ١٩٩٧) وهناك بعض الصناعات التجميعية لأجهزة الراديو والتلفزيون في بعض الدول العربية كالعراق والجزائر ومصر. - معظم إعلامنا مهاجر يعتمد على الإعلان وعلى قطاع محدود من الجمهور (مركز الدراسات السياسية التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٠) - تحتل الدول العربية بجدارة نهاية القائمة لدى منظمة اليونسكو في معدلات القراءة والاستماع واستهلاك الورق (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية

١٩٩٩). هذه صورةٌ قاتمةٌ لإعلامنا ولكن مع بعض النقاط المضيئة حيث تقوم بعض القنوات العربية بمحاولاتٍ جادةٍ لتقديم خدمات إعلامية في ظلِّ فئاتٍ تمارس هيمنتها على الإعلام

وعلينا أن نسعى للتوحد والتكتل العربي، ونُؤَمِّنَ موقعاً حصيناً للخروج من مآزقنا - مأزقنا السياسي: كيف نوفق بين عولمة الإعلام وسيطرة الدولة وتوقعات الناس - مأزقنا الاقتصادي: كيف يتنافس في عصر الإنتاج الإعلامي الضخم مع ارتفاع كلفة البناء للبنى التحتية.

إذا إعلامنا سئل بأي ذنبٍ اغتصبَ؟:

- **مأزقنا الثقافي**: كيف يحمي هويتنا وقيمنا وتراثنا.

المأزق التنظيمي: كيف تكتسب مؤسساتنا الإعلامية المرونة التنظيمية مع الكفاءة الإدارية والفنية تلبية للمطالب في عصر المعلومات. ولم يرتفع إعلامنا إلى مستوى الرسالة المنوطة به في تعميق وعي المواطن ومشاركته في التفاعل الاجتماعي، ونجعل من الأمة العربية أمة تحمي ولا تهدد، تشد أزر الصديق، ترد كيد المعتدي، توحد ولا تفرق، تصون ولا تبدد. (مبادئ الجمهورية العربية المتحدة).

ج - **هل تلعب مع الكبار**: إن احتكار السلعة الثقافية يواجه بمقاومةٍ شديدةٍ، والدليل على ذلك أن كثير من سلع الإعلام جاءت دون المستوى المطلوبِ للجماهير المحلية ولا تمت بصلة لها (جابر عصفور ١٩٩٧) وأدى هذا بدوره إلى أن تمزج الشركات العالمية بين (المحلي والعالمي)، مثالنا على ذلك المحطة الأمريكية التلفزيونية في الهند وأمريكا اللاتينية التي تبث الأغاني والموسيقى، ومما يبعث على الأمل ما حققته مصر والبرازيل والهند من نجاح في مجال السينما والتلفزيون، وهذا يؤكد أن الصغار يمكنهم أن يلعبوا مع الكبار، وهذا يبقى رهين محتوى الرسالة الإعلامية وثيقة الصلة باللغة وبالواقع المحلي وبذوق الناس. هل يقوى العربي على تحدي طغاة الإعلام؟ إن المبدع الإعلامي العربي قادر أن يتحدى القيود المفروضة عليه متجاوزا عمليات الإبهار والتكنولوجيا المتقدمة، ويعتمد على اللقاءات والصور الثابتة.

ومحاورة الناس، ومعظم شعوب العالم تعاني من احتكار وسائل الإعلام، وتشكو منه بلدانٌ أوروبيةٌ متطورةٌ مثل بلجيكا والنرويج، ولن يزيدنا هذا إلا إبداعاً (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الثورة التكنولوجية، ١٩٩١).

- **التواصل الإنساني بين الماضي والحاضر والمستقبل:** كسر التواصل الإنساني حاجز المكان والزمان، كان يتم شفاهةً عن طريق التخاطب في المكان والزمن نفسه، بعدها بدأ التواصل مشواره الطويل، فكسر حاجز المكان من خلال البريد والبرق ثم من خلال الهاتف، وبعدها من خلال التفاعل السلبي (الإذاعة والتلفزيون)، والتفاعل الايجابي مثل الكمبيوتر والإنترنيت، وعقد المؤتمرات والجماعات الخائلية والحوار عن بعد، فيشترك مع الناس في الجدل والسمر، وربما يكون بديله الخائلي أو الدوبلير الرقمي، الذي يمثله برأسه المتحرك الناطق في عملية التخاطب، وهناك أطوارٌ مثيرةٌ من التواصل عن بعد كأن يلتقي الإنسان وهو في مكانه رفيقه في إحدى المدن الخائلية، يتسامران يتسكعان في طرقاتها، يزوران معالمها، وبهذا تضع التكنولوجيا كلمة النهاية في ملحمة التواصل عبر المكان، لتستعد للتواصل عبر الزمن مع الذين رحلوا عن هذه الدنيا، وكلُ إنسانٍ منا يترك (أثاره) الرمزية من صور وتسجيلاتٍ صوتيةٍ ونتاجٍ فكريٍ وإبداعيٍ، وهذا يُمَكِّنُ صاحبَها أن يبعث (رقميا) من جديد، وهنا نستطيع أن نحاوره ونسأله فيما مضى وفيما يستجد من قضايا من خبراته المخزنة، وبرأسه المجسم الناطق المستخلص من صوره المسجلة على شريط الفيديو، وبصوته المولد صناعيا من مقاطع صوته المسجل، إنه الخلط الزمني والتواصل في أقصى صوره الحاضر والغائب مع الخلف والسلف.

- **التواصل الإنساني العربي بين الماضي والحاضر والمستقبل:** وكان للشفاهة دورٌ هامٌ في نقل التراث وتاريخ الفكر العربي والإسلامي والسُنَّة النبويَّة، وقد أبدع السلف من علماء الحديث والفقه في ابتكار الأدوات اليدوية، للتحقق من صحة ما نسب إلى الرسول الكريم من أحاديث. ولا بد هنا من استخدام تكنولوجيا المعلومات من أجل المزيد من الحكمة من نبع

هديه الذي لا ينضب، وعلينا أن نبدأ على الفور في الأرشفة السمعية والمرئية لكبار مفكرينا لتطول إقامتهم بيننا (رقميا) بعد رحيلهم عن هذه الدنيا.

- **ما التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات كرؤية غربية؟:** لابد لنا من استعراض التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال من منظور ثقافي، وهي التالي: - من الإعلام إلى الاتصال - من العزلة إلى الاندماج - من الترابط إلى التفكك التنظيمي - من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي - مزيد من البرامج إلى مزيد من التخصص - الاندفاع صوب المنزل - مزيد من أجهزة المعلومات النقالة - استخدام الإنترنيت كوسيط إعلامي.

- **التوجهات العربية الأساسية لتكنولوجيا الاتصال:** من الخطير أن يمشي إعلامنا على غير هدي من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي تسير بسرعة هائلة، مما يتوجب توفير كوادر إعلامية متخصصة ومدربة على أساليب الرصد المعلوماتي بل التجسس العلمي التكنولوجي، وهذا التجسس مشروع وضروري لتجميع المعلومات من مصادر عدة متنوعة ويمكن أن نعتمد في ذلك على الإنترنيت ونظم المعلومات وتجميع البيانات المطلوبة وتصفيتها للخروج بالمؤشرات والتوجهات، وهذا من ضروريات التخطيط الاستراتيجي هذا، وأنّ الشركات باتت تفرض رقابة شديدة على أسرارها الفنية.

- **بين الإعلام الغربي والاتصال:** ويقصد بالإعلام توجيه الرسائل من المرسل إلى المستقبل، ونرغب أن يصبح تواصلاً بمعنى: أن يكون حواراً باتجاهين لا إعلاماً باتجاه واحد (علي محمد شمو. ١٩٩٨) ليتجاوز ذلك إلى مهام التعليم والتعلم والترفيه وعقد المؤتمرات عن بعد واسترجاع المعلومات، ويشمل التراسل عبر الإنترنيت والبريد الإلكتروني. والتحاور والتسامر عبر حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد.

- **بين الإعلام العربي والاتصال:** إنّ مؤسساتنا الإعلامية أقامت مجدها الاجتماعي على مهمة الإبلاغ والتوجيه، فرسخت لدى المواطن العربي عادة التلقي السلبي. والسؤال الآن: هل يمكن إحداث النقلة النوعية للارتقاء بإعلامنا إلى مستوى التواصل؟ وهل يمكن لأجهزة التشريع أن تضع القوانين

الناظمـة لـذلك والـتي تكفـل للمـواطن حقـه بالاتـصال وتـضمن حمايتـه وخـصوصية بياناتـه، وتـضمن لـه حقـه في النفـاذ إلى مـصادر المعلومـات وشبكاتها؟ وإن لم نفعل سيصبح المواطن عندنا مواطناً من الدرجة الثانية في عصر الاتصال التفاعلي الثنائي الاتجاه.

- **بين العزلة الغربية والاندماج**: إن تقسيم الإعلام إلى إعلام مسموع ومطبوع ومرئي في طريقه إلى الزوال، وعلى صعيد آخر فان الفوارق تتلاشى بين الإعلام والتعليم والترفيه والبحث عن المعلومات.

- **من العزلة العربية إلى الاندماج**: لقد عجزنا حتى اليوم من تشكيل تكتلٍ ثقافيٍّ من أي نوع كان، والتكتل الإعلامي أكثر صعوبةً لاعتباراتٍ سياسية واقتصادية، ومن جهة ثانية فإن الاندماج والتوسع في الإعلام يتطلبان درجةً عاليةً من التنسيق بين: التربية والإعلام والثقافة بكل أجهزتها، ومن الواضح أن هذا التنسيق محكوم بموازين القوى ما بين هذه المؤسسات الاجتماعية، وغالبا ما تكون الغلبة للإعلام في هذه المسألة، وهو ما يتعارض مع النموذج التنموي للقوى الرمزية، لكونه الولد المدلل للسلطة، علما أن من الواجب أن نعطي الأولوية للتربية كمحور لتنميةٍ قائمة على محورية الثقافة.

- **بين الترابط الغربي والتفكك المنظومي**: كما هو معروف هناك ثلاثُ مهامٍ رئيسيةٍ لمنظومة الإعلام، بغض النظر عن مهمة الوسيط الذي تتعامل معه، وهي - إنتاج الرسالة الإعلامية - توزيع الرسالة الإعلامية - تلقي الرسالة الإعلامية. وكانت هذه المهام مرتبطة فيما بينها ارتباطا عضويا وتنظيميا ونحن اليوم نشاهد تفكك هذه المنظومة: فكثير من الصحف تُطْبَعُ خارج دور إعدادها - والنتاج التلفزيوني قد أصبح مستقلاً عن مؤسسات البث الإعلامي - والمتلقي أصبح حراً طليقاً من يد الارتباط الثلاثي، وهناك علاقةٌ وثيقةٌ بين التفكك التنظيمي والإنتاج الرأسمالي، لأن تفكيك المؤسسات إلى وحدات متخصصة يزيد من قدرة مؤسسات الاندماج الرأسمالي الضخمة على التحكم في النطاق الواسع لأنشطتها المتباينة والموزعة جغرافيا، إنه مبدأ (فرق تسد)، مطبقاً على مستوى التنظيم العولمي.

- **بين الترابط العربي والتفكك المنظومي**: وتتألف الرسالة الإعلامية من ثلاثة عناصر: المرسل والمستقبل والمادة، وكانت فيما مضى مرتبطةً مع بعضها ارتباطاً عضوياً وتنظيمياً. فتفكك هذا الترابط اليوم وهناك محاولات لاستقلال الإنتاج الإعلامي خاصة في مجال برامج التلفزيون، فالصحف تطبع خارج دور إعدادها، والنتاج التلفزيوني أصبح مستقلاً عن مؤسسات البث الإعلامي، وهذا قد يؤدي إلى تضارب الأهداف بين عناصر النشاط الإعلامي بعد تفكيكها في ظل غياب التنسيق الذي تعاني منه معظم مؤسساتنا الاجتماعية وهذا ما يضر بالغايات المرغوبة من نموذج الإعلام التنموي المقترح، وهاهي العولمة تضغط بشدة على مؤسسات الإعلام العربي نحو التفكك التنظيمي، وشتان بين تفكك إعلامنا وتفكك إعلامهم، فلا اندماجٍ ولا تفككٍ يشد من أزره ويوازنه، وقد تفرعت هذه الحتمية التي تنطوي عليها هذه العولمة الإعلامية إلى نوع من الحتمية التنظيمية والأدائية

- بين المرسل والمستقبل الغربي: عانى المتلقي من الطاغية المرسل ويقي حبيس إرساله، وكلنا أمل أن تحررنا تكنولوجيا المعلومات من قبضة المُرّسل، كما حررت القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من مصممه، بينما تسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصي على عملية التلقي، ويكون للمتلقي الاختيارات جميعها: نوعها، محتواها، شكلها، توقيتها، وقت استقباله لها، ويكون لهذا القارئ جريدةٌ وله شكل إخراجها ومواعيد صدورها، ومشاهد التلفزيون سيكون له أن يحدد البرامج التي يفضلها، والأوقات التي تناسبه لمشاهدتها، باستخدام نظام (الفيديو تحت الطلب)، وسيكون لكل متلقي وكالة الأنباء الخاصة به من خلال الوكيل الإعلامي الذكي: يمسح الإنترنيت ويستعرض قنوات التلفزيون ومحطات الإذاعة، يطالع الصحف اليومية والمجلات الدورية، يتابع وكالات الأنباء بحثاً عما يلبي رغبات من ينوب عنه، وهذه التكنولوجيا الذكية هي الوسيلة الوحيدة لمواجهة إعصار المعلومات، فمن باستطاعته أن يقرأ الصحف اليومية كلها، أو أن يتابع الحركة الثائرة لتجدد المعلومات عبر الإنترنيت ووسائل الإعلام الجماهيري التقليدية، ومجتمع المعرفة وصناعة الإعلام

تتحول من نمط البث بالمعلومات التي يريد المرسل أن يبثها إلى مستقبله فارضا عليه توقيتات استقبالها، إلى نمط السحب الذي يعطي للمتلقي حريته في سحب المعلومات التي يريدها وفي الوقت الذي يريد. وفي ظل هذا التوجه، تتحول المؤسسات الإعلامية إلى مستودع للمعلومات (فرانك كويلش ٢٠٠٠) ويبقى المتلقي العربي تحت جبروت المرسل، يعيش على الوجبات الإعلامية الرخيصة (البوفيه المفتوح) ينتقي منه المتلقي ما يحتاج إليه ويفضله. وقد يفسر هذا التوجه لإعطاء الخيار لمستقبل الرسالة الإعلامية ما تجريه الدراسات الإعلامية حالياً من اهتمام بالمتلقي في منظومة الإعلام الحديث. ونتمنى ألا يكون ذلك مجرداً وهم بديمقراطية مزيفة، كفرعٍ متقدمٍ نحو الديمقراطية السياسية الزائفة، ونخشى أن يكون هذا التوجه إلى إعطاء الخيار للمتلقي ضمن الالتزام التسويقي على مبدأ (المستهلك أولاً).

- **بين سيطرة المرسل واختيار المتلقي العربي:** وكما هو متوقع لن تكون حقيقة الطابع الشخصي متاحةً في البداية، إلا لمن يملك ثمن الخدمة الاتصالية، لقد اعتاد المتلقي العربي في ظل سيطرة المرسل على الوجبات الإعلامية الرخيصة وهل يمكن لنا في ظل التوجه المحوري باتجاه المتلقي أن نعيد إليه حقوقه وهيبته، ولكن لابد أن اقتصاديات الحجم ستدفع شركات تقديم هذه الخدمات الإعلامية الخاصة والمتخصصة إلى تخفيض رسوم خدماتها، بما يضمن لها قاعدةً شعبيةً واسعةً من المتابعين، بغرض زيادة جاذبيتها وإن العمل من أجل المتلقي يتطلب تغييراتٍ أساسيةٍ في وسائل الإعلام العربي من حيث التنظيم أو من حيث الإدارة والتسجيل، والمطلوب قبل كل شيء: توافر الإمكانات لإنتاج سلع إعلامية قادرة على المنافسة، بعد أن أصبح سوق الإعلام الأجنبي سوقاً للمتلقي له الكلمة العليا، وعندما تعجز وسائل إعلامنا المحلية عن تلبية مطالبه، لا بديل أمام المتلقي إلا اقتناء السلعة الثقافية الأجنبية من الخارج، وكما نستورد البضائع الأجنبية ذات الجودة العالية، عندها سيزداد استيرادنا لمنتجات الإعلام ليعاد توزيعها، بعد دبلجتها وتعريبها.

- **مزيد من البرامج ومزيد من التخصص الغربي:** إن الإعلام ينحو صوب التوسع والتخصص لأن مؤسسات الإعلام تعمل جادة إلى زيادة برامجها وموارد معلوماتها وبوابات توزيعها وفي ذات الوقت يسعى الإعلام نحو التخصص وهي كالتالي: - المجلات المتخصصة - محطات التلفزيون المتخصصة في الأخبار والإعلام الثقافي والتعليمي والديني. - انتشار إذاعات الفئات الاجتماعية والجاليات الأجنبية والمطارات والجامعات الدينية. وقد تتحول صناعة الإعلام إلى بوتيكات) لبيع المنتجات الإعلامية المعلوماتية ذات الطابع الخاص، وهذه الازدواجية في التوسع والتعمق في التخصص لابد من أن يغير من نمط الاستهلاك. وإذا تضخمت هذه البرامج والمواد الصحفية والقنوات تحولت عملية القراءة والاستماع والمشاهدة إلى نوع من (التلقي الانتقائي المتقطع) فهو تشظي (إعلام ما بعد الإنترنيت)، ويمكن أن نعتبره صدى لتشظي الحادث على مستوى الإرسال وشظايا رسائله، وهذا سيؤدي بدوره إلى تغييرات جذرية في الرسالة الإعلامية من حيث المحتوى والشكل ومداها الزمني يميل نحو القصر. مزيد من البرامج والمزيد من التخصص العربي: سعى السوق الإعلامي العربي إلى توفير الكتل الحرجة ليحقق المطالب الاقتصادية لينتج المجلات المتخصصة والمجلات العربية المتخصصة كنسخ معربة للمجلات الأجنبية، وهذا ما يحدث بالنسبة لمجلات الكمبيوتر والديكور والأزياء وما شابه. علما أن القنوات التلفزيونية والتعليمية تشكو من نقص في البرامج، وما زال التلقين هو النمط السائد في بث رسائلها التعليمية.

- **اقتحام المنزل الأوروبي:** جميع وسائل الإعلام شدت رحالها إلى البيت الأوروبي مثل (الهاتف، تلفزيون الكابل الإنترنيت. الفضائيات. برامج الكمبيوتر. ألعاب الفيديو) وهذه نتيجة طبيعية للتوجه الشامل نحو الصناعة الثقافية، التي تستهدف المنازل لا مؤسسات العمل، في المنازل وجدت قاعدتها العريضة التي شكلت قاعدتها الاستهلاكية، وهم جاهزون لامتصاص كلّ شيء من مستهلكات الثقافة، وهنا سقطت الحلقات الوسيطة بين المستهلك ومصادر الإعلام، باستخدام الطرق التالية: - استخدام بث الأقمار

الاصطناعية المباشرة واستهداف المنزل دون الحاجة إلى استخدام محطات أرضية - انتشار الجامعات والمدارس المفتوحة للتعلم الذاتي عبر الإنترنيت ووسائل الإعلام الأخرى - التوسع في البث الانتقائي المسدد إلى فئات اجتماعية بعينها بل أفراد بعينهم. - التلفزيون التفاعلي الذي يربط بين المرسل والمستقبل. - وما زالت الأسئلة تطرح حول أنسب الطرق لاختراق المنزل معلوماتياً أو (الاكتساح العملي السريع) ترى: هل هو الفيديو تحت الطلب أم الهاتف المرئي أم ألعاب الفيديو الجماعية أم هناك تطبيق جديد لم يخطر على قلب بشر؟ هذا من حيث التطبيق الكاسح ويبقى السؤال الأخير هل يتقبل المنزل هذا الاختراق؟

- **اقتحام المنزل العربي:** واستهدفت تكنولوجيا المعلومات المنزل لا مؤسسات الأعمال، وساعد على ذلك التعليم المفتوح للتعلم الذاتي والأقمار الصناعية وانتشار التلفزيون التفاعلي، وأدى هذا إلى طبقية في المنزل العربي لأن الاتصال غير متاح للأغلبية، وأن مؤسسات الإعلام لن تفوت الفرصة لزيادة خدماتها الإعلامية مدفوعة الثمن، واليوم القسم الكبير من قنواتنا الإعلامية مفتوحة والقسم الآخر في طريقه للتشفير، ومن جهة ثانية ستؤدي الخدمات الإعلامية الأجنبية الوافدة إلى ضعف ولاء المتلقي العربي لمؤسساته الإعلامية، (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الثورة التكنولوجية١٩٩١)

- **أجهزة المعلومات النقالة الأوروبية:** واليوم يتسابق عمالقة صناعة الاتصال على دمج كل الخدمات المعلوماتية في جهاز صغير ليبقى على اتصال في أماكن عمله ومعيشته ومصادر معلوماته، وهي لم تعد مقصورة على الراديو بل تشمل الهاتف النقال وكمبيوتر راحة اليد وذاكرة الجيب الإلكترونية وما شابه، والصراع يدور اليوم من أجل الشاشة الصغيرة. ويتسابق عمالقة صناعة الاتصال في دمج كل هذه الخدمات المعلوماتية في جهاز صغير يجمع بين الهاتف والتلفزيون والتعامل مع الإنترنيت واستعماله بمنزلة كمبيوتر.

- أجهزة المعلومات النقالة العربية: من المتوقع أن تنتشر هذه الأجهزة في الوطن العربي كما انتشر الهاتف المحمول، ولكن ما الجدوى من استعمال هذه البدع من الأجهزة الإلكترونية ما دام استخدامها في مجال الأمور الثانوية دون الاستفادة الحقيقية من إمكاناتها المتعددة. وعلى المستوى الآخر فان شاشة العرض الصغيرة التي تستخدم في هذه الأجهزة - لابد من تطويعها لمطالب اللغة العربية من حيث إظهار أشكال الحروف - أو طرق البحث عن المعلومات أو تبادل الرسائل ذات الطبيعة المختصرة - واللغة العربية تواجه صعوبة في استخدام الكلمات المختصرة نتيجة غياب التشكيل من جانب، وخاصية تشبيك الحروف من جانب - الإنترنيت كوسيط إعلامي أوروبي: فرضت الإنترنيت نفسها إعلامياً فهي أهم شبكة على الإطلاق بلا منازع، وتبدو قدرتها في احتواء الوسائط الأخرى كمصدر للمحتوى، بينما كانت عظمة التلفزيون في احتوائه للراديو، وتقوم عظمة الإنترنيت على احتوائها: الإذاعة. التلفزيون. الصحافة والبحث عن المعلومات، ولا يستقيم الحديث عن وسائل الإعلام دون الحديث عن القضايا التي تطرحها الإنترنيت في الاندماج التكنولوجي حيث يتم التفاعل مابين مرحلة البداية كحد أدنى وخطوة تمهيدية للانصهار الكامل، وتشهد الساحة الإعلامية صراعاً بين التليفزيون والإنترنيت، لأن التلفيزيون يرى الإنترنيت مصدرا لمعلوماته وتراه هي بدورها وسيطاً معلوماتياً جديداً، يضاف إلى قائمة وسائلها المتعددة. ويقوم نظام (ويب. تي. في) على فكرة استخدام التلفزيون كنافذة للتعامل مع الإنترنيت، يتم الإبحار من خلالها باستخدام وسيلة التحكم عن بعد (الكنترول) ولا سبيل للمقارنة بين الكمبيوتر وقدراته الفائقة في التعامل مع الإنترنيت، وقدرات التلفزيون المحدودة. ويبقى للتلفزيون جاذبيته الخاصة، وجماهيره العريضة وسهولة استخدامه دون حاجة إلى معدات وبرامج. وفي المقابل يسعى أهل الكمبيوتر إلى تحويله إلى واسطة للاستقبال التلفزيوني، وبهذا يكون خلاص التلفزيون من مرضه المزمن: - آفة التلقي السلبي - وأحادية الاتجاه - بينما يمكن التفاعل من خلال الكمبيوتر مع مواد التلفزيون - توفير مرونة أكبر في

انتقاء القنوات ومواد البرامج وتخزينها. وإعادة استخدامها، ويبقى الجدل ممتدا حول (تلفيوتر) يستغنى به عن الكمبيوتر أو (كمبفزيون) يستغنى به عن التليفزيون، وكل ما يجري يدل على محاولات لانصهارهما الكامل في إطار الإنترنيت، وتشير كل الدلائل أنها ستصبح وسيطاً اتصالياً هاماً قائماً بذاته، له سماته التي تميزه جميعُ وسائلِ الاتصال، وهذا الانصهار المعلوماتي بدوره سيؤدي إلى تغييراتٍ جذريةٍ في مفهوم الاتصال، وتتغير العلاقات بين منتج الرسالة الإعلامية، وموزعها ومتلقيها، ونسمع اليوم عن إعلام ما قبل الإنترنيت وما بعد الإنترنيت ويتوقع البعض أن تفوق الإنترنيت التلفزيون كوسيلة إعلامية. ويبقى المجد للإنترنيت.

- **الإنترنيت كوسيط إعلامي عربي:** هناك طبقية اتصالية أدى إليها استخدام الإنترنيت، وكما هو معروف تسعى جميع الدول المتقدمة إلى إقامة شبكاتٍ من الطرق السريعة للمعلومات، ذات السعة الهائلة من المعلومات وهذا يسمح بالتفاعل الديناميكي ثنائي الاتجاه، (هات وخذ) من مواقع المعلومات المنتشرة على مواقع الإنترنيت، وهذا يقسم العالم اتصاليا إلى قسمين فئةً قادرةً تستطيع أن تتمتع ب (التفاعل الإيجابي) وما يحمله من تنمية قدراتهم الذهنية وزيادة فاعليتهم وإنتاجيتهم، وطبقة المتلقين السلبيين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا استقبال ما تلقيه عليهم شبكات البث عبر الأقمار الاصطناعية، لترسخ النزعة السلبية، فتضمر لديهم إرادة المشاركة في عملية التغيير الاجتماعي، إن طبقية الاتصال ستزداد مع ما نشاهده من انحسار مجانية الإعلام تماماً مثلما حصل إلى مجانية التعليم، وسينتهي بنا الأمر إلى من سيدفع قيمة الخدمة الإعلامية، ويبقى دور الإعلام المجاني على الإعلان التجاري أو التوجيه السياسي.

- علاقة الإعلام بمنظومة الثقافة:

أ - **لهيب العلاقة بين الإعلام والثقافة الأوروبية:** بين علاقة الإعلام والثقافة الغربية هي في جوهرها علاقة النوع بالكل، هل يمكن فصل سياسة

الإعلام عن سياسة الثقافة؟ كثيرا ما يتداخل الإعلام بالثقافة وقد يتطابقان (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية ١٩٩٩) وقد تترادف الكلمتان: الإمبريالية الثقافية والإمبريالية الإعلامية وجاءت الإنترنيت لتصب الزيت على النار بينهما، فهي وسيطٌ بين المنتج والمستهلك شبيهةٌ بأسلوب (توصيل الطلبات إلى المنازل) والإعلام هو الجانب التطبيقي للفكر الثقافي والسياسة الثقافية، وكما هو تجسيد للثقافة العامة فهو أيضاً نافذةٌ نطل منها إلى الثقافة الخاصة.

ب - الإعلام العربي والثقافة العربية: وتبقى علاقة السلطة بالثقافة واهية، لأنّ الإعلام هو الابن البار للسلطة، ولا مانع هنا من أن تلغى وزارة الثقافة وتحال مهامها إلى وزارة الإعلام كما حدث في بعض الدول العربية (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية التقرير الاستراتيجي ٢٠٠٠) ولهذا الاختلال بين الإعلام والثقافة آثاره السلبية ولا شك أن فصل سياسة الإعلام عن سياسة الثقافة جريمةٌ نكراء، خاصة في عصر باتت فيه الثقافة محوراً رئيسياً لعملية التنمية. في حين أصبح الإعلام من أهم وسائل تحقيق التنمية. ومن حسن حظنا فقد أدركت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أدركت ذلك، فقامت بإعداد وثيقة بالتنسيق بين السياسة الإعلامية والثقافية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩) ولنا أن نستعد لنقلة نوعية استراتيجية طويلة المدى لإعلام ما بعد الإنترنيت، تتطلب منا أن نطرح قضايانا الإعلامية في سياقها الاجتماعي، فلا يكفي أن يكون لكل صحيفة وإذاعة ومحطة تليفزيون عربية موقعها على الإنترنيت، فهذه أمور انتقالية، وبهذا نؤمن لإعلامنا موقعاً حصيناً على الساحة الإعلامية في إعلام ما بعد الإنترنيت.

- فكر الإعلام:

أ - كيف بدأ التنظير الإعلامي: لازال الفكر الإعلامي فكرا ناشئاً يفتقر إلى التنظير الإعلامي والدراسات الأكاديمية، وفي فترة الستينات من القرن الماضي كان مارشال ما كلو هان) أول من حاول التنظير له ولكن تنظيره انصب

على علاقة الوسائط الإعلامية بالحواس: علاقة الكتاب والتلفزيون بالبصر، والمذياع بالسمع، وأهمل السياق الاجتماعي للإعلام وصب جهده على الجانب النفسي، وحاول (ما كلوهان) أن يضع قوانين لتحديد مدى تأثير وسائل الإعلام بالمتلقي، وصنف وسائل الاتصال مابين (الباردة والساخنة) ليفرق بين الجانب السلبي كالمذياع، والجانب الإيجابي مثل الكتاب، وبين (عاكسة ونافذة) ليفرق بين تلك التي ينفذ من خلالها الضوء كالتلفيزيون والتي تعكس الضوء كالسينما، وهذه مجرد تصورات لا نظريات، تثير ولا تؤسس، وكان همه إثارة التفاعل الايجابي عند المتلقي ولهذا استحسن الصورة المهتزة لأنها تحث المشاهد للتفاعل معها وامتدح الإعلان لأنه يوحد الذوق العام، وأكثر ما تركه إثارة تلك القرية الكونية، و(الوسيط هو الرسالة)

ب - فكر الإعلام ومدرسة فرانكفوزت:

لقد كانت مدرسة فرانكفورت هي السباقة لإدراج الفكر الإعلامي وقضاياه ضمن التنظير الثقافي الحديث لتصل إلى نظرية اجتماعية تأخذ القضايا الاقتصادية والثقافية والسياسية في اعتبارها لنظم الإعلام الحديث، ويرى (تيودور أدور نو، وماكس هوركهيمر) مؤسسا مدرسة فرانكفورت، أن مؤسسة الإعلام الحديث هي أداةٌ للسيطرة الاجتماعية وإعادة إنتاج المجتمع بأنماطه وهذا هو المفكر (بودليار) يقول: (إن ثقافة الميديا هو الجريمة نفسها) لأنها تدفع إلى التجنيس والتهميش، وبدوره (هابرماس) يتهم التلفزيون بإفساد الرأي العام ويرد المجتمع إلى نظام الإقطاع، وهذا يتفق مع رأي كارل بوبر الذي قال: إن الإعلام يضر بالديمقراطية ولا يعمل على نشرها أو تعميقها. ويرى منظري مدرسة فرانكفورت إن الإعلام الحديث يعمل إلى إخماد نوازع التفرقة الطبقية، وعلى ضمور الوعي الثوري لدى الطبقات الضعيفة وعلى دمج العمال في نسيج المجتمع الرأسمالي، وهذا يستدعي إعادة النظر في المدخل الطبقي كوسيلة لإحداث التغيير الاجتماعي، ويرى (هابرماس) أن الوسيلة هي خلق مساحة جديدة أكثر شفافية وتواصلاً وذلك من خلال تكنولوجيا المعلومات.

ج - إعلام ما بعد الحداثة: وهربا من الخوض في السياسات الكبرى شغل الفكر الإعلامي نفسه بقضايا مثل: الاستهلاك. كيفية تلقي رسالة الإعلام. التمييز العنصري. وضع المرأة بالنسبة للرجل. وضع الأقليات: عكس ما قصد إليه (هابرماس) من ساحة شفافة أكثر اتصالاً واتفاقاً للآراء، ويحلم منظرو ما بعد الحداثة أن تخلق الميديا (هيتروطوبيا) من تباين الآراء وتعددها، بما ستسمح تكنولوجيا المعلومات والإنترنيت لكل فئات المجتمع أن تعلن عن آرائها وأن تدافع عن مواقفها،، ويرى فكر إعلام ما بعد الحداثة تمييعاً لقضية الهيمنة الأمريكية وإخفائه وراء سراديب صراع الأقليات والطائفية والحديث عن التنوع والاختلاف.

د - هل هذه قرية كونية أم امبريالية إعلامية؟: شاع استخدام (القرية الكونية) ابنة الإعلام الحديث الذي قضى على المكان، وعمل على إقامة شبكة من العلاقات تربط بين الأفراد والجماعات وبين الثقافات هذا شيء مفعم بالتفاؤل والسذاجة، تمثل نظرية الإمبريالية الإعلامية التي أسسها هربرت شيللر والفكر المناهض لها، أحد المحاور الأساسية للخطاب الإعلامي الحديث يعني: (الإمبريالية الإعلامية) بهدف فرض الميديا من أجل ترسيخ القيم والنزعات الاستهلاكية والعادات، كثقافة أجنبية وافدة تسعى للقضاء على الثقافة المحلية، وتفرع الإعلام الامبريالي إلى أربعة فروع هي:

- **دمج الإعلام مع الثقافة:** ويرفض الفصل بينهما، وهذا التوجه يفضله الماركسيون الجدد من أجل أبراز ضراوة الإعلام الجديد، وتحالفه مع القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية - خطاب مدرسة فرانكفورت ينظر إلى الميديا كوسيلة للسيطرة الإمبريالية الإعلامية وتجديد دماء الرأسمالية من أجل مزيد من الاستغلال والاستقطاب الاجتماعي. - خطابٌ يرى في امبريالية الإعلام أحد مظاهر الحداثة، ويجب أن ننظر إليها كداءٍ رئيسيٍ ولا يجوز النظر إلى الميديا منفصلةً عن الحداثة كالهجرة إلى المدن، والاستسلام لسطوة العلم والتكنولوجيا والتراتبيات الهرمية للمؤسسات الاجتماعية. - إن الإمبريالية الإعلامية تواجه هجوماً شرساً من قبل المؤيدين لعولمة الإعلام،

وذلك من المنطلقات التالية: - إنَّ مفهوم الإمبريالية الإعلامية قام في الأساس على سيادة الدولة على وسائل الإعلام، وهذا سيزول بغياب الدولة لأنَّ العولمة ستقوض من سيادة الدول - إغفال نظرية الإمبريالية الإعلامية، لدور المستهلك، واعتباره كصندوق أسود (أي مجرد متلقي سلبي للرسالة الإعلامية وهم غافلون عن دوره في استيعاب مضمون هذه الرسالة وممارسة إرادته في دمجها بحياته اليومية. وبالحقيقة أن الناس لا يخدعون بالإعلام إلى الدرجة التي يتصورها البعض. - وفي رأيهم، أنَّ نظرية الإمبريالية الإعلامية أعطت مزيداً من الثقل للإعلام على حساب القوى الاجتماعية الأخرى. - هناك تناقضٌ كبيرٌ وجوهريٌ في فكر (هربرت شيللر) مؤسس نظرية الإمبريالية الثقافية، فيما يخص تهديد الهوية القومية، فكيف يتحدث عن الهوية القومية والفكر الماركسي معادٍ للهوية - التشكيك في محورية الميديا وهناك قوى رمزيةٌ لا تقل تأثيراً عنها مثل: القيم والمعتقدات - الهوية ليست شيئاً ثابتاً، ولا يمكن النظر إليها عبر مفهوم المكان بل من منظور الزمان الذي يتجدد.

- **الإعلام العربي:** كل الدراسات تشير إلى عدم وجود تنظير إعلامي عربي، وإن وجد فإنه يفتقر إلى الأسس العلمية الواضحة، فبدا إعلامنا أكثرَ خجلاً وتخلفاً، والدراسات التي تقوم بها مؤسساتنا الإعلامية ذات صبغة إجرائية لا تنظيريةٍ بسبب الخوف من: - ملامسة القضايا الحساسة لعلاقة نظم الحكم في الإعلام، إن الفكر الحديث كثيرا ما يلجأ إلى فكر الماركسيين الجدد بقصد أن يأخذ منه شقه العلمي لا الإيديولوجي - وكثير من الأكاديميين يحجم عن إقحام نفسه تحاشياً لما لا تحمد عقباه - ولهذا آثرَ الفكر الإعلامي مبدأ السلامة تحت ضغوط السلطة وإرهاب الفكر الجامد، فخلت الساحة إلا من وعودٍ للتكنوقراط وأحلام المثاليين من منظري الإعلام الإسلامي - وهؤلاء يرجعون تخلفنا الإعلامي إلى سيطرة الإعلاميين عليه (محمود حماد ١٩٩٦) كل هذا ليجنبوا أنفسهم مشقة الخوض في الأمور الجوهرية، ونقصد علاقة الإعلام بمنظومة القوى السياسية والاقتصادية ونحن بأمس الحاجة إلى نظرةٍ متوازنةٍ، ومعظم الناس استسلموا للإعلام

لاعن فهم، وإنما عن أمية إعلامية، وهم عاجزون عن فهم أسرار لعبة الإعلام وكيف يتلاعب بالعقول، ليفرض الانضباط والإذعان ولا بد هنا من تنمية الفكر النقدي الإعلامي العربي من منظور معلوماتي تنموي يستوعب الدور المتعاظم للتكنولوجيا، والاستثمار الاقتصادي في صناعة الإعلام.

– **لغة الإعلام الأوروبي:** إنَّ الإعلام هو أكثر الأنشطة استخداماً للغة لفظاً أم كتابةً، ومن هنا تقع على الإعلام مسؤولية الارتقاء باللغة للمجتمع ككل، وبالمناسبة يستطيع الإعلام أن يفيد اللغة ويعمل إلى توحيد استعمالها، أما إذا أراد الإعلام التضليل والتزييف فإنه يضر باللغة أشد الضرر، وأكثر ما يضر باللغة هو عدم الإخلاص لها كما يقول (جورج أورويل)، وتركيز الإعلام على الصوت والصورة يهدد كيان اللغة لكنه في الوقت ذاته سيبدي تفوقها في التعبير المباشر والموجز الدقيق، ونحن نعتقد أن (الكلمة أفضل من ألف صورة).

- **لغة الإعلام العربي:**

أ – **اللغة كميزةٍ تنافسية في الإعلام:** قال بعضهم أنَّ الإعلام المرئي والسمعي تحميه اللغة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩١) بالنسبة لجمهور لا يعرف اللغة الأجنبية، وكلنا يعرف كيف وقفت اللغة اليابانية إلى جانب السينما. والتلفيزيون الياباني ووقفت اللغة الإسبانية إلى جانب الإنتاج في البرازيل والمكسيك، ويمكن للعربية أن تحافظ على تنافسيتها في مجال صناعة الثقافة وهذا لا يقدر بثمن نظراً للجمهور العريض الذي تخاطبه.

ب – **لغة إعلامنا ودورها بالإصلاح اللغوي:** يريد لنا الآخرون أن نصمت على لغتنا الفصحى، بإشاعة اللهجات العامية المحلية في وسائل إعلامنا، من تلفزيون وصحافة وإذاعة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩)، وهذا يعني تسديد الضربة القاضية إلى وحدتنا الثقافية. وما يجب علينا أن نفعله هو العكس، وهو استخدام وسائل الإعلام لتسهيل استخدام الفصحى في حياتنا اليومية، وباستطاعة الإعلام في الوطن العربي أن يقوم بدور

(حصان طروادة)، لتخليص اللغة العربية من ازدواجية الفصحى والعامية. ويتطلب ذلك خطةً مدروسةً متدرجةَ المراحل، يشترك فيها الكتاب واللغويون والتربويون وعلماء النفس. وليس مقبولاً أن نكرر أن عامة جماهيرنا لا تقبل الفصحى، إلا القرآن الكريم والحديث الشريف، فكيف تذوقت الجماهير العربية بحسها السليم روعة الشعر العربي. في حين تسللت اللغة العامية إلى الصحافة المصرية، ومن أجل معالجة المشكلة اللغوية (الفصحى والعامية)، علينا أن نلجأ إلى كل الوسائل الممكنة: القصيدة. الأغنية. والأقوال المأثورة. والأساطير، والمسرحيات. ولابد للإعلام العربي من الإيمان بالتالي وهو: (ابدأ بنفسك) إن أراد حقا أن يكون أداةً فعالةً لإصلاحنا اللغوي، ولا بد من التصدي لما يشكو منه الإعلاميون من نقص المصطلحات اللازمة لتغطية المفاهيم الجديدة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٧) والتي يتوالى ظهورها بشكل يومي، والإعلام بسبب متابعته لما يجري من الأحداث الفورية، يستطيع أن يتناول هذه المفاهيم، وعليه تقع مسؤولية إشاعة مصطلحاتها بطريقة سليمة فيتحاشى كلمات لا تتسم بالدقة، فيشوه المفهوم المقصود بالمصطلح الأجنبي، فيؤدي إلى زرع مفاهيم خاطئة.

- التربية والإعلام الأوروبي:

أ - **التقارب بين الإعلام والتعليم:** يتداخل اليوم الإعلام والتعليم، ويكون للإعلام الحديث دوره الفاعل في (التعليم عن بعد) وهذا يتطلب إحداث وسائل جديدة لبث رسالة تعليمية، وهي تختلف عن طابعها السلبي الذي مازال يسود الإعلام التربوي حتى يومنا هذا.

ب - **تربية الميديا:** معظم الناس يقضون أمام وسائل الإعلام وقتاً طويلاً، في مشاهدة التلفزيون، ويتعاملون مع الإنترنيت والإذاعة، إلا أنهم يعانون من أمية إعلامية فاضحة، واستسلموا للإعلام بكل جوارحهم، فعجزوا عن فهم لعبة الإعلام وكيف يتلاعب بالعقول، من أجل فرض الانصياع والانضباط، وواجب التربية الحديثة أن تضع نُصْبَ عينيها تنمية النزعة النقدية للميديا لدى الشباب، ولم تحظ تربية الإعلام بما تستحقه من النظريات الاجتماعية الحديثة.

- التربية والإعلام العربي:

أ - التقارب بين الإعلام والتعليم: لابد من التقارب بين الإعلام والتربية لأغراض تنموية، والتي أوصت به منظومة الإعلام العربي، وهذا يتطلب درجةً عاليةً من التنسيق بين المؤسسة التربوية والمؤسسة الإعلامية بصفتها مؤسسةٍ تربويةٍ للتعليم غير رسمية.

ب - تربية الميديا: إنَّ تعلق شبابنا بالميديا يحتم علينا أن نمحو أمية الإعلام حتى يستطيع الخروج من دائرة الحصار التي يصنعها الإعلام الرسمي. ويتطلب هذا إكسابه المهارات الذهنية التي تمكنه من اختراق كل الحواجز والزوايا المعتمة ومعرفة المسكوت عنه والمسكوت له، وهتك سر القوى الاجتماعية التي تقف وراء ظاهر الرسالة الإعلامية. فبدلاً من أن نطلب من طلبتنا في منازلهم أن يدونوا تعقيبات أسرهم وضيوفهم حول نشرات الأخبار المسائية، حبذا لو طلبنا إليهم أن يدونوا الأخطاء الإملائية والنحوية، وترقيع الخبر، ولكن ما الفائدة من مذيعٍ أُمّيٍّ يعلم طالباً أُمّيٌّ.

- الإعلام والإبداع الأوروبي: قد يؤدي الإعلام إلى مؤازرة الإبداع في الشعر والموسيقى والأدب، للأسباب التالية:

أ - تنوع المادة الإعلامية وثراؤها - قدرة تكنولوجيا المعلومات وما توفره من وسائط متعددة مما يغني الفنون المختلفة - إنَّ الإعلام التفاعلي يحفز موهبة الإبداع - والإنترنيت ستشجع أصحاب المواهب للخروج على سطوة دور النشر.

ب - الإعلام متعاون مع الإبداع: قد يقول قائلٌ: إن الإعلام يساعد الإبداع، ويقدم فرصاً جديدةً لتنمية الإبداع بجميع فروعه: أدباً وشعراً وأداءً وتشكيلاً وموسيقى للأسباب التالية: - تنوع المادة الإعلامية وثراؤها ليثير خيال المبدع - ما تقدمه تكنولوجيا الوسائط المتعددة من وسائل مبتكرة لمزج الفنون المختلفة فتتفتح أفاقاً جديدة أمام المبدعين - إن استخدام الإعلام التفاعلي يوسع من آفاق المبدع ويشجعه على مواصلة التجريب - والإنترنيت ستحرر أصحاب المواهب من سطوة دور النشر والمعارض.

- **الإعلام عائق للإبداع**: فهو يجيد صناعة المشاهير لا المبدعين، ويجامل الحرفي والمهني على حساب الموهوب والمبدع، للعوامل التالية: - فالانبهار الذي يتميز به الإعلام الحديث قد يعطل الفكر والخيال ويشوه الإعلام علاقة المشاهدين بالمكان والزمان - يعتمد الإعلام على التكرار والإعادة في الاستخدام، وهو ما يعيق جذوة التجديد والابتكار، ويطفئ في وجدان المشاهد شعلة التجديد، والإنسان كما قيل ما يفعله ويشاهده دوما، لا ما يشاهده ويفعله لماماً - أضف إلى ذلك طابع التلقي السلبي الذي يقتل روح المبادرة - سرعة تدفق الرسائل الإعلامية وهذا لا يعطي مهلةً للتأمل والتفكير، فتصبح نبضةً أو قضمةً صوتيةً، ويخلق انطباعاً لدى المشاهد بعدم الجدية في التعامل مع محتوى الرسالة الإعلامية.

- **الإبداع والإعلام العربي:**

أ - **الحاجة لإعلام عربي إبداعي**: نحن بأمس الحاجة إلى إعلام إبداعي، يقف على قدم المساواة مع الإعلام الغربي المستورد، ولسنا بحاجة إلى إنتاج إعلاميٍ يعتمد على عنصر الإبهار والتكتيك، بقدر ما يعتمد على الفكرة المبتكرة والفهم العميق لأذواق المتلقين.

ب - **مخاطر الإعلام بالنسبة لشبابنا**: معظم شبابنا قد ترك القراءة وراء ظهره، وجعل من التليفزيون وسيلته الإعلامية المفضلة، وبالتأكيد إنَّ انخفاض نسبة القراءة يضعف القدرة على التفكير المجرد المتعمق والنقدي، هذا وأنَّ عولمة الإعلام ترسخ في نفوس الشباب عقدة النقص في مواجهة الأجنبي المتفوق إعلامياً ومعلوماتياً، يفضي بالتالي إلى عدم جدوى الإبداع.

- **نظام القيم والمعتقدات الأوروبي**: هناك علاقةٌ تبادليةٌ بين الإعلام والدين، تُعْتَبر نموذجاً للعلاقة بين الثقافة والدين، لأن الإعلام أداةٌ فعالةٌ للدعوة للدين والحفاظ على التراث الديني كنصوصٍ وطقوسٍ وشعائرٍ، فشبكة إعلام الفاتيكان والقنوات والإذاعات والمجلات الدينية المتخصصة، أمثلة عن مؤازرة الإعلام للدين، وأتت الإنترنيت بنشاطها ونقاشها لتصبح ساحةً ساخنةً لحوار الأديان، والدين يمكن أن يستعمل كسلاح إعلامي لمساندة السلطة أو

دعم المجهود الحربي، وما هو أكثر إثارةً من هذه العلاقات التبادلية المباشرة بين الدين والإعلام، هو تلك العلاقات غير المباشرة، التي تمر عبر الأنفاق السياسية والاقتصادية والأمنية وهذا يدفعنا إلى القول: أنَّ علاقة الدين بالإعلام ودور الإعلام في تشكيل القيم والمعتقدات والعادات والتوجهات ستبقى يعتريها الغموض. وفيما يخص القيم والمعتقدات ما نشاهده من مناظر العنف والجنس عبر الإنترنيت تمثل أكثر الجوانب الإعلامية الأخلاقية إثارة للجدل.

- **نظام القيم والمعتقدات لدى العربي:** يشغل الدين مساحاتٍ واسعة في قنوات الإعلام العربي المختلفة. إلا أن هناك من يقف ضد البرامجِ والفقرات الإذاعية والتليفزيونية الدينية، وكذلك في بعض الأبواب الصحفية الثابتة، وفي رأي هؤلاء أن هذا التخصيص والتبويب توجهاً علمانياً في فصل الدين عن الدولة، لهذا فهم يطالبون بإعلامٍ دينيٌ شاملٍ، ويحمل بعضهم الإعلام الإسلامي ثقلاً إضافيا من أحلام يقظة، مطالبين إياه في وضعه الحالي أن يكون صوت الإسلام صوت الإنسانية جميعا، عندها يثبت الإسلام شرعيته العالمية. وعلاقة القيم بالإعلام تتنازعها الآراء حيث يقول بعضهم: أنَّ الإعلام قد أضر بقيمنا بإشاعته للقيم الوافدة، وهو ما أدى إلى إضعاف الانتماء للوطن لدى الشباب، وهناك من يرجع الفضل إلى الإعلام في تحرير القيم لتتجاوز حدود جماعتها، وهو أمر يتفق مع عالمية الإسلام، ويعتقد هؤلاء أن تأثير الإعلام على القيم ضعيف، وبالنسبة للعقائد شبه مستحيل، صحيح أن الإعلام قد أفقدنا بعض الشعائر الدينية، عاد ووضعها في سياقٍ أوسع وأكثر تأثيراً، ويرون أن الإعلام قد خفف من سطوة الكبار على الصغار، ولم يعد هؤلاء الكبار محتكرين للمعرفة، لأنها أصبحت متاحةً للجميع عبر وسائل الإعلام.

- **التراث والإعلام الأوروبي:**

١ - **طبيعة العلاقة بين الإعلام والتراث:** كغيرها من العلاقات بين الإعلام والثقافة، تتناقض الآراء فيما يخص علاقته بالتراث، فعلى المستوى

الإيجابي يرى بعضهم: أن للإعلام فضلٌ كبيرٌ على تراث الماضي، فهو يسجل حاضرنا لحظةً بلحظة، ويحافظ على التراث الذي كان عرضةً للاندثار في ظل الشفاهة، إضافة إلى ذلك يمكن لتكنولوجيا الاتصال الحديث، أن تطرح التراث في سياقٍ تاريخيٍ وحضاريٍ أشمل، مما يعمق إدراكنا لقيمته ومعناه.

أما على الجانب السلبي فيرى أصحابه: أنَّ الإعلام معاد للتراث، لأن انشغاله بالواقع المعيش يدمر روابط الماضي، وذاكرة الإعلام ذاكرةٌ قصيرةٌ لا تزيد عن (٤٠) سنة وما قبل سنة ١٩٠٠) ثقبٌ أسود، ولهذا نرى الإعلام يركز على الزمن القريب، حيث تتوافر له أرشفياته ومواده، ولا يمل تكرارها، فهي كالنار تتغذى على نفسها، وقصور الرؤية هذه تشوه علاقة المشاهد بالماضي، وبهذا سد الإعلام بذاكرته المحدودة والقصيرة المدى الطريق على متلقيه ليعيقه عن رؤية التاريخ الطويل والصحيح الممتد عبر القرون، والإعلام هو ما شاهدناه من الحربين العالميتين الأولى والثانية، ونادراً ما يتناول الأعلام الحديث إلى ما قبلهما، ناهيك عن العصور الوسطى إن ذاكرة الإعلام القصيرة تتعارض مع كون الإنسان يتعلم من تاريخه العميق أكثر ما يتعلمه من تاريخه القريب اللصيق بذاكرته، ويمكننا القول أنَّ الإعلام فيما يخص الوعي التاريخي، يحجب عنا ما نحن بحاجةٍ إليه بينما يسرف في عرض ما نحن بحاجة أقل إليه، وحكمة التاريخ لا تسفر عن نفسها إلا عبر اقتفاء مسار رحلتها عبر الزمن، واللقطات السريعة تفرغ التاريخ من حكمته.

ب - **تراث الإعلام:** إن ثقافة الميديا هي التاريخ الخائلي الذي نجمعه يومياً من نبعٍ لا ينضب: صورٌ. أصواتٌ. وتراثه الخاص المتمثل في هذا الكم الهائل من التسجيلات وأشرطة التسجيل وأفلام السينما، وأرشيف الصحافة الورقي من الصور والمطبوعات، وهذا التراث الإعلامي يمثل ذخيرةً معلوماتيةً بالغةَ الأهمية في صناعة التاريخ والثقافي، وهذا يفسره الاهتمام بالأرشفة الإلكترونية لهذا التراث الإعلامي الضخم وضرورة رقمنته، وحتى التكنولوجيا ذات سمة التخزين الهائلة والوسيلة العملية لأرشفة التراث الإعلامي الورقي والسمعي والمرئي، إضافة إلى توفير وسائل آلية لتبويب الأرشفة، وسرعة استرجاعها وتعدد أساليب عرضها وتوزيعها.

- بين تراثنا وإعلامنا العربي:

أ - إن موقفنا من تراثنا هو انعكاس للماضي، إن علاقة هذا الماضي بحاضرنا ومدى تأثيره في مستقبلنا يمكننا القول: إنَّ إعلامنا يتخذ من تراثنا موقف الزائر والعارض، فكاميراته تتجول في صحون الجوامع وردهات المعابد والمواقع الأثرية، وينقل الأغاني الشعبية وشعرنا الفولكلوري دون عمقٍ أو عرضٍ لمآثر هذا التراث في سياقه الشامل، الذي يساعد المتلقي على تذوقه واستيعابه، لم يعد كافياً ذلك العرض السلبي والزيارات السريعة لتراثنا، ولا بد لنا من نظرةٍ نافذةٍ وسابرةٍ لهذا التراث، تصل إلى محتوى هذا التراث ومضمونه، لنصل إلى الحكمة من نقوشه ونصوصه وأصواته وأنغامه، وعلينا أن نعيد اكتشاف تراثنا العربي الإسلامي، ثم نجوب بساتين التراث الفارسيِّ والفرعونيِّ والبربريِّ والطورانيِّ، نصنع من زهورها باقاتٍ إبداعيةٍ نمزجها مع تكنولوجيا الوسائط المتعددة، بعد عجزنا عن تفجير الشحنة الإبداعية في تراثنا العربي والإسلامي، لأننا حرمناه من حقه في الحوار مع تراث الآخرين.

ب - **أرشيفنا الإعلامي:** إننا أهملنا أرشيفنا الإعلامي، ويكفي دليلاً على ذلك أن القائمين على (فيلم ناصر ٥٦)، اضطروا إلى استعارة المادة الوثائقية الخاصة به من أحد مراكز حفظ الوثائق في لندن، بعد أن اكتشفوا أن الأرشيف الإعلامي الضخم لعبد الناصر قد دمر، وأنشأ العرب مركزاً للتوثيق الإعلامي في بغداد (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٧) لكنه توقف أثناء الاحتلال الأمريكي للعراق، والمشروع المقترح من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لم يرَ النور بعد.

- منظومة الإعلام: - وإطارها العام: إن الإطار العام لمنظومة الإعلام من منظور معلوماتي يتضمن التالي: - العناصر الداخلية لمنظومة الإعلام وتشمل: محتوى الرسالة الإعلامية - الوسيط الإعلامي - متلقي الرسالة الإعلامية.

- العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإعلام بالمنظومات المجتمعية.

- عناصر البنى التحتية لمنظومة الإعلام وتشمل: سياسة الإعلام والاتصال - الموارد البشرية من مذيعين ومخرجين ومعدي برامج، وموارد المعلومات الإعلامية ومن أهمها الأرشيف الإعلامي.

- علاقات منظومة الإعلام الأوروبية بخارجها:

أ - علاقة منظومة الإعلام بمنظومة السياسة: إن الإعلام يشكل أقوال الساسة وأفكارهم، وكادوا أن يصبحوا نجوماً إعلاميين، وكاد الصحفيون أن يصبحوا نقاداً دراميين، والمواطن لا يدري من أمور السياسة إلا ما يأتيه من الإعلام، وكان للصحافة دوراً كبيراً في تأسيس الدولة الحديثة، ونَظَّمَتْ علاقة الحكم بالمؤسسات الأخرى، وأن بناء الدولة يتم عندما يتحول المواطنون إلى مشاهدين، ولما كان للإعلام هذه الأهمية عمدت الدولة إلى رقابته واستغلاله من جانب آخر، وما أن دخلت أوروبا الطباعة حتى سنت القوانين حتى لا يفلت زمامها فتثير سخط الجماهير وتحرضهم على العصيان، وبرع رجال السياسة في استغلال وسائل الإعلام. وكان (روزفلت) يخاطب أبناء وطنه من خلال الراديو كأب يخاطب أفراد أسرته، كما برع التليفزيون في تقديم جون كندي في صورةٍ باهرةٍ ليضعه على كرسي الرئاسة، كما كانت فكرة قبول الفاشستية التي شهدتها أوروبا كانت وليدة صناعة الجملة والإعلام الجماهيري.

ب - علاقة الإعلام بمنظومة الاقتصاد: كلُ شيءٍ يرتكز على عولمة الإعلام والاتصال ولذلك فإنَّ علاقة الإعلام بالاقتصاد تتوالى في النمو، مستندةً على شبكة الإنترنيت، وبقاء هذه الشبكة يعتمد في الدرجة الأولى على دعم القوى الاقتصادية، وقد تخلت الولايات المتحدة الأمريكية عن دعم الشبكة تاركةً تمويلها لأهل التجارة الالكترونية وإعلاناتهم، وهكذا سارت شبكة الإنترنيت على الدرب الذي سارت عليه وسائل الإعلام التي سبقتها من: صحافةٍ وتلفزيونٍ وإذاعةٍ، وصناعة السينما مرتبطةٌ بالنشاط التجاري بشدة.

ج - علاقة الإعلام بمنظومات الإعلام الأخرى والمنظمات الثقافية الدولية: تخطت العلاقة بين منظومة الإعلام ومنظومات الإعلام الأخرى تخوم تبادل المعلومات، إلى ما هو أبعد بسبب عولمة الإعلام، فازدادت شدة المنافسة بين مؤسسات الإعلام الرسمية وغير الرسمية المحلية ومؤسسات وسائل الإعلام المتعدية الجنسية وتفاصيل أدائها، ولم تعد تصدر برامجها بل تنظيماتها وفلسفتها (محمود حماد ١٩٩٦). فتزداد علاقة منظومة وسائل الإعلام بالمنظمات الدولية وبخاصة منظمة اليونسكو فيما يخص منظومة الإعلام العالمي ككل، ومنظمة التجارة العالمية فيما يخص التجارة الإلكترونية، وأمور الملكية الفكرية لمحتوى الرسالة الإعلامية.

د - علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية:

تغيرت علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية جذرياً وعلى كل المستويات، بسبب اختلاف دوافع كل منها: - المثقفون: يتزايد الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في النظرية الثقافية، وقد سبق ذكره في منظومة (الفكر الثقافي). - التربويون: تزايد دور الإعلام كمؤسسة تربوية، للتعليم غير الرسمي. - الدعاة الدينيون: كان لانعكاسات عصر المعلومات أثرٌ كبيرٌ على منظومة القيم ودور الإعلام في أمور الدعوة الدينية. - عامة الناس: التأكيد على أهمية التوعية العلمية التكنولوجية في عصر المعلومات، وزيادة المناعة ضد جراثيم الفتنة بشتى أنواعها والتي يروج لها الإعلام الحديث.

- أثر الإنترنيت على الوسيط الإعلامي الغربي:

أ - توزيع الأدوار: عندما يظهر وسيط إعلامي جديد، تنطلق المقولات بأن هذا سيلتهم ذاك وسوف يزول، وقيل عن الراديو سيقضي على الصحافة، والتلفزيون سيقضي على الراديو والسينما، وستحيل الإنترنيت غيرها من وسائط الإعلام إلى متحف التاريخ، وبالحقيقة إن التلفزيون أدى إلى تراجع الراديو، وسلبت الإنترنيت قطاعاً كبيراً من جماهير التلفزيون خاصة الشباب منهم، إن التلفزيون قد جعل الصحافة تعتمد على الصور

وجعل الصحافة أكثر اهتماما بجماليات الإخراج والتنسيق تَشَبُّها بالتلفزيون، وأدى الكمبيوتر والإنترنيت إلى دفع التلفزيون نحو التفاعلية، وزاد من تفاعله مع الناس عبر الهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني، وهكذا لن تؤدي زيادة الوسائط الإعلامية إلى انقراض أي منها، بل أعادت توزيع الأدوار بينها من جديد ويبقى البقاء للأصلح.

ب - **فيديو تحت الطلب**: هناك تطورات تكنولوجية كثيرة حصلت على التلفزيون، ومنها التحول إلى التلفزيون الرقمي، وهي نقلةٌ نوعيةٌ تؤدي إلى صورةٍ أكثر وضوحاً، والى التوسع في المهام التي يقوم بها، منها الشاشات المسطحة العريضة ذات السمك الرفيع، وهناك محاولات لجعل التلفزيون ثلاثي الأبعاد، ولكن أهم تطور هو الذي يمس جوهر العلاقة بين المرسل والمستقبل، والمقصود كسر الرابط الزمني العضوي بين وقت البث التلفزيوني (وقت المرسل)، ووقت المشاهدة (وقت المستقبل)، وظل المشاهد وقتاً طويلاً تحت رحمة المرسل ولا يجدي هنا تكرار البث على فترات متقطعة، حيث يظل الخيار محدوداً. . يقوم فيديو تحت الطلب على أساس حل المسألة بين وقت المرسل ووقت المستقبل؛ ويَمُكِّنُ هذا النظام المشاهد من انتقاء مادته وتوقيت مشاهدتها، وله أن يختار من بين القنوات القناة التي يختارها، وهناك مرحلة وسطى بين الإرسال التلفزيوني التقليدي ونظام الفيديو تحت الطلب، وهو ما يعرف بنظام (الشبيه بتحت الطلب) حيث يتكرر بث البرامج كل ربع ساعة، ليعطي للمشاهد فرصة المشاهدة.

ج - **الإذاعة المحلية**: وقد استفاد الراديو كثيرا من الرقمنة، من أجل صوتٍ أكثرَ وضوحاً، وأكثر مرونةً، وأدى هذا إلى تغيرات في شكل الراديو، وبينما يتجه التلفاز نحو العولمة يتجه الراديو نحو المحلية، لخدمة الجاليات والجماعات والأقليات والمدارس والمطارات والتجمعات السياحية.

د - **صحافةٌ متخصصةٌ قليلةُ التوزيع**: وهنا تراجع توزيع الصحف وقل عدد القراء، وتواجه الصحافة أقدم وسيط إعلامي أمام تحدي الإنترنيت، ولن

ينقذها من الموت إلا أن يصبح لكلِّ صحيفةٍ موقعٌ على الإنترنيت، تنقل وسيطها الالكتروني مادته المطبوعة مع بعض إضافاتٍ شكلية. فيما يخص البحث وإعادة ترتيب المواد المنشورة، وهذه اندثرت عندما خرجت الصحيفة الإلكترونية بطابعها الخاص القائم على الوسائط المتعددة. ورسمت الحدود الفاصلة بينها وبين الصحافة الورقية. وقد تجد نفسها كالإذاعة أكثر تخصصاً أو تنظر إلى نفسها كصانعة محتوى أكثر منها موزعة إصداراتٍ يوميةٍ أو دوريةٍ، وثراء المحتوى هو العامل الحاسم في بقائها.

- أثر الإنترنيت على الوسيط الإعلامي العربي:

أ - الاقتراب بين الكمبيوتر والتلفزيون: هناك معركة دائرة بين التلفزيون والكمبيوتر ولا مهرب من دخولنا فيها، رضينا أم أبينا، وهذا يستوجب رصد الجوانب الفنية والاقتصادية والاجتماعية تحضيراً لدخول ستراتيجيةٍ عربيةٍ في هذا التوجه المصيري. وقد نجد أنفسنا منحازين إلى التلفزيون، والفيصل في ذلك الهدف التربوي، ولا شك أن تخليص التليفزيون من سمة التلقي السلبي له مزايا تربوية كثيرة، ودمج التلفزيون مع الكمبيوتر سيعمل على تضييق الفجوة بين التعليم في المدرسة والتعليم المنزلي، كما أن إتاحة الإنترنيت من خلال التلفزيون سيمنح الطبقات غير القادرة فرصة النفاذ إليها.

ب - الفيديو تحت الطلب: إن هذا النمط الإعلامي الحديث يؤكد أن اقتصاد الحجم وكثافة رأس المال يعملان معاً ضد الدول النامية، ومن أين لها في ظل إنتاجها الإعلامي الآخذ في الضمور، أن يلبي هذا العدد الهائل من القنوات التلفزيونية؟ ومن أين لنا الموارد المادية اللازمة لبناء البنى التحتية لنظام الفيديو تحت الطلب الذي يحتاج إلى شبكات اتصالٍ ذات سعةٍ هائلة مالية الكلفة؟ وليس المطلوب منا أن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا التحدي ولكن على مؤسسات الإعلام العربية أن تتعاون وتتكتل وتشارك في مواردها وتبدي مزيدا من الاهتمام بالإنترنيت الإعلامي، وبناء على التوجه التربوي

كمورد إعلاميٍّ علينا استخدام نظام الفيديو تحت الطلب كموردٍ ثريٍّ للمواد التعليمية وهذا يحتاج إلى تنشيط حركة الترجمة.

ج - **دور الإذاعة المحلية:** إنَّ الإذاعة الإعلامية تبقى أرخص الوسائل الإعلامية وأكثر قدرة على الوصول إلى المناطق النائية، والراديو أكثر ارتباطاً بالبيئة المحلية، لاعتماده على اللغة دون الصورة، ويمكن الاستفادة منها في محو الأمية وتنظيم الأسرة، وبديل للدروس الخصوصية، ونظم هذه الإذاعات يمكن تحويلها إلى نظم اتصال للقرى والنُجُوع. وقد أشار (علي محمد شمو ١٩٩٨) إلى مشروعٍ لشبكة الأقمار الاصطناعية خاصة بالراديو الرقمي، تُوَجَّهُ إلى البلدان العربية لخدمة التعليم وجميع أنواع الإرشاد الزراعي منه والصحي، وما نخشاه هنا هو أن يتضمن هيمنة مركزية على محتوى الرسالة الإعلامية إضافة إلى كونه لا يتسق مع توجه الإذاعة المحلية.

د - **صحافة أقل توزيعاً وأكثر تخصصاً:** تؤدي ضآلة حجم القُرَّاءِ إلى ارتفاع ثمن الصحيفة أو الجريدة، وبالتالي إلى صعوبة توزيعها، والإنترنيت ستوفر مصادر بديلة للحصول على المعلومات، وتؤدي إلى طرد الصحافة من السوق، وبالتالي يخفف من ولاء الصحافة للسلطة. والصحافة الدينية تفتقر إلى الرؤية الشاملة لمفهوم الصحافة الإسلامية وغياب التأصيل العلمي.

- أثر الإنترنيت على محتوى الرسالة الإعلامية الغربية:

أ - **أن نعيد النظر في فورية الإعلام:** يزهو الإعلام أنه يتابع الأحداث على مدار اللحظة العابرة، وطغت عليه الفورية حتى أصبحت وكأنها من الضروريات الأساسية، لعملية الاتصال، وهي غير ضرورية ولا تخلو من سوء استخدام للموارد، بل يكذب ويغش ويخادع ويحرض على الفتن، وينشر السموم القاتلة، كما فعل في الهجوم الفاشل على وطننا الحبيب سوريا، واستطاع الإعلام السوري كشف زيفه وتضليله كمرسلٍ ومستقبلٍ، ولا بد من إعادة النظر في الفورية كما أثبتت الإنترنيت، ولا يرجع هذا إلى ثبوت المادة المطبوعة وغير المتطايرة، وثبت أن الأحداث الجليلة والظواهر العميقة، تحدث عادةً بطريقة

بطيئة لأن تغير النظام البيئي والمجتمعي وتطوير المدارس الفكرية كلها تحدث بطريقة تدرجية، وعلى الإعلام التقليدي ألا يسيء على استخدامه الفورية أو بافتعالها، ولا ينحاز على المؤقت على حساب الدائم، ولا يشغلنا بنقل الكوارث دون التمعن فيما وراءها، من أسباب، وما ينجم عنها من نتائج.

ب - **بين الأنماط الثابتة والعرض المتنوع:** عادة ما توضع البرامج التقليدية للإعلام التقليدي في قوالب ثابتة، من نشرات أخبار وتعليقات ولقاءات وتمثيليات ومسلسلات، ولكل من هذه الأجناس كوده الإعلامي المميز، وشكله الخاص به، وأساليب نمطية ثابتة لا تتغير إلا على فترات متباعدة، ومثالنا على ذلك: إن معظم التمثيليات كوميدية الموقف تدور على وقوع الأزمة ثم انفراجها، وفي معظم الأحيان ينطوي الحل على رسالة أخلاقية أو تعزيز لمبادئ اجتماعية سائدة. ومع هذا التنوع الضخم والثراء الهائل في عصر المعلومات، وفيما توفره الإنترنيت من معارف وطرق مختلفة للتعامل مع المعلومات والارتحال في فضائها، ومن المحتمل أن يسرع الإعلام التقليدي في تغيير قوالبه السائدة. ومن الممكن أن تظهر أنماطٌ محتملةٌ من الأجناس الإعلامية الجديدة، لم نسمع عنها من قبل مثلا: الجمع بين لقاءات تلفزيونية وحلقات نقاش على الإنترنيت.

ج - **الإعلام يستضيف رسالة الإعلان:** ضاقت الهوة بين الإعلام والإعلان، وتدل التجارة الإلكترونية على محتوى الرسالة الإعلامية، ورسالة الإعلام استضافت رسالة الإعلان في الماضي، ربما ينقلب الوضع ويصبح الإعلام ضيفاً على الإعلان، فمن أجل اقتناص انتباه الجماهير ربما يتضمن الإعلان بعض المواد الإعلامية من تلك التي تشد المشاهدين ليجعل إعلانه أكثر إثارة. (فرانك كويلش ٢٠٠٠)

د - **المزيد من الثقافة العلمية والتكنولوجية:** من المتوقع أن تزداد المساحة الإعلامية المخصصة للثقافة العلمية والتكنولوجية، وأن تتطرق رسالتها الإعلامية إلى الجوانب المرتبطة بالعلم والتكنولوجيا.

- أثر الإنترنيت على محتوى الرسالة الإعلامية العربية:

أ - **إغناء مصادر الرسالة الإعلامية:** يجب أن تبادر مؤسسات الإعلام العربية على استغلال موارد الإنترنيت، لإغناء مضمون رسالتها الإعلامية، وإن كانت مؤسسات الإعلام الجماهيرية تقوم بنقل مادتها الإعلامية إلى مواقعها على الإنترنيت، وعلينا نحن أن نقوم بالعكس، أي بنقل موارد الإنترنيت إلى منافذ إعلامنا الجماهيري، باعتبار هذه المنافذ أكثر شيوعا، وستبقى الإنترنيت غير متاحة للجماهير العربية، ولا يعني هذا نقل المعلومات من الإنترنيت مباشرةً إلى قنواتنا التليفزيونية والإذاعية بطريقةٍ مباشرةٍ (كما نشاهدها حالياً في برامج من أقوال الصحف والتليفزيون) بل يجب ترشيحها وتعزيزها بموارد معلوماتية، ونربطها بالأحداث الجارية والمشكلات المحلية، وبالتأكيد سيتيح هذا فرصةً حقيقيةً لإنتاج رسالةٍ إعلاميةٍ إبداعيةٍ ومبتكرة، فوسائل إعلامنا الجماهيرية يمكن أن تكون واسطةً بين جماهيرنا لبحور معلومات الإنترنيت ووسيلة فعالة لمحو الأمية.

ج - **حاجتنا إلى ثقافةٍ علميةٍ تكنولوجيةٍ مغايرة:** ساد على شاشاتنا وبرامجنا الثقافية العلمية التكنولوجية نمط استعراض آخر الاكتشافات والإنجازات دون إبراز النواحي التطبيقية لتوظيف هذه الاكتشافات وتلك الإنجازات، وإثارة الانبهار بالعلم واختراعاته لدى المشاهد العربي سلاح ذو حدين، فهو يعمق لديه نزعة احترام العلم وتبجيل الفكر، ومن جهةٍ ثانيةٍ يولد لديه شعور بالنقص، وانقطاع صلتنا بواقعنا. فنحن بحاجة إلى برامج ثقافية علمية تخاطب مجتمعاتنا، وفي الوقت نفسه نخاطب فيه مستويات العقول المختلفة، وعلى معدي البرامج إدراك الفرق الكبير بين التبسيط العلمي والتثقيف العلمي، لأن التبسيط هو عنصر واحد في عملية التثقيف، والتي تشمل التالي: - ربط العلم بحياة المجتمع والفرد - إبراز كيفية مساهمة العلم في حل المشكلات القائمة - إلقاء الضوء على تجارب العلماء والخبراء العرب في المجالات العلمية والتكنولوجية - التصدي إلى مظاهر اللا علمية وأدعياء العلم وأشباه العلميين - إبراز الجوانب السلبية في المجتمع وحياة الأفراد

نتيجة عدم استعمال طرق العلم ومناهجه. - طرح الآثار الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا مثلاً: المتعلقة بعلاقة السلطة الحاكمة بالمواطنين، وقضايا الديمقراطية والبيروقراطية وصراع الأجيال والعمالة الإنتاجية.

- أثر الإنترنيت على المتلقي الغربي:

أ - **إلى مزيد من المشاركة:** إنَّ الإذاعة جعلت من المواطن طفلاً صغيراً يوجهه الحاكم، وجعل منه التلفزيون معجباً مفتوناً بنجوميته. أما الإنترنيت وتجارتها الإلكترونية جعلت منه مستهلكا، والإعلام على وشك أن يكون خدمةً مدفوعةَ الثمن، ولا بد أن يحظى هذا المتلقي المستهلك بقدر من التفاعل كي يتمكن من اتخاذ قراره لشراء السلع والخدمات، والمشاهد يمضي وقتا أطول أمام التليفزيون مما يقضيه الطالب في المدرسة، فأصبح لزاماً علينا دراسة المتلقي بين جهاز إرساله وتأثيره في سلوكه وقدراته الذهنية ونظرته إلى ذاته والآخرين، ودراسة الكيفية التي تستوعب بها طبقات المجتمع المختلفة الرسالة الإعلامية نفسها، وكانت مدرسة (برمنجهام) سبقت أخواتها في دراسة أثر الميديا في الجماهير في إطار اهتمامها بدراسة الثقافة في السياق الاجتماعي، وإن وسائل الإعلام الجماهيري على اختلاف أنواعها تحب الإنسان المتوسط، مثلها في ذلك مثل نظم تربية الكتل الغفيرة، التي تفترض طالباً متوسطاً وآن الأوان أن تعطي وسائل الإعلام مزيدا من الاهتمام لمتلقيها في ظل خيارات أوسع ومعرفة أعمق بميوله وأذواقه، وربما يصل الأمر إلى المشاركة في السياسة الإعلامية وتخطيط البرامج. وتفاعل أكثر.

ب - **المزيد من الدعم:** أمام إعصار المعلومات الهادر ووابل الرسائل الإعلامية المتدفق، أصبح واجب المؤسسات الإعلامية تقديم دعم أكبر لمتلقيها: قارئاً أو مستمعاً أو مشاهداً، وعلى سبيل المثال توفر المجلات الثقافية فهارس موضوعية دورية لما قامت بنشره، وأن تلخص المقالات في كبسولات، وفيما يخص الإرسال الإذاعي التلفزيوني، سيزداد الاهتمام بخدمات ما بعد البث، كتوفير نسخ من المواد المقدمة للمشاهد من أجل إضافتها إلى الأرشيف الخاص، وإبلاغه بمواقع الإنترنيت، ذات الصلة بمجال اهتمامه.

ج - **إلى مزيد من الحماية:** فشلت المحاولات السابقة لممارسة حق المستقبل في رفض ما يلقيه عليه المرسل، فاعتبرها الأمريكيون انتهاكا صارخا لحقوقهم الدستورية فيما يخص حرية التعبير. لكن الأمريكيين أنفسهم هم الذين أبدوا انزعاجاً شديداً لتعرض أطفالهم لمظاهر العنف الترفيهي، في برامج التلفزيون وأفلام السينما ومواقع الإنترنيت المنتشرة، التي تعرض مناظر الجنس الفاضح. وكان لابد من البحث عن وسائل تكنولوجية عملية لحماية الصغار باحتجاز الرسائل الإعلامية غير المرغوب فيها، مع عدم الوقوع في فخ الرقابة على المعلومات، وكان الحل الوسط فيما يعرف بشريحة العنف الترفيهي، التي اخترعها الكنديون وأقرها الكونجرس الأمريكي وبعده البرلمان الأوروبي، بوضع هذه الشريحة الإلكترونية داخل التلفزيون أو في صندوق إلكتروني متصل به، وتقرأ هذه الشريحة كود التحذير الذي يحدد درجة العنف ومدى الإباحية، والذي ألزم القانون ضرورة وضعه على كل الأفلام والمواد التليفزيونية والمعلومات التي يتم تبادلها عبر الإنترنيت.

- أثر الإنترنيت على المتلقي العربي:

أ - **إلى مزيد من المشاركة:** لم تعترف البلدان العربية بحق الاتصال بشكلٍ كاملٍ، كنتيجةٍ طبيعيةٍ لنمط الإعلام السائد، وضعف حب المشاركة، وسوف نحتاج إلى وقتٍ طويلٍ لإعادة برمجة المتلقي العربي، لتخليصه من عادات التلقي السلبي المزمنة، وهذه مهمةٌ صعبةٌ يجب أن يشارك فيها علماء النفس وأهل الإعلام وأهل التربية والدعاة الدينين، وإنَّ انحسار سلطة الدولة نتيجةَ العولمة يلقي مزيدا من المسؤوليات على الفرد، ومن جهةٍ ثانيةٍ، علينا أن نهتم باستطلاعات الرأي لدى الجمهور وبالدراسات النفسية والاجتماعية حول الكيفية التي يفهم فيها المتلقي العربي رسالته الإعلامية.

ب - **مزيد من الحماية:** كي نحمي المتلقي العربي بحاجةٍ إلى تنسيقٍ بين السلطة التشريعية والمؤسسات الإعلامية، والمنظمات غير الحكومية والجمهور حتى لا ينتهي الأمر إلى فرض مزيد من الرقابة. ولا يمكن اتقاء شرور التكنولوجيا إلا من خلال استخدام الوسائل التكنولوجية، وتوعية شبابنا

لمواجهة مخاطر عولمة الإعلام. وميثاق حقوق الطفل العربي لابد أنْ يشملَ بنوداً خاصة لحمايته ضد العنف الترفيهي، وبإمكاننا الاستفادة من موارد غرفة المقاصة التي تقيمها منظمة اليونسكو لتبادل المعلومات المتعلقة بهذه الظاهرة الإعلامية.

- كيف نمحو أمية الإعلام؟

أ - **خطورته:** الإعلام ذو حدين يمكن أن ينفع أو يضر، شأنه شأن غيره من الوسائل المعلوماتية المتعددة، ينفع عندما ينمي الوعي وينشر المعرفة ويهذب السلوك، يضر عندما يثير الفتن والضغائن ويزيف الحقائق ويسخر من المعتقدات ويعبث بالقيم، وعليه أن يتميز بالخصائص التالية: - الإعلام كيانٌ قائمٌ في ذاته محكم التنظيم، فهو مؤسسةٌ اقتصاديةٌ إلا فيما ندر. - الإعلام يُخْضِعُ لُغَتَهُ لأسسٍ صارمة، ومهما قيل عنه أنه محايدا لا يمكن أن يتحقق ذلك، لأنه يقوم بحركات التفافية حول مبدأ الحيادية. - الإعلام غارق في التأسيس للقيم والرؤى وتشكيل وجهات النظر - الإعلام قابل للاحتكار حيث كان هناك (٥٠) مؤسسة إعلامية أمريكية أصبح عددها ٦ شركات كبرى لا يهمها إلا الربح ومصلحة تجارها ومن يقف ورائهم من السياسيين.

- وأصبح للسينما دور مهم في توزيع الأفلام، وبالتالي دورها خطير في التأثير بأفكار الناس، ويرى بعضهم أن السينما الوثائقية يفوق تأثيرها التلفزيون، كون السينما أكثرُ تحرراً في عرض قضاياها، فهي لا تكتفي بعرض الأحداث ولا تلتزم بتعاقب وقوعها، بل تعيد ترتيبها وتنظيمها وتطعيمها بوجهات النظر الصريحة والضمنية لخلق كيان درامي ناقد.

- تعمل وسائل الإعلام (والإخبارية بوجه خاص) ضمن توجه غايتُهُ أنَّ الرسالة الإعلامية تحقق هدفها المنشود كلما خفتت ورهفت، وتكرر تقديمها بأساليب متنوعة من زوايا مختلفة، لتصبح أكثرَ فاعليةً ونفاذاً وتأثيراً، وأن صانعي الإعلام يقترفون كل المغالطات المنطقية التي وردت سابقاً لكنها بارعةً في تغطية عوراتها، وهذا يتطلب من المتلقي أن يكون أكثر يقظةً وحذراً وأن

يتعلم كيفية كشفها . - ويعج الإعلام بمظاهر إساءة استخدام اللغة تلطيفاً وتغليظاً وإيحاءً وتمويهاً ، ويتضمن دستور الأداء قواعدَ صارمةً ملزمةً في: انتقاء الكلمات وكيفية صياغة الرسالة الإعلامية من حيث: التقديم والتأخير والتعليق والتجنيب، ويروى عن بعضهم أنه قال: (لا شيء أفسد اللغة قدر ما أفسدتها السياسة) إنها أبواق الدعاية والمتحالفين معها من الإعلاميين وقد قال: (روبرت فيسك) قام الإعلام بصياغة حقائق العالم في قائمة من الأكليشيهات، تُعَرِّفُ لنا حياتنا وتبدد فكرنا وخيالنا ، وتجعلنا نُظْهِرُ الولاء لأهل السلطة، واستطرد قائلاً: نحن لم نعد نستخدم الكلمات، بل نوظفها، نتحدث عن تأثيرها لا عن معناها .

- هناك تبادل للمصالح بين الإعلان والإعلام، فالإعلان يساند الإعلام مقابل أن يقدم له الإعلام جماهيره. وعادةً ما تكون الرسالة الإعلانية صريحةً ومبالغاً فيها، لكنها تظل مقبولةً وجذابةً، وعادةً ما يكون هذا لكونها مسليةً.

ونحن العرب لا ننكر ما للإعلام من تأثيرٍ في سلوكنا وعلاقاتنا ، وللإعلام دورٌ في التنمية الاجتماعية بقدر يفوق ما للكمبيوتر والإنترنيت، وهذا يفرض علينا القضاء على الأمية الإعلامية، وهذا ضرب من الخيانة إن لم نقم به، وأصبحنا في قبضة الإعلام الرسمي والخاص والإعلام الأجنبي الناطق بالعربية، وبالتأكيد لهذه الوسائل دوافع مشبوهة غير نزيهة بتوجهاتها الإعلامية، وكشفها لن يكون إلا بإعلامٍ شعبيٍ نابعٍ من صميم القاعدة، يعكس آراء الجماهير بصدق وبصورة مباشرة (معاناتها وآمالها).

وللسينما دورها في استجداء الضحك، بالإضافة إلى نجاحها في عرض بعض المشكلات الاجتماعية العربية، ويحتاج الوطن العربي إلى سينما وثائقية في المجالين السياسي والثقافة، وربما نكتفي بتعريب الأفلام الوثائقية العلمية، لأنها عالية الكلفة وتحتاج إلى وقت طويل وكوادر متخصصة، أو نأخذ بالنموذج الصيني لإنتاج الثقافة العلمية بأسعارٍ زهيدةٍ.

ما هو موقفنا من أساليب الإعلام: إن وسائل الإعلام العربية استغلت المتلقي العربي استغلالاً سلبياً، والجماهير العربية تحب دائماً أن تخدع وهذا يجعل الأفكارَ المتطرفة في بساطتها مقبولةً، بسبب الجهل والكسل العقليّ وعدم المبالاة،

يستخدم إعلامنا لغةً انفعاليةً إيجابيةً، فهو يدفع بالقيم والمعتقدات بدلاً من بسط المفاهيم والأفكار، وترديد شعارات من قبيل الحرية والشفافية والعدالة الاجتماعية وهذه مقبولة لكونها أكثر تأثيراً من الضمانات الدستورية وحقوق المواطنين - والإعلام الغربي المصوب إلى العربي برع في الإساءة إلى اللغة واستخدامها، وهو يلجأ إلى التلطيف اللغوي في الدفاع عن مواقفه وتمرير ممارساته، وإلى التغليظ اللغوي للتهويل في ردود الفعل العربية تجاهها، وأورد روبرت فيسك عينةً مثيرةً من المصطلحات والأكليشيهات، التي دأب الإعلام الغربي في استخدامها للتغطية على الجرائم التي يقترفها، الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين المحتلة مثل: المناطق المتنازع عليها بدلاً من الأراضي المحتلة، وإغلاق المنافذ بدلا من الحصار، والمجاورات بدلاً من المستوطنات، والمتعاونين من الفلسطينيين بدلاً من العملاء، والقتل الخطأ بسبب الوجود في منطقة الاشتباكات بدلاً من القتل المتعمد للأبرياء. وإطلاق النار العشوائي على الضحايا العزل هو مجردُ حالةِ فرديةٍ من جنديٍّ مجنونٍ خانته أعصابه، أراد أن ينفس عن شحنة غضبه من جراء ما تفعله المقاومة في فلسطين، والجدار العازل بدلاً من جدار الفصل العنصري، وتمثيل الدول العربية المحيطة بإسرائيل بدول الطوق قبل مؤتمر مدريد، وهي الحمامة الوديعة وسط الصقور العربية.

- هل نحن مجتمعٌ من الدمى؟: أن نكون دمى متحركةً من دون أحلامٍ نَحْملُها ولا شيء نأسف عليه، وأننا لازلنا عصافير في البيضة، والعالم لدينا أصبح مُنَفّراً، وهل العقلانية تُقَلّصُ من التنوع وتَحُدُ من القدرة الشخصية؟ وهل التلفاز يقنعنا بذلك عندما يحمل إلينا المشاكل البعيدة ويضعها أمامنا

في غرفة الجلوس، فماذا نفعل هل نقارن هذه الصور بالواقع، أم نقابل صورة بصورة لإقناع الناس بعدالة قضاياها، وكأن التلفاز يقدم ارتباطاً بين العناية والمسؤولية وهو يواجه القوة التقليدية، وفي كثيرٍ من القضايا لم تكن هناك توازنات بين التدفق الإعلامي والسيطرة الإقليمية، وخاصة في الأمور الدقيقة، ووسائل الإعلام هذه جزء من تطور القوة النامية، ولكنها لن تنسى المنافسة بين تلك الوسائط، وضمن هذا التنافس خاف الناس على حدودهم الجغرافية والسياسية والأخلاقية من طرفي الدول والأفراد، وكما دافع الآباء عن الحدود بالأمس يدافع اليوم الأبناء عنها بنفس القوة والشجاعة، هذه ثقافة التلفاز وفضائه.

- **العرب بين الاستلاب والتلاعب والتشظي:** إن فكرة تدفق الأخبار تجعلنا نشير إلى الأخبار المثيرة، ولكن ما هو حجم التدفق ولا نستطيع أن نعرف ما لذي تدور حوله الأخبار؟ ولدينا (٢٧٠) محطة تلفزيونية ولا شيء فيها. مسخرةٌ لصالح الغرب الأمريكي، فهل تحسنت أحوالنا؟ وما أثره على الناس؟ قد يقول قائلٌ إنَّ مداركنا تتوسع، ويقول آخر إنهم يمطروننا بوابلٍ من الصور. وقد يكون أثره عدم إشعار الناس بالعالم، ويقول أحد الفلاسفة مثل (جون بودريار) همهم أن يبرهنوا أن هذه الأحداث تغير علاقتنا بالعالم، وأن نكف عن مقارنة هذه الصور بالواقع وأن نقارن الصور بالصور، نحكم على الأشياء كما يمثلونها لنا، وإذا ما حصل ذلك فإنَّ كل ارتباطٍ بالأحداث الحقيقية سيضيع ونسكن عالم الزيف، كما فعل الإعلام الغربي والإعلام العربي في الأحداث الأخيرة في سوريا، وقد بدا متطرفاً وغيرَ لطيفٍ، إلا أنه في حرب الخليج ضد العراق، كانت تغطية أخبار التلفاز تشبه فيلماً، بينما وصف آلهة الحرب مهمتهم بأنها تشبه لعبة الرواق المقنطر في الفيديو، ووجود مجتمع من الصور لها معانٍ ضمنية تتجاوز التلفاز في التصميم الحضاري والثقافة الاستهلاكية، وهذا يدل أن الغرب ينظر إلينا كبسطاء سذج (ضحايا مقنعون)، وعلينا أن ننظر أين يباع السلاح ويستهلك، فهل كانت حرب الخليج

دعاية للسلاح الغربي، وقد اختار مكان العرض في بيئةٍ غنية بالثروات تماماً، كما الحلية التي تطول حتى الخاصرة لتدل على المركز الاجتماعي، إنها سلع الوضعية، وهي بالتالي تخبر العالم عن سلعها، وتقول الكثير عن شخصية المستهلك، وتخبرنا عن هوية هؤلاء المستهلكين، كالفيلسوف (ديدرو) حيث كان راضياً عن لباسه، إلى أن مُنِحَ بذلةً جديدةً ولكنَّ البذلة الجديدة أظهرت أن خُفَّيْه بَاليَان ولونهما باهت، فاستبدلهما، بعد ذلك أظهر خفاه بوضوح سرواله، وتم استبدال ملابسه كلها نتيجة ذلك، وإنَّ التلفاز قد يعطي صوراً مثاليةً ويقدم دوافع الرغبة: نساء. سماء زرقاء، حياة جميلة. وبضائع جذابة. وبائعات وسيمات، وهذا يخلق رغبة مستحيلة ليقدم بدائل قابلة للشراء وهكذا تتركنا منقسمين على ذواتنا، وقد يكون الناس أغنياء لكنهم يتركون غير راضين، والنتيجة تشظي الحياة الاجتماعية.

وتجعلنا أفرادا منعزلين – من الجماعة إلى مشاهدةٍ عائليةٍ مشتركة، إلى أسرةٍ تمتلك عدداً من أجهزة التلفاز، كلٌ منغمسٌ في شاشته المحببة بدلاً من الحياة الحقيقية، وهذا يرسم لوحةً وجوديةً كئيبةً على مستوى المدينة، وهذا ما قدمته مدرسة فرانكفورت عن وسائل الإعلام. وهي لم تشجب هذا، وإنما تساءلت عن الرابح في هذا كله، ومن المسيطر على هذه العملية؟ وهنا تبرز سيطرة الولايات المتحدة على الإعلام، بل هذه هي (الأَمْرَكَةُ) بعينها، وهذا الثمن تدفعه الشركات الأمريكية، وسيكون تأثيرها كبيراً من حيث السيطرة على وسائل الإعلام. فهي تركز على الآثار الاقتصادية السياسية والتحكم في وسائل الإعلام، وهي تعتقد أن الإذاعة صوتٌ واحدٌ أو رؤيةٌ واحدةٌ على كثيرٍ من المشاهدين، مع اختلال في القوة وتوازنها، هكذا أمريكا تصنع أحلام العالم وتخلد التفاوت الطبقي العالمي.

- **الاتصال عن طريق الإنترنيت:** تمنح الإنترنيت إمكانات التفاعل بين السواد الأعظم من الناس، وتزيل الحدود الاجتماعية والإقليمية، فيها تتواصل دون وسيط، ولا تخضع لسطوة القوة كالتلفاز، وهذه نهاية الجغرافيا،

بها تستطيع أن تتعاون مع شركات العالم كافة، وهنا يظهر الفضاء بشكل حاسم: - عندما نفكر في الشبكة نفسها يلجأ التعقيب إلى (المقولات الفضائية) (والصور البلاغية)، إذن هناك روايات عن الحدود الإلكترونية وعالم الشبكات المعلوماتية، وما يصفه المعلقون والمستعملون ليس فضاءً تقليدياً ذا أبعادٍ ثلاثية، وإنما هو شكلٌ جديدٌ من الفضاء نحتاج إلى تطوير خرائط جديدة له - التفاعلات الممكنة مع عوالم العمل والموطن هي جغرافية بشكل عميق، وهناك انفصال أفضية العمل والاستهلاك وعزل الفضاء داخل الأسر، وتقترح ظاهرة (في البيت الصغير عن بعد) تغيير بعض الجغرافيات، وعند العمل يتم إعادة تشكيل الفضاء الأهلي - كثيراً ما تتهم بالتشظي الفضائي في الحياة الحقيقية، تماماً كأنها تُحَدِثُ جماعةً افتراضيةً، وهذا التأويل لما قد يصطلح عليه (مدينة الشبكات المعلوماتية) فالناس جالسون في منازلهم أو في مكاتبهم يتفاعلون عبر الشبكة تعويضا عن فقدان الجماعات المحلية - والقضايا المطروحة بالنسبة إلى التلفاز فيما يخص المحافظة على الحدود والتحكم الفضائي في التدفقات، تظهر قضايا مثل الإباحة الجنسية وتحكم الدولة - وهناك بنايات افتراضية تُشَيَّدُ على منوال المنازل أو البلدات لأنشطةٍ مختلفة: حانات. مأوى. وهنا يستطيع المستعملون أن يتجولوا ويلتقوا بأصدقائهم، وهذه تخضع للمراقبة من الدولة، وهذا يعني أننا في المراحل الأولى الحقيقية إلى أبعد حد من العمل الجغرافي عليها.

الفصل السادس

(التلفزيون أفيون الشعوب)

منظومة القيم والمعتقدات
تحت عدسة ثقافتنا العربية

أسئلة الدين للعلم والتكنولوجيا:

- الجنة المفقودة لدى الغرب:

إن ثقة العلم بنفسه لشديدة، ازداد غروراً وصلفاً بعد انتصاراته على جميع الجبهات، وراح يزهو بقدراته، وفي كل يوم يفاجئنا بالمزيد منها، فقد سحق المكان وفَتَّتَ الزمان، واخترق مجرات الكون وكشف عَمّ يوجد داخل نواة الذرة والخلية، ويغوص عميقاً في النفس البشرية، وفي خفايا البنى الاجتماعية والرمزية، في البداية كانت التكنولوجيا تلهث وراء العلم تطبق أفكاره،

وتحقق نتائج اكتشافاته، إلى أن أصبح هو الذي يلهث وراءها، وتضيف في كلّ يومٍ جديدٍ رصيداً على انجازاتها، فتضيق المسافة بين الفيزيائي والبيولوجي، وبين المادي واللامادي، وبين الواقعي والخيالي، فأصبح للخيال بفعل تكنولوجيا المعلومات هندسته وعوالمه الرمزية وكائناته الرقمية.

أ - **المعلومات وتكنولوجيتها النظيفة:** وعدنا التكنوقراط بجنة عرضها السموات والأرض، وتَطوّر بلا حدود، ونبعٌ لا يَنْضَبُ من حلولٍ للمشاكل المستعصية، وطاقة متجددة، ومواد تعوِّضُ كل ما أهدرناه وضيعناه من موادٍ طبيعيةٍ بلا جدوى، كما وعدونا بوسائل عدة للراحة والرفاهية، والغذاء والكساء والمسكن، وتأهيلُ الكبار وتعلم الصغار، تشفي من المرض وتطيل العمر. أما عن سلبيات هذه التكنولوجيا وضررها للبيئة ومآسيها الاجتماعية وخرائبها النفسية. فليهنأ المجتمع بالأ، فحل مشاكل التكنولوجيا هو المزيد

من التكنولوجيا، وإن كنا قد عانينا من تكنولوجيا الصناعة، بسبب كونها بدائيةً ذات طابعٍ عُنْفيٍ، استغلت العمال واستعانت بالأطفال، وأفرطت باستهلاك الطاقة والمواد الخام. وشتان بين تكنولوجيا الصناعة الفجة، وتكنولوجيا المعلومات النظيفة الأليفة الرقيقة التي لا تستخدم العنف، إنها تكنولوجيا مهذبة لطيفة مثل لطافة مادتها الخام المتسامية من البيانات إلى المعلومات إلى المعارف، تكنولوجيا ذكيةً مثل ذكاء برمجياتها، متجاوبة مع مستخدميها، تتكيف مع مجتمعها، محبة للبيئة، بل تصلح من حالها التي أفسدها غيرها من التكنولوجيا. نسي هؤلاء أن الآثار السلبية لتكنولوجيا الصناعة لم تظهر إلا بعد خمسين عاما من انتشارها، تماما كما كان لتكنولوجيا الصناعة عنفها واستغلالها وصراعها، فإن تكنولوجيا المعلومات ستخلق لنفسها مشاكل تضاهي سابقتها السلبية، واليوم يقال عن: عنفٍ ترفيهيٍ، واستغلالٍ رمزيٍ، وطبقية معرفية، واستعمارٍ خائلي لعالم الفضاء الرمزي، وحربٌ كونيةٌ شاملةٌ، يهدد بها بعضهم، وسببها اليوم لا الموارد الخام، وإنما موارد المعلومات.

ب - **نجاح تكنولوجي وفراغ روحي:** بدا للجميع أن الكون خاضع لنا ولفكرنا بلا تحفظ، نَقُوْدُهُ إلى غاياتنا المحددة، فاسترخينا، وتهيأ لنا أن وهماً يصور لنا أن العلم والتكنولوجيا قوةٌ طوع أيدينا وتحت سيطرتنا، إنه وهم مخادع وساذج، علما أنه ليس لنا اليوم حياةٌ مستقلةٌ عن سيطرة هذه التكنولوجيا الآسرة، وربما يكون العكس هو الصواب، وأوشكت هذه التكنولوجيا في غمرة نجاحها، أن تستقل بذاتها، وتفرض علينا منطقها وقيودها، فقامت حياتنا المادية على تكنولوجيا غاية في النجاح، في حين تتوجع حياتنا الروحية تحت الخواء الروحي، وقد آنستنا هذه التكنولوجيا بقدرتها الفائقة على إحداث التغيير المرغوب، نسينا ما بقي ثابتاً بداخلنا دون تغيير، نسينا المطالب الوجدانية وحاجتنا الدائمة إلى المثل العليا، إلى المحبة والتآخي والإحساس بالذات والهوية، ومع المد العلمي والتكنولوجي، انحسر الخطاب الديني، وراح غلاة النخبة من العقلانيين في نظرتهم الأحادية، فمنهم

من قال إنَّ الدين ظاهرةٌ غير عقلانيةٍ مآلها الموت حتماً، في مجتمع انتصار العقل والحسم العلمي، والإنسان له هذا القدر من حرية التصرف، وبمقدوره أن يصنع آلهته بالشكل الذي يحلو له، والحضارة التي صنعت الأقمار الاصطناعية والمركبات الفضائية والعقول الإلكترونية، ليست في حاجة إلى آلهة، وفات عَبَدَةُ هذه التكنولوجيا أن كل ما صنعوه من إيديولوجيات، فشل في حسم تناقضات عالمهم، وفي تلبية الحد الأدنى من مطالبه الاجتماعية والنفسية، وأثبت أهل الأنثربيولوجيا وعلم الاجتماع ما للدين من أهمية في منظومة المجتمع، والدين ليس مجرد ظاهرة نفسية بل هو أحد الثوابت الاجتماعية التي لم تتلاش مع التقدم العلمي. وتأتينا تكنولوجيا المعلومات وعولمتها بصافرات إنذارٍ بعالمٍ جديدٍ مليءٍ بالاحتمالات وعدم اليقين، كأننا مساقون إلى مصيرٍ مجهولٍ لا ندري عنه شيئاً، ونحن نعيش عالما ضاعت فيه التخوم والمعالم الفاصلة، بين النظام والفوضى، وبين الخاص والعام، وبين الذاتي والموضوعي، وبين الحياة في عالم الواقع وسكنى الفضاء الرمزي.

ج - الثمنُ غالٍ: ارتكبت حضارة العصر خطايا كثيرة منها: - سياسة بلا مبادئ - تجارة بلا أخلاق - ثروة بلا عمل - تعليم بلا تربية - علم بلا ضمير - عبادة بلا تضحية، هذا ما حذرنا منه المهاتما غاندي، واليوم ونحن في بداية الألفية الثالثة: نصف أطفالنا محرومون من المدارس، ومعظم عمالتنا مهددة بالبطالة، وربع بالغين من الأميين، ولم تعد تلك الوعود تنطلي على أحد، والتي لا هدف لها إلا أن يتحمل البؤساء والفقراء مزيدا من القهر وهم في انتظار زمن قادم لا محالة مليء بالرفاهية والخير، كي تستتب الأمور تحت سلطة قوانين السوق. وليس من العقل أن تقوم رأسمالية عصرنا بدلالة أرقام حساباتها دون غيرها، ولم يعد هنالك من هو مستعد لدفع تلك الكلفة الباهظة الناتجة عن المخاطر المتعددة جراء التطبيق الأعمى لتكنولوجيا المعلومات الشجاعة والجسورة، وأصبح لزاماً على العلماء أن ينزلوا من أبراجهم العاجية، وألا يقصروا عملهم على النشر العلمي، وعليهم أن يعيشوا خارج أسوار معاملهم، كي يواجهوا مسؤولياتهم فيما يمكن أن يؤدي إليه

الاستغلال غير الأخلاقي لنتاج فكرهم، هذا الفكر الذي أصبح سلعةً تباع وتشترى، والجميع ينظرون بعين الريبة إلى ما تدعيه التكنولوجيا من انتصارات، ونخشى اليوم النجاح بقدر ما نخشى الفشل، ويتهيأ لنا أننا عاجزون بعقولنا عن إنقاذ أنفسنا بما قدمته أيدينا. لا نستطيع التخلص من هذه التكنولوجيا والتي توهمنا أنها تحت سيطرتنا، وهاهي تنطلق نحو مصيرٍ مجهولٍ، فهي تحصد ما هو أمامها، من أجساد وعقول والطبيعة ذاتها، وهل يهددنا عصر المعلومات بطوبائية رأسمالية سوداء فاجرة، أم يبشر بعالم يصار بناؤه من جديد، على أسسٍ أخلاقيةٍ جديدةٍ ترفض الوضعية العلمية وغرورها الفكري، وترفض البراغماتية ونفعيتها قصيرة النظر، وترفض ما بعد الحداثة، وقد اقتربت على حد قول بعضهم من حافة الدمار المهلك للجميع، ويمكن أن تودي بحضارتنا إلى الفوضى. وهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تحقق الوئام بين الثلاثية التالية: الهداية. النظرة الشاملة. العقل، ثلاثية (الدين والفلسفة والعلم) فنقيم على أساسها واقعيةً متوازنةً، تبحث عن الحقيقة دون أن تضحي بالخير وتتمسك بالجمال.

د - **القيم الأخلاقية تحت الطلب المتزايد:** إن الصراع بين الدين وفكر عصر التنوير، أخرج أوروبا من ظلام العصور الوسطى على جبهة المعتقدات، وذلك فيما يخص: نشأة الكون وخلق الإنسان، ومن الممكن أن تدور المواجهة بين الدين وفكر عصر المعلومات على جبهة القيم والأخلاق بصورةٍ خاصة، وتبين لنا أن التكنولوجيا سواء قامت على البحوث العلمية أو على غيرها، ستبقى فرعاً من فلسفة الأخلاق، لا من العلم كما يقول بعضهم وما يدل على ذلك ما فعلته تكنولوجيا المعلومات متعاونة مع هندسة الوراثة، من قضايا أخلاقية عدة بعد أن اقتربت التكنولوجيا من تلك المناطق الحميمية في عقل الإنسان وأنسجته وخلاياه. وهكذا نمت الأخلاق وأعطت فروعا أخلاقيةً جديدةً من أخلاق البيئة، إلى أخلاق البيولوجي وأخلاق المعلومات، وأخلاق الإنترنيت، وبدت معظم القيم السائدة بحاجة إلى مضامين جديدة منها: قيم الحرية، والمساواة والعدالة، بل الأمن والأمان، والثقة في الغير والتسامح مع

الآخرين. ووسط هذا الكم الهائل من الأسئلة تصدر العلم للإجابة عنها. إنها أسئلة البدايات والنهايات: كيف تبدأ الأشياء وما مآلها؟ ويقول المناطقة وأهل المعلومات، إنها تؤول إلى ثنائية الخطأ والصواب، وثنائية الصفر والواحد، ويبقى السؤال من زرع هذه الثنائية في عقل الإنسان وجدلها في شبكة المخ العصبية وصهرها في كيان بناه الاجتماعية؟ ولنا أن نتذكر كلمات سقراط وهو يرتشف جرعة السم القاتلة، إذ يقر فيلسوفنا وهو في الثواني الأخيرة من حياته يتمتم قائلا: لست مقتنعا بعد ذلك بأنني أفهم لماذا يتولد الواحد أو أي شيء آخر؟ ولماذا يزول؟ بل لماذا يكون إطلاقا؟ وتكنولوجيا المعلومات تشجع الإنسان إلى طرح الأسئلة المستحيلة، وتزعم تكنولوجيا المعلومات وأهلُها، أنها ستوفر وسائل عدة تتيح فرصاً أكثر للإجابة عن هذه الأسئلة، أو إعادة طرحها بطريقة أدق، فالبشرية بحاجة إلى هداية جديدة، وهذا ما يفسر تيار الصحوة الدينية الذي يشهده العالم، إنها صحوةٌ إسلاميةٌ في العالمين العربي والإسلامي، صحوة مسيحية في جنوب شرق آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، صحوة اليهود والهندوس. وفي النهاية مَلَّ العالم الطوبائيات التكنولوجية والإيديولوجية، وانتظار رجل السوبرمان إنسان (نيتشه) الذي يجمع ما بين القدرة على الفعل والمعرفة، فيعيد للعالم توازنه وللإنسان حيويته وإرادته، ولن تطيب لنا الحياة دون هذا الزاد الروحي من القيم والمثل. إننا بحاجة إلى نبي جديد، ليس مرسل من السماء بل من الأرض.

- الجنة المفقودة لدى العربي:

أ - الغرب يبحث عن قيمٍ جديدةٍ للمواجهة، ونحن نبحث كيف ندافع عن قيمنا في عصر المعلومات: إن موقفنا من علاقة الدين بالعلم، يختلف من علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا عن موقف الغرب منها، للأسباب التالية: - عدم حسم العلاقة المتعلقة بين الدين الإسلامي والحداثة، إن الإصلاح الديني في أواخر القرن التاسع عشر حصر المشكلة بإزالة الفوارق والاختلاف بين الإسلام والحداثة بصورة شكلية وسطحية، دون مواجهة المشاكل الأساسية

والكبيرة وهي السيطرة العقلية العميقة على الحداثة. (١٩٩٩) - لا يمثل العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي الثقل كي يكون طرفاً متكافئاً في المعادلة الدينية - العلمية. - إن الغرب يبحث اليوم عن قيم جديدة يواجه بها عصر المعلومات، بينما نحن نبحث كيف ندافع عن قيمنا ضد الخطر الآت. وسيكون لأزمة القيم التي يواجهها الغرب وليدة المتغير المعلوماتي انعكاساتها على المجتمعات العربية، بحكم التبعية العلمية والتكنولوجية أو تحت الضغوط الاقتصادية والثقافية والسياسية.

ب - **هل الإسلام هو العلاج؟**: هناك من يرى في الإسلام أن مبادئهُ وشرائعه تمثل بديلاً لعلاج أزمة القيم في هذا العصر، ليس في مجتمعاتنا فحسب بل في المجتمعات الغربية. وتتبع (حسن حنفي) سراديب الأزمة المختلفة عندنا وعند الغرب، وأوضح استجابة الإسلام لكل منها، ولا شك أن الإسلام يشكل منبعا خصبا لإحياء قيم عصرنا، إلا أن ذلك يحتاج إلى جهود هائلة وبحوث مستفيضة تتجاوز اقتراح حلول المشاكل، بالإحالة إلى عظات التاريخ والنصوص، ولن نفلح في ذلك إلا من خلال معرفة علمية دقيقة بمشاكل التنمية المعلوماتية، والقضايا الأخلاقية المتعددة التي يطرحها المتغير المعلوماتي وصديقه البيولوجي، وكلاهما يحتاج منا إلى خلفية علمية تكنولوجية، كي نتفهم اشكالياته وتتضح مداخل حلوله.

ج - **حاجتنا إلى مفكرين دينيين يجمعون بين علوم الدين والدنيا**: قليلةٌ هي البحوث التي تتناول علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا. ومعظم هذه الدراسات يقوم بها أهل العلم لا أهل الدين، ورجل الدين لا يشارك في العلم إلا عندما يُستَفتَى بأمر من أموره، وعادة ما يحيلها رجل الدين إلى أهل الاختصاص، ومهما زادت فاعلية الحوار بين رجل الدين ومستشاريه العلميين، سيبقى دون درجة الاستيعاب الكافية التي تمكنه من إصدار فتواه بقدر من الطمأنينة، ونحن بأمس الحاجة إلى إعداد نوعية من الباحثين الدينيين على مقاس عصر المعلومات، قادرين على الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وإنَّ جامعاتنا الدينية -وعلى رأسها جامعة الأزهر- هي الأقدر

من غيرها على إعداد هؤلاء الباحثين، شريطة أن تجمع كليات الجامعات الدينية بينها وبين الدراسات العلمية بصورة عملية لا بصورة شكلية كما يحدث الآن، ولا ضرر أن تستعين جامعاتنا الدينية -اختصارا للوقت والجهد- بما قامت به جامعات اللاهوت الغربية، فيما يخص التجديد الشامل لمناهجها الدراسية، كي تتفق وحاجات عصر المعلومات وعولمته، وتشمل هذه المناهج ضمنها التالي: - الفلسفة الحديثة - علم الاجتماع والاقتصاد والبيولوجيا الجزئية والمعلومات والإعلام.

- العولمة وأخلاقياتها العالمية:

أ - هل نتوحد رغم التنوع؟: العالم إما كلٌ واحدٌ أو لاشيء هذا ما قاله آينشتاين، ربما أوحى له بهذه الفكرة حلمه بنظرية عامة وجامعة في المجال الموحد، والعولمة تنظر إلى شعوب العالم بمنظار وحدة الجنس البشري متجاوزةً النظرة النسبية الثقافية، سواء كانت عقائديةً أو قيميّةً أو لغويّةً، لهذا كان على العولمة أن تحقق الحد الأدنى من الأخلاق العالمية التي تشترك فيها ثقافات العالم أجمع، لتحقق حلم التوحد الإنساني، وهم لا يرون في هذا تناقضا مع الخصوصية الثقافية والهوية الحضارية لشعوب العالم، سندهم في ذلك أن هذا الخلق العالمي يقوم على المبادئ الإنسانية العامة، ولسان حالها يقول: لا يجوز أن يترك أمر هذه المبادئ رهناً بالنسبية الثقافية، بل يجب فرضها من خلال المنظمات الدولية، ومواثيق حقوق الإنسان العالمية. والأول معقود على تكنولوجيا المعلومات كي تُقرْ الوسائل العملية لحوار بين الثقافات، بهدف تقريب وجهات النظر بغية تحديد مضمون هذا الميثاق الأخلاقي العالمي الجديد، ميثاق عصر ثقافة المعلومات، الذي سيحقق في رأيهم السلام العالمي الجديد والسعادة، ويؤلف بين قلوب البشر.

ب - هل يتحقق الحلم؟: عجز آينشتاين عن تحقيق حلمه، في نظرية عامة للمجال الموحد بقصور الرياضيات عن أن تمده بالدعم النظري. ومنظرو ما بعد الحداثة يرجعون عدم تحقيق حلم الخلق العالمي لقصور متأصل في النفس البشرية ذاتها، فقد جبلت هذه النفس على العنف،

وسيبقى الصراع ما بقي المجتمع البشري، ولا أمل في التخلص من التعصب الديني، والتحامل الفكري والعنصري. وتنتقد ما بعد الحداثة بشدة حديث العولمة عن السلام العالمي، بينما العولمة وليدة رأسمالية قامت على الاستغلال وتدمير البيئة، وعدم العدالة في توزيع الثروات سواء الطبيعية والمادية أو المعلوماتية، ترى ما هو هذا الخَلْقُ العالمي الذي يتحدثون عنه؟ - بالتأكيد - ما هو إلا ستارٌ يخفون وراءه أطماعهم ونيتهم في استغلال تكنولوجيا المعلومات، ومساندة قوى العولمة ورأسماليتها الجديدة، وأفرزت العولمة عالماً وصل فيه الاغتراب عن القيم السماوية وعن الجار وعن الذات إلى حدٍ لا يمكن التغطية عليه باستهلاك الإيديولوجيا، وكما أظهرت العولمة الحاجة إلى توحيد القيم والأخلاق. والنظر في النظام العالمي الجديد وأصوله ورؤى مستقبله، أوصل إلى الشك في قدرته أن يثمر تعاوناً دولياً في حل القضايا والمشاكل (أحمد صدقي الدجاني ١٩٨٩) وكل ما تستطيع فعله هذه العولمة هو نوعٌ من التجنيس الثقافي، تتحول فيها ثقافات الشعوب إلى مهرجانات وطنية، وعقائدها مجرد طقوس، ومآثر تراثها إلى وثائق الأرشيف ومقتنيات المتاحف.

- كيف يرى العرب العولمة وأخلاقيتها؟:

أ - **الخطر الإسلامي:** أثناء الصراع الإنساني شاع استخدام الألوان، فكان هناك الجيش الأحمر، والألوية الحمراء، والسلاح الأبيض، والمارد الأصفر، والفهود السود، وأيلول الأسود، وأصحاب القمصان السوداء والبنية. ثم جاء عصر المعلومات ليضيف لمسته اللونية جاعلاً من الشاشة الزرقاء أو الفضية سلاحاً، ومن شفافية مجال الأثير ساحةً للنزال، ووجد اللون الأخضر -مز السلام والنماء- طريقه إلى القاموس العالمي، وأصبح الإسلام هو الخطر الأخضر، ويصوره الإعلام الغربي عائقاً أمام العولمة، ومهدداً للسلم العالمي، يحتل مساحةً شاسعةً، من الفلبين وأندونيسيا شرقاً، إلى الصحراء الكبرى، والخطر الأخضر هو مفهومٌ غامضٌ وأقرب إلى الخرافة، كما يقول فرانسوا بورجا (فرانسوا. بورجا ١٩٩٢) بينما يراه (إدوارد سعيد) نوعا من الحرب

الباردة ضد الإسلام (زكي الميلاد ١٩٩٨) فهو عداءٌ من جانبٍ واحدٍ يبديه الغرب ضد الإسلام، بفضل عوامل عدة اختلطت فيها الأسباب التاريخية مع الدوافع الاقتصادية والأمنية، وعلى الرغم من خرافته وعدائيته الظاهرتين، إلا أنه لم يحرم من مساندة الخطاب الأكاديمي الغربي، الذي سعى إلى تأصيله علمياً، إنه استشراق عصر العولمة، دليل قوي على قدرة القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية على توليد خطابٍ معرفيٍّ ذي قناعٍ علميٍ زائفٍ، من أجل خدمة مصالحها وإضفاء الشرعية على ممارساتها وتوجهاتها. هذا هو موقف غيرنا، أما تفسير أصحاب الرؤى الدينية لدينا لما يسمى بالخطر الأخضر فمرجعه كما يقول (إبراهيم مبروك) إلى أن الإسلام سيظل الإيديولوجية القادرة على استنهاض شعوب العالم الفقيرة والمستضعفة وإنقاذها من مطامع العولمة (محمد مبروك ١٩٩٩)

- **تباين رد الفعل الإسلامي تجاه العولمي:** يمكن أن نلخص مواقف الفكر الإسلامي من ظاهرة العولمة على النحو التالي: - الرفض التام: على أساس أن العولمة هي صورةٌ عن العلمانية، اتحدت فيها القوى العلمانية في الخارج والداخل، في نظرية العولمة (أحمد عبد الرحمن ١٩٩٩)، وهي تسعى إلى تدمير البشرية بسلاح العلم، وتوظيفه في خدمة الشيطان (رفعت الجاد رجي ١٩٩٨) والعالم الإسلامي في غنى عن العولمة، فهو يقوى بداخله وليس مطالبا باللحاق بخارجه وسيبقى الشرق شرقاً والغرب غرباً. (حيدر إبراهيم ١٩٩٩).

- خطاب رد الفعل: ربما كان المد الإسلامي رد فعلٍ للعولمة، وربما يكون برنامجاً لحركة إسلامية في المجالين السياسي والاجتماعي، ويمكن أن يكون الإسلام مذهباً في العولمة، مقارنةً بالنظريات الأخرى (أحمد عبد الرحمن ١٩٩٩) ويرى بعضهم أن الإسلام السياسي هو الابن الشرعي للحداثة الرديئة (١٩٩٩) - خطاب عالمية الإسلام: يُعَرَّفُ الإسلام كدينٍ عالميٍّ، والإسلام هو الحل، ليس بالنسبة إلينا، وإنما بالنسبة للمجتمع الإنساني، ولا ينقصنا سوى وضع المنظومة الحضارية الإسلامية التي لا تجمع العرب والمسلمين فقط، بل تجمع المستضعفين في العالم أجمع (جمال البنا١٩٩٩) وأصحاب هذا الخطاب

يقولـون لـيس باسـتطاعة الكونفوشيوسـية مـن خـلال منـهجها الإصـلاحي الطوبائي الموجه إلى الفرد، ولا البوذية القائمة من خلال القمع الدائم للذات تقديمَ حلٍ يقارب ما يقدمه الإسلام، ويقـول حسـن الترابـي أن المسلمين لـن يتخلوا عن مطالبهم بضرورة قيام نظامٍ دوليٍ عادلٍ، ودورهـم في هذا العالم سيكون دورا تصحيحيا لما يشكو من قلة التوازن (حسن الترابي ١٩٩٥) – لنأخذ منها بحذر: يوجد فئةٌ من المسلمين ترى في العولمة خيرا للأمة العربية والإسلامية، ورغم أن العولمة يراد بها باطلٌ، إلا أنها تؤدي إلى خلخلة فكرة الدولة، قد يكون مفيدا لمصلحة الأمة العربية والإسلامية، وهـي فكرة في رأيهم زرعها الاستعمار لتقسيم العالمين العربي والإسلامي (طارق البشري ١٩٨٩) – خطاب تهدئة البال: في رأي الجابري أن العولمة لا تشكل خطرا على مستقبل الثقافة العربية والإسلامية، لأن الثقافة لا تصنع مصيرها بنفسها بل بأهلها، (محمد الجابري ١٩٨٩) والإسلام لم يسبق له أن انهزم أمام رومٍ أو صليبيين. وكي نقارن بين الديانات السماوية الثلاث من النظام العالمي الجديد نقول: عولمة المسيحية. عالمية الإسلام. وقومية اليهودية، ونقصد: – عولمة المسيحية: ان الكنيسة تؤمن بضرورة العولمة وهـي تحاول أن تُخَلِّصَ الكنيسة الغربية من نظرتها على أنها المحافظة على الثقافة الغربية، وهذا يعوق انفتاحها على الثقافات الأخرى، وعليه تقوم الكنيسة الغربية بتحديث نفسها: تنظيمياً. وتبشيرياً. وأكاديمياً. من حيث الدراسات اللاهوتية ويمكننا أن نقول: إنَّ الكنيسة المسيحية تجمع بين عولمة الهدف وعالمية التنظيم والتنفيذ. – عالمية الإسلام: تنطلق في أساسها من عالمية الرسالة الإسلامية، بالحقيقة تفتقد إلى ما يُثَبِّتُهَا في أرض الواقع، وفي مقدمة ذلك عالمية التنظيم الذي يساند هذه الدعوة، والقدرة على إقامة حوارٍ هادفٍ مع الفكر العلمي الديني والثقافي. وخاصة الفكر الغربي.

– **قومية اليهودية**: رغم التعارض الواضح بين العولمة والقومية (شعب الله المختار) إلا أن الفكر اليهودي لا يفوت الفرصة من أجل إثبات تميزه وخدمة مصالحه. وهم يعتبرون أنفسهم مؤهلين أكثر من غيرهم للدخول في العولمة

وهذا يعود إلى كل ما اكتسبوه في شتاتهم وتشردهم، من معارفَ وخبراتٍ على مستوى العالم، وتمثل اليهودية المنتشرة جغرافيا، ومواقعها المتعددة على الإنترنيت، البنيةَ التحتيةَ للنشاط اليهودي.

- **ما هي علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات لدى الغرب؟:** يعتقد الكثيرون أن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تنحصر بالنشر الإلكتروني الديني، ونشر الدعوة عن طريق وسائل الإعلام، وأثر وسائل الإعلام الجماهيري والإنترنيت في نظام القيم. لدينا ثنائية تكنولوجيا المعلومات كأداة للدين، وتكنولوجيا المعلومات كقضيةٍ أخلاقيةٍ، ولكن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تتجاوز هذه الثنائية، فأصبحت هذه التكنولوجيا تمس قضايا جوهرية في صلب الظاهرة الدينية ومنظومة القيم، ولكن أين يلتقي الدين بمنظومة القيم والمعتقدات؟

- **لقاءٌ على ساحة الرمز:** تكمن صلة الدين بتكنولوجيا المعلومات بعلاقتهما بالرمز، إنّ علاقة تكنولوجيا المعلومات بالرمز غير محدودة، أما علاقة الدين بالرمز لو تأملناها، وفكرنا بتعريفات الدين كما يطرحها علم الأنثربيولوجيا وهذه التعريفات هي: - الدين كنظامٍ للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية - الدين كمجموعةٍ من الطقوس والشعائر - الدين كمؤسسةٍ اجتماعيةٍ ثقافيةٍ - الدين كمجموعةٍ من التشريعات والسنن - الدين هو نسق من الرموز يرسخ لدى الإنسان حالاتٍ وجدانيةٍ ودوافعٍ قويةٍ، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود. وهذه التعريفات، والتعريف الأخير ذو صلةٍ بالرمز، وعلاقة الإنسان بالرمز هي التي تتسامى به فوق المستوى المادي والبيولوجي إلى عالم القيم والمثاليات والروح، وتكنولوجيا المعلومات سيكون لها دورها الحاسم في جلاء العلاقة الإنسانية الرمزية، والسبب في ذلك أن إنسان هذا العصر الذي يرى هذا العالم عبر معتقداته، كما يراه أيضاً من خلال تكنولوجيا المعلومات، بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا هي الوسيط للتعامل مع حقيقة الواقع، والرموز المقدسة هي ذات طبيعةٍ مجردةٍ، وكلما ضاقت المسافة بين المحسوس والمجرد، زاد الإنسان قرباً

من رموزه المقدسة، وزادت قدرته على التسامي، وإقامة الروابط بين شواهد واقعه، وما مضى من هذا الواقع أو غاب عنه، فتتضح لدينا صلةٌ أخرى تربط بين الدين وقيمه الروحية وبين تكنولوجيا المعلومات مصدر هذه الصلة، أن هذه التكنولوجيا تعمل بلا هوادة على إسقاط الحواجز الفاصلة بين المادي واللامادي، وشحذ وسائلها لتجسيد المجردات بصورة مرئية محسوسة، وهذه تجلت بطريقة حاسمة في تكنولوجيا الواقع الخائلي، وهناك من يقول: إنَّ تكنولوجيا المعلومات تضمر العداء لكل ما هو سردي. وذلك بسبب ما تتسم به هذه التكنولوجيا من تشظٍ وتشعبٍ، هذا يؤدي إلى تشظِّ السرديات الكبرى، بما في ذلك النصوص الدينية والصروح العقائدية من وجهة نظر ما بعد حداثة.

ب - **ما المغزى الديني لتكنولوجيا الواقع الخائلي؟**: قد تنقل تكنولوجيا الواقع الخائلي العلاقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات إلى مستوى أكثر تسامياً وحساسيةً، والواقع الخائلي يخلصنا من قيود الجسد، لنحلق في الفضاء الرمزي، إنه شبيه بسعي الإنسان القديم إلى معرفة الحياة بعد الموت، ولكن بفارقٍ جوهريٍ، لأنَّ الإنسان القديم كان يسعى إلى معرفة الآخرة، لكن (ميتافيزيقيا) الواقع الخائلي وثيقةُ الصلة بواقعنا الدنيوي، وغايتها إعادة الانسجام بين الإنسان والوجود، وما بين قدرة الإنسان الفعلية وطموح إرادته. يبدو أن الحديث اختلط في الخطاب الخائلي: بين التكنولوجيا، والميثولوجيا والابيستمولوجيا، مثلما اختلطت حقائق عالم الواقع، مع خائليات عالم الفضاء الرمزيِّ، وهذه العوالم يقيمون لها القوانين والمواثيق، إضافة إلى أصول الإيتيكيت الشبكي، ومعايير الأخلاق الرقمية، وهل يمكن أن تنجح تكنولوجيا المعلومات فيما فشلت فيه ثلاثية: الفلسفة والعلوم والفنون، عن طريق دمجها لهذه المعارف الثلاث في وحدة رمزيةٍ مكثفةٍ ومتسقةٍ، من خلال كشفها عن شبكة العلاقات التي تربط بينها.

ج - **انتشار الجنس على الإنترنيت**: انتشر الجنس على الإنترنيت كالوباء، وهذا يمثل خطورةً على جميع الأعمار: - لأنه يدخل الأطفال في

الأمور الجنسية قبل نضجهم - ويشجع المراهقين على اكتشاف لذة الجنس لديهم فتستغل تجاريا - يعمل على تكبير الصغار وتطفيل الكبار، ويشجعهم على اجترار مراهقتهم - فيقعون في فخ النزعات النفسية التعويضية. وهناك وسائل عدة لنشر المعلومات الفاضحة جنسيا عبر الإنترنيت - مواقع المجلات الجنسية - مواقع متخصصة إلكترونية في توزيع السلع الجنسية - توزيع العقاقير والملبوسات الجنسية ووسائل إلكترونية - وصل الأمر بمواقع التجارة الإلكترونية والتي تقوم بتسويق المنتجات والخدمات، إلى تطعيم رسائلها الإعلانية بطابع جنسي لتجذب انتباه زيائنها، وهي تعرض صوراً عاريةً، وجنساً فاضحاً إلى أقصى درجات العلنية، وتغطي كل أطياف الجنس على اتساعه، من الجنس الطبيعي، إلى أقصى درجات شذوذه، وتم تطوير روبوت متخصص في الخدمات الجنسية الشفاهة تحت الضغط المتزايد عليه. والجنس يأتي على رأس تطبيقات تكنولوجيا الواقع الخائلي التي تُستَبْدَلُ بالجنس الحقيقي والانغماس في وهم الممارسة عن بعد، مع دوبلير خائلي يقوم مقام الشريك البعيد، أو مع أجساد رقمية مجسمة كنوع متقدم من (أحلام اليقظة الرمزية)، وهذا عبثٌ صريحٌ بالقيم الإنسانية النبيلة، ولا بد أن ينعكس على علاقة الرجل بالمرأة، وهذا يؤدي إلى تفكك الأسرة وخرابها، وإشاعة الأمراض النفسية التي شاعت في الغرب.

- **ما علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات عربيا؟:** علينا أن نتعامل مع هذه الظاهرة الإنسانية الفريدة -علاقة ديننا بتكنولوجيا المعلومات- بأقل قدر من الحساسية لنستطيع التفريق بين جوانبها العامة والخاصة بنا تحديدا، فقد تَرَسَّخَ بأذهان الكثيرين منا أن ثمة تناقضاً في الجوهر بين روحانية الدين والتكنولوجيا بطابعها النفعي وماديتها، وعلى رجال الدين لدينا التخلص من عقدة الخوف من تكنولوجيا المعلومات أو الأنفوفوبيا كما يطلقون عليها، وأن يطبقوا بشجاعة المعلوماتية في مجالات الدين المختلفة لأنه أهم ظاهرةٍ ثقافيةٍ لدينا، ويتدربوا على نظم المعلومات للدفاع عن الإسلام.

أ - هل يخاصم الدين التكنولوجيا؟: لاشك أن الإسلام شهد انطلاقةً تاريخيةً عظيمةً فيما يخص علاقته بالمعلومات، مثل: - حفظ القرآن - جمع تراث السنة النبوية - تحقيقه وتوظيفه معرفيا وتصنيفه، هذا في الماضي، أما اليوم فقد شهد خصومةً لا لزوم لها منها: - اعتراض البعض على طباعة القرآن الكريم، فكيف يكتب لفظ الجلالة تحت الحبر والمطبعة القذرة؟ وكيف يسمح بضغط مكبس آلة الطباعة على أسماء الله الحسنى وصفات الرسول الكريم وما شاكل؟ وهذا ما أخَّرَ طباعة القرآن الكريم ما يقارب ١٤٠ /عاما، بينما طُبِعَ الإنجيل فور ظهور الطباعة في أوروبا. - اعتراض بعض أهل الدين في مصر- في بداية استخدام المذياع- على إذاعة القرآن الكريم، إلى أن حسم هذه الدعوة الزائفة الشيخ الظواهري بفتواه - كذلك تم اعتراض بعض رجال الدين فيما يخص السينما والتلفزيون، على استخدامهما من الأصل، خوفاً من احتمال تقويضهما قيم التربية الدينية، فحسم الملك فيصل الأمر مع علمائه فيما يخص التليفزيون، كما رفض الزعيم الراحل جمال عبد الناصر طلب حسن الهضيبي بإغلاق أبواب السينما والمسارح - حُرِّمَتْ هوائياتُ البث الفضائي في بعض البلدان العربية، وتعرضت الصحون الفضائية إلى زخات من الرصاص في مصر، وأُنْذِرَتْ بعض الجماعات الإسلامية في الجزائر بمعاقبة كلِّ منزلٍ يضع فوق سطحه صحناً فضائياً. ومن حسن حظنا، أن هناك عقولاً مستنيرةً، شجعت على استخدام أحدث وسائل النشر الإلكتروني في معالجة النص القرآني الكريم، وتراث السنة النبوية والفقه والتشريع وأمور الفتوى، لكنه تلوح في الأفق خصومةً مفتعلةً لا لزوم لها، فيما يخص استخدام المعالجة الدلالية المتعمقة في تحليل نصوصنا الدينية، ويبدي بعضهم قلقه بما يمكن أن يؤدي إليه في مجال التفسير القرآني ومصادره المعتمدة.

ب - هل النص القرآني وتراث السنة ملك لنا وحدنا؟: أشرنا فيما سبق إلى أننا أوكلنا إلى غيرنا مهمة التعامل مع نصوصنا الدينية من المعاجم المفهرسة للقرآن وتراث السنة، إلى ترجمة ألفاظهما ودراسة علاقتهما بنصوصنا الدينية وغير الدينية، وما زالت سلطة رجال الدين لدينا تحاول

عدم العمل الجاد في هذا المجال البالغ الأهمية، فتبقى رموزنا الدينية منغلقةً دون تجديد النظرة إليها.. نعم حان الوقت لمواجهة نصوصنا الدينية بعمقٍ منهجيٍ وعلميٍ، لنرفع شعارا: (بأيدينا لا بأيدي الآخرين). فالنص القرآني والسنة النبوية ليسا ملكاً لنا وحدنا، بل ملكا للبشرية جمعاء، وهذا يتفق وعالمية الإسلام. وتبدي مراكز البحوث الأكاديمية والثقافية واللاهوتية اهتماماً متزايداً بتراثنا الديني، بدافع حوار الثقافات أو بصناعة الخطر الذي صنعوه، أو في تطوير نظرية عامةٍ للتراث الإنساني، ولا بد من التأكيد أن نصوصنا الدينية تراثٌ عالميٌ لا نملكه وحدنا، بل يمتلكه غيرنا بقدر ما نمتلكه، وما نخشاه أن يمتلكه غيرنا علمياً ومعلوماتياً، أكثر من امتلاكنا له، فيعلو صراخنا كما فعلنا في الماضي، عندما تعامل الاستشراق بلا حساسية مع تراثنا، يفرض علينا تفسيراته وتصوراته، يدفع علينا حقده وانحيازه، مضيقا علينا الخناق، لنبدد الوقت والفكر في ردود الأفعال والانفعال. ولابد من كسر رهبة الرمز لدينا، ونظرتنا الجامدة إلى النص تناقض تأكيدنا على عالميته، وكونه صالحا لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ونحن نتساءل: كيف يكون لهذا النص الإلهي مثل هذه العالمية، وتلك الدرجة من العظمة، من عمومية المكان والزمان، إلا إذا اتسمت لغته بدرجة عاليةٍ من التجريد؟ وجاءت ألفاظه كثيفة المعاني، متعددة الدلالات متداخلة العلاقات والترابطات، وسيبقى كتابنا الكريم حمال أوجه، وبئس ما نفعله إن نحن توقفنا عن أن ننهل من نبع معانيه الذي لا ينضبها وأن نحمله معانٍ متجددةٍ من مضامين حاضرنا، ورؤيتنا لماضينا، وتوقعاتنا لمستقبلنا. ومداومتنا لتحليل نصوصنا الدينية هو أهم المنطلقات لدخول عصر المعلومات، وإذا تقاعسنا في ذلك سيعوق حركة تقدمنا.

ج - **هل نسمح بتجارة الجنس على الإنترنيت؟** إن الجنس في مجتمعاتنا العربية من الموضوعات ذات الحساسية العالية، بينما تختلف نظرة الشعوب ما بين التساهل الشديد والتزمت المسرف، ومجتمعاتنا العربية تتخذ من الجنس موقفاً حازماً، ولا دراسات لدينا تناولته بميوله ونزعاته وظواهره،

وكلنا خوفٌ من أن تتناول التجارة الإلكترونية، وتجارة الجنس الخائلي، هذه العتمة الجنسية، فيقع شبابنا في شباكهم. وهذا يحتاج إلى تطوير أدوات برمجية لغوية وغير لغوية، لتصفية مضمون المعلومات من المعلومات الضارة، واتخاذ إجراءات تشريعية وتكنولوجية لحماية مجتمعاتنا من الوباء الرمزي.

- بين الدين ومنظومة الثقافة:

أ - حاجة الغرب إلى مراجعة شاملة

1 - حوار أثينا القدس: تبدي الثقافة حساسيةً زائدةً تجاه الدين واختلاف دوره في ثقافات الشعوب. ونشأت هذه الحساسية مع الاكتشافات الجغرافية، وظهرت في العولمة إلى أعلى مستوياتها، وما صحبها من حوار وصراع ثقافات، والتي تتصدرهما الجوانب المتعلقة بالدين، وفرض هذا على الغرب أن يعيد اكتشاف الآخر ثقافيا، وإعادة اكتشافه لنفسه، بالتالي وفي ظل هذه الفوضى والاضطراب التي تسود دنيا الثقافة عالمياً رأى كثيرٌ من الأمريكيين أن عملية الاكتشاف هذه تتطلب مراجعة الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية. وخلصوا أنها قامت على ركيزتين أساسيتين هما : الفكر الغربي والمسيحية، وبات مهدداً ذلك الوفاق الذي أقامه (توماس الإكويني) بين عقل الإغريق وتعليمات المسيحية، فظهرت الحاجة إلى تجديد حوار (أثينا - القدس) كما يطلق عليه، ومن المتوقع أن يكون أكثر اتساعاً وعمقاً نظراً إلى محورية الثقافة في مجتمع المعلومات.

ب - قضايا مستجدة تحتاج إلى وسائل جديدة: يطرح مجتمع المعلومات وعولمته كثيراً من القضايا المستجدة في صميم العلاقة بين الثقافة والدين على مستويات عدة: اللغة والتربية والإعلام والإبداع، أو منظومة القيم، والمحافظة على التراث، وهذه قضايا شائكة لا يمكن تناولها دون طرحها في سياقات اجتماعية شاملة، واليوم أصبح ممكنا في إطار ما توفره تكنولوجيا المعلومات من وسائل قادرة على احتواء هذا الكم الهائل من البيانات اللازمة لهذا السياق الاجتماعي ورصد ديناميائها.

- الحاجة إلى مراجعة عربية شاملة:

أ - علاقةٌ معقدةٌ ومتشعبةٌ: علاقة الدين الإسلامي بالثقافة معقدةٌ ومتشعبةٌ، من وجهة نظر الفكر الديني أو العلماني أو القومي، فالإسلام هو دينٌ ودنيا كما نرى، وبهذا يحتوي في عباءته الثقافة كلها، والإسلام كما يقول (حسن حنفي): ليس نظاماً أخلاقياً بل إيديولوجيا ونظاماً اقتصادياً اجتماعياً، نستنتج من هذا أن الإسلام يواجه ثقافة مجتمعه في إطار علاقة كونه كلاً شاملاً لجزءٍ، على مدى خطٍّ مواجهةٍ في غاية الاتساع، ولا ندري كيف يواجه الإسلام هذا الكم من المشاكل دون الوقوع في فخ الضحالة والاختزالية. أما الفكر العلماني لازال موقفه تجاه الدين مشوشاً ومضطرباً، وما زال متشبثا بأفكاره التي لا يمل تكرارها بخصوص علاقة الدين بالمجتمع، ولا يعطي بالاً للقضايا المستجدة التي يطرحها المتغير المعلوماتي. وقناعتنا أننا أحوج من غيرنا إلى حوار أثينا القدس نقيمه بين (مكة والمدينة والقدس) مقابل عواصم حضارتنا: دمشق. بغداد. القاهرة. البصرة. وقرطبة. ولا نستطيع أن نتجاهل الدور الذي يلعبه الدين في مجتمعاتنا العربية أو إغفال دوره في مقاومة العولمة الكاسحة، وعلى الفكر العربي أن يغرس العنصر الديني في منظومة ثقافته بصورةٍ أكثر علمية ومنهجية، ويتوجب عليه القيام به في تربةٍ اجتماعيةٍ مضطربةٍ، ومناخٍ عالميٍّ لا يقل عنها اضطراباً، وهنا التحدي الحقيقي.

ب - كيف نواجه قضايانا المستجدة والقديمة؟: لازلنا نواجه القضايا المستجدة، التي يطرحها المتغير المعلوماتي في علاقة الدين بالثقافة ونحن نحمل في سلتنا كثيراً من أسئلة الماضي التي مازالت تثقل كاهلنا حتى الآن، وإنّ علاقة الدين الإسلامي بجميع عناصر منظومة ثقافتنا: (الفكر. اللغة. التربية. الإبداع. الإعلام). هي أبعد ما تكون عن الحسم. ولا أمل لفكرنا الديني في مواكبة عصر المعلومات، دون أن يستظهر شبكة العلاقات الكثيفة، التي تربط الدين مع جميع هذه العناصر ولو على مستوى الحد الأدنى، الذي يسمح بطرح الأسئلة المستجدة والقضايا الجديدة، وليس لدينا وقتٌ لنضيعه

في تكرار القديم، وعلى الخطاب الديني أن يجدد منطلقاته وأدواته، مستفيدا من الدراسات المتعددة والتي تجري حاليا على جبهة الدين والثقافة. ونحن نهيب بالفكر العربي الجديد على اختلاف توجهاته ومستوياته، أن يجعل من الدين دافعاً لا عائقاً، وأن يتناول القضايا والأسئلة المطروحة حديثاً، وإذا لم يؤد فكرنا الحديث هذه المهمة الحيوية والعاجلة، فإنه يُضَيِّعُ فرصةً ذهبيةً، ويفتح الطريق أمام عبث العابثين لملء هذا الفراغ الفكري دون جدوى، عندها لن تجد السلطة أمامها بديلاً تحت ضغوط المشكلات- وما أكثرها- إلا أن تَسُدَّ هذا الفراغ تشريعياً وإجرائياً وعلى عجل بما ينطوي على مزيدٍ من القيود على المواطنين والمفكرين.

- ما علاقة الدين بالفكر الغربي؟:

أ - **المسار التاريخي كرؤيةٍ معلوماتية:** إن تاريخ الدين هو تاريخ البشرية، وعلاقة الدين بالفكر ملحمةٌ إنسانيةٌ خالدةٌ، إنها سجلٌ حافلٌ بكفاح العقل، وسير الطاغية والضحايا. وتناول كثيرٌ من المؤرخين وفلاسفة العلم هذه العلاقة ولابد من طرح هذه الملحمة التاريخية من منظور معلوماتي حديث، لقناعتنا أن المدخل المعلوماتي لفهم علاقة الدين بالفكر يعد مدخلاً أساسياً، نظرا للصلة الرمزية الوثيقة التي تربط بينهما، وإنَّ عصر المعلومات يفتح صفحةً جديدةً في تاريخ هذه العلاقة، هذا يفرض علينا مراجعةً تاريخيةً شاملةً للمسلمات من أجل تجديد المنطلقات والمناهج. إن فصول ملحمة علاقة الدين بالفكر. في طفولة عقله لجأ الإنسان إلى الخرافة والأساطير لتساعده في حيرته أمام ما يلاقيه في واقعه من مظاهر يصعب عليه تفسيرها، فقوس قزح كان قوساً في يد الله يبيد به من يشاء، والبرق ملاكاً يسوق السحاب أمامه بمقلاع من فضة، واللاهوت كان علم القرون الوسطى، والدين شاملا وموجها للفكر، وعندما ظهر العلم بدت مساعي الوفاق بين الفكر والدين، فكانت محاولات (سانت أوجستين وتوماس الإكويني)، أمثلةً رائعةً للوفاق بين فكر الإغريق والتعاليم المسيحية، وسعى ليبتنز بعد ذلك بقرونٍ، أن يحدث نوعاً من الوفاق بين السياسة واللاهوت والعلم. وهذا

الوفاق لم يجد طريقه إلى عقل المؤسسة الدينية، فحصل الصراع بين الفكر والدين: وهذا جاليلو يخر راكعا أمام الكاردينال معتذراً وهو شيخٌ مريضٌ، ويلقى (برونو) الذي أهدى البشرية مفهوم اللانهائية، كانت نهايته محترقاً على الخازوق، ويشنق (سافونا رولا)، وتحرق جثته لتجرُّئه على احتكار الأرستقراطية لقيادة الكنيسة. أما ديكارت الذي أقام العلاقة بين فكر الإنسان والوجود، كان عليه أن يخفي فكره عن الوجود نفسه، خوفاً من بطش محاكم التفتيش. ونسف كل من (كوبرنيكوس وجاليلو وكبلر) معرفة العصور الوسطى، ليمهدوا الطريق أمام عقلانية ديكارت المحضة، وقطعية فيزياء نيوتن الصارمة، ومع إقرار الكنيسة بهزيمتها أمام سلطة العلم، كان الانفصال بينهما. ونمت النزعة العلمانية، وكما اتخذت الكنيسة موقفاً لاعقلانياً تجاه العلم، كان للفكر مواقفٌ لاأخلاقيةٌ، فهذا (ديفيد هيوم) يعلن عن عنصريته الفجة، عندما أكد الانحطاط العقلي للبشر من غير البيض. ولكن ماالعلاقة بين الفكر الديني وفكر عصر المعلومات؟ ويقول (هيجل) أن هناك في جوهر الأشياء يرقد شيئا من التعقل تحت سطحها. وماذا لو تجسد هذا الغامض المختفي في جوهر الأشياء ذكاءً متناثراً من حولنا تحتويه النظم والآلات؟ وماذا يعني هذا الذكاء الجمعي المحتشد بالنسبة لمعتقدات الإنسان وقيمه؟ وهذا كان مصدر الصراع بين الفكر والدين، نتيجة عدم نفاذ هذا الفكر إلى عقل المؤسسة الدينية، واليوم تواجه البشرية نفس الموقف حيث يحتمل أن يتخلف الفكر الديني عن الفكر الإنساني إذا فشل في استيعاب فكر عصر المعلومات، وفشله سيؤدي إلى صراعاتٍ من نوعٍ جديدٍ لم تشهدها البشرية من قبل. ويشهد عصر المعلومات مسارين رئيسيين: المسار الأول يشهد نوعاً من الوفاق بين العلم والدين، وهو ضروريٌ بعد أن دفعت البشرية كلفةً باهظةً ثمن الانفصال بينهما، ولم يعد مستساغا أن يقف الإنسان حائراً بين العلم والدين، ما بين (عقل بلا إيمان) حتى يتحرر هذا العقل وينطلق بلا قيدٍ أو شرطٍ من عقيدةٍ أو وازعٍ دينيٍّ، وبين (إيمان بلا عقل) ليسمو هذا الإيمان إلى الرشاد والخلاص، دون قيودٍ من منطق العلم وقوانينه. نعم انفصل العلم عن

الدين في ظل العلمانية، لكن قيم الدين بقيت هناك، حتى في أكثر البلدان إنتاجاً للعلم، وكما قال (بيتر برجر) نحن نرى اليوم من يشبه المجتمع الأمريكي بشعب من الهنود، أكثر شعوب الأرض تدينا، وعلى رأسه نخبة سويدية، أكثر شعوب العالم علمانيةً. واليوم كيف تكون علاقة الدين بالعلم في عصر المعلومات؟ لقد نجا الفكر من الحتمية الدينية ليقع في قبضة الحتمية العلمية، فأسرف الإنسان في ثقته بالعلم، حتى أصبحت ميتافيزيقيا العلم في الوضعية المنطقية لمدرسة فيينا بديلاً عن الدين. وأفرزت حتمية العلم سلسلةً من الحتميات لتعصف بتاريخ البشرية: حتمية تاريخية، وحتميةً بيولوجيةً، وحتميةً لغويةً، وقد صاحب هذه الحتمية العلمية عدمُ يقينٍ دينيٍ إلى حد التشكيك في جدوى الدين، ومن الحتمية العلمية ينتقل الفكر الإنساني إلى النسبية، وعدم اليقين العلمي، ولانهائية الإشكاليات المعرفية، وأخيراً يحل بنا عصر المعلومات وخائلياته، وبينما كان الإنسان يصنع في طفولة عقله آلهَةَ عالمه الأسطوري، نراه اليوم في عصر المعلومات يصنع عوالم كاملةً من صنعه، عوالم الواقع الخائلي، يمارس فيه تحرره العقلي والروحي، ليهتدي في مسالك الخائلية إلى ما يفتقده من أمنه وسعادته في دنيا الواقع، وكان عدم اليقين العلمي هو وليد علمٍ سادته الفيزياء، وهل يمكن لفكر يسوده البيولوجي وعلوم الإنسانيات أن يعيد للعقل حيويته وإنسانيته؟، إن العقل يواجه طفولةً جديدةً، طفولة عصر المعلومات، يبحث عن الحقيقة إلى ما لانهاية، ويسعى من خلال عوالم الرمز الميكروية إلى أن يعيد صياغة علاقته مع الماكرو الكوني، وقد تمسكت المسيحية بمبدأ نهاية التاريخ، إلا أنها تركت مفهوم نهاية التاريخ وأقرت بلا نهائيته، حيث المستقبل مفتوح دائما أمام الجميع، ولم تعد فكرةُ أنّ الناس هم صناع تاريخهم معاديةً لجوهر العقيدة المسيحية المعاصرة. (سمير. أمين ١٩٩٩).

ب - هل تقوى المعرفة على عقلنة قوى العولمة؟: كانت المعرفة على مدى التاريخ الأداة الأساسية لعقلنة القوة، من أجل تبرير ممارستها، وتشديد قبضتها على الخاضعين لها، وكان هتلر صريحاً وقاطعاً في ضرورة مؤازرة

العلم لسياساته، وقد قال في كتابه (كفاحي): سياسةً بلا سند بيولوجي وبلا غاياتٍ بيولوجيةٍ سياسةً عمياءً إلى أقصى حد. وتعددت مشاهد استخدام العلم لمساندة القوى السياسية والفكرية والاقتصادية فاستخدمت نظرية دارون ومبدأ البقاء للأصلح، وعلم النفس المعياري وما وضعه من مقاييس الذكاء الكمية، من أجل تبرير السياسات العنصرية، والاضطهاد العرقي والديني، وعلى المستوى العسكري أصبح العلم والتكنولوجيا بمنزلة العقل المحرك للمنظومة العسكرية كلها، من صناعة السلاح إلى التدريب على القتال، وإدارة المعارك، ووضع الاستراتيجيات، واختيار فاعلية الأسلحة والتكتيكات. وكان للقوة الاقتصادية نصيبها من الدعم المعرفي، وكان علم الإدارة الذي أسسه (فريدريك تيلور)، وهو لا يرى بديلاً لعقلنة نظم الإنتاج إلا من خلال تحويل العامل إلى ترس في آلة الإنتاج الضخمة، يقوم أداؤه بالمعايير الكمية لقياس الإنتاجية ومستوى جودة الإنتاج، ودراسات الوقت والحركة. وتلوح في الأفق بوادر استغلال معرفة عصر المعلومات، من أجل عقلنة قوى العولمة على الصعيد الاقتصادي والإعلامي، وأمريكا تعمل أكاديمياً ليلاً ونهاراً لتقديم الدعم المعرفي للعولمة، في صورة فكرٍ يفتت حتمية العولمة إلى مجموعاتٍ من الحتميات المعرفية: - حتمية اقتصادية: إما الرأسمالية الليبرالية وإما لا - حتميةٌ إعلاميةٌ: إما اتباع نمط الإعلام للمؤسسات المتعدية الجنسية وإما لا - حتميةٌ لغويةٌ: إما الإنكليزية وإما لا. - حتميةٌ أخلاقيةٌ: إما خلق عالمي بالمفهوم الأمريكي وإما لا. وتوفر وسائل الإعلام وسائل عدة لمساندة سلطة القوى الاجتماعية نذكر منها التالي: - استخدام الإحصائيات والمؤشرات منزوعة من سياقها لمساندة القرارات وتحرير السياسات - استخدام نماذج محاكاة رقمية مصممة لمحاباة سيناريوهات بعينها، مع التمويه والتعتيم على الفروض التي قامت عليها هذه النماذج، وقد لجأ الغرب إلى مثل هذه النماذج المنحازة بغرض التقليل من الأهمية الإستراتيجية للبترول العربي، كي يصبح تحت رحمة المشتري لا البائع - هناك من يحاول إقحام علم النفس لتبرير عنف الإعلام الترفيهي، على

أساس أن العنف غريزةٌ متأصلةٌ في النفس البشرية، وأن عنف التليفزيون والسينما وألعاب الفيديو هو بمنزلة تسريبٍ للطاقة الكامنة لهذه الغريزة.

ج - **الدين تحت عدسة العلم**: إن الدين ظاهرةٌ محيرةٌ ومعقدةٌ شغلت العلماء والفلاسفة وأهل تكنولوجيا المعلومات، وقد أقحم العلماء أنفسهم في هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية، وأثناء هذه الحيرة يلجأ العلم إلى الاختزالية، فتارةً لا يجد في الدين إلا جانبه النفسي، وتارةً أخرى يرى دوره الاجتماعي فقط، وأهل الأنثربيولوجيا اللغوية يختزلونه إلى مجرد ظاهرةٍ رمزيةٍ، أما أهل تاريخ الدين لا يشغلهم سوى تطور نظم المعتقدات مع تطور المجتمعِ الإنساني، عبر الأزمنة المختلفة، ومن هذه النظم: الأساطير. والسحر.

والدين والعلم - أولا علم النفس:

يطابق فرويد بين المراحل المختلفة لنضج الإنسان نفسياً ومراحل تطور المجتمع عقائدياً، في محاولة لإخضاع هذه الظاهرة الجمعية إلى: (الأنا) - (والأنا) الأعلى وال (هو)، وهنا يختزل فرويد الظاهرة الدينية إلى حالة من حالات اللاوعي الجمعي، وكنظيرٍ للاوعي الفردي. معتبراً الدين حالةً من حالات عدم نضج المجتمع، والدين عنده شيء يناظر الخيال لدى الأطفال، أو وهم اجتماعي نتيجة الإحباط والعجز عن مواجهة المجهول، ليتغلب الفرد على شعوره بالضياع أمام قوى الطبيعة. وبعده (كارل يونغ) يأتي ليركز على وظيفة الدين في توجيه السلوك، مطبقاً عليه نظريته العامة عن النماذج الأصلية التي تفترض أن البشر يولدون بمكونات اللاوعي نفسها، ولديهم ملكةٌ غريزيةٌ لبعث قيم الماضي وصور السلف، وفي ظل هذا التصور تبدو المعتقدات كمفاهيم الخلق والبعث والخير والشر والشيطان، وكأنها محفورةٌ في عقل الإنسان غائرةٌ في طبقات لاوعيه، وتطفو على السطح متجليةً في رموز الأحلام والأساطير والفن، وهذه الفكرة عن المعتقدات التي يتحدث عنها على أساس كونها غريزةٌ نولد بها، يسيل لها لعاب الذين يتحدثون عن خلقٍ عالميٍّ يسمو فوق فروق النسبية الثقافية، وهو ما يذكرنا بالنموذج الذهبي للغة الذي وضعه (نعوم تشو مسكي،) مفترضا أننا نولد بغريزة لغويةٍ عامةٍ، يشترك فيها

كل البشر، كما حاول ماكس فيبر التوفيق بين فرويد ويونغ، حيث أدرج الدين ضمن الدوافع الواعية التي تنمي النزعات الشخصية، وتدفع بالمجتمع إلى تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية. أما (دور كايم) فهو مؤسس علم اجتماع الدين، فهو يرى الدين ضرورة أساسية لتماسك المجتمع كما يراه مؤسسةً مستقلةً بذاتها، كما أسقط الجوانب النفسية والتاريخية لظاهرة الدين، فاتهمه البعض بالفشل في تناول ظاهرة الدين المعقدة. ويأتي كلود شتراوس مؤسس علم الأنثربيولوجيا اللغوية ليزدري التوجه النفسي في تفسير ظاهرة الدين، ويطرح نهجاً لغوياً لتناولها، ليُطَبِّقَ على النصوص والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية، فأصبحت اللغة أساسا رئيسياً لدراسة الرموز الدينية، معناها ومبناها، والتركيز على دلالات وبرجماتيات الرموز المقدسة: ماذا تعني؟ وكيف تدمج وتستخدم في صلب ثقافة الجماعة؟ وكيف تشكل رؤية البشر إلى العالم؟ وكيف يلجأون إليها لحسم ما يستعصي على فكرهم من ظواهر الطبيعة وظواهر الوجود الإنساني؟ورغم ازدراء كلود شتراوس للتوجه النفسي في النزعات النفسية الدينية، إلا أنه عمل على استخلاص معرفة اللاوعي المختبئة وراء الأسطورة، لمحاولة معرفة ما فعلته في عقول القدامى، وخَلَقَوا من لا عقلانيتها خرافةً تبدو كأنها حقيقةً راسخةً يعتد بها ويقاس عليها، ورفض شتراوس تصنيف المعتقدات الإنسانية ما بين عاقلة، وغير عاقلة، وربما كان متأثرا بتوجه علم اللسانيات الحديث، والذي يرفض تصنيف اللغات الإنسانية إلى لغة راقية وأخرى بدائية. وأخيراً يأتي مفكرو ما بعد الحداثة، ليرفضوا كلَّ فكرٍ يأخذ مرجعيته من السرديات الدينية الكبرى، وهم في هذا لا يحرمون البشر من الحلم بخلاص يأتيهم من خارجهم، بل يحرمونهم من حلم الوفاق، وإمكان التواصل بين البشر، فالصراع قَدَرٌ لابد منه، والتواصل من المستحيلات. ولكن اليوم نتوجه نحو المعلومات، لأن تكنولوجيا المعلومات توفر بنيةً تحتيةً قويةً، لدراسة ظاهرة الدين، بصورة أكثر عمقاً وشمولاً، والمعلوماتية يمكنها أن تخلص التنظير الديني من اختزاليته وانغلاقه، وذلك بتوفيرها للعديد من الوسائل العملية لدراسة

الظواهر الدينية في سياقاتها الاجتماعية، تضم هذه الوسائل نماذج المحاكاة التي يمكن استخدامها في إعادة البناء التاريخي، بهدف دراسة مسار التطور التاريخي للمعتقدات الإنسانية، ومن دونها يتعذر علينا استيعاب هذه المظاهر الاجتماعية، ومن المؤكد أن نظام القيم في عصر المعلومات سيتغير بمعدلات سريعة، مما يعيق الدراسات الميدانية من قبل باحثي علم اجتماع الدين، وربما تشكل النظم الواقعية الخائلية، معمل اختبار للتجربة الأنثربيولوجي. إن مجتمع المعلومات لم ولن يصنع آلهته الخاصة به. بل هو سيوطد العلاقة من خلال عوالم الرمز، بينه وبين عالمه، وبين خالق هذا العالم.

- علاقة الدين بالفكر العربي:

أ - **الدين تحت عدسة الفكر العربي:** لا يمكن الفصل بين الدين الإسلامي والعقل العربي، فهما مندمجان قديماً وحديثاً، دينياً كان أم لغوياً. فالغزالي يقول في (إحياء علوم الدين) لا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، ويُتَّهَمُ بالغباء والجهل من يكتفي بمعرفة الدين، ويُرْمَى بالغرور من يكتفي بالعقل دون أنوار القرآن والسنة. أما العقل عند المعتزلة فهو وكيل الله على الأرض. ويبرر علماء الكلام- أصحاب النظرة العقلانية- لجوءهم إلى علوم الإغريق برغبتهم في دحض ما يتناقض فيها مع الإسلام. (أرثور سعدييف: ٢٠٠٠) وانشغال إخوان الصفا بالفلسفة الإغريقية كان من أجل تنقية الشريعة مما دنسها من جهالات وضلالات. ونمت النزعة العقلية عند ابن سينا بدافع التأمل في مسألة النبوة من الزاوية العقلية (المصدر السابق نفسه)، وتوجهه الفلسفي في تهذيب الأخلاق أساسه مبادئ الإسلام، وفيما يخص ابن رشد كان توجهه بتوثيق الصلة بين الدين والعقل، وهو معروف من عناوين كتبه: فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، (مناهج الأدلة في عقائد الملة) واتخذ من الموجودات دلالةً على وجود الخالق. وبالحقيقة تأسس الدين الإسلامي على الإيمان بوجود أصلٍ إلهيٍ للعقل، بينما الفكر الغربي في بعض مراحله راح يبحث عن أصل عقلاني لوجود الله، وبهذا الاندماج بين الفكر والدين، لم يعد هناك مساحة كافية

تفصل بينه وبين الدين، ليتسنى له الكشف عن شبكة العلاقات التي تربط بينهما، خاصة على أصعدة الإبداع واللغة والتربية فظلت العلاقة بين الدين والعقل غائمةً إذا لم تكن غائبةً في رؤيتنا الثقافية، وعلى الرغم من طنين خطابنا الديني الصحافي والإعلامي، وطابعه غير العلمي في مجموعه وما زالت ساحتنا الثقافية تفتقر إلى الفكر النظري الرصين الذي ينظر إلى الدين كظاهرة اجتماعية متعددة الجوانب. ومن أهم سمات فكرنا الديني التالي: -

حساسيةٌ عاليةٌ في تناول الظاهرة الدينية: يعتبر البعض أن التعامل مع النصوص الدينية هو قلبٌ للأوضاع أو تجرؤ الجزء على الكل، فكيف يتناول العقل الدين، والعقل صنيعة الدين؟ ومعظم قضايا العقل إنما تقع نطاق الفكر الأخلاقي (محمد أركون ١٩٩٨)، وبينما الفكر الإسلامي المستقطب في الصراع والنضال، ليس لديه متنفس من الوقت ليولي علم الأخلاق والسلوك الاهتمام العلمي الجدير به، وخاصة في ظل متغير عصر المعلومات، الذي فجر الساحة الثقافية إشكاليات أخلاقية، ونحن مازلنا نقول أنه لا فرق بين عالم الأخلاق والداعية الأخلاقي، كما لا نفرق بين المنظر اللغوي والمعلم اللغوي.

- أين التراكمات؟: لم يمارس الفكر النظري الديني عندنا، التراكم الذي مارسه الفكر الغربي، وهو تدرج من محورية الميتافيزيقا ومفهوم الإلوهية، إلى محورية الإنسان، ومن عقل يسيطر عليه الدين إلى عقل يعلن انفصاله عنه، وعندما شن ابن قتيبة الحرب على الفلسفة، استمرت المناقشة واتسعت وتعقدت، حتى تدخل ابن رشد الذي انتهى بالفشل (نفس المصدر السابق)، ومنذ ذلك الحين حتى اليوم، لم ندرس مشكلة الروابط بين العلوم الدينية والعلوم العقلية، بكل أبعادها الفكرية والحقيقية، وفكرنا الديني همه ردم الهوة بين فكر الأوائل وواقع حياتنا المعاصرة، وفكرنا العلماني غارق في الإيديولوجيات، والمشاكل التي وردت إليه حتى أذنيه، ولم يستطع أن يتخذ منها موقفاً نقدياً، أو أن يظهر أماكن التوافق أو التباين، بين أصول الماضي وحقائق الواقع.

- لماذا الانكفاء على الذات؟ يفتقر معظم الإسلاميين إلى العمق والاستيعاب لفكر الحضارة الغربية، وخاصة في جوانب الفكر الفلسفي،

ويكتفي بمقارنات عامة- المقارنة مثلاً: بين شك الغزالي والشك الديكارتي، وابن رشد وأرسطو، وفكر المعتزلة وفكر حركة التنوير- (نفس المرجع السابق) ولا اعتراض لدينا على هذا وعلى ربط معرفتنا بالمعرفة الإسلامية، لكن ما لا يمكن قبوله البتة، هو الوقوف عند تخوم المقارنة، فهذا انكفاءً على الذات ومسن ثم اجترارها على مدى الأيام والسنين، ولا نتخذها دافعاً للبحث والتنقيب، وتحديداً لمواضع اللقاء والافتراق، مثلما فعل الفارابي وابن سينا والرازي. وفكرنا الديني هذا يرفض معرفة ذاته برفضه لفكر الآخر، عكس الفكر الغربي، الذي لا تكتمل صورته عن نفسه إلا من خلال استيعابه لفكر الآخر، ولما أهملنا كل ذلك تقدم الاستشراق ليحتكر دراسة منهجية الإسلام، متحررا من كل حساسية تجاهه تمنعه عن تناول قضاياه الشائكة، وهذا الاستشراق اخترعه الغرب، لم نحاوره بجدية، ولم يحظ بأي اهتمامٍ نقديٍّ، لنتعرف على فرضياته وتوجهاته وآفاقه، وكل الشكر لإدوارد سعيد على ما قام به، ولولاه لبقي هذا الخطاب الاستشراقي منغلقاً علينا من حيث قوة المعرفة التي أقرته، وسبق أن استسلم له عددٌ من المثقفين والعلمانيين عندنا، وراحوا يرددون استشراقيةً مغرضةً واختزاليةً، وجعل هؤلاء من المستشرقين وسيطاً معرفياً، يفصل بينهم وبين مصادر المعرفة الأصلية.

- لماذا غابت الروابط بين الفكر الديني وينابيع المعرفة الأخرى؟ إننا قد عجزنا عن فهم الروابط القوية بين فروع المعرفة الإسلامية من نحوٍ ومعجميةٍ وأدبٍ وتاريخٍ وثيولوجيا وتفسيرٍ وقانونٍ (محمد أركون ١٩٩٨)) ومازال معظم المنظرين الدينيين التقليديين بعيدين عن المعرفة الكامنة وراء الفنون. أما حوار العلمانيين والإسلاميين ليس هو بحوار، وهذان التياران الإسلامي والعلماني يتحاوران عن بعد، من خلال الوسيط الغربي، فالإسلامي يتريص بالعلماني وبرواسب فكره الغربي، وفكرنا العلماني يستنكر على تيارنا الإسلامي عدم استيعابه لفكر الغرب. وهكذا تتوالى ردود الأفعال، من إسقاط الإيديولوجيات تعسفاً على أمور واقعنا، وأسلمة للعلوم، وإدانة للاستشراق بما فيه الجيد والرديء، واستغراب بالاستشراق، يتخذ من الغرب

- مستخدما أدواته - موضوعاً له، في الوقت الذي يتجه فيه علم الاستشراق نحو الزوال، واليوم يسعى الجميع لإدراج الاستشراق بالعلوم الإنسانية، وهذا يذكرنا بما قاله أدونيس عندما تساءل: ماذا يبقى للثقافة العربية الراهنة بعد أن نستقطع منها كل ما تم استعارتُه من فكر الغرب؟ وأخيرا وليس آخرا، إن تقاعسنا في فهم علاقة الدين بالعقل يمثل حجرَ عثرةٍ في طريق مجتمعاتنا العربية إلى دخول عصر المعلومات، الذي تسوده القوى الرمزية، وهو ما يتطلب فهماً عميقاً لموقع الدين في منظومة القوى الرمزية، كما يتطلب تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية، وهذا يؤكد أهمية اللسانيات وتكنولوجيا المعلومات كأداةٍ فاعلة لتحقيق هذه المهمة.

ب - الاستشراق في عصر المعلومات: لقد استفزنا الخطاب الاستشراقي لكنه لم يستنهضنا، وأثار حمية الكثيرين منا، وما أكثر ما هاجمنا وما هاجمناه واشتبكنا معه في معركةٍ غير متكافئة، ورغم كل ما يقال عن خطاب الاستشراق، انحيازه وتحامله، وكونه وليدَ المركزية الأوروبية، كما قال عنه حسن حنفي، ونشأ في ظل عنصريةٍ شرسةٍ لا ترحم، لكنه في جانب من جوانبه لا يمكننا تجاهله وخاصة بتطبيقه للمناهج العلمية في تناول الدين الإسلامي كظاهرةٍ اجتماعيةٍ تاريخية، وذلك بفضل وضعه المتميز في التعامل مع الظاهرة الدينية دون حساسية بل ببرودٍ مسرفٍ أحيانا، ولم يستطع هذا الفكر الاستشراقي أن يستنهض فينا اللغة وعلاقة السلطة بالمجتمع، وبعض الأمور الخاصة بالعلاقات مابين الفئات الاجتماعية، وقد جمع البحث الاستشراقي معلوماتٍ ضخمةً عن المجتمعات الإسلامية، وخصوصاً المجتمعات التي تتكلم اللغة العربية (نفس المصدر المذكور)، وهذه المعلومات ثروةٌ حقيقيةٌ لا يمكن الاستغناء عنها في بحوثنا الاجتماعية وبحوثنا الدينية واللغوية بصورة خاصة. وقد تعامل الاستشراق مع مراحل ثلاث في كلٍّ منها موقفٌ من طبيعة المعلومات - مرحلة ما قبل الخمسينات: قال لنا إدوارد سعيد، أن هذه المرحلة تعد نموذجا في إثبات صدق مقولة القوة. وذلك بأن القوى الاستعمارية قادرة على إنتاج خطاب معرفي يقوم على خدمتها.

فالتوسعات الاستعمارية، وسرعة انتشارها، لم تعط هذا الخطاب فرصة كافية ليجيء انتقائيا واختزاليا من حيث مصادر المعلومات، أو مناهجه أو نتائجه. - بعد انحسار موجة الاستعمار: تركز الجهد الاستشراقي على تجميع المعلومات وتنظيمها، وساده طابع التحقيق والتوثيق والأرشفة، فكان استشراقا عن الماضي مقطوع الصلة عن الواقع الراهن (نفس المصدر السابق). - عندما استرد الإسلام حيويته:

ومع تعاظم دوره في الساحة السياسية، انتقل مركز الثقل من فرنسا التي شغلها إسلام الماضي إلى الولايات المتحدة، التي قادها فكرها البراغماتي إلى التركيز على إسلام الحاضر وممارساته الفعلية، ودراسته من خلال تحليل نوعيات خطابه المختلفة، وساعد أمريكا في ذلك نمو التوجه اللغوي في التنظير الثقافي، حيث أمريكا تقود التنظير اللغوي عالمياً، وينشغل الخطاب الاستشراقي الأمريكي بمشكلات محددة مثل: الأقليات، وعلاقة الفرد بالدولة، ويسيطر على فكره توجهٌ محوريٌ نحو وضع نظريةٍ عامةٍ للتراث الديني والدين المقارن، وهذا ما يحول بينه وبين التعمق في خصوصيات الدين الإسلامي.

ج - **أسلمة المعرفة تحت عدسة المعلومات**: بعضهم يقول بتوسيع نطاق أسلمة العلوم، ليشمل جميع علوم الطبيعة والإنسانية والتكنولوجيا والفنون والفلسفة. ويبدو هنا توجهين اثنين هما: التوجه الأول: لا يفرق بين علوم الدين والدنيا، (لا معنى لهذه التفرقة في جغرافية الإسلام)، وهذا التوجه نستطيع أن نُفَرِّعَهُ إلى فرعين: أحدهما: يتبنى أسلمة جميع العلوم المعرفية من الصفر، والثاني ينظر إلى أسلمة المعرفة نظرةً انتقائيةً تقوم على الازدواجية، تصفية المعرفة المستوردة بما يتناقض مع عقيدتنا وقيمنا من جهة، وتعزيز العقائد وتلك القيم من جهة أخرى. - التوجه الثاني: يفصل بين علوم الدين والدنيا، ويمكن أن نفرعه إلى قسمين، أحدهما: يتبنى استيراد التكنولوجيا من دون الإيدولوجيا، والثاني يتبنى حصر الأسلمة في العلوم الإنسانية دون العلوم الطبيعية، وهذا التصنيف يفتح باب المناقشة على

مصراعيه - فيما يخص أسلمة جميع فروع المعرفة وهو أكثر توجهات المعرفة طموحاً، وهذا قريبٌ من موقف (نيتشه) مع اختلاف الدوافع، والذي تبناه من بعده فكر ما بعد الحداثة، في رفضه جميع الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، وهذا يقوم على أساس صلاحية الإسلام لكل مكانٍ وزمانٍ، وأن الأصول الإسلامية التي يقوم عليها الإسلام كفيلةٌ بإحداث الثورة العلمية، معتمداً على النص القرآني، باعتباره مصدراً علمياً دقيقاً وهذا التوجه يتناقض مع داخله وخارجه على حد سواء، ويمكن أن نوجزها بالتالي: - تناقض تاريخي: أكدنا أن قدرة الإسلام بلغته ومعرفته وقيَمه قادرٌ على التعامل مع معرفة الآخرين، وتجلى هذا أثناء الفتوحات الإسلامَيةَ - تناقض معرفي: عادة ما ينطلق العلم من نظرياتٍ فلسفية، وليس لدينا من هذا شيء نبني عليه علوماً خاصة بنا، ويؤدي إلى قتل الوقت والجهد في الاشتباك مع قضايا أولية سبق للفكر الإنساني أن حسمها بصورةٍ قاطعةٍ - تناقض مع معرفة عصر المعلومات: بحيث تغفل الأسلمة الشاملة توجه هذه المعرفة نحو ضم الخاص في إطار العام، بعد أن وفرت تكنولوجيا المعلومات الوسائل العلمية لدعم التنظير العلمي العابر للثقافات والتخصصات، ومن أوضح الأمثلة على ذلك نجاح علم اللسانيات الحديث، في وضع نظرية لجميع اللغات الإنسانية دون المساس بخصوصيتها.

- **وعلى الجانب العلمي:** أين الموارد البشرية والمعلوماتية القادرة على اختصار الزمن (٢٥٠٠) عاما من الفكر الفلسفي والعلمي في فترةٍ قصيرةٍ نسبياً؟ وهل تسمح لنا السرعة التي تسير بها المعلوماتية وذات الطابع المؤسسي بفسحةٍ من الوقت لنجري تجاربنا المعرفية؟ وإذا كنا قد عجزنا حتى الآن عن ترجمة مصطلحات هذا العلم، هل يحق لنا أن نعتبر الأسلمة المعرفية هذه ضرباً من رد الفعل؟ وما المانع إذا ابتدأنا من حيث انتهى إليه الآخرون، وأن نضع جهدنا الإنساني والفكري في مسار الفكر السليم؟ وعظتنا في ذلك فكر الغرب، وهو على تقدمه ونضجه لا يَجِدُ حرجاً في التنقيب في الفكر المغاير وحتى البدائي، بحثاً عن الجديد من القَيم والينابيع الجديدة، التي يحتاجها في معركة الحاضر بإشكالياته المتعددة.

- **أسلمة المعرفة انتقائياً**: نحن نقدر دوافعه ونحترمه إلا أنه توجه محفوف بالمخاطر، لأن العلم بناءٌ معرفيٌّ متكاملٌ، لابد أن نقوض منه بعض الأفكار الرئيسية التي قام على أساسها، مع إدراكنا أن الأمور الخاصة بالعقائد عادة تقع في قلب النظرية لا في أطرافها الثانوية، ومثالنا على ذلك: (نظرية الفلك. ونظرية التطور، ونظرية التاريخ، ونظرية اللغة، ونظرية علم النفس) ولو افترضنا أخذنا علم البيولوجيا الجزيئية، دون مفهوم نظرية التطور لتناقضها مع نظرة الإسلام إلى نشأة الإنسان، كما يتصور البعض فهذا الاقتصاص النظري يقوض الأسس التي قام عليها هذا العلم من أساسه، وهو يذكرنا بما قام به ليسنكو في عهد روسيا الستالينية، عندما رفض توجهات البيولوجيا الجزيئية على أسس إيديولوجية، وما تعرض له علماء البيولوجيا الروس، من غوغائية تفسيره لفكر ماركس ولينين في هذا الخصوص، وهو ما أدى إلى التخلف الحالي الذي تعاني منه روسيا في مجال الهندسة الوراثية، والبيولوجيا الجزيئية. وكل ما نخشاه أن يمارسَ عليها البعضُ غوغائيةً إيديولوجيةً ذات صيغةٍ محلية، لتحول بيننا وبين اللحاق بهذا الفرع العلمي التكنولوجي الحيوي، والذي يوليه العدو الإسرائيلي أقصى درجات الاهتمام، لأن هذا الفرع المعرفي يعد نفسه في الوقت الحاضر للقاءٍ علميٍّ تكنولوجيٍّ عظيمٍ مع تكنولوجيا المعلومات، وهذا اللقاء سيتوقف مصير البشرية عليه بما يسفر عنه من نتائج.

- **توجه اقتناء التكنولوجيا**: إن اقتناء التكنولوجيا يبدو لامعا براقا في ظاهره دون الايدولوجيا، ولكنه ينطوي على رؤية قاصرة عاجزة للتكنولوجيا حيث تقتصر على شقها الفني فقط، بطريقة تعسفية، دون المعرفي والتنظيمي والأخلاقي، والتكنولوجيا هذه تكاد أن تصبح فرعاً من فروع فلسفة الأخلاق، وكيف يحق لنا أن نقتص من الهندسة الوراثية شطرها الأخلاقي، وكيف لنا أن نفصل في تكنولوجيا صناعة البرمجيات القائمة على صناعة الأفكار في الأساس، بين ما هو فني، وما هو ذو صلة بالإيديولوجيا (علم الأفكار)؟ وماذا عن هندسة اللغة وما يرتبط بها من تكنولوجيا المخ، التي تقوم على الأسس

العلمية لنظرية اللغة؟ وهي النظرية التي تقوم على سؤال محوري: هل اللغة غريزة تُوَرّثُ أم مهارةٌ اجتماعيةٌ تكتسب، وماذا عن الجانب الأخلاقي لتكنولوجيا المعلومات فيما تؤدي إليه إلى انقراض اللغات الإنسانية؟

- توجه حصر أسلمة العلوم في مجال العلوم الإنسانية دون علوم الطبيعيات، هو أكثر بدائل أسلمة المعرفة واقعيةً، يعتبر استثمارا لخصوصياتنا المعرفية والحضارية لإنتاج معرفة جديدة، وتفجيراً لقدراتنا الإبداعية، وهذا يذكرنا بالأوائل الذين أخذوا الفكر الإغريقي دون ألوهيات اليونان وأساطيرهم، وكيف أخذت الحضارة الغربية عن الحضارة الإسلامية دون أن تأخذ توحد الإسلام وقيمه وشريعته وفلسفته ونظرته إلى الكون (محمد عابد الجابري ١٩٨٩) حسبنا عدم قيامنا بأسلمة علوم الطبيعيات حيث بات أمراً بدهياً في غير حاجة إلى مزيد من حيثيات التبرير. أما اقتراح أسلمة العلوم الإنسانية هو توجه يحتاج إلى نظرة متأنية ومتعمقة، ويجب أن نأخذ في اعتبارنا الحقيقتين التاليتين: - هدف الإنسانيات: تسعى الإنسانيات إلى الانضمام إلى مستوى العلوم الدقيقة، ويتزايد اعتمادها على علوم الطبيعيات كمصادر معرفية. - علوم الإنسانيات في بدايتها: فكيف لنا أن نلحق بمسارها دون أن ننغلق في قمقمنا الفكري، فكرٌ نقيمه بأنفسنا وحولنا، لعزلنا عن غيرنا؟ أم ننتظر نضجها العلمي ثم نُسَرّعُ في أسلمتها؟ أليس من المجدي أن نلحق بها في بدايتها؟ نطوع ما هو خاص بنا في إطار العام الإنساني؟ والذي يخصنا نحن بدلاً من أن نظل نؤسلم حتى نستسلم، ومثالنا على ذلك إدوارد سعيد في تحليله المعرفي لخطاب الاستشراق، حيث تجاوزت نظرته العلمية الخاص العربي والإسلامي، ليصب في مسار التنظير الثقافي العالمي، ولا سيما ما يخص علاقة القوة بتوليد المعرفة، وقد أقر محمد أركون اقتراحه الخاص بالإسلاميات التطبيقية باعتباره فرعاً من فروع الأنثروبولوجيا الدينية (محمد أراكون ١٩٨٩).

- كيف نحل أزمة فكرنا الديني؟ إن علاقة الدين الإسلامي بالفكر قد استقرت، بين فكرنا الذي يخشى اقتحام تخوم التحريم التي أقامها حول

نفسه وتكاليف الاقتحام، بينما يشكو من نقص في عتاده المعرفي ومناهجه ومصادر معلوماته، وبين فكر الاستشراق، الذي ينحاز إلى المنهج على حساب الموضوع، ويكتفي بالجرد المعرفي والتسجيل والحصر، ويحجم عن التحليل والدخول في التفاصيل، وينأى عن تناول الخصوصيات الثقافية عبر لهفته على إقامة نظريات عامة في مجال اللغة والتراث ونظام القيم والأخلاق، علاوةً على ذلك وكلا الفكرين يرفض التواصل مع الآخر وشبه إدوارد سعيد الحوار بينهما بحوار الطر شان، إن الهدف من تحويل مسارنا الفكري الذي يتسم بطابع رد الفعل إلى رافد علمي يصب في المسار العلمي العام، وكما اقترح محمد أركون بشأن الإسلاميات التطبيقية، يمكن لنا أن نقترض المنهجيات لتطبيقها على موضوعات وإشكاليات منبثقة من واقعنا، ويتيح لنا هذا أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون، لأجل اللحاق بهم في جولاتهم القادمة لتطوير مناهج العلوم الإنسانية، ولا عيب في هذا الاقتراض المنهجي، وكلنا يعلم أن اليابان قد أقامت مجدها التكنولوجي على استيراد براءات الاختراع، قبل امتلاكها القدرة على توليد معرفة جديدة، وهاهي تصدر براءاتها، أما فيما يخص الموضوعات، فما أكثرها لدينا، نظراً لتعدد الظاهرة الإسلامية، وثراء مضمونها، والوضع الفريد لنصها المحوري داخل منظومة المعتقدات والقيم، إضافة على حالة الفوران الشديد التي تعيشها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وما يعكسه صراعنا مع العدو الصهيو أمريكي، من المُحَتَّم أن يولد كل هذا إشكاليات جديدة، يتفرد بها فكرنا العربي، وهي إشكالياتٌ اعتاد أن يختزلها الفكر الغربي في إطار مقولات الإرهاب الأصولي، والإسلام السياسي، والنسبية الثقافية، ولدينا كثيراً من الإشكاليات القادرة على استثارة باحثينا، ومن حسن الحظ أن جميع علوم الإنسانيات تعتمد على علم اللغة، بصورةٍ أو بأخرى، وقد نجحت علوم اللسانيات الحديثة في إدراج الخاص اللغوي في إطار رؤيتها العامة الشاملة للغات الإنسانية. وقد كان لعالم اللسانيات المغربي (عبد القادر الفاسي الفهري) إسهاماته الخلاقة في أغناء هذه النظرية اللغوية، منطلقاً من خصوصيات اللغة العربية وهي

الإسهامات التي أقر بأهميتها نعوم تشو مسكي، صاحب هذه النظرية العامة، أما عالم اللسانيات اللبناني جوزيف عون، يضع مثال اللغة العربية في بؤرة تنظيره، وقد أصبح من علماء اللغات عالمياً، وتؤكد تجارب الكثيرين من المنظرين العرب، جدوى أن نبدأ مما انتهت إليه اللغة الإنكليزية، ونتوسع من ذلك انطلاقاً من أجل الوفاء بمطالب اللغة العربية، وهو ما أدى بعد ذلك إلى تطوير نماذج تكنولوجية للغة العربية، تفوق تلك المصممة للغة الإنكليزية، لسبب بسيط مؤداه: أنّ اللغة العربية تنطوي لغوياً ومعجمياً وحاسوبياً على العديد من الإشكاليات، غير الواردة في اللغة الإنكليزية، في حين جميع إشكاليات اللغة الإنكليزية تندرج في إطار اللغة العربية. وعلى مستوى آخر كما قال سمير أمين إنّ الثقافة الغربية الجديدة والتي نشأت مع الحداثة ليست هي استمرارٌ لمسيرة المسيحية، وإنما أقيمت على أساس قطيعة تامة من التراث المسيحي (تركي الحمد ١٩٩٩) والبعض ينادي بقطع العلاقة مع تراثنا العربي والإسلامي، كشرط للحاق بركب الحداثة، وهذا يحتاج إلى مراجعة في ضوء متغيرات عصر المعلومات، والتي أدت بالفكر الغربي الحديث إلى التخلص من هذه النظرة القاصرة إلى أهمية التراث، ولا يستقيم الفكر دون أيديولوجيا معرفية، تربط الماضي بالحاضر، في مسار متصل، حتى يتسنى له فهم هذا الحاضر واستقراء مستقبله، ولا شك أن تكنولوجيا المعلومات أداةٌ فعالةٌ لإعادة صلتنا بالتراث على أسس أكثر موضوعية وشمولية، ولا بد من استغلال وسائلها لإعادة فرز الخطاب الاستشراقي، من حيث مصادره أو مناهجه وتحضير لتدقيقه عبر نظرة نقدية متعمقة، تنخل حصاده، لأجل الفصل بين الموضوعي والإيديولوجي، وبين العلمي وشبه العلمي، خلاصة القول: إن حُسْنَ استغلالنا لتكنولوجيا المعلومات هو وسيلتنا لاختصار المسار العلمي المنهجي، وتوفير البنية التحتية للتنظير الديني، الذي يتعامل مع الظاهرة الدينية في سياقها الاجتماعي

- **اللغة والدين لدى الغرب:** - ما علاقة اللغة بالنصوص الدينية؟ - إنّ علاقة اللغة بالنصوص الدينية السماوية على وجه الدقة، تتميز بالتالي: نشر

الدعوة الدينية بلغات متعددة، لتلبي مطالب العولمة الثقافية. – علاقة النسبية الثقافية، بالنسبية اللغوية، وعلاقة كلتيهما بالكيفية التي يقرأ بها الفرد نصه المقدس – الجانب الأخلاقي وقد سبق الإشارة إليه، فيما يخص انقراض اللغات بفعل المعلوماتي والإعلامي – علاقة عولمة الثقافة بعولمة اللغة، وعلاقة كلتيهما بدراسات الدين المقارن، في إطار التوجه نحو إقامة خَلْقٍ عالميٍّ تقره كل الثقافات. والأهم من هذا كله، أن اللغة تحمل في جوفها رواسب إيديولوجية تعكس الجماعة الناطقة بها، ولا يقتصر ذلك على ما اعتدنا الحديث عنه حول أثر الثقافة السائدة في مفردات المعجم، مثل مفردات: الصحراء. والجمل. والناقة في معجمنا العربي، أو على صيغ (كثير الرماد أو التشبيه المجازي (مثال قاطرة الصحراء) بل توجد هذه الرواسب في صميم المنظومة اللغوية، ومثالنا على ذلك، التعامل مع ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة العربية، وتفضيل المذكر على المؤنث في مطابقة الفعل والفاعل، ومثالنا على ذلك (جاء المرأة وطفلها) وتأنيث جمع غير العاقل، مثالنا على ذلك (مبانٍ شاهقاتٍ)

– **اللغة العربية والدين:** كل لغات الأرض قادرة على توصيل رسالة الرب، هذا هو المفهوم الذي تنطلق منه الكنيسة حالياً في عولمة جهود الدعوة. على العكس من ذلك يُعَارَضُ لدينا توجه تعدد اللغات هذا. ويزعم الجابري أن الوحدة الإسلامية لن تتحقق من منظور إسلاميٍّ، إلا عندما يتعرب غير العرب من المسلمين لساناً وثقافةً، (مع الحفاظ على اللغات واللهجات والثقافات المحلية). ويقول الجابري إن الإسلام من دون لغة القرآن وعلوم القرآن إسلامٌ ناقصُ الماهية (محمد عابد الجابري ١٩٨٩). واللغة العربية هي جزءٌ من ماهية القرآن كما يرى الأصوليون، وهذا الكلام لا يخلو من المخاطر، ويجب إعادة النظر فيه لأن تفرد اللغة العربية هنا قد لا يروق للآخرين. وذلك للأسباب التالية: – هذا القول يتضمن نزعةً لغويةً طبقيةً، كما يتناقض مع النظرية العامة للغة، والتي تؤكد تكافؤ اللغات جميعها من حيث قدرتها على نقل المعاني. – يتناقض تفرد اللغة العربية مع النظر إلى التنوع الثقافي

بين المجتمعات الإسلامية كمورد ثقافي خلاق وثري في عصر المعلومات - يتعارض مع انفتاح اللغة العربية، وهي بالحقيقة لغةٌ منفتحةٌ ولو كانت منغلقةً لما استوعبت كل تلك التراكمات الهائلة (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨). - وهل لنا أن ننسى فضل علماء المسلمين من غير العرب على تنظير اللغة العربية مثل: سيبويه والجرجاني وغيرهم كثيرون. - إن هذا التوجه يؤدي إلى عزلة وطننا العربي بصفته مركز الدعوة الإسلامية، عن الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، وخاصة أن العدو الصهيوني له ميزةٌ تنافسيةٌ في هذا الموضوع، ونقصد اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي، وهؤلاء يتكلمون اللغة الروسية كأهلها. - إن قراءة النص مترجماً إلى لغات الشعوب الإسلامية، هي الوسيلة الوحيدة لنقل مضمونه إلى عقل المسلم غير العربي، وتجربة ترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية جديرة بالعناية والاهتمام. - وعلى المستوى العملي، أين تلك الموارد التي تسمح لنا بترجمة تراثنا العربي، إلى لغات الشعوب الإسلامية غير الناطقة بالعربية؟ ونستطيع القول أن الجابري لا يقصد بتعريب الثقافة أن يكون مقصورا على النصوص الدينية الكبرى دون النصوص الأخرى التي لا غنى عنها في نقل ثقافتنا العربية. وخلاصة القول: أن من الأفضل لنا تأصيل الوضع العالمي للغة العربية من خلال الدراسات المقارنة واستغلال التنوع الثقافي على اتساع العالم الإسلامي لاغتناء ثقافتنا العربية والثقافات الإسلامية وترابط الشعوب الإسلامية.

- **التربية والدين في الغرب**: يظهر التعليم اللاهوتي اهتماماً واضحاً من بداية التسعينات، بشأن العولمة، وإدراج مطالبها التربوية ضمن تنظيماته ومناهجه، ويرى أن عولمة الفكر الديني هو سياقٌ اجتماعيٌ أكثر مما هو مضمونٌ معرفيٌ، وهذا يتطلب إعادة النظر في مواد الدراسة، لإضفاء طابع العولمة عليها، وقد أقرت المؤسسة الأكاديمية اللاهوتية مداخل عدة للوصول إلى هدفها وهي التالي: - النص الإنجيلي: تعدد القراءات عبر ثقافات متعددة - التشريع: من منظور عولمة القوانين ومبادئ الخلق العالمي. - البحث

اللاهوتي من منظور الدين المقارن. - منهجيات التعليم والدعوة: التركيز على أساليب الحوار والتفاعل الاجتماعي، وتبادل الوفود والبعثات واستغلال شبكة الإنترنيت لحوار الأديان. وهذا لا يتطلب تعديلات جذرية على المناهج فقط، وإنما تغيير الأفكار الراسخة في العقل المسيحيّ، وخاصة فيما يتعلق بالمركزية الأوروبية. (والعربية على العموم)

- **التربية والدين لدى العرب:** كان القصد من إبراز مدى الاهتمام الذي يوليه التعليم اللاهوتي لظاهرة العولمة، كي تدرك جامعاتنا الدينية مدى مسؤولياتها إزاء هذه الظاهرة الكونية، نحن في عالمٍ بلغ فيه تعداد المسلمين ما يقارب المليار أي سدس سكان الأرض، وعلى مؤسساتنا الدينية أن تجمع أفضل ما في القلب والعقل، وأن تدرك كيف يعطي هذا الحوار ثماره بصورة أجدى وأعمق، وقلبٍ أكثر ثقةً وتفاؤلاً ورحمةً، وهو يتطلب إعادة النظر في جميع مناهج جامعاتنا الدينية وعلى رأسها الأزهر. لقد حان الوقت لإعادة تنظيم الأزهر، الذي وضع له آخر تنظيم في بداية الستينات، تجاوباً مع المتغير المعلوماتي، وثقافةً هذه المؤسسة المركزية قائمة على التراتبية المتسلطة، معتمدةً طابع التلقين، وفتاوى الفتنة الظالمة، التي أطلقها الشيخ القراضاوي ضد المسلمين إزاء بعضهم، في ثورات الربيع العربي (٢٠١١)❖. ولكن لقاء التعليم والإيمان في الكليات العملية التابعة لجامعة الأزهر، مثلها في ذلك مثل الجامعات الدينية، التي أظهرت انحيازاً إلى صف التعليم، على حساب التنشئة الدينية، وتمثل هذه الجامعات نموذجاً لمزج القيم الروحية مع المعرفة العلمية. وخاصة مع تنامي البعد القيمي والأخلاقي في العلم والتكنولوجيا.

- **الإبداع والدين لدى الغرب:** يمكن للفكر الديني أن يكون دافعاً إلى الإبداع، كما يمكن أن يكون عائقاً له، وقد أطلق الفكر البروتستانتي حرية الإبداع بعد أن تحرر العقل الأوروبي من تسلط الكنيسة، وأصبح هذا الفكر أكثر وعياً بدوره في تنمية الإبداع، فالناس هم من يصنعون تاريخهم، والمستقبل يفتح ذراعيه للجميع، كي يساهموا في إبداعهم، وليس عند المسيحيين، ما يقابل تلمود اليهود وفقهَ المسلمين (سمير أمين ١٩٩٩) ومن

جهة ثانية يعد التراث الديني بنصوصه ورموزه وطقوسه مصدراً لا ينضب للإبداع شريطة مداومة تجديد النظرة إليه.

- **الإبداع والدين لدى العرب:** من الحاجة الماسة أن يتحول ديننا إلى مصدر إلهام لمبدعينا، على اختلاف اهتماماتهم، والمفتاح هو تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية الكبرى، والمتكلمون أنكروا التقليد، وشككوا في صحة إيمان المقلد إلى حد تكفيره (أرثور سعدييف ٢٠٠٠) واعترضت المعتزلة على الإجماع على خطأ، والاعتماد على ظاهر النص، دون تأويل لحقيقة الدين (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨)، وعلينا أن نتخلص من المفاهيم الخاطئة التي يرددها البعض، من أن نصوصنا الدينية جاءت جامعةً قاطعةً في كل ما يرتبط بالدين، ابتداءً من عقيدة التوحيد، وانتهاء بإماطة الأذى عن الطريق، مما لا يترك فرصةً للاجتهاد، وفي رأينا: إنَّ شمولية النصوص تعني مواجهةً على جبهةٍ أوسع وأعمق، مع إشكاليات حياتنا المعاصرة، وقدرةً أكثر على طرح الأسئلة والقضايا. ونصنا الديني المحوري يتفرد بتوافر نص ديني شريف (السنة النبوية) مفسراً لما جاء به، ولنا ألا نحرم فكرنا الديني من هذه الميزة المعلوماتية الفريدة.

- **منظومة القيم والمعتقدات: إطارها العام:** تتضمن ثلاثة مكونات رئيسية من منظور معلوماتي وهي: - العلاقة الخارجية التي تربط المنظومة بخارجها. - مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم. لاشك أن الأداء الكلي لمنظومة المعتقدات والقيم، يتوقف بصورةٍ أساسيّةٍ على موقع الدين من المنظومة المجتمعية وشكل التنظيمات الدينية التي ترعى مصالحه، وأن دَوْرَ الكيانات الدينية المركزية يتقلص في عصر المعلومات، وتتوزع مهامها بين عناصر البنى التحتية وشبكة المؤسسات والجمعيات الأهلية التي تربط المنظومة بخارجها - عناصر البنى التحتية: تشمل مؤسسات الفقه والافتاء والبحوث والدراسات الدينية، وكذلك الموارد البشرية من دعاةٍ ومنظرين وفقهاء إضافة إلى الموارد المعلوماتية الدينية، وموارد المعلومات العلمية، والتي تشمل إلى جانب النصوص الدينية موارد المعلومات العلمية والتكنولوجية ذات الصلة بها والأرشيفين السمعي والبصري للتراث الديني.

- العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم الغربية:

أ - ما علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالمجتمع كله؟ الدين تنزيل إلهي، ومعطى سماوي، وعلى الجماعات أن تؤمن به وتخضع لمبادئه وتسير على هداه، هذه الحقيقة لا يُسَلِّمُ بها علماء فلسفة الدين واجتماعه وتاريخه، ويرى هؤلاء العلماء أن العلاقة بين المجتمع ونظام معتقداته، علاقةٌ متغيرةٌ لأن كل مجتمع يفرز نظام المعتقدات والقيم الذي يلبي مطالبه، وينسجم مع نمطه الاجتماعي، وبنية مجتمعه الداخلية، إن نظام المعتقدات متغيرٌ تابعٌ لهذه العوامل المجتمعية، يشمل السحر وعبادة الأوثان، وتعدد الآلهة، والإيمان بالبعث، والاعتقاد بوجود ذات إلهية عليا، وهو نظامٌ ممتدٌ على أوسع نطاق، وينتقيَ المجتمع نظام معتقداته وفقاً لعوامل عدة منها : - الطابع السائد : أثناء حصول الأفراد على حاجياتهم عبر الصيد والرعي والغذاء البري أو الزراعة - البناء الطبقي للمجتمع: هل هناك طبقةٌ واحدةٌ، أم طبقتان، أم هناك مستوياتٌ اجتماعيةٌ متعددةٌ، وما هي الفوارق الاجتماعية بين هذه الطبقات، وما طبيعة العلاقات القائمة بينهم؟ - ما شكل وحدة البناء الرئيسية للمجتمع؟ونقصد الأسرة النواة، هل هي أسرة الأب الشائعة أم أسرة العم أم الخال؟ وهذا يفرز نظاماً خاصاً للمعتقدات والقيم والأخلاق، ويحدث نقلات نوعية في العوامل الثلاثة المذكورة أعلاه، وما يؤيد ذلك انصهار تكنولوجيا المعلومات في المجتمع، ولا جدال في أن المعلوماتية ستدخل في أسلوب حصول الفرد على احتياجاته الأساسية، ومن المؤكد أنها ستؤدي إلى تغييرات جذرية في هيكلية الطبقات الاجتماعية، وستتغير تبعا لذلك شكل الأسرة النواة، في ظل السيولة الهائلة لتنقل الأفراد بين الأماكن والأعمال، وقدرة الجماعات الخائلية للانترنيت على تشكيل روابط عدة، قريبة من التآلف الأسري. ويمكننا القول: إن العلاقة بين الدين والمجتمع تتراوح بين كونه دافعاً أو عائقاً وإما أن تكون البنى الدينية من أجل صيانة البنى الاجتماعية الأخرى، وإما أن تكون عائقاً أمام التطور كما كانت الحال في اليابان قبل النهضة، وقد أكد مصلحوه الاجتماعيون على ضرورة إحداث تغييرات جذرية في نظام قيمه

ومعتقداته وتقاليده، حتى استطاع أن يحقق النقلة الحضارية للمجتمع الصناعي، وبالحقيقة كانت حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، محاولةً للتوفيق بين الدين والأخلاق من جهة ومصالح المجتمع الأوروبي من جهة ثانية، الآخذ في التطور. (محمد مرسي ١٩٩٣) لم يعد من الممكن بالنسبة لمجتمع المعلومات، أن يبقى يراكم تغيراته حتى يأتي الإصلاح الديني، ويضبط العلاقة بين الدين والمجتمع، فعصر المعلومات يتطلب تناغماً مستمراً، واستمراراً للتكيف الدينامي، وهذا أمر بات ممكناً نتيجة الشفافية العالية التي توفرها تكنولوجيا المعلومات، إن شفافية العلاقات الخارجية لمنظومة الدين، ودينامية العلاقات الداخلية، بين عناصر هذه المنظومة، هما الضمانان لترسيخ دور الدين في منظومة المجتمع، الذي صار في حاجة إلى القيم الروحية والزاد الأخلاقي، بقدر حاجته للعلم والتكنولوجيا، والتنظيم. لقد اتسم الخطاب الديني بالفردية، لأنه يركز على خطايا الأفراد، وضبط سلوكهم، ومدى التزامهم، في الوقت الذي يغض الطرف عن أخطاء المؤسسات، وستكشف شفافية عصر المعلومات عن هذا الانحياز، وعلى المؤسسات الدينية أن تحول نظرها إلى خطايا المؤسسات الاجتماعية العلمية والاقتصادية والتربوية والإعلامية والسياسية، لأن فساد الفرد في مجتمعه ناتجٌ عن فساد مؤسساته.

ب – **ما العلاقة الدينية السياسية؟** (كل شيء لأصدقائي، أما غيرهم فلهم القانون) (جابر عصفور ١٩٩٧) وهذه المقولة لسياسي برازيلي، تؤكد أن القانون ليس مرادفا للعدل، وكلما تدخلت السياسة اتسعت الهوة بينهما. وهناك تناقض بين برجماتية السياسة وإجراءاتها القصيرة الأجل، وبين سمو القيم الروحية وعدم زمنيتها. والتاريخ الإنساني شاهد أنه ما اقترن الدين والسياسة مرة، إلا واقترن لقائهما بالصراع أكثر من صناعة السلام، ودليلنا على ذلك الصراعات الدينية بين المسلمين والهندوس في الهند، وبين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا، فالماضي والحاضر مملوء بالحروب الدينية والنزاعات الطائفية، إن مستقبل مجتمع المعرفة مهدد بصراعٍ إنسانيٍّ

خطير، بفعل تنافس ساسته، واضطراب قيمه ومعتقداته، وهذا يتطلب ضبط العلاقة السياسية الدينية في هذا المجتمع الوليد. ولا شك أن اتخاذ القرار السياسي أصبح عمليةً صعبةً، تحتاج إلى وسائلَ تكنولوجيةٍ لدعمها، وهذا يحتاج بدوره إلى إشراك الخبراء في صناعة القرار السياسي، ويترتب على ذلك افتراض الثقة في أمانة هؤلاء الخبراء وقدراتهم. وتبرز في هذا المجال أهمية أخلاقيات الأمانة المهنية من جانب الخبراء، والالتزام الأخلاقي من قبل الساسة بعدم إساءة استخدامهم هؤلاء الخبراء لإضفاء الوجاهة العلمية على قراراتهم، وعزل جماهيرهم عن المشاركة فيها، وكلنا يعلم كيف لجأ الحاكم إلى الكاهن والساحر. أما اليوم فهو يلجأ إلى العلماء في الوقت الذي أصبح فيه هؤلاء تحت سيطرة وتمويل الحكومة، والعلم بدوره أصبح مؤسسيٌّ نظراً لجبروته وضخامته والحجم الكبير لميزانيته، وهكذا فقد العلماء استقلاليتهم وعجزوا عن التصدي للساسة، ولما عجزت الحكومات عن تمويل المشاريع العلمية، أصبح هؤلاء العلماء رهينة المنظمات الاقتصادية، وهذه تحتاج إلى عقلنة من نوع آخر، يمدها بها العلم على شكل بحوثٍ علميةٍ، وخاصة تلك التي تخفف من أضرار التدخين، وتبرر عدم التزام مصنّعي السيارات بمعايير الحد الأقصى لانبعاث نسبة ثاني أكسيد الكربون في عوادم السيارات. ويمكننا القول أن الموقف يتحرك من محورية العلاقة بين الدين والسياسة، إلى محور آخر بين الدين والاقتصاد.

ج - **ما العلاقة الدينية الاقتصادية؟** كنا قد بدأنا حديثنا عن الدين والسياسة بقولٍ لسياسيٍّ برازيليٍّ، نستطيع الآن أن نبدأ حديثنا عن العلاقة الاقتصادية الدينية بمقولةٍ لاقتصاديٍّ أمريكيٍّ، حين أعلن بجرأة: (من الممكن أن تحل مشكلة تلوث الهواء عندما يتحول الهواء إلى سلعة). إن هذا لم يعد مستبعداً، ففي شوارع مدينة طوكيو صنابير استنشاق الهواء يستنشقها المختنقون من هواء العاصمة اليابانية الشديد التلوث، من نفحة من الأكسجين يدفعون ثمنها نقداً، فكل شيءٍ أصبح في مجتمع السوق قابلا للتوزيع كسلعة، إذاً أصبح كل شيء قابلاً للبيع والشراء: منتجات طبيعية، أو صناعية. أو

معلوماتية، أو إبداع. والمنطق الأخلاقي يقول: يجب ألا تتحول حاجات الإنسان الأساسية إلى سلعة، والمعلومات بالفعل آخذة في التحول إلى سلعة، بعد أن أصبحت حاجةً أساسيةً، وقد ثبت كونها مورداً لا غنى عنه لإنتاج غذاء الإنسان. وتوفير مسكنه وملبسه وتعليمه ورعاية صحته والترفيه عنه، وأصبح تسليع المعلومات أحد الجوانب الرئيسية للعلاقة بين منظومة الاقتصاد، ومنظومة القيم والأخلاق، وقد وقف الدين إلى جانب الاقتصاد، عندما وقفت الكالفينية إلى جانب الرأسمالية الصناعية، من خلال تحديثها للمفاهيم المسيحية حول الفضيلة واستثمار الأموال، وكما كان اقتصاد (آدم سميث وكنز) بمنزلة عقلنة الخطاب الرأسمالي، يبحث دين العولمة الجديد عن صيغٍ جديدةٍ لعقلنة عولمة الاقتصاد، وحتمية النموذج الرأسمالي الليبرالي.

- تناقض الخطاب الديني والاقتصادي: ولا يقل تناقضهما عن ذلك ما بين خطاب السياسة وخطاب الدين، وربما يكون أكثر حدةً وخطورةً، في ظل المتغير المعلوماتي. لقد تخلى الاقتصاد الكلاسيكي نهاية القرن التاسع عشر، عن غايته المتضمنة توفير سبل الإعاشة. وكما انفصل العلم عن الدين، كان لابد للاقتصاد أن ينفصل عنه، ليدخل عضوية نادي العلوم الدقيقة، ويبقى اللاهوت في خدمة الرب مع عدم المساس بقوانين السوق، وثبت بالدليل أنَّ اللاهوت الليبرالي يعمل تحت الشروط التي وضعتها نظرية الحرية الطبيعية وقوانين السوق، لقد شدد الاقتصاد الحديثُ الخناقَ على الدين في أن يسهم في العمل العام، لإعادة التوازن بين موارد البشر واحتياجاتهم، وهذا ترك للاقتصاد حريته ليعمل على هواه، دون وازعٍ أخلاقيٍ، حتى انتهت به الحال إلى ما هو عليه: من عدم العدالة في توزيع الموارد والعوائد، في الوقت الذي يزعم فيه أن مهمته الأساسية ترشيد استغلال هذه الموارد واستثمار تلك العوائد، من أجل صالح الجميع، وكل هذا سيؤدي إلى تراكم الثروة المالية كمصدرٍ للقوة التي لا تعرف إلا منطق السوق، ويلوح في الأفق ملامح تراكمٍ ثنائيٍ أكثر شراسةً، يجمع بين تراكم الثروة المالية، وتراكم الثروة المعرفية نتاج عصر المعلومات، من أجل إحكام قبضة القوى الرأسمالية على مصير البشر،

وقد قال التكنوقراط: (إنَّ لا حل لمشاكل التكنولوجيا إلا بمزيد من التكنولوجيا). ويقول أهل الاقتصاد: إنَّ لا حلَّ لمشاكله إلا بمزيد من الخصخصة، وتحرير الاقتصاد، وتسارع حركة رؤوس الأموال. والفرج لابد آتٍ عن قريب، وسوف تتحقق الوعود وتتمحي الفروق، ما أن تتحقق الفروض، ويبدي الجميع التزاماً أكثر صرامةً بقوانين السوق وامتثالاً لتعليمات البنك وصندوق النقد الدوليين. وهكذا مضى الاقتصاد في غيه لا يلتفت على شيءٍ مستقلاً بذاته، وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية، والسلاسل الزمنية، وقد سحرته وضعية العلوم الطبيعية، في الوقت الذي كان عليه أن يتوجه بمناهجه نحو الإنسانيات، وما أبهظ الفاتورة التي دفعتها البشرية ثمناً لقصر نظرته العقلانية، ومن الضروري للاقتصاد أن يخرج من انعزاليته ليعود إلى غايته الأصلية (توفير سبل المعيشة) وتلبية احتياجات الناس. - كيف ترك دعاة الدين رعاياهم عُزّلاً؟ إن دعاة الدين تركوا رعاياهم عزلا من أدوات النضال أمام هجمات وشراسة النظم والمؤسسات. وتشهد الوقائع بمؤازرة الفكر الديني لمؤسسات عصر الصناعة، ألم يؤنبه ضميره بالوقوف إلى جانب الفرد في اقتصاد عصر المعلومات؟ وإن لم تفعل ستفقد المؤسسة الدينية مصداقيتها وفاعليتها، وتفقد الجماهير المصداقية بالمؤسسة الدينية، بعد أن فقدت ثقتها في مؤسستها التربوية، وهنا تنفرد بالساحة القوة الرمزية الباقية، وهي القوة الإعلامية، وهذا ما يرجوه قادة العولمة في وقتنا الحالي. - الحوار الساخن بين الرأسمالي والماركسي: شهد هذا السجال حواراً بين فلسفة الفقر، وفقر الفلسفة، والفيلسوف الاقتصادي الهندي (أمارتا سن)، يأخذ الاقتصاد إلى أرض الواقع ويسمو به إلى ما وراء الكينزية، في محاولة منه لإرجاع الأمور إلى نصابها، مركزاً (أمارتا سن) على مشكلات الظلم والقهر الاقتصادي والفقر والتهميش الاجتماعي المتزايد، وفسر للعالم أجمع اللغز الذي حير البشر، وهو كيف يتساقط الناس جوعاً بالرغم من توافر الغذاء (محمود عبد الفضيل ١٩٩٩)، ومن المضحك المبكي أن يحصل (سن) على جائزة نوبل عن (مخاطر المجاعات والفقر) في السنة التالية

مباشـرة لمنح جـائزة نوبـل لعـالم اقتـصاد آخـر عـن بحوثـه حـول (مخـاطر المـضاريات في الأصـول الماليـة) ويتوجـب علـى العـالم أن يحـسم خيـاره مـابين (اقتصاد الكازينو) وبين (اقتصاد التنمية) الـذي أسـس لـه الاقتـصادي الهنـدي العظيم، وإلا سنبقى نقترف الخطايا التي حذرنا منها المهاتما غاندي.

د - مـاذا عـن حـوار الأديـان؟ يعتبر حـوار الأديان مـن أهـم محـاور الحـوار الثقافي، فهـو ممكـن ولازم بعـد توفير شـبكة الإنترنيـت سـاحة حاميـة للتثـاقف الـديني، والـدليل علـى ذلـك العـدد الكـثير والـوفير مـن المواقـع الدينيـة، الممثلـة لمختلف الطوائف والمذاهب والأديان، ووفـرت دراسـات الـدين المقـارن، الأسـس النظرية من أجل حوار أكثـر فاعلية وموضـوعية بـين الأديـان في إطـار توجـه أشمـل لبلـورة نظريـة عامـة لـتراث الإنـسانية الـديني. وإنَّ حـوار الأديـان هـذا تفرضـه: عولمـة الاقتـصاد وعولمـة الثقافـة علـى حـد سـواء، وعلـى صـعيد الاقتصاد يهدف حوار الأديان إلى تبادل المعلومات للتخفيف من عدم المساواة، والتصدي لمظاهر الاختلال في توزيع الدخول والثروات التي نجمت عن عولمة الاقتصاد، وهـذه سمةٌ نضاليةٌ ونزعةٌ لتصحيح المسار، بهدف تخفيف الآثار السلبية الناجمة عن العولمة، ويتطلب فهماً دقيقاً للأبعاد الاقتصادية، وتقـوم بالدور الرئيس الكنيسة، والجمعيات الأهلية لحقوق الإنسان، أما فيما يخـص عولمة الثقافة، تدعو إلى حوار بين الأديان ذي طابعٍ أخلاقيٍ يهدف في الأساس إلى إقامة خلق عالمي، يبحث عن الأسس المشتركة بين الأديان، وإلى لم الشمل، والانتقـال مـن حـوار اختلاف العقائـد إلى وحـدة الأخـلاق والقـيم الإنـسانية واعتبار مفهوم العدالة، قيمةٌ عالميةٌ تتمسك بها الأديان جميعا، تقوم بالـدور الرئيسي، في حوار عولمة الثقافة الديني، المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات الدينية الكبرى. والمسيحية تواجه عقبات عدة في حوارها مع الأديان الأخرى منهـا: - ارتبـاط المسيحية بالاستعمار في كـثير مـن ثقافـات شـعوب العـالم النامي، وإنَّ حضارة الغرب قامت على عاملٍ نفسيٍ لتدمير الحضارات (زكي الميلاد ١٩٩٨) - ألوهية المسيح: صرح بعضهم قائلا (لا يمكن أن نقيم حوارنا مع الآخر حتى نزيح من طريقنا ألوهيـة المسيح. - التصميم علـى صـحة

التقاليد المسيحية الغربية عالمياً، وقد وَلَّدَ تفوق الغرب لدى المسيحية نزعة التعالي، والغرب كما يقول بعضهم: إنّه مباح له تحديد مكان الآخر، والحكم عليه لصالح تاريخه وغاياته وقيمه. (نفس المصدر السابق).

هـ - ماذا عن علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالفئات الاجتماعية؟

إذا كان قد ارتكز عصر الصناعة على استغلال فئات المجتمع العاملة، على علم العمل الأمريكي، كما أسسه (فردريك تيلور)، والقائم على زيادة الإنتاجية، عبر دراسات الوقت والحركة، وهذه الدراسات لم تنظر إلى التعب والضجر، وهو يختلف عن علم العمل الأوروبي، الذي سعى إلى عقلنة أماكن العمل، مع الأخذ بعين الاعتبار صحة العمال وراحتهم، وقد تفوقت فلسفة الإدارة اليابانية بهذا الشأن، من قبيل الحرص على تأمين العمال ضد مخاطر البطالة، من خلال التعاقد مدى الحياة، وتمثل استغلال عصر الصناعة: - في إطالة ساعات العمل، وتدهور بيئته، وتدني الأجور، - وصرامة الرقابة على العمال، - أما استغلال العمال في عصر المعلومات يتجه نحو (القسوة اللينة)، - حيث يقوم على الرقابة عن بعد، والحرمان من فرص العمل، وحرمان العامل من المعلومات، - وإحالة مطالبه وشكواه إلى ظلمات التنظيمات، ومتاهات البيروقراطيات، وأخطر مظاهر الاستغلال هو تفتيت مهارات العمال، بحيث تكتسب هذه المهارات بسرعة، وتفقد بسرعة أكبر، مما يسهل على الإدارة إحلال عاملٍ آخر، تماماً كما تستبدل قطع الغيار، وفريدريك تيلور هو القائل: (إن المجتمع سيحظى باحترام أكبر عندما يضع الكائن الاجتماعي تحت رحمة التكنولوجيا، بعد أن أصبح البشر أقل كلفة من كلفة الآلات) إن تكنولوجيا المعلومات قد وضعت الإنسان تحت رحمة نظمها القاسية، ورغم ادعائها المرونة، وسرعة تكيفها، مع مطالب المستخدم وقدراته، وحرصها على تطبيق قواعد الهندسة البشرية، فتصبح نظم المعلومات أسهلَ استعمالاً، وطوعَ بنان صانعيها، بالرغم من هذا كله تبقى هذه النظم هي المسيطرة على (الحوار. الإنس - آلي)، ونظم المعلومات تبدي تعاطفاً زائفاً مع الفقراء الذين أصبحوا هم الغالبية في مجتمع المعلومات،

مُستَبْعَدينَ من مزايا التكنولوجيا، وعوائد الاستثمار، وليبرالية نظام الحكم، وقد صح قول من قال: إنهم أصبحوا مُستَبْعَدين من رعاية مؤسساتهم الدينية.

- العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم العربية.

أ - **عن العلاقة الشائكة والغامضة:** إن علاقة ديننا بمنظومة المجتمع أكثرُ تداخلاً وغموضاً مهما كان الموقف الفكري منها، ولا جدال أن العلاقة تحتاج إلى إعادة النظر فيها على ضوء متغيرات عصر المعلومات، والبحث العلمي يعمل على توفير الخلفية العلمية لذلك، ولا شك أن الأرض مزروعةً بالألغام إزاء كل خطوة، والجسم العربي مصاب بالحساسية تجاه أيٍّ مساءلة، فكيف نصل إلى هدفنا خاصة وأن مجتمع عصر المعلومات يطرح أسئلةً وقضايا مستجدةً، لا يجدي معها إلا الحديث الجاد والرصين، ولا يغني معها الحديث المراوغ في شيء، إن العلاقة بين المجتمع والدين يتركز على السياسة، والأمن.

ب - **ما العلاقة الدينية السياسية؟** يمكن أن يكون الدين مؤازراً للقوى السياسية أو مناهضا لها: لقد استحدث الغرب مقولات كثيرة مثل: (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) أما المجتمع العربي فقد استحدث صيغاً إبداعية، تختلف من حيث قربها وبعدها عن المقولة الغربية التي تبناها الغرب كمبدأ أساسي، مثل: (مصطلحات المهادنة والتحالف والاحتواء والحرص على الصالح العام، والمحافظة على التماسك الداخلي)، وهذه المرونة في علاقة الدين بالمجتمع أمثلة عدة عبر تاريخنا منها: (كيف لجأ إخوان الصفا إلى المذهب الإسماعيلي لمعارضة الحكم العباسي، في حين استغل الفاطميون المذهب ذاته للتغلغل السياسي، كما طالب محمد علي علماءه الدينيين بمعاونة سياساته، وبعدها استعان بالنخبة العسكرية) ولهذا التحول مغزاه من حيث علاقة القوى السياسية بالقوى الرمزية، فيما يخص بظاهرة العنف الديني، لقد كان التصوف وزهده كرد فعلٍ ضد التمايز الطبقي، وهو نوعٌ من عدم الامتثال السلبي لسلطة الحكم السياسي، وفي أيامنا هذه أصبحت الجماهير

تلجأ إلى العنف وليس إلى الزهد، فقد أصبح العنف البديل السائد، تعبر به الجماهير الغاضبة عن سخطها، وهذا يوجب على دعاتنا الدينيين أن يتصدوا للفساد ومؤسساته، ولا نريد من دعاة الدين التوجه إلى الفرد وهدايته وزيادة إيمانه، إنَّ الفكر الإسلامي لم يبد الحساسية المتوقعة منه ضد تناقضات السياسة والاقتصاد في مجتمعاتنا، خاصة في إطار العولمة وأصبح لزاماً على السلطة الدينية أن تقيم علاقةً متوازنةً بين مساندة السلطة ورعايتها لمصالح الشعب، وإلا ستجد مجتمعاتنا نفسها في مسار تصادمٍ حتميٍ في صيغةٍ جديدةٍ لفرض الانضباط الاجتماعي، تختلط فيها أسلحة الرمز مع أدوات القهر التقليدية، وهنا ينطلق اللاوعي من قمقمه برشقاتٍ عدةٍ من النصوص والرصاص، والسيوف. والذهب، والمال، ويشترك الجنرال والحاخام وهلم جرا. لقد ولى عهد الطغاة وإلى الأبد، بفضل شفافية عصر المعلومات، وهذا يتطلب من أنظمة الحكم ومؤسساته الدينية الرسمية وغير الرسمية حواراً عميقاً مع ضمان أكبر مشاركة من قبل القوى الشعبية. ونحن نعتقد أن المدخل الديني المعلوماتي، إذا أُحْسِنَ استخدامه، سيكون مدخلاً فعالاً لتعميق روح الديمقراطية التي تكون بالمشاركة الفعلية وليس الخائلية.

ج – **ما العلاقة الدينية الاقتصادية؟** إن السمة الغالبة للحركات الإسلامية هي غيابها عن الصراع على أرض الواقع الاقتصادي والاجتماعي، وتبرر عجزها عن صياغة برنامجها الاقتصادي والاجتماعي، بحرمانها من حرية التعبير والتنظيم والعمل النقابي (حسن الترابي ١٩٩٥) والتفاعل المباشر مع الجماهير، وهذا الانعزال غير جائزٍ، في ظل العولمة الكاسحة، وفي ضوء القضايا الكثيرة والكبيرة ذات الطابع الاقتصادي الديني، التي تطرحها العولمة وتكنولوجيا المعلومات وتسليع الثقافة والملكية الفكرية. وهناك من يطرح الاقتصاد الإسلامي بدلاً من اقتصاد العولمة، علاوة على ذلك أن شبكة الإنترنيت تتيح لهذه القوى السياسية قنواتِ اتصالٍ مبتكرةٍ مع قواعد شعبيتها. وبالنسبة للشأن المالي: لقد تحول المال في عصر المعلومات إلى مجرد نبضاتٍ إلكترونيةٍ ومعلوماتٍ، وكاد المال بصورته النقدية أن يختفي،

نتيجة تحويلات الأرصدة إلكترونياً، والتوسع في استخدام بطاقات الائتمان، والسؤال الذي يطرح نفسه ما موقف الإسلام من هذه التحولات في التعاطي مع المال؟ وهل سيظل يرفض التعاطي مع المال كسلعة، بعد أن اقترب المال من أن يكون معلومات، وأصبحت المعلومات ذاتَ قيمةٍ ماديةٍ؟ وهل يتطلب ذلك الربط بين تسليع المعلومات، وتسليع الأموال، وإعادة النظر في موقفنا من ثنائية رأس المال المادي ورأس المال البشري؟ وهناك من يقول إنَّ عقائدنا وراء تخلفنا الاقتصادي، وهذا خطأ في ظل المتغير المعلوماتي يجب التصدي له، ولنا أن نسأل دول الباسيفيك المسلمة، التي نجحت في إيجاد صيغةٍ عصريةٍ ومتوازنةٍ، بين قيم الإسلام، وقيم المجتمعات العصرية تكنولوجيا، وهذا ما أدى بالبعض إلى القول: أن بإمكان الدول الإسلامية الوصول إلى إبداعٍ غير مسبوقٍ (جابر عصفور ١٩٩٧).

ج - **ماذا عن حوار الأديان؟** إن البيان الشهير للبابا بولس السادس في مجتمع الفاتيكان لعام ١٩٦٤، قد ذكر الإسلام بخير، ودعا للحوار معه. وقبله ب ٩٠٠ سنة، وفي موعظةٍ شهيرةٍ للبابا أوربان الثاني، ولإشعال روح الحماس في قلوب المحاربين أثناء الحروب الصليبية، والتي اعتبرها حروبا مقدسة، قال البابا: (لقد اجتاح البرابرة في نوبات هوسهم كنائس الرب وخربوها واستولوا على مدينة المسيح المقدسة، التي تزهو بما شهدته من آلام المسيح وقيامته، لقد باعوها وباعوا كنائسها في سوق الرق المقيت (فيليب تايلور ٢٠٠٠) هذان موقفان متناقضان يمثلان العلاقة التي تحكم الحوار الإسلامي المسيحي، مبادرةٌ مسيحيةٌ صادقةٌ لإقامة الحوار، مقابل عداءٍ قديمٍ من جانب واحد، تحكمه - كما قال المستشرق البريطاني بريان ترنر، خطيئةٌ أصيلةٌ، أو جرثومةٌ أبديةٌ، تجعل من الإسلام في نظر الغرب - دينا للعنف والبدائية. تبقى المبادرات الحالية التي تتسم بالسماحة والتفهم من قبل الفاتيكان ومن بريطانيا، ومن آخرين غيرهم إلا أنها مازالت قاصرةً، والحوار الإسلامي المسيحي الفعال، هو شرطٌ أساسيٌ لتغيير الموقف العدائي من الإسلام، وهو ما دعا مدير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن يصف الحوار

بالضرورة التي ترقى إلى مستوى فرض الكفاية (عبد العزيز التو يجري ١٩٩٧)) إن إحياء الحوار المسيحي الإسلامي أصبح حاجةً ماسةً كي لا تخلو الساحة للحوار المسيحي اليهودي، وخاصة أن الطرف اليهودي، يعمل إلى إقامة حلفٍ يهوديٍ مسيحيٍ ضد الإسلام. ونحن لا ننكر أن المسيحية هي الطرف الأكثر تنظيماً وإدراكاً للإشكاليات التي تطرحها العولمة، وأكثر قدرةً على استغلال تكنولوجيا المعلومات في المجال الديني، والحوار المسيحي الإسلامي سيحفز الطرف الإسلامي ليجدد معارفه ووسائله. وبالحقيقة هناك قناتان للحوار المسيحي الإسلامي هما: عبر الحوار الأوروبي - العربي، الذي توسع ليشمل بجانب الأمور السياسية والاقتصادية حوار الأديان، وأخرى ثقافية، والقناة الثانية مع الفاتيكان، وبالرغم من ثلاثين جولة من الحوار الإسلامي - المسيحي ما زالت النتائج متواضعة للغاية (المصدر السابق نفسه) للأسباب التالية التي يتقاسمها الطرفان وهي: - اختلاف في بؤرة الاهتمام في الحوار العربي الأوروبي، فشاغلنا نحن السياسة وشاغلهم الرئيسي الاقتصاد. - النظرة الاختزالية من كلا الطرفين، فالغربي هو الاستعمار والإمبريالية ومساعدة إسرائيل، والعرب هم الخطر الذي يهدد العولمة، وهم الخصم التاريخي وسلاح البترول. - غياب إستراتيجية واضحة من طرفنا لتوجيه مسار الحوار. والإسلام بسماحته قابلٌ وقادرٌ على الحوار، يشهد على ذلك تفاعله مع الحضارات الأخرى أثناء الفتح الإسلامي، ومن واجبنا أن ندفع بهذا الحوار الحيوي إلى نقطةٍ متقدمة، عن طريق الإنترنيت ويتطلب منا إجراءاتٍ عدةٍ منها: - مراجعةٌ نقديةٌ لجولات الحوار السابقة. - تضييق المسافة المعرفية الفاصلة بين الباحثين الإسلاميين ونظرائهم الغربيين، خاصة في الثقافة العلمية التكنولوجية وعلوم العصر. - إدراكنا أن التعرف على أديان الآخرين يتطلب منا التعرف علي ظروف معيشتهم وتحدياتهم، ويمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات في ذلك - النظر إلى القدس كمنطلق لتعميق العلاقة الإسلامية المسيحية، خاصةً في الوقت الراهن، وستبقى القدس هي (مسرى النبي محمد وأرض المسيح) - تصنيف قضايا

الحوار إلى قضايا ذات طابعٍ علميٍّ، يتم تناولها بطريقة أكاديمية، وأخرى ذات طابعٍ عامٍ، يجري الحوار فيها على مستوى الجمعيات الأهلية وقنوات الاتصال الجماهيري. - إن نجاحنا مع الآخر لابد أن يسبقه نجاحنا في الحوار مع أنفسنا، حوارٌ إسلاميٌ قوميٌ - حوارٌ إسلاميٌ - علمانيٌ. حوارٌ إسلاميٌ - قبطيٌ ومارونيٌ كاثوليكيٌ. - لا يكفي للمحاور الإسلامي أن يكون ملماً بموضوعاته، لكن لابد أن يكون مزوداً بمهارات التواصل عن قرب وعن بعد، وأن يكون واعياً وممارساً لتكتيكات التفاوض الثقافي. - الإقرار بوجود اختلافات لا يمكن حسمها بين الإسلام والمسيحية، والتركيز على الجوانب الإيجابية، وما أكثرها، والجوانب الأخلاقية دون العقائدية والاهتمام بالدين المقارن.

- **العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم:** إن العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم تشمل التالي: - النص الديني المحوري أو مجموعة النصوص المحورية - القيم وهي مجموعة القيم السائدة والمستجدة - الدعوة وتشمل جميع الوسائل، من الدعوة المباشرة في أماكن العبادة، إلى الدعوة من خلال الإنترنيت، وفي الفقرات القادمة سنتناول كلا من هذه العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم.

- **ماذا يمثل النص الديني الغربي؟:** يمثل النص الديني الغربي حالةً من النص اللغويّ. ولكنه يتجاوز معناه ومبناه وأثره، حدود اللغة إلى ما ورائها وما فوقها وما بعدها، لما يتضمنه من معانٍ سامية، وما يحمله من شحنة وجدانية، وهو الأمر الذي يجعل من النص الديني حالةً فريدةً، تمثل تحدياً قاسياً، سواء للغويين أو البلاغيين، أو علماء النفس الأنثروبولوجيا، أو لعلماء الذكاء الاصطناعي. ولا تقتصر نصوص العقائد على الكتب السماوية، بل تشمل نصوص التفسير، والتشريع، والفتوى، ومواثيق المذاهب والطوائف، وحكم الفلاسفة. وأقوال الحكماء ومآثر القديسين، وسير الأقدمين وأساطير الأولين، إن الأنثروبولوجيا أعادت الهيبة إلى النصوص الدينية القديمة، ونظرت إلى تطور العقائد الدينية في مسارها التاريخي، كيف تتواصل فروعه

مع جذوره، ويترك ماضيه أثر حفرياته الرمزية على حاضره، وهو ما فعلته الأنثروبولوجيا الرمزية بنصوص الماضي. أما تكنولوجيا المعلومات والأرشفة الإلكترونية، جاءت لتضيف إلى نصوص الماضي نصوصاً من الحاضر، وراحت تتضاعف بمعدلات متزايدة. فاستحالت النصوص الدينية لأي دين أو مذهب أو طائفة، إلى قاعدة هائلة من ذخائر النصوص السحيقة والقديمة، والوسيطة والحديثة، وكوكبة من النصوص المكملة والشارحة، المؤيدة والمناهضة، وتتمركز النصوص الدينية حول نص محوري تدور في فلكه، وتأتي هذه النصوص على أنماط عدة، فيمكن أن يكون النص نثرياً أو شعرياً، سردياً أو حوارياً، تقريرياً أو روائياً تاريخياً، تشريعياً، وتأتي الإنترنيت لتضيف لمستها في صورة وثائق، قوامها شظايا النصوص التي يمكن تجميعها من مصادر مختلفة، ووسائط معلوماتية عدة. ومن المنطقي أن تختلف وظائف النص من مجتمع إلى آخر، ففي بعض المجتمعات نجد النص الديني هو محور السلطة، ومصدر المعرفة، وضابط السلوك، ومحدد الرؤية الشاملة إزاء الكون وظواهره، وفي مجتمعات أخرى يتقلص هذا الدور إلى حد أدنى من إرشادات السكينة الروحية والأخلاقية. غني عن القول أن السرديات الكبرى شأنها شأن كل السرديات الكبرى، ليست الوحيدة في ساحة التفاعل الاجتماعي حيث تزاحمها خطابات أخرى تعمل إلى الحد من دورها الاجتماعي بل تقتص من قدسيتها، والنصوص تعد نفسها للقاء مثير مع تكنولوجيا المعلومات، التي تتعاون مع علوم المعرفة واللسانيات والرياضيات الحديثة، بهدف تحويل النصوص إلى بنى رمزية يمكن تمثيلها رياضياً ومنطقياً وهندسياً، كخطوة أساسية لمعالجتها آلياً بصورة جادة، تنفذ من ظاهر اللفظ إلى عمق المضمون، ومن القرائن السطحية إلى الآليات الدفينة التي تعمل بداخل النص، عندها نتفهم بوضوح: كيف يولد النص معناه؟ وكيف يتلقاه متلقيه؟ وكيف يتعامل هذا النص مع غيره؟ وكيف تتشكل بنيته الداخلية، وكيف تتأثر هذه البنية بالعلاقات التي تربط النص بخارجه؟

ب - كيف يتعامل الآخرون مع نصوصهم الدينية؟ إن حركة الإصلاح الديني حررت الإنجيل من قبضة الكهنوت الكنسي، وقامت بترجمته إلى لغات

قومية عدة، وأصبح بهذا ملكاً للفرد لا ملكاً لأهل الدين، وكما هو معروفٌ ليس للمسيحية نصٌ منزلٌ مكتوبٌ، لذا فإنَّ علاقتها بنصها الإنجيلي تتسم بالمرونة. وما أن تناقضت هذه النصوص مع الحقائق العلمية، حتى أولت هذه النصوص تأويلاً مجازياً لا حرفياً، وقد طالب أحد حاخامات اليهود في القرن الثامن عشر بشروةٍ ثقافيةٍ يهوديةٍ على نمط حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، ونادى بقراءة النص التوراتي قراءةً حرةً، إلى حد اعتبر النص مصدرَ إلهامٍ أخلاقيٍ لا غير (سمير أمين ١٩٩٩)، واتسع مجال التأويل الإنجيلي، حتى كاد يصبح فرعاً علمياً مستقلاً، يعرف بالتأويلية الإنجيلية. وإن كانت حركة الإصلاح الديني قد كسرت احتكار التأويل، وأطلقت حرية القراءة، ورياح العولمة نقلت التعامل مع النص الإنجيلي إلى مدارك التعددية والنسبية الثقافية، في إطار سعي الكنيسة المسيحية الحثيث إلى تكييف أوضاعها ديناميا مع مطالب العولمة الثقافية، وكان مدخل الكنيسة في ذلك هو التخلص من المركزية الغربية، في قراءة الإنجيل، حيث أقرت بمشروعية القراءات المتعددة، والقبول بالفوارق إلى حد التناقض، واعتبر البعض الأناجيل الأربعة نوعاً من التعدد الثقافي، وهكذا أصبحت التأويلية الإنجيلية هي البحث عن معنى النص في سياقٍ من الخبرات المعيشية. أي معرفة الإنجيل في السياق الثقافي والتاريخي لكلِّ جماعةٍ مؤمنةٍ وأيقنت الكنيسة المسيحية أن عولمتها لن يكتب لها النجاح، دون أن تقر بصحة اللاهوتيات المتعددة، وإضفاء النسبية على قراءة النصوص المحلية.

– دور الإنترنيت في التعاطي مع النص الإنجيلي: أضافت الإنترنيت لمستها الأخيرة في التعاطي مع النص الإنجيلي، بعد أن ثبت الدور الحاسم للوسيط الإلكتروني، في علاقة الفرد المسيحي بنصه الأساسي، إلى درجةٍ يكاد أن يكون لكل فرد ثيولوجيا فرديةٍ، ويبرز دور الاهتمام بالمتلقي في عملية استيعاب النص. وهذه المتغيرات تطلبت من الكنيسة المسيحية، إعادة النظر في النص الإنجيلي، وإعادة النظر في النصوص السماوية الأخرى، إيماناً بالوحدة المعرفية لهذه النصوص، ويفسر ذلك، الاهتمام الشديد من قبل علماء

المسيحية بالنص القرآني الشريف، إن النصوص الدينية وثائقُ حقيقيةٌ لمعرفة النظام الاجتماعي، ولهذا يرى بعض علماء اجتماع الدين الأمريكيين، أن النص القرآني مدخلا لفهم المجتمع الإسلامي عموما، والعربي خصوصاً، وهم يعتبرون أن الوطن العربي لا يختلف عن غيره، ولا هو عصيٌ على مناهج العلوم الإنسانية كما ساد الاعتقاد في الماضي.

ج - ما التوجهات الجديدة في النظر إلى النص؟: ظهرت الطباعة وأوشك عصرها أن يولي، دون أن نُوْلِيَ اهتماما بما تعنيه النقلة النوعية، من التواصل شفاهةً إلى استخدام النص المكتوب، وظل هذا الوضع غائباً عن الأذهان إلى أن جاءت تكنولوجيا المعلومات والإنترنيت ونصوص وثائقها الإلكترونية، لتكشف لنا: كم نحن غرقى في بحر من النصوص التي تحيط بنا من كل حدبٍ وصوبٍ، دون أن نكتشف طبيعة هذه النصوص، وآلياتها وتأثيراتها وعلاقاتها ودورها الاجتماعي، حتى كاد أمرنا يكون شاهداً على صحة من قال: (إن من اكتشف الماء حتما ليس من فصيل السمك)، فكان لابد من تكنولوجيا المعلومات، لتجعل من النص إشكاليةً حقيقيةً، ولا بد أن نأخذه بمنتهى الجدية، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالنصوص العقائدية، فظهرت الحاجة إلى لسانياتٍ جديدة، فولدت البلاغة الجديدة، وأدت إلى معالجةٍ آليةٍ ذكيةٍ للنصوص، فكانت نظُم الفهم الأتوماتي لمضمون النصوص، القائمة على الذكاء الاصطناعي، فشكل هذا علم نص جديد كما يسميه الفرنسيون، أو تحليل الخطاب كما يطلق عليه الأمريكيون. وكان علم اللسانيات إلى عهدٍ قريبٍ، يتخذ من الجملة وحدته اللغوية الأساسية، ولم يتجاوزها إلى الفقرة أو النص الكامل، وليس الانتقال إلى الفقرة أو النص الكامل مجرد انتقال إلى وحدةٍ لغويةٍ أكبر مما كان عليه الحال فيما مضى، ومن المعروف أنَّ كل وحدةٍ لغويةٍ تلجأ إلى مستوى الوحدة الأكبر لتحديد شكلها ومضمونها وموقعها في السياق اللغوي، فالحروف تلوذ بالكلمة الحاملة لها، والكلمات تلوذ بالجملة والجمل تلوذ بالفقرة التي تضمنها داخل النص والسؤال الذي يطرح نفسه: إلى أي شيء يلوذ النص وهذه نهاية المطاف وهو

أكبرُ وحدةٍ لغويةٍ؟ وكانت الإجابة: أن النص يلوذ بالعالم والسياق الاجتماعي خارجه، فعلم النص إذاً ليس مجرد نقلةٍ نوعيةٍ في مجال اللغة، وإنما هو انتقالٌ إلى ما هو خارجها. ولكننا الآن كيف نتعامل مع النص، وما هي توجهاتنا الجديدة؟ لقد أقام علم النص الحديث قطيعةً مع ما سبقه من لسانيات الجملة والبلاغة الكلاسيكية، والمعالجة الآلية التقليدية للنصوص ذات القطيعة والخطية الصارمة.

- هل نفصل بين الشكل والمضمون؟: كلُ تغيير في الشكل يترتب عليه تغييرٌ في المضمون، فالتقديم والتغيير والتنغيم الصوتي، وتوالي الجمل والمفردات كلُ هذه التجليات الشكلية تسهم في صنع معناه، وحان الوقت لنترك وراءنا ثنائية الشكل والمضمون، وما أدت إليه من فصل النص عن الواقع، وطمس العلاقة بين ظاهر النص ومعناه. - كيف نتعاطى مع الماهية والمعيارية؟: النص لا يحمل ماهيةً بصورة مضمونٍ يحمله في جوفه، كما يزعم البلغاء القدماء الذين وضعوا معايير وقواعد لكيفية الوصول إلى هذا المضمون الكامن، والحكم على مدى سلامته الدلالية وتماسكه المنطقي. إنَّ النص ظاهرةٌ رمزيةٌ تتحدد ماهيته، كما أوضح (دي - سوسير) بعلاقاته من خارجه، أكثر مما تتحدد بفعل من مكونات داخله. - هل النص مجرد متواليةٍ من الرموز؟: النص ليس سلسلةً من الكلمات والجمل والفقرات، إنه بنيةٌ مُعقدةٌ متعددةٌ المستويات، فهو شبكةٌ كثيفةٌ من علاقات الترابط اللغوي والدلالي والتماسك المنطقي. ومعنى الجملة بالتالي ليس حصيلة معاني ألفاظها؛ ومعنى النص ليس مجرد تجميع معاني جمله المتتالية. - هل اللغة وحدها تكفي؟ إن النص ساحةٌ رمزيةٌ ساخنةٌ، تتداخل فيها تكتيكات اللغة، مع الإيحاءات النفسية، والسياقات الاجتماعية والتاريخية، ولا مهرب من الإيدولوجيا في التعامل مع النصوص، فليس هناك نصٌ بريءٌ منها، كما ليس هناك قراءةٌ بريئةٌ له.

وبالرغم من أن اللغة هي الركيزة الأساسية لعلم النص وبلا منازع، وبحكم طبيعتها لا تقول كلَّ شيءٍ مهما تنوعت مبانيها، وتوسعت معانيها وجمح مجازها وأبدع كاتبها وقارئها. فاللغة عاجزةٌ ضمنياً. وستبقى فجوةٌ مابين

مقاصد القارئ وتطلعاته ومقاصد والمؤلف، ويمكننا القول أن النص عبر لغويٌ يتجاوز اللغة إلى العالم الرحيب خارجها - هل للنص حدود؟ النص لا تحده بدايته ولا نهايته، ولا يمكن رسم الحدود الفاصلة بينه وبين خارجه وسياقه، وهو دائماً يخرج عن المألوف، وينتهك الحدود، وإن لم يفعل النص يفقد جدارته كنص. - هل هناك نهايةٌ لقراءة النص؟: يتحدد معنى النص وفقاً لسياقه الاجتماعي، مما يترتب عليه إعادة تأويله وتفسيره، وفقاً لمقتضيات السياق، وهو الأمر الذي يضمن للنص بقاءه وتجدده، وسيظل النص يجتذب مضامين جديدة تَفِدُ إليه من خبرات الواقع خارجه. - هل نستطيع أن ننسب النص أو نجمده للوصول إلى الجنين النصي؟: بالتأكيد من المستحيل نسب النص أو تجميده للوصول إلى جنينٍ نصيٍ، لأن النص لا يمكن رده إلى جذرٍ أو أصلٍ جنينيٍ واحد، كما يستحيل تقيده في إطارٍ زمنيٍ محدد، فهو نسقٌ متعدد الجذور، متعدد الأعمار، إنَّ كلَّ نصٍ يرث من سابقه معانٍ ومبانٍ، وتسري بداخله أزمنةٌ متداخلةٌ مختلفةٌ، وكل قراءة جديدة تمنحه عمراً جديداً - هل نستطيع الوصول إلى المعنى النهائي؟: إننا عند قراءتنا للنص لا نتوقف عن مطاردة المعنى، لأن الرمز لا يدلنا إلى معنى قاطع، بل إلى رمز آخر، وهكذا دواليك في سلسلة لا متناهية، كما قال جاك دريدا، فالمعنى مُرَجَّأٌ دوماً. - هل نستغني عن ذكاء الآلة: بالتأكيد لا نستطيع الاستغناء عن ذكاء الآلة، إن تحليل النصوص وتفكيكها وتمثيلها دلالياً ومنطقياً، بصورةٍ دقيقة، وبمنهجية منضبطة، أعقد من قدرة الوسائل اليدوية، ولابد من الاستعانة بالنظم الآلية لتحليل النصوص، من أجل الكشف عن شبكة العلاقات التي ترقد تحت ظاهر النص والتي تشمل: العلاقات المعجمية، والصرفية، والتركيبية، والنحوية، والدلالية، والمنطقية، والبرجماتية.

- النص العربي:

أ - ما دورنا في تناول نصوصنا الدينية؟: لن نَجدَ دلالةً محوريةً على النص القرآني وإعجازه في ثقافتنا وديننا، كما وصفه الزمخشري في كَشَّافه وهو أكثر النصوص إلهاما بقوله: (كتاباً ساطعاً بيأنه، قاطعاً برهانهُ، وَحَيًاً

ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كلّ معجز، على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان، في كل مكان، أُفْحِمَ به من طُولِبَ بمعارضته من العرب العرباء، وأُبْكِمَ به من تحدى به مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه، أو يدانيه واحدٌ من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهضٌ من بلغائهم) إنه مصدر التشريع، ومصدر التنظير اللغوي، والتحليل البلاغي، ومصدر التربية، فما عن دورنا نحن -المُحْدَثِينَ- في تناوله، إنه لم يتجاوز تفاسير الأقدمين، نبقى نعيد صياغتها، دون إضافة حقيقية من قبلنا، وعلينا أن نمتلك الجرأة لنقول: بأننا لم نعد نمتلك القدرة المعرفية على تناوله. فكيف لنا أن نؤكد الصلة الوثيقة بين نَصِّنَا الكريم، ولغته العظيمة، وفكرنا اللغوي مصاب بالعقم منذ قرون، وقد تجاهلنا الثورة التي قامت في مجال اللسانيات منذ نصف قرن؟ وكيف تتكشف لنا روعة معانيه وبلاغتنا قديمةٌ لا خير فيها، وما زالت أسيرة محفوظاتنا عن ثلاثية: المعاني. البيان. والبديع، ولم نغير بها شيئاً من حين ما تركها الجرجاني في القرن الخامس الهجري حتى اليوم إلا القليل؟ وكيف لنا أن نستوعب قدر برهانه الفائق، وأساليبنا في المحاجاة مازالت كما كانت عليه في محاجاة عصر الشفاهة؟ ولا ندري ماذا تفعل بنا أساليب المحاجاة المتخلفة تلك في عصر محاجاة الإنترنيت والحوار عن بعد، تلك المحاجاة الباردة ذات الطابع المنهجي الصارم، بعيداً عن مؤثرات الخطابة واللقاء الحيوي المباشر؟ والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: كيف نثبت لا زمنية هذا النص الفريد والعظيم، والصالح لكل مكانٍ وزمانٍ وقد أهدرنا جوانبه التاريخية، حتى صارت دراسة صلته بماضيه ضرباً من الهرطقة؟ وكيف يجوز لنا أن نتحدث عن لا (مكانيته) و(عالميته) وقد أهملنا تماماً كيف يتلقاه المسلم من غير العرب؟وكيف يستوعبه المسلم المقيم، والمسلم المهاجر، والمسلم الوافد، ومسلم البلقان ومسلم الشيشان؟ وهل نمتلك الجرأة لنقول: هل نستطيع أن نقارن موقفنا مع ما فعله أهل الإنجيل من أجل عولمة نصه، ليدين مضمونه لعقل كلّ

مسيحيٍّ، في هذا الكون في دول أمريكا اللاتينية والفلبين، وعقل المسيحيين الجدد من أهل القبائل الإفريقية؟ ترى كيف يحق لنا أن نبقى نردد أنه الكتاب الخاتم للدين الخاتم، والدائر الدائم من بين سائر الكتب، دون أن نبذل أيَّ جهد لمتابعة مسارات تناصه وعلاقاته مع النصوص الأخرى؟ وكيف يجوز لنا أن نجعل منه مفتاحاً لمعرفتنا ومصدراً لإبداعنا، في حين لا يخرج مشوارنا في دنيا الفلسفة عن كونه قفزةً واحدةً من فلاسفة الأوائل، إلى صحوة ابن رشد، ليلوذ بعدها بالصمت، غافلاً عما يحدث في حقل الفلسفة على مدى قرونٍ عدة.؟ كفانا فخراً بالعجز، وجموداً بالتفكير، فلم يكن النص القرآني ملكاً لنا وحدنا، فهو ملكٌ للبشرية جميعا، شئنا أم أبينا، خاصةً في عالم عولمة الثقافة، والتثاقف والدين المقارن، وإن لم نقم بامتلاك ناصية نصنا المحوري، سيتولاه غيرنا، وقد شرعوا في ذلك بالفعل، يتناولونه تأويلياً، وبنيوياً، وظاهرياً، وتفكيكياً، وما بعد بنيوي، وما بعد حداثي، ومعلوماتياً. في الحقيقة نحن لا نحمي نصوصنا الدينية، وإنما نحتمي بها لا نطيق بعداً عنها، فما أن نبعد عن نصها وسياقها حتى تزوغ منا المعاني. وليس بأيدينا من أدوات التعامل مع النصوص إلا أدواتٌ رسخت فيها الحَرْفِيَّةُ والخطيَّةُ، تمنُع كلَّ جدلية وتفاعليةٍ، وحري بنا أن نحظى بميزةٍ تنافسيَّةٍ التي يتمتع بها غيرنا، في احتفاظه بمسافة كافية تفصل الذات الدارسة والنص رهن الدراسة، مما يتيح له رؤيةً أكثر وضوحاً وعمقاً وموضوعيةً. كما هناك حاجةٌ ماسةٌ للبحث عن منهجٍ جديدٍ للإعجاز القرآني بطريقةٍ غير طريقة الإعجاز اللغوي التي تعودنا عليها، (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨) وقام برهاننا على إعجاز النص، باستخدام وسائل لغويةٍ أخذناها من النص نفسه، وبذلك نثبت إعجازه من داخله، أي نعيد إليه رجع صداه، لنقع في دوامة المنطق الحَلَقيِّ، الذي لا فكاك من حلقته المغلقة دون علم نصٍ جديد، ينظر إلى النص من داخله وخارجه معاً، يبرهن على إعجازه بمضمون نصه، وعلاقات تناصه معا، ويؤسأ لخصومةٍ نفتعلها مع التوجهات الفلسفية الحديثة، من وسائل لغويةٍ تحت انطباعاتٍ خاطئةٍ أساسها عدم تفهم معنى المصطلحات واستيعاب

المفاهيم. وتفكيك النص القرآني لا يعني سحق بنيته الرصينة والمتماسكة، بل إضافة عنصر الديناميية ودوام التجدد على معانيه وتحديث فهمنا له، والنصوص في نظر التفكيكية لها أعمارٌ عدة يَعْبُرُهَا الزمنُ في مسارات متداخلةٍ ومتوازيةٍ، مجدولاً في عباراتها، يفجر حويتها، يعيد توظيفها في سياقات اجتماعيةٍ مختلفةٍ ومتجددةٍ متباينةٍ. أليس هذا مطلوبا لإثبات جدارة النص في كلّ زمانٍ ومكانٍ؟ ولا يجوز أن يمنعنا رفضنا القاطع للموقف السلبي الذي تتخذه ما بعد الحداثة من السرديات الكبرى، من أن نرى تميزها في الاحتفاء بدور المتلقي ونظرته الذاتية في فهم النص، ودمجه في مضمار حياته اليومية بما يلبي مطالبه الشخصية إنّ هذه الألَفَةَ الذاتيةَ هي الضمان الوحيد كي يبقى النص يشع ضياءً في وجدان الفرد كمصدر لهدايته وباعثٍ على إبداعه، وإنّ أدوات الماضي للتعامل مع النص لم تسمح لنا أن ننظر إلى النص القرآني إلا على مستوى الوحدات اللغوية القصيرة، من مفردات وجمل، فغاب عنا بذلك منظرٌ من المروج الرمزية الكثيفة، وبنية النص الكبرى لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال تعاون علم النص مع تكنولوجيا المعلومات.

ب - **علم النص الحديث من خلال رؤيةٍ معلوماتية**: وهو يمثل الفروع المعرفية التالية: - علم اللسانيات - علم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة - علم المنطق الحديث - علم العلامات (السيمولوجيا) - علم اجتماع المعرفة - علم النفس المعرفة. ونستعرض فيما يلي، أهم توجهات كلّ فرعٍ من هذه الفروع المعرفية ومغزاها بالنسبة إلى النص القرآني.

علم اللسانيات كفرعٍ من فروع علم النص: يمكن أن نلخص أهم التوجهات الرئيسية لعلم اللسانيات بالتالي: أ - من خلال التركيز على نظام اللغة الداخلي، إلى التركيز على اللغة الواقعية المنطوقة ب - من التمركز حول النحو وشروط السلامة النحوية للجمل، إلى التركيز على المعنى وصلته بالمقام، وأداء المتحدثين والمستمعين أثناء الحديث اللغوي، أو النواحي البرجماتية بمصطلح أهل اللسانيات. ج - التخلص من ثنائية الحرفيّ والمجازيّ، بالنظر إليهما كطرفين يربط بينهما مسارٌ واحدٌ متصلٌ. د - النظر إلى اللغة في

فضاء سيميولوجي ثلاثي الأبعاد: الرمز. المعنى. مقام الحدث اللغوي. هـ - التخلص من المفهوم السائد بأن اللغة هي مرآة الفكر، حيث يمكن للفكر أن يكون له لغةً رمزيةً أو أكثر خلاف اللغة الإنسانية.

أ - **المغزى والنص القرآني:** - إن علم اللسانيات يمر بمرحلةٍ صعبة ينتقل فيها من تحليل الجملة إلى تحليل الخطاب أو النص. وسبقتنا فرصة اللحاق بثورة اللسانيات وهي تتعامل مع اللغة على مستوى وحدة الجملة، فهل من الممكن أن نلحق بها وهي تتهيأ لدخول النص؟ إن محورية نصنا الشريف تعطي المنظّرِينَ اللغويِّين عندنا أن يساهموا إسهاماً مهماً في هذا المجال الحيويّ. - تمثل الخصائص اللغوية للنص القرآني- سواء فيما يخص ألفاظه أو معانيه أو إيقاعه الصوتي، وما اتصف به من حلاوة وطلاوة وسلاسة وانسياب- قضايا لغويةً ساخنةً في مجال دراسة الأداء اللغوي، وتتبلور هذه الألفاظ حالياً في صورة محطاتٍ علميةٍ دقيقة، علينا أن نلحق بها في بدايتها، ونصنا الشريف الفريد يمنحنا ميزةً تنافسيةً عاليةً في هذا المجال. - ضرورة إعادة النظر في مسألة المجاز القرآني من منظورٍ دلاليٍّ ومعجميٍّ وبراجماتيٍّ، وقد ثبت علمياً أن المجاز خاصيّةٌ أصيلةٌ من خصائص اللغة الإنسانية، وهي ظاهرةٌ متفشيةٌ على مستوى الألفاظ والمعاني الدارجة، التي تبدو لنا حَرْفِيَّةً في ظاهرها، وقدرة اللغة على امتصاص المفاهيم الجديدة، والمجاز مصدر التوسع في المعاني، ولا شك أنه قضيةٌ شائكةٌ خاصةً بالنسبة إلى نصٍ محكمٍ كالنص القرآني، وما زال فهمنا لمسألة المجاز قاصراً معجمياً ودلالياً وثقافياً، والتوسع في المجاز يُمَيِّعُ اللغة ويفقدها قدرتها لإتيان البرهان وتحديد المعاني، وفي المقابل فإن تضييق المجاز يخنق اللغة، ويجعلها أقل قدرةً على التكيف، وهو أمرٌ بالغ الأهمية بالنسبة للنص القرآني وعالميته، وضرورة تصديه لإشكاليات العصر، والمتغيرات الجديدة لعصر المعلومات ستقحم النص في العديد من المشاكل بحيث يستحيل علينا تناولها إن تمسكنا بحرفية تفسيرنا ومحدودية استنتاجنا لمقولاته. - هناك صلةٌ وثيقةٌ بين فكرنا وديننا تقوم على اللغة، تعطي مفهوم (إن اللغة مرآة الفكر) وهذا يستدعي إعادة النظر في

ثلاثية العلاقات شبه الاندماجية، التي تربط ما بين لغتنا وفكرنا وديننا، فاللغة لم تعد مرآة الفكر، كما ساد سابقاً. فتخفيف العلاقة العضوية بين الفكر واللغة لابد أن ينعكس على علاقة ديننا مع لغتنا وعلاقة ديننا مع فكرنا. - فدراسة بنية النص تفرض علينا دراسة أمور تماسكه المنطقي من زوايا عدة منها: صرفيةٌ ونحويةٌ وصوتيةٌ ومعجميةٌ وتركيبيةٌ ودلاليةٌ بطريقة تتجاوز خطية الفصل، بحيث تنظر إلى النص القرآني كشبكةٍ متعددة المستويات، كثيفة العلاقات والترابطات، وحاول محمد عابد الجابري تحليل بعض فقراتٍ قصيرةٍ من نصوصنا، بأسلوبٍ بنيويٍ على مستوى الجملة (نفس المصدر السابق). فالكشف عن البنية الكبرى أو البنى الكبرى يتطلب دراسةً طبوغرافيةً تتعامل مع النص على مستوى حزم الجمل والآيات، وصولاً إلى النص بأكمله. إنَّ علم السيمولوجيا فرعٌ من فروع علم النص، يتعهد بالتالي: الأمور المتعلقة بالأجناس الأدبية (الشعر الرواية والقصة القصيرة...) ويقوم على مفهوم الأكواد التي يبعث بها النص إلى قارئه، والذي تقع عليه مسؤولية فك الشفرة، ويمكن للكود أن يكون لفظاً لغوياً صريحاً، أو إيحاءً مستتراً، أو إيقاعاً تنغيمياً، أو وقفةً صوتيةً، أو تشبيهاً مجازياً، أو تركيباً نحوياً، أو موضع فصلٍ أو وصلٍ بين الجمل والفقرات، أو علاقةً دلاليةً، أو مقاميةً، أو إشارةً إلى معلومةٍ سابقةٍ، أو واردةٍ، أو إحالةً إلى المعرفة على العهديةِ، كل هذه الأكواد تتعاون في نقل مضمون النص إلى قارئه، والذي يتوقف فهمه على خلفيته وهدفه من وراء قراءة النص. إنَّ كلَّ نصٍ يولد لغته الخاصة، ويضع قائمة شفراته، والمعنى المعجمي، في بداية رحلة البحث عن ذلك المعنى المرجأ دوماً، وما أن نعبر عتبة المعنى المعجمي، نجد أنفسنا نستخدم لغة الشفرة التي يقيمها النص وفقاً لجنسه الأدبي، أو لغته الداخلية الخاصة، وبمعنى آخر لم تعد اللغة كافيةً لوحدها للكشف عن مضمون النصوص.

ب - الصورة الممتدة والمشعة في النص القرآني: - معظم ألفاظ القرآن ومعانيه، كأسماء الله الحسنى، وأوصاف نبينا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين. والجنة والنار، والخير والشر، هي شفرَاتٌ رمزيةٌ لا مجرد ألفاظ،

فمهما بلغت دقة معجمنا في تحديد معنى الجحيم، كما وردت في النص القرآني، لا يمكن أن يبلغ هذه الشحنة الدلالية والوجدانية لشفرة لفظة الجحيم، لتولد هذه الصورة الممتدة والمشعة التي تنطلق من العبارات التالية: (ناراً وقودها الناس والحجارة) (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها).

- وللقرآن لغته الخاصة به، المتمثلة في المعاني الخاصة للألفاظ، والأنماط النحوية، وإيقاع الصوت، وتماثل البنى التركيبية، وهذا السجع الموزون بميزانٍ دقيقٍ غاية الدقة، وهذا الذي يبدو للبعض تكراراً، ما هو بتكرارٍ بل ترسيخٌ للمعنى وتأمينٌ للسياق - إن القرآن لا يخضع للتصنيفات المعروفة لأجناس النصوص الأدبية، فهو نصٌّ له جنسٌ خاصٌّ به، يفوق كل الأجناس اللغوية الأخرى، وبناءً عليه، يمكن النظر إلى النص القرآني كبيئة نصية مثالية لاختيار علاقة فك الشفرات بجنس النص، وكيفية امتزاج أنواع النصوص، وهو أمرٌ بالغ الأهمية، بالنسبة لتكنولوجيا الوسائط المتعددة. - وخلاصة القول: إنَّ على أهل البلاغة القديمة البالية والمهترئة: أسيرة المعاجم، سجينة الجمل، التي لا تعرف لا شفراتٍ ولا إشاراتٍ، ولا إيقوناتٍ رمزية، ولا علاقات تشعبٍ نصيٍّ أو تناص، ولا بنى صغرى ولا بنى كبرى، عليكم أن تقروا بقصور أدواتكم، وأن تُحدِّثُوا أدواتكم هذه لترقى إلى الذرى الرمزية للنص الشريف إسوةً بما فعله غيرنا بنصوصهم. - المنطق الحديث فرعٌ من فروع النص الحديث: أوضحنا فيما سبق كيف عجز منطق أرسطو القاطع عن معالجة النصوص اللغوية بصورةٍ عامة ناهيك عن النصوص الدينية. يسعى المنطق الحديث، ونظرية المعرفة السيمولوجيا، إلى وضع أسسٍ جديدة لنظرية البرهان، تتجاوز الأساليب المتاحة للقياس والاستدلال والاستنباط، وتأتي تكنولوجيا المعلومات ووسائطها المتعددة لتكسر احتكار اللغة لأساليب البرهان، ولا بد من مساهمة الرموز الأخرى كالصور مثلاً في إحداث الاقتناع العقلي.

ج - تجديد أساليبنا بالحوار وخلق أدواتٍ جديدةٍ للقياس الرمزي للنص القرآني: عندما نحاور الآخر عبر الإنترنيت، نحتاج إلى أساليب جديدة للمحاجاة دفاعاً عن قرآننا وعقيدتنا. وهذا يتطلب تجديد أساليبنا في البرهان والإلمام بهندسة الحوار، وسيطرح المتغير المعلوماتي العديد من

القضايا، التي تتطلب تحليلاً فقهياً، ومعظم هذه القضايا مستجدةٌ غير مسبوقة، يصعب علينا أن نجد مثيلها في تراثنا الماضي على ما يمكن القياس عليه، وهو ما يستوجب استحداث أدوات جديدة للقياس تتجاوز تلك القائمة على التحليل اللغوي المباشر، باستخدام طرق الإثبات العلمي، والسند الإحصائي، والتاريخي، والرمزي.، وأصبح للإقناع واثبات البرهان فرعٌ متخصصٌ في تكنولوجيا المعلومات.

د - **الاهتمام بعلاقة النص القرآني مع الإعلام الجماهيري:** إن عالمية الإسلام تفرض علينا دراسةً متأنيَّةً للنص القرآني في البيئات الاجتماعية المختلفة، ولا شك أن موقع النص يختلف ما بين تركيا العلمانية وإيران الإسلامية، وبين أقلية مسلمي الألبان في الصرب، وبين الأقلية المسلمة في الفلبين والهند. - من خلال توظيفه معرفياً في تناول القضايا السياسية والاقتصادية. - علم نفس المعرفة فرعٌ من فروع علم النص: إن علم النفس السلوكي يدرس العلاقة بين المؤثرات الخارجية وسلوك الأفراد. يدرس علم نفس المعرفة أثر البنى المعرفية الكامنة داخل المخ في سلوك الأفراد، ورؤاهم الاجتماعية، ونظرتهم إلى أنفسهم والعالم، وخير مقولة تعبر عن هذا مقولة إغريقية تقول:) من يعرف الخير يفعل الخير)، مثالنا على ذلك: يمكن لبنى معرفية كالبنى الهرمية، متعددة في درجات السلم الهرمي، توحي له برؤية ظواهر العوالم نزولاً من الأعقد إلى الأبسط، أو صعوداً من الخاص إلى العام، وهكذا فعلم نفس المعرفة: - ذو صلة وثيقة بعلم النفس اللغوي - وكذلك بتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي - وهندسة المعرفة - وهناك توجه لإيجاد تناظر بين وظائف المخ البشري، ووظائف الكمبيوتر، كالتكرار والتخزين للمعلومات واسترجاعها.

هـ - **تقديس الرموز القرآنية واحترام القيم:** - هناك الكثير من المعاني القرآنية تدرك وتستشعر، ولا يمكن وصفها، أو التعبير عنها من خلال الكلمات، وعلى علم النفس المعرفة أن يجد لنا من أين تنبثق هذه المعاني من متن النص. - يساعد علم نفس المعرفة، بالكيفية التي يمكن بها للإنسان

المسلم أن يتلقى نصه القرآني - وكيف ينمو لديه هذا الشعور النفسي بتقديس الرموز الدينية واحترام القيم السامية ورفض القيم المتدنية، وما الذي يبقى من النص الديني في ذاكرة الإنسان بعد تكرار الإنصات له، وعلاقة خلفيته العلمية باستيعابه لمضمون النص؟ - علم الذكاء الاصطناعي: ينهض علم الذكاء الاصطناعي: - فيما يخص معالجة النصوص، بتمثيل المعرفة المتضمنة في النصوص بصورةٍ دقيقةٍ ورسميةٍ، باستخدام هندسة المعرفة: وتسجيل هذه المعرفة، فيما يعرف بقواعد المعارف، أو في صورةٍ رياضيةٍ، أو منطقيةٍ، أو على هيئة شبكاتٍ دلاليةٍ أو مخططاتٍ مفاهيميةٍ.

و - **التعمق في علم الدلالة للنص القرآني:** لابد للمراكز الأكاديمية في الغرب، أن تطبق أساليب الذكاء الاصطناعي ونظم الفهم الأتوماتي لمضمون النص في التحليل الدلالي العميق للنص القرآني. ومن واجبنا نحن الإسراع بهذا الأمر، وذلك بتمثيل النص القرآني منطقياً، ومفهومياً، وكذلك في تطوير وسائل استنتاج جديدة، تستطيع استظهار المعاني المستترة بين ثنايا الألفاظ. إن تفسيرنا للنص القرآني يحتاج إلى دعم حقيقي من تكنولوجيا المعلومات، حتى لا نبقى أسرى التحليل اللغوي المباشر لمعاني الألفاظ والجمل. وهذا يتطلب التعمق في علم الدلالة الصورية، والمنطق الحديث، واللسانيات الحاسوبية، وتعزيز معجمنا العربي بالبيانات اللازمة للتحليل الدلالي.

- القيم:

أ - **الأخلاقيات كشجرةٍ مزهرةٍ ومورقةٍ:** إن القيم في أصلها اعتقادٌ ليس شرطاً أن تكون حقيقةً، فهي مجموعةٌ من الرؤى والتصورات عن الخير والشر، يمنحها الإنسان لنفسه دون سند سوى رغبته في الإيمان بها، لأن الرغبة والعاطفة والإرادة في نظر بعضهم أهم من العقل فيما يخص القيم. وعلى مر العصور كانت القيم مصدراً للنزاعات والصراعات، ولكن الموقف اختلف اليوم إزاءها، وينظر إليها أنها الملاذ الحقيقي للسلام والوئام بين فئات البشر جميعاً، على اختلاف أعراقهم وعقائدهم ومستوياتهم. ونستطيع أن نردد مع القائلين: (نِعْمَ الزمانُ الذي كانت فيه القيم واضحة وسهلة، لقد تعقدت

المسألة الأخلاقية بعد أن تداخل فيها العلم والتكنولوجيا، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيدها تعقيداً، فأصبحت جميع القضايا الأخلاقية مسألةً صعبةً للغاية، تختلف فيها الآراء والمواقف إلى حد التناقض الشديد، فهناك من يرى في مبدأ التسامح ضرباً من الاسترخاء الأخلاقي. ولا يخضع الرأي بشأنها إلى بداهة الحس الطبيعي في القياس على ما سبق، لأن الهُوَّةَ الفاصلةَ بين واقعنا وماضينا قد اتسعت. وأوصانا الأنبياء والعلماء والفلاسفة، ألا نسقط القيم من أمور حياتنا في التربية والتنمية، إلا أننا تمادينا في إهمالنا لها، حتى أصبحت أمورنا لما هي عليه الآن: انفصال بين التقدم الاقتصادي وبين غايات الإنسان الحقيقية، وانفصال بين التعليم والتربية، وانفصال ما بين القانون والعدل، وانفصال مابين الموهبة والشهرة، وقد زاد الطلب على قيمٍ جديدةٍ مغايرةٍ فأورقت شجرة الأخلاق فروعاً جديدةً من أخلاق عصرنا وهي: - أخلاق البيئة: هدفها حماية بيئة الإنسان والتنوع البيولوجي، وترسيخ مسؤوليته البيئية، لكل بلد تجاه جيرانه، وكل جيلٍ أمام الجيل الذي يليه، لأن كلَّ جيلٍ يرث الأرض من الجيل السابق، وإلزام الدول الغنية بتحمل كلفة ما تستهلكه من موارد البيئة، وهي تستهلك حوالي ٨٠ /بالمائة دون أن تتحمل كلفتها. - أخلاقيات التكنولوجيا الحيوية: وتتناول قضايا الاستنساخ البشري، وتحسين السلالة البشرية، وعلم البيولوجيا، ونسمع اليوم: الطفل المثالي والكامل، والإنسان الجديد، ومجتمع الممتازين، وجميعها يشير إلى توجهٍ علميٍ تكنولوجيٍ لوضع الإنسان في صورةٍ مثاليةٍ، ويعتقد بعضنا أنها أصبحت في متناول اليد، وتهدف الأخلاقيات الحيوية: إلى عدم استغلال بيانات البطاقة الوراثية، التي وفرها مشروع الجينوم ضد خصوصية الفرد، بدلا من استخدامها لمصلحته، وإعطاء الأولية له ولكرامته، فوق أي اعتباراتٍ سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ. - أخلاقيات التكنولوجيا: وتتناول القضايا التي تتعلق بسوء استخدام التكنولوجيا أو تصدير تكنولوجيا ضارةٍ والمغالاة في كلفة نقل التكنولوجيا. وتكنولوجيا المعلومات أتت لتخلق فروعاً أخلاقيةً ذات طابعٍ متغيرٍ تماماً عما سبق، وهي: قيم عصر المعلومات - أخلاقيات الإعلام -

أخلاقيات الإنترنيت - والعالم مشغول بشأن فلسفة أخلاقية جديدة، هدفها ردم الهوة الفاصلة، بين التقدم الاقتصادي وغايات الإنسان الأساسية، وتحقيق نوع من التوافق بين عقل الإنسان وإرادته، لتخرجَ العالم المعاصر من فراغ القيم الذي يعيشه حاليا، وكلنا أمل بتكنولوجيا المعلومات لتساعدنا في خلق عالم جديد، خلق ثقافة سلام قائم على المبادئ الإنسانية تقرها جميع الأديان والشرائع والثقافات والحضارات، عبر العدل والمساواة ورفع المعاناة (وتحبّ لأخيك ما تحب لنفسك) - ولا يهم نوعية القيم التي يتم اختيارها، بل الأهم هو أسلوب فرض هذه القيم وإشاعتها، وليس من المفيد ما كان شائعا في عصر تكنولوجيا الصناعة، الذي صاغ الأخلاق بصورة قوانين وتشريعات، لقد ولى حراسة البوابات الأخلاقية، لأن أخلاق عصر المعلومات سوف تقوم على الالتزام لا الإلزام.. والتحول من الرقابة البوليسية إلى الرقابة الذاتية، ومن سلطة القانون إلى سلطة الضمير، أي إحلال المرجع النفسي محل المرجع الاجتماعي.

ب - **ماذا عن قيم المعلومات؟**: إنَّ قيم المعلومات مرتبطةٌ بالعلم والإعلام، والتعليم والثقافة، والمجتمع الأهلي في كل من البلدان المتقدمة والنامية. إن قيم المعلومات تنهج التالي: - دقة البيانات، ومحتوى المعلومات، ومسؤولية مطوري البرامج تجاه مستخدميها. - طبقية المعلومات بين من يملك المعلومات ومن لا يملكها، واستخدام فوارق المعرفة، والتفاوت في إمكانات النفاذ إلى المعلومات، كوسيلة للاستبعاد والتهميش الاجتماعي. - تكبير الصغار بالإسراع في مراحل نضجهم النفسي والمعرفي باستخدام تكنولوجيا المعلومات، وتطفيل الكبار من خلال انتشار ألعاب الفيديو، والجنس الخائلي، واندماج اللعب بالعمل. - مسؤولية الخبراء في تقديم المعلومات والمشورة، خاصة أن التعقد المعرفي لمعظم ظواهر العصر، فرض علينا أن نضع ثقتنا في قرارا تهم، دون أن ندري شيئاً عن مصادر معلوماتهم، ومدى دقة النماذج، وواقعية السيناريوهات التي يستخدمونها في دعم القرارات، ومدى وجاهة آرائهم وأمانة أساليبهم في عرض المعلومات. - الإنترنيت: فيما يخصها راحت

تبحث الإنترنيت عن صياغة مطالبها الأخلاقية، على مستوى قواعد الحوار، أو على مستوى محتوى الرسائل التي تتبادل عبر الشبكة، وأساليب البحث عن المعلومات من خلالها، ويشمل التالي: - عدم استغلال الحوار عن بعد بغرض التنكر أو التمويه، أو إشاعة الكراهية، وهو ما يحدث من خلال حوار الأديان، واحترام قواعد السلوك المتحضر أو إتيكيت الشبكة - نزاهة آلات البحث والتصفح، والمقصود عدم انحيازها في انتقاء مصادر المعلومات، أو مضامين معينة لتشويه الحقائق، أو بغرض الانحياز لفئات معينة أو التحامل ضدها، ومثالنا على ذلك: أثناء البحث عن مشكلة الشرق الأوسط، يمكن لكشاف بحث المعلومات أو شجرة موضوعات البحث طبقاً للمصطلح الفني، أن تعطي الموضوعات التي تخدم إسرائيل كأوّلية أفضل من تلك المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني. - الأمانة العلمية قد يستغل البعض المعلومات المتطايرة والأفكار المتبادلة، من خلال الإنترنيت وينسبها إلى نفسه، دون مراعاة لأبسط قواعد الأمانة العلمية والملكية الفكرية. وما أكثر المقالات الصحفية التي تحتوي على فقرات كاملة تم نسخها من الإنترنيت، وإنَّ كل إجراء يتم عبر الشبكة يترك وراءه آثاره الرقمية. - الداروينية اللغوية: إنها ظاهرة انقراض اللغات نتيجةً لسيطرة اللغة الإنكليزية، في مجال المعلوماتية، فليس هناك ما هو أكثر لاأخلاقية من سلب الإنسان لغته وضرب أسسها الثقافية - استغلال الإنترنيت: لاجتذاب فئات العمالة الراقية من الدول النامية، وهو ما يحدث حاليا فيما يخص عمالة الكمبيوتر ونظم المعلومات، في مصر والأردن وتونس والهند ودول أوروبا الشرقية، وهذا النهب للموارد البشرية هو اللا أخلاقية بعينها، وقد فاق سلب الاستعمار القديم لثروات الشعوب المستعمرة. - وقع قسم كبير من بياناتنا ومعلوماتنا في قبضة التكنولوجيا، ولهذا لابد أن تكون هذه التكنولوجيا مستأنسةً وآمنةً وأمينةً. أما فيما يخص أخلاقيات الإعلام فهي التالي: ضمان شفافية المعلومات وصدق مضمون الرسالة الإعلامية واكتمالها - عدم تنمية النزعات الاستهلاكية وإشاعة القيم المادية - مقاومة الطبقية الإعلامية، نتيجة الخدمات الإعلامية الراقية بثمن لا يقدر عليها إلا

النخبة الفنية - عدم استخدام وسائل الإعلام والإعلان كسلاح إيديولوجي واستثارة النزعات الطائفية والعرقية. - إن أخلاقيات المعلومات من القضايا المهمة التي توليها منظمة اليونسكو اهتماماً كبيراً وقد أقامت على الإنترنيت منتدى خائلياً لبلورة هذه القضايا.

ج - كيف نصنع القيم والأخلاق ونحافظ عليها؟ تخلت الحكومات تدريجياً عن مسؤولية الرقابة وفرض الالتزام بالقوة، وأحالتها إلى الأسرة والى مواثيق وشرف المهنة، ويتوقع بعضهم أن حماية القيم والأخلاق تحولت إلى صناعة قائمة بذاتها، تنهض على استخدام الوسائل الإلكترونية للرقابة، عن طريق برامج احتجاز المعلومات وخدمات رقابية مدفوعة الثمن (شركات).

- القيم العربية:

أ - ماذا عن قيمنا وعصر المعلومات؟: إن المتغير المعلوماتي يفرض علينا إعادة النظر في قيمنا السائدة فيما يخص التالي: - احترام الأمانة العلمية بعد أن تفشت ظاهرة التسيب العلمي حتى على المستوى الأكاديمي. - احترام الملكية الفكرية، لنضمن حقوق أصحابها في الوقت الذي يوفر فيه مناخاً ملائماً لإشاعة المعرفة، ونشر الطاقات الإبداعية - مقاومة ظاهرة العداء العلمي تحت دوافع الجمود الإيديولوجي، أو ادعاء الحرص على الدين، أو تحت دعوى القفز فوق المنهجية العلمية من أجل الإسراع في حركة التنمية. - مقاومة انتزاع سلطة المعرفة بصورة رسمية أو غير رسمية. - ويمكن أن يكون تراثنا الديني والفلسفي لا غنى عنه لتجديد نظام قيمنا لتلبية حاجة عصر المعلومات، ومازالت جميع مؤسساتنا الرقابية تستخف بخصوصية بيانات الأفراد، وهو يستدعي إصدار تشريعات تحدُ من قدرة هذه المؤسسات على هتك سرية سجلات الأفراد، إلا في حدود الإجراءات القانونية، وتحت رقابة قانونية، وهو ما يتطلب تطوير الوسائل العلمية، للحفاظ على سرية بيانات الأفراد باللغة العربية.

ب - ماذا عن حقوق الإنسان العربي؟: إن العولمة ركزت على حقوق الإنسان في الوطن العربي، وجعلت منها مادةً ساخنةً في الساحة العربية للسجال الديني الإسلامي - العلماني، وهذه الساحة تفتقد البيئة الفكرية؛ أي الأعمال الثقافية المتعمقة فيما يخص حقوق الإنسان بشكل عام، يسعى العلمانيون إلى تأصيل ثقافة حقوق الإنسان في بيئتنا العربية، ويطلب بعضهم إجراء مراجعة شاملة لمنظومة قيمنا. وهناك من يقول: أن قيمنا تتعارض وروح العصر، ويتهمون الخطاب الإسلامي فيما يخص حقوق الإنسان بالتخفيف والجزيئية (هيثم المناع ٢٠٠٠)، وهنا تجدر الإشارة إلى ما قاله برهان غليون في (اغتيال العقل) حيث قال: بينما تؤكد العقلانية الغربية حرية الإنسان، فإن العقلانية العربية جاءت لتثبيت النظام القائم ولتبرره، وأنها ضد حرية الإنسان (برهان غليون ١٩٩٠)، أما الإسلاميون فيفسرون ذلك بأنَّ وجهة نظر العلمانية تلك تعود إلى أنهم يتناولون القضية من منظور غربيٍ، ومرجعيتهم في ذلك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخريطة تصنيفاته (الباقر العفيف ٢٠٠٠) والاختلاف ناشئ في رأيهم من المسميات. وعلى الرغم من عدم وجود مصطلح لحقوق الإنسان، فإنه مفهومٌ متأصلٌ ومخزونٌ في الثقافة العربية والإسلامية، كما يقول حسن الترابي فهو لا يرى أن الأحزاب ضروريةٌ من أجل الديمقراطية (حسن الترابي ١٩٩٥) وهناك من الإسلاميين من يعترض على استخدام الديمقراطية، فهي تدخل في دائرة المحرمات بالنسبة للحركات الإسلامية (نفس المصدر السابق)، وفي رأي هؤلاء أن الحركات الإسلامية حركاتٌ شعبيةٌ، لذلك فهي ديمقراطيةٌ بامتياز، وهم يرون فتح ملف حقوق الإنسان في الإسلام من داخل القرآن، وبقراءةٍ قرآنيةٍ جديدة والقرآن يعهد بالسلطة إلى الشعب ويسعى دائما لتحقيق الإجماع باعتباره عاملاً مهماً في التوحيد (الباقر. العفيف ٢٠٠٠) وسمح لأمة الإسلام أن تتوزع فرقا ومذاهب دون غلوٍ في المذهبية (حسن الترابي ١٩٩٥) - ويرى فهمي هويدي: أنْ لا تعارض بين الإسلام والديمقراطية ويقول: (لابد

من الإسلام والديمقراطية والجمع ممكن بينهما حقاً، ويعتبر الديمقراطية أفضل صيغة ابتكرها العقل الإنساني للإدارة السياسية للمجتمع، ويحيلنا إلى ما قاله العقاد من أن فكرة الديمقراطية أنشأها الإسلام لأول مرة في تاريخ العالم) (فهمي هويدي ١٩٩٣). أما بالنسبة لمشكلة الأقليات في الوطن العربي، يرى الجابري بشأنها أنّ التعددية الدينية والإثنية تنتمي إلى قضية الديمقراطية ولا تنتمي إلى قضية عروبةٍ وإسلامٍ (محمد عابد الجابري ١٩٨٩) وبعضهم يظهر قلقه من التعصب الديني، ويلاحق ويرصد درجات توتراته من التعصب في الكلام حتى الإرهاب (إكرام لمعي ١٩٩٩) لقد تراوحت المواقف بالنسبة لعولمة القيم، ما بين إظهار أشد القلق على ما تمثله من تهديدٍ لقيمنا الإسلامية والعربية، وبين الذين لا يرون حلاً لمشاكل العولمة إلا من خلال تصدير قيمنا لسد الفراغ القيمي، وفي كلتا الحالين نحن بأمس الحاجة إلى دعم تكنولوجيا المعلومات، إما لبناء الدروع ضد قيم العولمة، وإما لإقامة الجسور لتوصيل إشعاعنا القيمي إلى مصادر الطلب عليه، ولا شك أن الإنترنيت ستكون هي حلقة الوصل بين منظمات حقوق الإنسان حيثما توجد في عالمنا العربي، وربطها بباقي المنظمات العالمية، مما يزيد تصديها لممارسات الداخل.

- **ماذا عن الدعوة الدينية الغربية؟:** إن الدعوة الغربية الدينية تمر بتغيُرَاتٍ جذريةٍ بفعل التغير المعلوماتي والعولمة، ومن المتوقع أن تصبح الإنترنيت أداة الدعوة الأساسية، أي (التبشير عن بعد)، ولن يكون التركيز على هداية الفرد كما كانت عليه الحال في السابق، وتحل محلها التوعية الاجتماعية، ويكون بجعل الفقير والمحروم والمقهور أكثر وعياً بحقائق المجتمع، والآثار السلبية لظاهرة العولمة، وإظهار المساندة لهم من أجل التحرر والعدل، والتركيز سينتقل من الثيولوجي إلى الأخلاقي، وسيكون من مهام الدعوة الإبقاء على الروح النضالية في عصر المعلومات. وتتطلب هذه الدعوة دعماً من تكنولوجيا المعلومات لإقامة حلقة التواصل مع هذه الحلقات المستضعفة.

- ماذا عن الدعوة الدينية العربية؟

أ - ما أولويات الدعوة الدينية العربية؟ إن أهم مهام الدعوة إلى الإسلام عن بعد، هو مقاومة الحملة الشرسة ضد ما يسمونه بالخطر الأخضر، وتقوية الروح النضالية لدى الأقليات المسلمة، وربط الدعوة الإسلامية بمشكلاتها المحلية، وتوعية الجاليات الإسلامية المهاجرة، خاصة الأجيال التي نشأت في دول المهاجر، والدعوة الإسلامية في عصر الإنترنيت تواجه دعوةً منافسةً من قبل مؤسساتٍ دينيةٍ لها تنظيماتٍ عالميةٍ رسميةٍ وغير رسميةٍ، في ذات الوقت الذي نعاني فيه قصورلً تنظيمي.

ب - ما نوع الخطاب الإسلامي على الإنترنيت؟: يمكن لنا أن نصنف نوعيات خطاب الدعوة عبر الإنترنيت على الوجه التالي: - التوجه الصدامي مع المسيحية: وهو ذو طابعٍ انفعاليٌ في أغلبه، يقوم على المقارنات السافرة بين نصوص الكتب السماوية واصطياد بعض الممارسات اللا أخلاقية في المجتمعات الغربية - التوجه الاستكباري الديني: وهو لا يقل استفزازاً عن سابقه، وتسوده لهجة الفخار والتباهي، والإسلام هو المخرج الوحيد لإنقاذ البشرية، ولا حل للأزمات المعاصرة، بدءاً من المشكلات النفسية وانتهاء بالمشكلات الاقتصادية والبيئية، إلا من خلال تطبيق مبادئ الإسلام. - التوجه اللين: هو أقل حدةً من سابقه ولا يختلف في منطلقاته عنه، سوى أنه موجه إلى الجماهير المسلمة في المجتمعات الغربية، ليعينهم على الصبر والصمود (والعاقبة للمتقين) والمستقبل للإسلام. - التوجه المهادن: وهو ذو صوتٍ خافتٍ ينطلق من بلدان أوروبا، وخاصةً ألمانيا وفرنسا ذات جالياتٍ إسلاميةٍ كبيرةٍ، يتسم بالطابع البرجماتي التوفيقي، حيث ينادي بمهادنة المجتمع الغربي إلى حد البحث عن صيغة أوروبية للإسلام تُوَفِّقُ مابين قيمه وقيم المجتمع الأوروبي. التوجه الانفصالي: وهو خطاب يتملق الفكر الغربي في حثه إلى عدم النظر لأمة العرب والمسلمين ككيانٍ واحدٍ مندمجٍ، ويتراوح ذلك بين العلمانية التركية ومسلمي جنوب شرق آسيا، لتقديم صورةٍ مختلفةٍ

لمجتمع إسلاميٍّ متقدمٍ تكنولوجياً واقتصادياً. التوجه المقاوم المجاهد: وله عدة منابر في مواقع الإنترنيت، تدعو المسلمين -شبابهم على الأخص-، بشكلٍ مكثفٍ وملزمٍ إلى المقاومة والجهاد، والتضحية في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين. - التوجه الوعظي: موجه إلى الجاليات الإسلامية في دول المهجر، وهدفه التوعية الدينية، وتنشئة أبناء هذه الجاليات على تعاليم الدين الحنيف وأصول العبادة وما شابه - التوجه بالهداية إلى الإسلام: تَوَجُّهٌ يعرض روعة القرآن ومظاهر إعجازه وحكمة السنة والسيرة النبوية والسلف، من أجل الدعوة الصريحة لحث غير المسلمين على الدخول في الإسلام، ويضطلع به أصحاب النوايا الحسنة من مسلمي المهاجر غير المؤهلين لأمور الدعوة، يحاولون إقناع (المهتدين القادمين) بنسف أسس عقيدتهم الدينية الأصلية، ووضع أيديهم على ما يسمى ثغرات في دينهم ونصوصهم، - توجه النزاع والتصارع: هو توجه إسلامي - إسلامي تتبادله القبائل المتصارعة الإسلامية، أو المحسوبة على الإسلام.

ج - **كيف تدعم تكنولوجيا المعلومات الدعوة الإسلامية؟:** استخدام الإنترنيت: للربط بين مراكز الدعوة الإسلامية وبين نقل رسالة الدعوة من هذه المراكز إلى المسلمين عبر العالم - استخدام تكنولوجيا الوسائط المتعددة في تصميم برامجَ متقدمةٍ للإرشاد الديني متعدد اللغات. - إقامة بناء قواعد بيانات للفتاوى والتشريعات الإسلامية. - استخدام قواعد ذخائر النصوص لحفظ نصوص التراث الديني. - إقامة بنوك مصطلحات إسلامية بجميع اللغات المستخدمة في الدول الإسلامية، غير الناطقة بالعربية. - إقامة قواعد البيانات البيبلوغرافية لموارد المعلومات اللازمة لدراسات الدين المقارن. - إقامة خرائط ثقافية للأقليات الإسلامية.

الفصل السابع

(أنت حر بقدر ما تمتلك من معرفة)

ثقافة الإبداع الفني

- فن عصر المعلومات بين المأزق والتجديد:

ما علاقة الفن بالتكنولوجيا في الغرب؟:

مقدمة: إن علاقة الفن بالتكنولوجيا علاقةٌ قديمةٌ جديدةٌ، تمتد عبر العصور، من الرسوم داخل الكهوف إلى نقوش المعابد وكتابات ألواح الطين، إلى رسوم الكمبيوتر وفنونه الذهنية، وعوالمه الخائلية، وهي علاقةٌ مضطربةٌ، تظهر العداء وتضمر الوفاق، تتأرجح بين الريبة والرهبة، وبين الحماس الشديد والهوس أحياناً أخرى، وكل فنٍ يتجاهل التكنولوجيا ليس فناً ولا معنى له بل محكوماً عليه بالفشل.

أ - **بين الفن والتكنولوجيا:** يرتبط العداء بين الفن والتكنولوجيا بموقفهما من العلم، إنَّ العلم يكشف الحقائق، بينما يكتفي الفن بالانبهار بها، دون رغبة الدخول في تفاصيلها، عكس التكنولوجيا التي لابد لها أن تدخل في أدق التفاصيل، حتى تتمكن من تطبيق الاكتشافات العلمية بصورةٍ عمليةٍ، وهذا سرُّ التنافر بين التكنولوجيا والفن، والعلاقة بينهما مملوءة بالاتهاماتٍ القاسية والنقد الحاد. الفنان يصف التكنولوجي بالبرود والميكانيكية، ويسخر من مغالاته، ومن قدرة نظمه وأدواته، في المقابل، يرى كثير من التكنولوجيون الفنَّ عملاً غير ذي بالٍ، وينظرون إلى الفنانين كنوع من الطفيليات الاجتماعية، وأنهم يروجون للفوضى والتلقائية، ويثيرون غرائز الناس ورغباتهم الجامحة على حساب سيادة العقل. - إنَّ الفنَّ ينفر من التكنولوجيا وماديتها وبرجماتيتها الحازمة، ويرى فيهما تناقضاً مع ما يتحلى به من رهافةٍ وحساسيةٍ، ومع نزوعه الدائم نحو المجرد، واحتفائه بالغامض، ورضاه بسكنى الجوار معَ المستحيل، ولن يرتاح الفن وبجواره تسكن التكنولوجيا، التي

لبست ثوب الغرور والتباهي. وراحت تطأ بأقدامها الثقيلة أراضيه اللينة، تسعى إلى محاكاة إبداعه، تهمش دوره، تسلبه جمهوره، تعبث بتراثه ونتاج إبداعه، وهي تسرف في ذلك، عندما لا تتورع أن تهبط بفن التشكيل إلى القص واللصق (كولاج). وبالأدب إلى نوع من الوثائقية الجافة، وتنزع عن المعمار قيمته الجمالية، ليظهر رتيبا حزينا لا هوية له، وما أكثر ما أضرت هذه التكنولوجيا بفن السينما، الذي نشأ وترعرع في حضن الثقافة الأوروبية، وفي أمريكا أصبح يعين آلة إنتاج هوليوود، فيتوارى الإبداع الحقيقي، ثمناً لمتعة حسيِّة، لحظةٌ زائفةٌ سريعاً ما تزول، والمأساة ذاتها تتكرر في الإنتاج التلفيزيوني.

ب - **هل هناك صراع بين الفن والتكنولوجيا؟:** وقد يكون على النقيض من ذلك كثيرا ما ألهبت التكنولوجيا خيال المبدعين، فما أن تظهر تكنولوجيا إلا وتندفع مقدمة الفنانين إلى استخدامها في مجالات فنونهم المختلفة، ولا تخلو هذه المبادرات من بعض التعسف. ففي بداية ظهور السينما سارع بعضهم إلى تسجيل المسرحيات سينمائياً ففشلت، وتكرر المشهد نفسه مع ظهور الكمبيوتر، حيث تسرع بعضهم إلى استخدامه قبل الوقت المناسب، في إعداد الرسوم وتوليد جماليات الخطوط، فكانت النتائج متواضعةً، وسرعان ما مهدت هذه البدايات العسيرة إلى علاقة بين الفنّ والتكنولوجيا أكثر نجاحاً، وتشهد على ذلك الانجازات الباهرة التي حققتها السينما، في تقديم الأعمال المسرحية وروائع الرسوم، وجماليات الخطوط، التي يمكن توليدها اليوم بواسطة الكمبيوتر، وما أن يستوعب الفنان جوهر التكنولوجيا الجديدة، ويضع يديه على أماكن التقائهما مع مجال فنه، حتى يهتدي إلى كيفية القيام بعلاقة متوازنة معها، وتدين لها التكنولوجيا كأداةٍ طيِّعة لا يطيق فراقها، وتتكشف أمام ناظريه كموضوع مثيرٍ يلهب خياله، ويدفعه إلى المزيد من الإبداع والاكتشاف. وهكذا دخلت التكنولوجيا عالم الفنَّ من أوسع أبوابه، وهي الآن شريكة كلَّ الفنون، تحرك المنحوتات، تمزج الأنغام الموسيقية، وتشارك في صنع الديكور، وتتحكم في الإضاءة المسرحية، وتنتج الخدع السينمائية، ترمم اللوحات، تقوم بأرشفة التراث الفني، تحيل خيال المصمم المعماري إلى واقعٍ ملموسٍ، بصورةٍ لم يحلم بها في الماضي.

ج - ما علاقة تكنولوجيا المعلومات بالإبداع الفني؟: إنها الرهبة والهوس تلون علاقة الفن بتكنولوجيا المعلومات، وآلة التصوير أعفت الفنان المبدع من تسجيل الواقع ومحاكاة الطبيعة، لتصبح مهمته تمثيل الواقع واستيعاب حقائقه، وملاحظة ما يصعب ملاحظته، هذا ما فعلته آلة التصوير بالمبدع، وتكنولوجيا المعلومات سلبته مهمة الوساطة بين المتلقي والواقع، فهي تزاحمه في تمثيل حقائق الواقع وملاحظة دقائقه، ورصد تفاصيل أحداثه، ومتابعة تغيراته واستشراف توقعاته. ورغم كل هذه الأمور التي تثير قلق المبدع، تبقى تكنولوجيا المعلومات تتميز بخصائص عدة تؤهلها لإقامة علاقات وطيدة مع الفنّ. وهنا علينا أن نخلي الساحة من الصراع وبؤر الصدام. - بالحقيقة تمثل تكنولوجيا المعلومات تهديداً حقيقياً للمبدع. من حيث إنتاجه أو طبيعة عمله، إن تكنولوجيا المعلومات قادرةٌ على نسخ الأعمال الفنية، ودمجها وإعادة استخدامها وتوظيفها، لقد كان الفن في بدايته حرفةً من الحرف كالنجارة والحدادة والبناء، ولكنه سما فوق الحرفية، بعد نجاحه في إثبات تفرده، والمحافظة على تجدده، وانتهاكه القواعد السائدة، وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتنغص عليه حياته، تكاد تأخذ به إلى مهنة يزاولها المهنيون الجُدد من حِرَفِيّ عصر المعلومات، ذوو القدرة على مزج الموسيقى، ودمج الأشكال، وإعادة إنتاج التصميمات، ولم تكتف تكنولوجيا المعلومات بجعل إنتاج المبدع نهباً لمن يشاء، بل راحت تهدد إبداعه في الصميم، عبر تطوير برامج تحاكي إبداعه، برامج تخلق الأشكال، وتبني المنحوتات، وتعزف الألحان، وتؤلف القصص، وتقول الشعر، وهكذا كان رائد الموسيقى اللا نغمية (شوينبرغ) قد تنبأ أن الفنان كاد أن يفقد تفرده، والفن يقترب شيئاً فشيئاً من فخ الحرفية، وآخرون يقولون بأن الأدب اقترب من فخ الوثائقية الفجة، كما قال ألبرتو مورافيا. - بالحقيقة إنّ العلم للجميع وقلنا: إنّ (العلم نحن) كدلالة على موضوعيته وتفرده، وضرورة الإجماع على صحة نتائجه، والفن هو (أنا) تأكيدا لتفرد الذات، وتأتي تكنولوجيا المعلومات وتقول أن (الفن هو هَمّ) وهكذا قامت تكنولوجيا المعلومات، بفصم عرى العلاقة بين المبدع الفني وعمله، بعد أن جعلت من العمل الفني منتجاً جماعياً، يُجْمَعُ من بقايا شظايا متناثرة، من مبدعي

الماضي والحاضر، ويسهم فيه المتلقون أنفسهم، الذين خرجوا من دائرة التلقي السلبي. - انحياز ثقافة المعلومات والعولمة إلى ثقافة العامة، على حساب ثقافة النخبة، وهو يثير قلق الفن على مصير طليعته المبدعة، التي تغذي وتتغذى على ثقافة نخبته، وعندما نسلب من الفن طليعته، فإنّه يفقد ضمان تجدده وتجاوبه مع متغيرات عالمه، وليت ثقافة العامة تعمل على إحياء ثقافة الفئات الشعبية المختلفة، فقد حولتها عولمة الإعلام إلى نوع من التجنيس الثقافي على النمط الأمريكي، وهو يضع قيوداً قاسيةً على ثقافات الشعوب، خاصة شعوب العالم الثالث، ورغم كل حشود التضخيم والتحجيم، يزداد إقبال المبدعين على تكنولوجيا المعلومات، ويراها بعضهم هي المخرج الوحيد لانتشال الفن من أزمته التي يمر بها من سبعينيات القرن الماضي، لقد وهبت تكنولوجيا المعلومات الفن حواساً جديدةً، أكثر حساسيةً وقدرةً على التقاط الواقع، ووفرت له وسائل عدة ليعبر بها عن هذا الواقع، ووسائل مبتكرة للتفاعل مع جمهوره، ونشر ناتج إبداعه، تُرَى كيف يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تُحَفِّزَ من إبداع المبدع؟ عندما ننظر إلى العملية الابتكارية في إطار ثلاثية: ملكة الحدس. مهارات معالجة المعرفة. القدرة على حل المشكلات. وبالحقيقة تسهم تكنولوجيا المعلومات في تنمية كل عناصر الثلاثية المذكورة، فهي أداةٌ فعالةٌ في معالجة المعارف عبر هندسة المعرفة المستخدمة، في تمثيل المعارف وترشيحها، واستخلاص جوهرها، كما هي أداةٌ فعالةٌ في توصيف المشكلات وتقديم بدائل الحلول. وأما بشأن ملكة الحدس، فقد نفذت تكنولوجيا المعلومات بجرأتها المشهورة عالم الحدس، واستحدثت فرعاً علمياً خاصاً بها يعرف بالحدسيات، بهدف إكساب البرامج القدرة على التعامل مع الزائغ والمتميع، والمحتمل والمشوش وغير القاطع، واختيار أقصر الطرق للوصول إلى النتائج. - أزاحت تكنولوجيا المعلومات كثيراً من القيود التي كبلت الفنان، وحررت فنان التشكيل من قيود إطار اللوحة وثنائية أبعادها، وأصبح بإمكانه أن يرسم أشكاله في فراغٍ غير محدودٍ ثلاثي الأبعاد، وحررت فنان الموسيقى من سطوة الآلات الموسيقية، وأصبح بإمكان المؤلف الموسيقي أن يصمم ألحانه بتسجيلها مباشرة على الشرائط دون الرجوع إلى العازفين، وبإمكانه أن

يصمم آلاتَ عزفٍ جديدة، كما يؤلف ألحانه الجديدة، وحررت الفنان من صلابة مادته وسكونية كتلته، من خلال آليات التحريك، وتكنولوجيا توليد الأشكال المجسمة إلكترونياً، كما حررت الأديب من خطية السرد المكتوب الذي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة، لينطلق الأديب في عالم لا متناه، من اللا خطية والتشعب وإعادة البناء، وهو ما أطلق العنان للقارئ ليمارس حقه في حرية القراءة وتعددها، وللمبدع السينمائي نصيبه الوافر من دعم تكنولوجيا المعلومات، فكل الخدع السينمائية والمناظر الخلفية، والنماذج الخيالية كمركبات الفضاء وخلافه متوفرة، بل قابلة للتنفيذ وطوع إرادة المخرج، وما عليه إلا أن يقوم بوصفها وتوصيفها، والمبدع الدرامي الذي ضاق بمحدودية خشبة المسرح، فقد وفرت له تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة للتحرر من أسر الحيز المحدود، عبر نقل المناظر الخلفية عن بعد، بل أسقطت تكنولوجيا المعلومات الحاجز الرابع بالفعل عندما كسرت احتكار الممثل، وأصبح من حق مشاهديه أن يشاركوه أداءه، وينقلوا إليه بشكل فوري ردود أفعالهم لما يجري على خشبة المسرح. وهكذا تحرر الفنان من قيود المكان والزمان، وتمكينه من أن يرى عمله من جميع الزوايا، وأن يمارس تجاربه الإبداعية بحرية زائدة، وكثيراً ما يتجاوز المبدع ما هو متاحٌ له، في سعيه الجاد إلى اكتشاف كلّ جديد. ليصطدم بقيودٍ جديدةٍ وهكذا دواليك. وقفت تكنولوجيا المعلومات إلى جانب المتلقي، ووفرت له العديد من الوسائل التي تمكنه من التفاعل مع العمل الفني، وتنمية حاسة الذوق لديه وتنمية شعوره بالمتعة، وغاية تكنولوجيا المعلومات تحويل المتلقي السلبي إلى متلقي إيجابي، ينفذ إلى عمق العمل الفني، ويسهم في صنعه ومداومة تجديده، وكما أسهمت تكنولوجيا المعلومات في صميم عملية الإبداع الفني وبالمقابل توفر طرقاً عدةً لنشر إنتاج المبدع، فتحرره من قبضة الناشرين وأصحاب المعارض ولجان مقتنيات المتاحف، والإنترنيت في طريقها لتصبح أكبر متحف لعرض الفنون، وأكبر قاعة لسماع الموسيقى، وسوقٍ لتبادل منتجات الفنون، وأكبر أرشيف لتراث الإبداع الفني. ترى ما هي علاقة التكنولوجيا بالفن من حيث علاقتها بالبيئة والطبيعة. ويمكن أن يبقى الصراع والوفاق بينهما، مادامت

التكنولوجيا معاديةً للبيئة وقاهرةً للطبيعة، وسيبقى الفن متشبثاً بحقه أن يمرح في رحاب البيئة، تواقاً للقاء الطبيعة، ولن يتحقق الوفاق بين التكنولوجيا والفن، ما لم يتحقق الوفاق بين التكنولوجيا وبيئة الإنسان من جانب، وآلته من جانب آخر، وإن لم يتحقق ذلك سيصدر عصر المعلومات طبعته الخاصة من الرومانتيكية والسريالية، إما حنيناً إلى الماضي، أو هروباً من بشاعة الواقع إلى جنة العوالم الخائلية صنيعة تكنولوجيا المعلومات، فيهجر الإنسان واقعه ليبحر في غيبوبةٍ رمزيةٍ مثيرةٍ وخادعةٍ. كان القرن الماضي هو قرن الناس العاديين حيث غلبت عليه فنون استهدفت الإنسان ذاته، فهل يكون القرن الواحد والعشرون هو قرن الناس المبدعين، قرن يشهد مولد فنٍ جديدٍ، يتقاسم فيه الإبداع الفنان والمتلقي والآلة.

د - **هل تصلح تكنولوجيا المعلومات كموضوعٍ للفن؟**: عَبَّرَ (تشارلي شابلن) وبأسلوبه السهل الممتنع عن أزمة الإنسان في عالم مجتمع الصناعة، حيث أصبح الإنسان مجرد ترس في آلة إنتاجه، كما صور (مكسيم غوركي) بؤس العمال الذي امتد عبر المصانع إلى حياتهم خارجهم، وقدم (كافكا) شهادته الرائعة لقضاة (محاكمته) وحراس (بواباته) معترضاً على عبث الأنظمة، وبشاعة الديمقراطية التي أقرتها عقول المجتمع الصناعي هي العقلانية ذاتها، التي رفضها بيكاسو، وراح يحطم الأشكال في تجريديته كدعوةٍ لإعادة البناء، وإعادة النظر في ما هو قائمٌ وسائدٌ، وتندمج سطوة التكنولوجيا مع بشاعة الإيدولوجيا في الطوباثية السوداء، لجورج أورويل، فتصور لنا مجتمعاً وقع فريسة نظامٍ مركزيٍ متوحشٍ مدجّجٍ بأمضى الأسلحة التكنولوجية ووسائل الإعلام وذاكرة المخابرات، ووجدت موتيفات عالم الصناعة من تروس وآلات وأعمدة ومواسير طريقها إلى لوحات الفنانين وتماثيلهم، من أمثال (فرديناند ليجيه)، ونحاتي الإنشاء الروسية، ولم تتخلف الموسيقى عن ذلك وكان القصيد السيمفوني (مَسْبَكُ صهر الحديد) لأليكستدر موسولوف) فامتزجت أنغام الموسيقى بدقات المطارق وضجيج الآلات، وصوت انسكاب المعدن المنصهر من بوتقات الصلب، ولاحقت الموسيقى التكنولوجيا في مسار تطورها، فكانت سوناتا (الآلة الكاتبة)

وسوناتا (الطيارة) وساهم (كارل هاينز شتوكهوزن) في وضع موسيقى توحي بالحركة في الفضاء، ويعود الفضل في تدشين استخدام موتيفات عصر المعلومات في دنيا الفن إلى المخرج السينمائي (ستانلي كوبريك)، حين عمدها في الكمبيوتر في فيلم (أوديسا الفضاء) ويعتبر (فون فيبرن)، الأب الشرعي للموسيقى الإلكترونية، وابتكر ما نسميه (المنمنمات الموسيقية) وهي ومضاتٌ من الألحان لا يزيد زمنها عن ثوانٍ، وأخيراً، أدب الخيال العلمي في مجال تكنولوجيا المعلومات، على يد ويليام جيبسون) بروايته الشهيرة، حيث شاع على أثرها مصطلح فضاء السيبر، ويأتي فيلم (ما تريكس) من بعدها ليقدم لنا نموذجاً من ديستوبيا نظم الرقابة الإلكترونية في عصر المعلومات. وهذا كله مجرد بداياتٍ للقاء أدب الخيال العلمي مع تكنولوجيا المعلومات. لاشك أن هذا الأدب سيكون أكثر إثارةً، خاصةً بعد تعاون المعلوماتية مع التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية، ومن المتوقع أن يلهب هذا المزج العلمي - التكنولوجي المثير خيال الأدباء، ليلهبوا خيال العلماء فيحلقون بنا في عوالمَ غريبةٍ تتجاوز ما شاهدناه في أفلام حديقة (الديناصورات) والمرأة الاليكترونية والعودة إلى (المستقبل) وما شاكل. ولنا أن نترقب سوبرمان عصر المعلومات، حاملاً معه قائمةً عجيبةً من الخوارق، الجسدية والرمزية والذهنية. وهو آتٍ إلينا ليفرض العدل، ويتصدى لظلم المؤسسات والاستغلال الرمزي وفوضى الحياة تحت رحمة النظم الآلية.

- ما علاقة الفن العربي بالتكنولوجيا؟:

أ - **لا حوار بين فنوننا والتكنولوجيا:** لم تستطع فنوننا حتى الآن أن تقيم حواراً بينها وبين تكنولوجيا الماضي، وعليها القيام بجهد مضاعف لتنجح في إقامة نمط من الحوار مع تكنولوجيا المعلومات، وهو حوارٌ يتطلب حد أدنى من النضج الفني والتكنولوجي غير متوافر لدينا، ترى ما هي أسباب الصمت الكامنة وراء خطابنا الإبداعي - التكنولوجي، دعنا نلخصها بالتالي:

- إنَّ التكنولوجيا لازالت ظاهرةً وافدةً بالنسبة إلينا، لم تنغرس في تربتنا العربية، لذلك كانت التبعية التكنولوجية التي جرت وراءها تبعيةً إبداعيةً في

معظم فنوننا وخاصة في النقد. - تفشي استيراد الإبداع من إنتاج سينمائي وتلفزيوني، وسلع الغناء والتصوير والموسيقى، واتسعت لتشمل الفنون الشعبية، من فوانيس رمضان، والزخارف الإسلامية، والأزياء الشعبية. - غياب مفهوم تكامل الفنون، تماماً كغياب مفهوم تكامل العلوم، وما يكمن وراءهما من ثنائية ثقافية، أدت إلى شرذمة الفكر العلمي العربي، وتبدو هَيِّنَةً إذا ما قورنت بشرذمة المعرفة بمفهومها الواسع، والذي يشمل الفلسفة والهندسة والفنون. - يشكو معظم العرب كباراً وصغاراً من أمية متجذرة في وعيهم، وخاصة الفنون، وإذا وجدت فتدور حول أمور بدائيَّة أبعد ما تكون عن التكنولوجيا. - ومن أهم هذه الأسباب في تخلف توجهنا الإبداعي - التكنولوجي، ما يتعلق بموقف رجال الدين من الفنون، وقد افتعل بعضهم خصومة بين ديننا الحنيف والعلم، وهناك من لم يدخر جهداً في افتعال الخصومة الدينية مع معظم أنواع الفنون: خصومةً مع التصوير والنحت، ومع الموسيقى والغناء، ومع الشعر والتمثيل، ومع فنون أداء الإيقاع الحركي، ولم يفلت الأدب بأساطيره وأخيلة قصصه من هذا الضغط والحصار، الذي ضيق الخناق على أطفالنا، ومنهم من راح ينقب في الشعر الجاهلي وما الذي تبقى لنا بعد كل هذا؟ صحراءٌ فنيةٌ جدباء، تفرض على الموسيقى أن تصمت، وعلى التشكيل أن يبقى سجين السطحية الزخرفية، والأدب أن يلتزم بتلقينية التوجيه المباشر، ولنصغ إلى ما سَنَّهُ أحد مشرعي الفن من أصحاب الفكر الديني تعريفاً للأدب الإسلامي (إنه تصويرٌ فنيٌّ للحياة ومظاهر الكون، بما فيهما من خلال التصور الإسلامي، تُستَغَلُ فيه الصورة والكلمة في الارتقاء بالقيم الخلقية، وإذا تكلم عن الشر والكره، فإنما يذكره لبيان أسبابه وعلاجه، لتعود الروح إلى الأصل الطيب الذي فطرت عليه) ولننظر فيما قالوا في مجال (الزخرفة العربية) بئس الدفاع عن هذا الفن السامق الذي تفردت فيه الثقافة العربية الإسلامية (الفن عموماً هندسةٌ، والموسيقى هندسة أنغام، والنحت هندسة أشكال، والألوان هندسة في التركيب) (مصطفى عبده ١٩٩٩) فمن يدلنا على ما تعنيه هذه الهندسة المفرطة، وما القصد من ورائها إلا تكبيل الفن، وفرض النظام الصارم عليه من خارجه، في

الوقت الذي تلوذ به الهندسة ذاتها بالفن، وتصبو إلى هندسة الخيال وزعموا أن الإسلام يحرم الغناء، ماعدا الغناء البريء كمناغاة الأطفال وحدو الابل (نبيل علي ١٩٩٨).

ب - كيف نتجنب خطر غياب الحوار في عصر المعلومات؟: إنّ الفن أهم سلعة ثقافية، وهو يمثل أهم صناعات عصر المعلومات، ونحن أمامنا: إما أن ننتج فناً متميزاً، وإما أن نستورده كباق السلع، وعليه يصعب علينا غياب الحوار بين الفن والتكنولوجيا في عصر المعلومات، للأسباب التالية: - إن الطابع الرمزي الذهني يسود عصر المعلومات، وهو يعني أن وظيفة الفن لا تقتصر على التذوق وتنمية النزعة الجمالية، بل ذات صلة بتنمية الفكر ذاته (وبقولٍ مباشرٍ: لا إبداع في مجال العلوم، دون إبداع في مجال الفنون، ونحن كأمة عربية لا وجود لنا إلا بإبداع أبنائنا. - إن شركات إنتاج الفنون العالمية، ستشدد من ضغوطها على فنوننا الشعبية، من موسيقى ومنتجات حرَفيّة، مستغلةً تفوقها في إنتاج تكنولوجيا المعلومات لإنتاج الفنون. - كي نحافظ على تراثنا الفني والحضاري لابد من استخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة، في المحافظة على صيانته وترميمه وأرشفته، وإعادة استخدامه وتوظيفه، وإن لم نفعل سيقوم الآخر بالمهمة، وخاصةً أن المادة التراثية الخام، تعتبر ملكاً للجميع، حتى وإن لم تكن مشاعة، نكون قد قمنا بتعريض تراثنا للضياع والسرقة. - ونحن سائرون نحو الصدام مع العدو الصهيو - أمريكي، لا محالة، حيث تستغل تفوقها في مجال تكنولوجيا المعلومات بسلب ونهب تراثنا الفني، ألا نرى ما تفعله بالتراث الفلسطيني من أزياء وأغان وفنون فولكلورية، يشهد على ذلك متحف القدس الصهيوني - ارتفاع كلفة الإنتاج الإبداعي، لكثرة استخدامه التكنولوجيا في السينما أو المسرح أو الإنتاج التليفزيوني، أو برامج ألعاب الفيديو. وإن لم نفهم دقة العلاقة بين الفن والتكنولوجيا سنصبح لقمةً شهيةً بيَد من يوردها إلينا، ومن سيحده من أن يرفع أسعار بضاعته كما يحلو له؟ - سيزداد نزيف العقول والموارد والمواهب البشرية، بصورة تفوق ما كان يحدث في الماضي، وكلنا يذكر ما قامت به صناعة السينما في هوليوود، عندما تم استقطاب مخرجي السينما

الأوروبيين، وبدأت شركات الإنتاج الإعلامي مُتَعَدِّيَةُ الجنسية، ومدت يدها إلى فنون بلدان العالم الثالث، في إطار مخططها التسويقي لإضفاء الطابع المحلي على إنتاجها، لتجذب المشاهد المحلي، وهو بدوره يزيد من استقطاب المبدعين المحليين.

ج - **كيف نبدع في عصر المعلومات؟**: هل نستطيع الإبداع في عصر المعلومات في ظل هذه القيود التي يعرفها الجميع، وخاصة بعد أصبح الفن صنعة كبار الشركات المتعدية الجنسية، وقد نجحوا في تحويله إلى فنٍ كثيف التكنولوجيا وليس كثيف الإبداع، ونحن لا نريد أن نقول ما يقوله الآخرون من: أنَّ إبداعنا محكومٌ عليه بالفشل (نحن لا نبدع موسيقى بسبب موقف رجال الدين منها، ولن نبدع مسرحاً لأن حضارتنا لم تنهض على الحوار، ولن نبدع تشكيلاً لأن ثقافتنا تقوم على النص، ولن نبدع شعراً درامياً، لأن شعرنا ذهب إلى مديح الحكام والتباهي بالنعرات القبلية، وعدم انشغاله بحيرة الإنسان مع ذاته وواقعه. ولن نستسلم للرأي القائل، أن مجتمعاتنا اليوم لا تقوى على الإبداع، لأن ليس في وسعها إلا توليد خلايا إرهابية تمسخ الإبداع، لا خلايا طليعية تدفع به إلى الأمام، وكيف لمبدعنا أن يبدع بقضايا الفن والتكنولوجيا، وهو يهدر طاقته الخلاقة في صراعه الموجع مع الساسة والقوى الاجتماعية الأخرى. - الإبداع لا يخضع لهذه القوانين المباشرة ولا يحتاج إلى صافرات إنذار، وفي استطاعة مبدعنا العربي أن يتجاوز هذه القيود، ويتحدى كل العقبات، ونجح العربي المبدع في وطنه أو في المهجر، لقد أبدع نجيب محفوظ عالمياً، وأبدع جبران خليل جبران شعراً عالمياً في المهجر، كما نجح زهاء جديد في مزج العمارة الإسلامية مع عمارة الحداثة، وإيهاب حسن في نقد ما بعد الحداثة، وإدوارد سعيد في التنظير لثقافة العصر، لقي فكر أدونيس نجاحاً باهراً في باريس، ولقي من الترحيب والحفاوة أكثر مما لاقاه في موطنه، ونجحت حركة السينما في المغرب وحركة النقد الأدبي في مصر وتونس، وبحوث مركز دراسات الوحدة في بيروت، وهذا دليلٌ قاطعٌ على قدرة المبدع العربي في ممارسة موهبته، تحت أقسى الظروف وأصعب القيود، وكيف لنا أن ننسى إبداع أطفال الحجارة وتحطيم خط بارليف؟ وكيف

نجحت المقاومة اللبنانية بهزيمة إسرائيل في لبنان عام (٢٠٠٦) - إن بمقدورنا أن نقيم علاقةً وطيدةً بين إبداعنا وتكنولوجيا المعلومات، وهذا يحتاج إلى تعاون كل الجهود في دراسة ظاهرة الإبداع في عالمنا العربي من جميع الجوانب المختلفة: الجانب النفسي. الجانب المعرفي. الجانب المعلوماتي. الجانب التربوي. الجانب اللغوي. الجانب الثقافي. الجانب الأخلاقي. الجانب الاقتصادي. الجانب التشريعي. الجانب التنظيمي. الجانب الأمني. - ولابد من تدريس تكنولوجيا المعلومات، في كليات الفنون الجميلة والتطبيقية، ولا بد من أن نقيم معاهد للبحوث المتخصصة في مجال فنون الكمبيوتر، أسوةً بما فعلته بعض الدول الأوروبية مثل: فرنسا . ألمانيا ، بريطانيا ، وأن نخلقَ كادراً من الفنانين لعصر المعلومات، غير الفنانين التقليديين المعروفين، ونحن ندرك مدى أهمية النقلة النوعية إلى الفن الرمزي الذهني، كما نحن مدركون لمغزى الإبداع الفني في عصر عولمة الثقافة، يقوم على اقتراض الفنون من خارج مراكزها التقليدية. واليوم يتجه فن الرقص الحديث باتجاه فن الرقص الأسيوي والإفريقي، ولن يكون هناك فنٌ جديدٌ في المسرح، إلا إذا أتى من اليابان والصين والهند ، وما زالت الموسيقى العالمية بحاجة إلى مزيد من الشحنات الحيوية تأتيها من الموسيقى الزنجية وجزر الكاريبي.

- فن عصر المعلومات في الغرب: (أزمته. وظيفته. طبيعته)

أ - **فتح جبهات في كل اتجاه:** تعرض الفن في الماضي إلى الكثير من الأزمات، ولكنها لا تقارن بالأزمات التي فجرتها تكنولوجيا المعلومات، على جميع جبهات التماس مع منظومة فنون الإبداع دون استثناء. - إن الموسيقى أرقى الفنون وترتبط بصورة وثيقة مع تكنولوجيا المعلومات، فكم مرة تمردت وثارت تحطم أنساق أنغامها ، معلنةً عن حاجتها إلى شحنة إيقاعية تعيد لها حيويتها ، وإنَّها بحاجة إلى سلم موسيقيٍ جديد ، وهو بدوره يترنح بحثاً عن مقامات جديدة، بعد أن نضبت أنغامها ، وتبقى أسيرة للنزر القليل من مقامات الحضارة الغربية. - وفن التشكيل بقي يزهو بانتصاره على الكاميرا، تاركا لها مهمة تسجيل الواقع، ليرتفع هو إلى تمثله وتمثيله وإعادة صياغته. والتشكيل يقف حائراً في انتظار لا يدري ماذا ستفعل به تكنولوجيا المعلومات، التي دانت

لها الخطوط والألوان والأشكال والصور والأبعاد، بصورة غير مسبوقة، . ويثور الأدب، لا يدري ماذا يفعل، بعد أن خلصته تكنولوجيا المعلومات من خطية السرد، التي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة. والشعر هائم على وجهه، باحثاً عن جمهوره، وقد سلبه منه إعلام عصر المعلومات، وعوالم ألعاب الفيديو، وقيل أن عدد من يقرؤون الشعر أصبح أقل ممن يقرضونه. وموقف المسرح لا يقل تراجيديةً عن الشعر صديقه القديم، فكيف يدفع عن نفسه خطر الموت في ظل الوسيط الإلكتروني، الذي يبدو معارضا للعروض الحية، لشدة حبه لفنون التسجيل وإعادة البث. ولا بد أن يكون الرقص ذروة الفن الأدائي، أكثر قلقاً على مصيره من المسرح، وراح يساوره الحنين إلى ماضٍ قد تولى، عندما كان طقوساً وارتقاءً بالجسد إلى ما هو أفضل وأسمى، فهل سيسمح له باستعادة وظيفته السابقة والسامية، بعد أن ابتذل وأصبح حركات فارغة، وإثارة جنسية رخيصة. وحتى السينما صنيعة التكنولوجيا وطفلتها المدللة، صارت قلقةً بشدة، أمام تكنولوجيا المعلومات التي لا ترى السينما إلا جنساً من أجناس الفنون، عليها أن تذوب أمام الوسائط المتعددة التي صنعتها تلك التكنولوجيا. وماذا عن فن المعمار، حيث اللقاء واضح مابين الفن وتكنولوجيا المعلومات. وقد أدرك هذا الفن مدى الضرر الذي ألحقته به الحداثة، بعد أن وضعته في الزاوية الضيقة، وتطيح بالقيم الجمالية وبخصوصية المكان وطابعه. وقد أعلن معمار التحطيم، العصيان على رتابة الخطوط العمودية والأفقية، وانتظام المساحات والفراغات، وثبوت الجدران والأعمدة - وللنقد الفني أزمته الخاصة والتي صار يعاني منها بالفعل، ومل في حداثته حديث التأويل والتفسير والكشف عن نوايا المبدعين، وما يثير حس المتلقين، وقد عجز ما بعد -الحداثة وحديثه عن الجميل والجليل- أن يوفر الحد الأدنى من الغايات والمناهج. - ورغم كل هذا القلق والاضطراب، واختلاط الرؤى وغيابها، لا ينقطع الحديث عن عولمة الفنون. وقد أكدت منظمة اليونسكو أن الحديث عن إبداعٍ فنيٍ معولمٍ، أو تذوق فنيٌ معولمٍ أمرٌ عسيرٌ، ما لم نكن نقصد بالفن هنا ذلك الفن الشائع الرخيص، والفن بطبيعته يرفض التجنيس، نظراً للفروقات الكبيرة في الثقافات التي تقرره. وفي أوضاع المبدعين وأمزجة المتلقين. - ترى هل وصل الفن هنا إلى طريق مسدود، أم هو

يمارس هواية التزلج على الجليد، وهل سيجيد الحوار مع تكنولوجيا المعلومات، كما أجاده في تكنولوجيا الصناعة، ولا بد من نجاحه آجلاً أم عاجلاً، ذلك في إقامة حوارٍ متكافئٍ ومتوازنٍ مع تكنولوجيا المعلومات، وقد بدت طلائع هذا الحوار متمثلةً في حزمة من فنون عصر المعلومات وسنتكلم عنها بالتفصيل في الفقرات التالية، وهي: - فنٌ مفهوميٌ - فنٌ تفاعليٌ - فنٌ اتصاليٌ - فنٌ سيبريٌ - فنٌ الفيديو - فن السي - دي - فن الاتصال المباشر، إنها فنون التلاقح مع تكنولوجيا المعلومات، وهذه لم تستقر بعد، وهي فنون مازالت تحت التصنيع، بدون هوية، فنونٌ تبحث عن مبدعٍ جديدٍ، وكلنا خوفٌ أن يتسرع بعضهم بالإطاحة بالقديم، قبل أن يستقر الجديد، كما تبحث عن متلقٍ جديد، وتنشد علمَ جمالٍ جديد، ولنا أن نعطيه المهلة الكافية لتتضح معالمه وتكتمل أدواته ومناهجه، وهنا تطرح الأسئلة نفسها علينا بشدة، وهي: ما الفن؟ ما وظيفته؟ ما المعرفة التي تكمن وراءه؟

ب - **ما وظيفة الفن في مجتمع المعلومات؟**: إنّ وظيفة الفنّ لم تعد كما كانت في الماضي اكتشاف الواقع ومحاكاته، وكما قالت (فير جينيا وولف): على الفن أن ينزل من عليائه، ويكف عن محاولاته بالكشف عن الحقائق النهائية، وأن يتلذذ بنبوءاته، ويزهو بحساسيته المفرطة في ملاحظة ما يصعب ملاحظته، وعليه أن يواجه ما يجب مواجهته، وأن يدافع عن وجوده بغريزة حب البقاء ضدّ ما يحيط به من مواجع في ظل تكنولوجيا المعلومات، التي تريد أن تجعل من الفن سلعةً تباع وتشرى. وآن له أن يتخلص من نزعته الديكورية في خدمة دور العبادة والقصور والصالونات ومعارض المقتنيات، وله أن يتخلص من التحامه بالنخبة، ويلتحم بجماهيره ليواجه معها صراعات عصر المعلومات، وآن للجماهير أن تتخلص من آفة التلقين السلبي، التي ترسخت بفعل وسائل الإعلام الجماهيري، وتعليم الإنتاج بالجملة، من أجل المشاركة في صنع مصيرها، وألا تتركها نهباً لصناع القرار وأصحاب رؤوس الأموال، وجوقة الخبراء، وبيروقراطية التنظيمات، وسطوة التكنوقراط، والإنسان اليوم يواجه عالماً سريع التغير، سريع الخطوات، ترى هل يمكن للفن أن يساعد الإنسان ليلحق بعالمه، ويردم الهوة التي تفصل بين ممارساته

العملية وإدراكه لمضمونها المعرفي، وأن يتصدى لثقافة الانفصال بين الغايات والوقائع، وبهذا يعيد الحلقات المفقودة في علاقة الثقافة بالتنمية، وعلاقة تكنولوجيا المعلومات برفاهية الإنسان وسعادته؟ لم يعد يكفي الفن أن يكون ثائراً ومتمرداً على الأوضاع القائمة، في عصر لم يعد للثورة والتمرد من مفعول، تحت وطأة الحتميات الاقتصادية والتنظيمية، وضغوط القوى الاجتماعية، وفَقَدَ الفنُ القدرة على تجاوز العلم، كما قال هربرت ريد : (يبدأ الفن عندما ينتهي العلم، والعلم في أوج انتصاره وزهوه، وإن تكنولوجياته تجعل من الفن تابعاً لها ، فهل يتمكن الفن من أن يتمسك بحقه بالريادة، وأن يجر التكنولوجيا خلفه، ليجعلها في خدمة التربية والتعليم والتثقيف؟ وهل بمقدور الفن أن يتجاوز حدود التذوق الجمالي، وتنمية الشعور الوجداني، لتشمل توليد المعرفة أيضا؟ حينها يتقاسم الفن والعلم التكامل المعرفي، تحقيقاً لثلاثية العقول: التي قال بها كانط: (عقل الظاهر، وعقل الباطن، وعقل الإبداع).

ج - **كيف نعرف فنَّ العصر ولماذا؟**: إننا نؤكد الآن أن الفن ضربٌ من ضروب المعرفة، معرفة تختلف بطبيعتها عن المعرفة التي يمدنا بها العلم، فوراء كلُ فنٌ معرفته الخاصة به، ولن تتحقق وحدة الفنون، ما لم يتحقق الشق المعرفي لأجناس الفنون كلٌ على حدة، وهو ما تسهم به تكنولوجيا المعلومات بدورٍ فعالٍ، للأسباب التالية: - توجه الخطاب الذهني السائد في عصر المعلومات، وما يعنيه من تقارب بين الفكر والفن. - الطابع الرمزي لتكنولوجيا المعلومات، والذي يتواءم مع الفنون بصفتها تنويعات مختلفة من أنساق الرموز. - ثنائية المرسل والمستقبل، في نظرية المعلومات، وقياس كمية المعلومات، وهي تعبر عن علاقة المبدع بالمتلقي، وتحديد قيمة الأعمال الفنية. - دور اللغة في تكنولوجيا المعلومات، توفر أدواراً عمليةً ونسقاً عاماً، تقاس عليه لغات الفنون الأخرى: لغة الموسيقى. لغة الشكل. لغة المسرح. لغة السينما . لغة الشعر. لغة الرقص. لغة المعمار، وهي لغاتٌ مازلنا نتعامل بها حتى اليوم، على مستوى المجاز - الوسائط المتعددة التي تسعى إلى مزج أنواع

الفنون. وهو الأمر الذي يظهر الحاجة إلى إماطة اللثام عن معرفة الفنون المتخصصة، لنتمكن من عملية المزج هذه على أسس منهجية واضحة. إن معرفة الفنون هي وسيلتنا الوحيدة، إلى معرفة جماليات جديدة قائمة على وحدة الفنون، لنصل إلى وحدة أكبر، تجمع بين أجناس المعرفة المختلفة: في الفلسفة والهندسة والعلم والفن والخبرات المكتسبة، لعلنا نصل إلى ما أراده غيرنا مثل: (روجي غار ودي)، ب (واقعية بلا ضفاف)، عندما تكلم عن وحدة الفنون، والذي جمع فيه بين (تجريدية تشكيل بيكاسو، وعبثية أدب كافكا، وشمولية شعر سان جون بيرس) لندرك ما ذهب إليه (دوجلاس هوفستادر)، على مستوى وحدة المعرفة الشاملة، عندما تمكنا من وضع أيدينا على القواسم المشتركة، بين مؤلفات عبقري الموسيقى (يوهان سباستيان باخ)، ورسم فنان الحفر الهولندي (ام سي اشر). والرياضيات المنطقية لصاحبها العالم النمساوي الشهير (كورت جودل). لقد أبدينا اهتماماً زائداً بالفن، لما له من أهمية في حياتنا وعلاقته بتكنولوجيا المعلومات، وهو لا يتضح إلا من خلال المعرفة، ولإزالة المفهوم الخاطئ لدى الكثيرين، أنّ لا صلة للمعرفة بالفن، وهذه النظرة المتدنية من قبل علمائنا للفن هي المسئولة عن ذلك. - ونحن بحاجة إلى فلسفة جديدة تقيم توازناً بين ثلاثية: الحق والخير والجمال، تعيد الوفاق بين الحق (العلم) والجمال (الفن) كشرط أساسي لإعادة الوفاق بين الحق والخير، أي، بين: العلم والأخلاق في عصر تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية، وهما تطرحان العديد من القضايا الأخلاقية، ويكفينا ما عانته البشرية من كوارث تطبيق أعمى للتكنولوجيا، وهو لا ينظر إلا للعائد الإقتصادي، ولا يهمه ما يحصل للبيئة والقيم، وأمان الإنسان وأمنه وإيمانه.

- فن عصر المعلومات: (أزمته. وظيفته. طبيعته) لدى العرب:

أ - **ماذا عن أزمة الفن العربي؟** إن الحديث عن أزمة فنوننا قد لا يروق للآخرين، يعتبرونه ضرباً من رفاهية فكرية، وقد يقول آخر أنه تجاهل لأولويات أزماتنا وحقائق واقعنا، ونستطيع القول أن أزمة الفن لدينا هي

المدخل الأساسي لحل كثير من مشاكلنا الاجتماعية، وأزمة الفن هي السبب الكامن وراء أزمة التربية لدينا، وتنميتنا، ومعمارنا، وإعلامنا، وسلوكنا وقيمنا، وأن أزمة فنانينا لها صلةٌ بأزمة مهندسينا، وأطبائنا ومدرسينا، ومحاسبينا، ولنا أن نبحث عن الأسباب الدفينة وراء أزمتنا الإبداعية، التي طفح بها الكيل، أعراضها: كتبٌ بلا قراء، مسارحٌ بلا جمهور، ومعارضٌ بلا زوار، مواهبٌ تتبخر ولا تجد من ينميها، مؤسساتٌ فنيةٌ لا تجد من يمولها، ولها أسبابٌ عدةٌ تكمن وراءها، وهي التالي: - لقد غاب دور الفن عن وعي قياداتنا السياسية، ودوره في عملية التنمية بشكل عام، والتنمية المعلوماتية بشكل خاص. - نقص أهمية الوعي لدى مبدعينا بمغزى المتغير المعلوماتي في عالم الفن: تقنياته. أسواقه. اقتصاده. - غاب مفهوم وحدة الفن لدى الكثيرين من مبدعينا ومثقفينا.

ب - ما ذا عن وظيفة الفن العربي؟ غادرنا الفن الأصيل إلى غير رجعة، حاملاً معه معرفته ووظيفته، ونحن بأمس الحاجة إلى فن جديد، يعيد لنا كرامتنا وعزتنا، فنٌ مناضلٌ أصيلٌ لا يرضى بالذل والخنوع، لا يخجل من الكشف عن مكمن ضعفنا وجهلنا وعجزنا ونقائصنا، فالفن ليس حراماً كما قال السلف، له أن يقيم حواراً مع ديننا دون استفزاز الغوغائية، التي تقف على أهبة الاستعداد لتنقض على المبدعين الفنيين، فالدين ليس ملكيةً خاصةً لأحد من الناس، إنما هو للناس جميعا، وما يهمنا من الفن أن يطرح الميتافيزيقا جانباً مع همومها، ليوجه كل طاقاته إلى المناحي الأخلاقية والمعرفية، نريد فناً يتصدى للتلقي السلبي، يعوض بعضاً مما عجزت عنه تعليم الفصول الدراسية، ويخفف من التضليل الإعلامي، طالباً الوضوح والشفافية، دون ترقيع نشرات الأخبار، وله أن يتصدى للمتلاعبين بالعقول، فلا بد من فنٍ جديد، يربط بين نظافة البيت والملبس ونظافة اليد، وبين فوضى الشوارع والمكاتب، وفساد المؤسسات، واختلال العلاقات ما بين القوى والأفراد والفئات الاجتماعية.

ج - هل المعرفة وراء فنوننا العربية؟ كثيرون يجدون صعوبةً بالغةً في أن يكون وراء فن التشكيل والشعر والموسيقى ضرب من المعرفة، ناهيك عن فنون الرقص، وهم يُشَيِّدُون جداراً عازلاً بين الفن والعلم، والفن في نظر بعضهم ما

هـو إلا شـطحاتٌ مـن الانفعـالات، وإن معرفتنـا مـا وراء الفنـون، هـو المدخل الأساسي لتأصيل معرفتنا بالعلم، إضافة إلى أنها موردٌ لا غنى عنه لتنمية التذوق الفني الغائب عن ساحتنا، وطرح قضية الفنون ينطوي على دعوةٍ إلى تحديد ملامح خريطتنا المعرفية بصورةٍ شاملة، خاصةً أن المعرفة الفنية كثيراً ما تتطرق إلى معرفة الفلسفة والفكر، أكثر مما تفعله معرفة العلم، بالإضافة أن معرفة الفنون تسهم بقدر كبير في التنظير الثقافي الحديث. وتَنَاوُلُنَا معرفة الفنون، يعتبر مدخلاً أساسياً للتصدي للثنائية الثقافية، وهو الموضع المحصور بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وإن إدْرَاكَنَا للشق المعرفي لأنواع الفنون المختلفة، يسهم في إزالة أوجه الخصومة المفتعلة بين ديننا والفن، ومعرفة الفنون هذه تأخذ دفعةً حقيقيةً في ظل المتغير المعلوماتي، ولنا أن نلحق بها تعويضاً لما فات، وتأمينا لما هو آت.

- مزج الفنون في الغرب:

أ - ما هي مستويات المزج الفني في الغرب؟ إن تكنولوجيا المعلومات ساعدت على مزج الفنون ضمن الثقافة الواحدة، بل عبر الثقافات المتعددة، ووفرت المعلوماتية الوسائل اللازمة لذلك المزج الفني، وعلى رأسها تكنولوجيا الرقمنة كما مر معنا سابقاً، وأتت تكنولوجيا المعلومات لتتوجَ محاولاتٍ رائعة سابقةٍ عليها للمزج بين الفنون، وهي ظاهرةٌ تستقي أصولها من مصادر علميةٍ وفلسفيةٍ متنوعة، من نقدية كانط، ومثالية هيجل، وظاهرية هوسرل وعلم النفس الجشتالتي. وأتت فلسفة العلم لتضيف إلى هذه المصادر علوم الفلك الحديث والبيولوجيا الجزيئية، وفيزياء الكوانتم واللسانيات. وخلفها الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة، ونضيف هنا بعض الأمثلة على امتزاج الفنون، وأهمها : الموسيقى واعتبرها (كانط) مجرد متعة حسية، ويعده شوبنهور حيث أكد أن جميع العلوم تطمح لتكون موسيقى، أما (هيجل) فينحاز في (جمالياته) إلى فنون اللغة، ويرقى بالشعر إلى أعلى المراتب معتبراً إياه فن الفنون. ناظراً إلى الشعر الدرامي بمنزلة الفن الأم، الذي تنبثق منه فروع الفن الأخرى؛ حيث يتفرع منه الشعر الملحمي (الموضوعي) والشعر

الغنائي الذاتي. ويربط هيجل بين الشعر الغنائي والموسيقى، كما يربط بين الشعر الملحمي وفن التشكيل والعمارة، وفن التمثيل الموضوعي والرمزي، أما أصل الفنون جميعا عند هيجل، والمقصود به الشعر الدرامي، يناظر فن النحت، وكما تتعامل الدراما مع واقع الحياة وخارجها، يتعامل فن النحت مع حيز الفراغ خارجه (. جان ماري شيفر ١٩٩٦). وهناك من يرى في الأدب الفن الشامل، الذي تتدرج في إطاره جميع الفنون، وهناك من يضيف العلوم إليها، ولا شك أن اللغة لعبت دوراً مهماً بعملية المزج الفني. وعبر المجاز اللغوي عن هذا الامتزاج، بالعديد من المصطلحات، منها: موسيقى الشعر، وشاعرية الموسيقى، وتلوين الأنغام، مع تناغم الألوان، وبناء المسرحية، وحوار الأماكن المغلقة والمفتوحة، ومعظمنا لديه نزعةٌ لغويةٌ، إزاء الفنون جميعا، وعندما نرى عملاً فنياً غير لغويٍ، تشكيلاً كان أم موسيقياً أم رقصاً، إلا ويتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ماذا يعني هذا العمل الفني؟. وهذا السؤال هو ما تسعى إلى التخلص منه الفنون الخالصة لتبتعد عن سطوة اللغة، كخطوة ضرورية لتخلصها من سطوة الفنون الأخرى – ولا نقصد من امتزاج الفنون هنا تلك الفنون التي تجمع بين أكثر من جنسٍ من أجناس الفنون، كفن الأوبرا الذي يجمع بين الغناء والأداء التمثيلي. أو فن السينما الذي يجمع ما بين فن الرواية والموسيقى والغناء والأداء التمثيلي. ولا نقصد بامتزاج الفنون ضرورة أن يقوم العمل على عمل دراميٍ أو ملحمي، أو أن نستخدم المناظر السينمائية كخلفية للمسرح، وإنَّ الامتزاج الفني يعني ما هو أكثر من الجمع شبه الميكانيكي لمجموعة من الفنون. وهناك مراحل عدة للامتزاج الفني وهي التالية: – استضافة عمل فني لعملٍ فنيٍ آخر – استلهام العمل الفني لعمل فني آخر – استيعاب عمل فنيٍ لعملٍ آخر – مرحلة الانصهار الكامل المتمثل في تكنولوجيا الوسائط المتعددة.

ب – هل يستضيف عملٌ فنيٌ، عملٌ فنيٌ آخر؟: إن المثل الأعلى لرواد الحركة الرومانتيكية مثل: جوته وشيللر، هو مزج الفنون، وقد عمل بتهوفن شاعر النغم على فتح الطريق أمام الرومانتيكيين، عندما عمد في ختام سيمفونيته الكورالية فاستضافت الموسيقى الشعر في إطار البنية الكبرى

للسيمفونية، فظهر مستأنساً في إطارها، أما المؤلف الموسيقي فاجنر كان شاعراً أيضا، فقد وسع من دائرة الاستضافة الفنية فيما أسماه (العمل الفني الشامل) فأعلن بذلك بداية موسيقى المستقبل، فخط لها طريقها الجديد الذي تتقاسمه جميع الفنون، من دراما ورقص، وشعر، وتشكيل، وأعلى فاجنر من شأن الدراما لتتضافر مع الموسيقى والغناء، وصولاً للعمل الفني الشامل، هذا عن استضافة الموسيقى لغيرها من أجناس الفنون. أما عن الأدب: فما أكثر ما استضاف نثره فقراتٍ من الشعر، ويأخذ بيدنا توماس مان، في روايته الشهيرة دكتور فاوست، بانعطافةٍ موسيقيةٍ حادة، عندما راح يصف لنا كعادته بأقصى درجات الحرفية، التفاصيل الدقيقة الفنية للعمل الموسيقي، لينقل إلينا معاناة المؤلف الموسيقي بطل روايته. تحافظ الاستضافة بدرجة كبيرة على استقلالية الفن المستضاف، عن الفن المضيف، وتبقى العلاقة بينهما على مستوى وحدة البناء الكبرى للعمل الفني التي تجمع بينهما.

ج - هل يستلهم عملٌ فنيٌ، عملاً فنياً آخر؟ أعلنت جماعة الكاميرات في عصر النهضة شعار (الدراما من خلال الموسيقى) في ظل قناعتهم أن تراث المسرح الإغريقي لن يجد طريقه إلى الجموع العريضة إلا إذا عبر عنه موسيقياً، وجاء القرن التاسع عشر. ليقدم لنا أمثلة عن هذا النوع من الامتزاج الفني، وكان من أبرزها القصائد السيمفونية (لفرانتس، وليست،) التي تستلهم فيها الموسيقى روح الشعر والدراما. تشهد على ذلك العناوين التالية، مثل: (دانتي) و(تاسو) و(بروميثيوس) وكما استلهمت الموسيقى فن الشعر، فقد استلهمت فن التشكيل أيضا، فكانت الإيحاءات الأدبية التي أثارتها لوحات المصور السويسري، (أرنو لد توكلين) في العصر الرومانتيكي ينبوعاً لا ينضب لقصائدَ سيمفونيةٍ وأعمالٍ عدة، من أشهرها القصيد السيمفوني بعنوان (جزيرة الموتى) لرحمانينوف) - أما شوبان فقد نجح نجاحاً كبيراً عندما نقل باليته الألوان إلى عالم النغم متأثراً، ب (ديلا كروا). وفي السلالم الموسيقية الملونة التي ابتكرها شوبان، لم تعد للمقامية الأهمية، الكبرى حيث أصبحت الكلمة العليا للتوافقات الهارمونية، والتي تضافرت من أجل اغناء ما يعرف ب (صورة الرنين الصوتي) بوسائلَ عدةٍ منها: إصدار

النبرات المفاجئة وإمهالها، والارتفاع بالصوت والهبوط رويداً رويداً، والإسراع بالموسيقى تدريجياً، أو التشديد بإطلاق النغمة، ويقول آخر تناظر نغمات السلم الموسيقي الأساسية (دو. ري. مي. فا. صول. لا. سي.) الألوان الأصلية كالأبيض والأسود والأحمر والأزرق والأصفر، في حين تمثل أنصاف النغمات وسلالم شوبان الملونة طيفَ التدرج اللوني من رماديات وخلافه. ووصل الأمر في امتزاج الموسيقى بالألوان إلى أن صُمِّمَتْ لوحات مفاتيح موسيقية ملونة، تقوم بترجمة الأصوات إلى مقابلها اللوني عن استلهام الموسيقى لفن الأدب، ومثالنا ما قام به ريتشارد شتراوس، عندما استلهم الأحداث التي وصفها سرفانتس في رائعته (دون كيشوت)، وقام بترجمتها موسيقياً مغامرةً فمغامرةً، في قصيده السيمفوني العنوان نفسه، مثلما استلهم فرانتس -ليست كما أسلفنا- مقدمات الشاعر الفرنسي دي لامارتين ومسرحية (فاوست) رائعة الشاعر الألماني جوته، أما المؤلف الموسيقي ديبوسي، فقد قرر أن يحذو حذو المصورين الانطباعيين في الرسم في الهواء الطلق، وتعكس عناوين مؤلفاته الموسيقية هذه النزعة الانطباعية، والتعامل المباشر مع الطبيعة من أمثلتنا: حوارٌ بين الماء والهواء. السحب. الكاتدرائية الغارقة، وجدير بالذكر أن الشاعر الفرنسي لامارتين قد قام بقصصه الخرافية باستلهام رائعة ابن المقفع، كليلة ودمنة وهو مثال نورده على امتزاج الفنون عبر الثقافات المختلفة، وعلى الصعيد السينمائي، فإن أنجح أفلام السينما عالمياً ومحلياً، هي التي استلهمت القصص والروايات. كما يقول (هاشم النحاس).

د - هل يستوعب عملٌ فنيٌ عملاً فنياً آخر؟ ان الاستيعاب ضربٌ من العمل الفني، يجمع ما بين الاستلهام والاستضافة، ويمكن اعتباره مرحلةً تمهيديةً في الانصهار الكامل، ومن أبرز أمثلة الاستيعاب الفني، هو ما قام به بيكاسو في تكعيبيته، عندما استلهم فنون القبائل الإفريقية، ومن أشهرها القناع الإفريقي، وتراث الفن الياباني، وما قام به الفنان المجري (فازا ريلي) عندما نقل طابع الزخرفة العربية إلى لوحاته القائمة على التجريد الهندسي، وكذلك المعماري الإسباني الشهير أنطونيو جاودي في استلهام العمارة الإسلامية. وأما سترافنسكي، في كلاسيكيته الحديثة، فقد قام بمزج

الموسيقى الأوروبية، بالأغاني الشعبية الروسية، والإيقاعات المتوحشة، لموسيقى زنوج إفريقيا .

هـ - هل هناك انصهارٌ كاملٌ للفنون الغربية؟ تأتي تكنولوجيا المعلومات لتقول كلمة الختام في مسار امتزاج الفنون، بعد أن نجحت الرقمنة في تحويل جميع أنساق الفنون إلى سلاسل من الصفر والواحد، مصحوبة بوسائلَ آليةٍ طيعة التحويل من بين أنساق الرموز المختلفة، وتجسيد المجرد إلى المحسوس، واستخلاص المفهوم المجرد من جوف (وعائه المادي). وقد اقترب مجاز وحدة الفنون من مستوى الأداء الحرفي، واقتربنا من استخلاص الموسيقى من قلب الأشكال، وتوليد الأشكال من صلب الأنغام، واستخراج المنحوتات من مسطح الأشكال، وتجسيد الروايات والسيمفونيات في بنى أقرب ما تكون إلى بنى المعمار. وأتاحت تكنولوجيا الوسائط المتعددة درجةً عاليةً من السيولة الرمزية، يمكن من خلالها ترجمة الظلال والألوان والأضواء إلى نظيرٍ هارمونيٍ من الألحان والأصوات، ويمكن أن نأخذ من الكلام المنطوق أنماطَ تنغيماته ونبراته. ونستخلص من الأشكال تراكيبها النحوية، وإيقاعها الموسيقي، وربما يخلصنا الانصهار الكامل لأنساق الرموز من مفاهيم خاطئة عاشت بيننا طويلاً، تسفر عن عداء أصيلٍ بين الصورة والكلمة، وتنافرٍ شديدٍ بين السرد والحوار. إن كل جنسٍ من الفنون يبحث عما يتوافق معه أو يتنافر معه من أجناس الفنون الأخرى، ليكشف لنا ولأول مرة عن شبكة العلاقات الكثيفة، التي تعمل دون وعيٍ، من وراء كل ما يبدعه البشر من فنون. والانصهار الكامل لا يمكن له أن يحدث قبل أن يستقل كل فنٍ بنفسه، حتى يصبح مؤهلاً للقاء غيره في حوار الدائرة المستديرة الفني. إن الفنون، في طور استقلاليتها، تصفّي نفسها من شوائب الفنون الأخرى، تمهيداً لانصهارها في منظومة الوسائط المتعددة، مثلما تصفى المعادن من شوائبها، تمهيداً لانصهارها في سبائك المعادن، فكان أن تخلصت الموسيقى من وصاية الأدب، ونادى برا همز بموسيقى نقيةٍ خالصةٍ، بعيدةٍ عن أي مؤثراتٍ من خارجها، مخالفا ما سبق، وإن أوردناه بشأن الأعمال الفنية الشاملة لفاجنر، وأعلن

الشعر عصيانه هو الآخر على الأدب، فهو يرفض رفضاً باتاً حدوتته وبنيته، مصمما أن يشق له مسلكاً خاصاً وصولاً إلى الشعرية الخالصة، وهو ما اضطر الشعر، في سبيل تحقيق هذا الهدف، إلى أن يعلن عصيانه على اللغة، وكما فعل الشعر، أعلن مسرح العبث والسينما عصيانهما على الأدب، من أجل لغةٍ مسرحية، ولغةٍ سينمائيةٍ خالصتين، تقومان على نظمٍ للشفرات وبنى معرفيةٍ خاصةٍ بهما، وفي رأينا أن الفنون مهيأةٌ أكثر من العلوم في أن تمتزج مع بعضها في وحدةٍ فنيةٍ متماسكةٍ، لأن الفنون بحكم طبيعتها مرنةٌ ومتحررةٌ إذا ما قورنت بالعلم وصرامة التزامه بالقواعد والمناهج.

- **امتزاج الفنون لدى العرب:** كل أنواع الفنون لدينا ضامرةٌ ممسوخةٌ، نتيجة ذلك فإن امتزاج الفنون لدينا ضامرةٌ ممسوخةٌ، والأمثلة لا تعد ولا تحصى، ومنها : - ان أغانينا تجمع مابين الشعر والموسيقى، إلا أن هناك انفصالاً حاداً بينهما، كلُ ضائعٌ تائهٌ شارد اللب. - معظم موسيقانا التصويرية في الأفلام والدراما والإذاعة موسيقى غربيةٌ عالميةٌ، وهذا لا يدل أن موسيقانا غير صالحةٍ للامتزاج. ولنا أن نأخذ قضية امتزاج الفنون على محمل الجد، ومن دون ذلك يتعذر علينا أن نلحق بفن عصر المعلومات ذي التوجه المزجي الذهني، وإنّ معرفة الفنون مقومٌ أساسيٌ لمزجها كما أشرنا سابقا، وإن مزج الفنون يوفر بيئةً كي يكشف كلٌ من الفنون عن شقه المعرفي. وتكنولوجيا الوسائط المتعددة -محور فنون عصر المعلومات- تقوم أساساً على مفهوم المزج الفني، وتخلفنا فيه يعني عدم اللحاق بفن الوسائط المتعددة وبصناعة الثقافة بالتالي - ولو ألقينا نظرةً على النص القرآني الشريف لوجدنا مثالاً فريداً للاتساق: الرمزي والصوتي والسردي والإيقاعي. ومنذ قرونٍ خلت، نجحت الزخرفة العربية وبصورةٍ رائعةٍ، في الجمع بين جماليات الشكل وجماليات الحروف العربية، وفي الزمن الحديث قدمت السينما العربية نماذج رائعةً، وناجحةً في استلهام روائع الأدب العربي مثل: دعاء الكروان وثرثرة فوق النيل.

- **الإبداع والثقافة: في عصر المعلومات.**

- **ما طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة الغربية؟:**

أ - **الإبداع يقود ولا يقاد:** الإبداع هو الجريء الذي يقود ولا يقاد، إنه الفارس المغوار، وطفل الثقافي الشقي، هو يتحمل مسؤولية النهوض بها، وهي تدفع ثمن كلفة لعبته ومغامراته. يتوقف أداء منظومة الثقافة على أداء مبدعيها، ومدى إدراكهم لواقع مجتمعاتهم ومدى صدق تنبؤاتهم، والإبداع هو المحرك الأول للثقافة، وقوةٌ دافعةٌ للحركة الفكرية، فإن نشط وثار، نشطت الثقافة وثارت. وإن خمدت أنفاسه، تقطعت أوصالها، وكونه بالطليعة، فهو أول من يشعر بحراك مجتمعه، وأول من يحمل أوزاره، تشهد على ذلك المحاكمات غير المعلنة والمعلنة، التي تقام للمفكرين والمبدعين بعد الحروب والكوارث. كالمحاكمات والحملات التي جرت للمفكر الإسلامي العربي الشهير نصر حامد أبو زيد، كيف تلقفته أوروبا عندما ذهب إليها، خاب أملهم فلن يتزحزح قيد أنملة عن دينه، فأدار له المفكرون والساسة الغربيون ظهورهم، بينما الأكاديميون المصريون حكموا عليه دون أن يقرؤوه، وأشد أخطاء المبدعين إثماً أن يفشلوا في إنذار قومهم بما يحمله لهم مستقبلهم. والإبداع هو مرآة الثقافة والمدافع عن مواقفها في صراع القوى الاجتماعية، والناطق الشرعي باسمها في حوار الثقافات، ولكونه طليعة الثقافة، فإن حوار الثقافات في عصر ثقافة المعلومات سيبدأ بالحوار على جبهة الإبداع، لأن الإبداع يقع على خطوط التماس ما بين الثقافات، وهو يفوق عناصر الثقافة الأخرى، في قدرته على تجاوز ثقافته إلى ثقافة أخرى - وتفوق علاقة الثقافة بالإبداع في صعوبتها علاقتها بعناصر المنظومة الأخرى، وذلك للأسباب التالية: - اتساع نطاق الإبداع، والاختلاف الشديد في طبيعة أجناس الفنون، ومن الطبيعي أن تختلف علاقة الثقافة بالأدب عن علاقتها بفن المعمار، أو بفن التشكيل - تقع على الإبداع مسؤولية الدفاع والتصدي لمظاهر الخلل الناجم عن عولمة الاقتصاد، وحشد القوى الثقافية في هذه المعركة الفاصلة، وهو الأمر الذي يتطلب تحليلاً لموقع الإبداع في منظومة الثقافة. - في الماضي

كانت علاقة الإبداع بالثقافة محصورةً في الجوانب الفكرية والفنية والتراثية فقد اتسعت اليوم لتشمل: التربية والإعلام واقتصاديات صناعة الثقافة. - سيبقى الإبداع دون التحديد ودون الثبات، فهو زائغٌ وحائرٌ ومتغيرٌ دائما، والموقف أكثر حدةً اليوم بلا شك، نظرا لما يتعرض له الإبداع الفني من اهتزازاتٍ بفعل المتغير المعلوماتي. - وفي كثيرٍ من الأحيان يكون الإبداع موافقاً لثقافة النخبة، والتي تترادف مع الثقافة عموماً. إن هذا الاندماج يطمس العلاقة بين الإبداع والثقافة، فتكون أكثر تعقداً وانغلاقاً.

ب - **الإبداع يغادر حضن أمه (الثقافة):** يستقي الإبداع من ثقافتها، من لغتها وتراثها وقيمها وتاريخ نضالها، وينفذ إلى كوامن صراعاتها، ويقتفي أثر تناقضاتها، وهذا لا يعني أن الإبداع تابع لثقافته وكثيراً ما ينشق عليها، يعلن قطيعته مع التراث، يتمرد على اللغة، يعترض على القيم السائدة، يشعل النار في الجسور التي أوصلته إلى ما هو فيه، يبتعد عن نقاط البداية، ينقلب على من اهتدى بهديهم ممن سبقوه أو عايشوه، ينشق على المدارس الفكرية التي كان منتسباً إليها، هي بطاقة المرور إلى عالم إبداعه، وكثيراً ما يناقض الإبداع نفسه، والخطاب الإبداعي ممتلئٌ بمقولاتٍ من قبيل: الأدب المضاد، والسينما المضادة، والمسرح المضاد، والشعر المضاد، ورفعت الحركة الدادية شعار (الفن ضد الفن) و(الفن ضد المنطق) و(الفن ضد العقل) وإبداع ما بعد الحداثة يؤكد أنَّ لا إبداع بالفن إلا عندما يبدأ من الصفر.

- ما طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة العربية؟:

أ - **إبداعٌ أم قلقٌ؟:** كلنا يعلم تعدد الآراء في علاقة المبدع بالمؤسسة الرسمية الثقافية، مرةً يوصف بالودّ المفقود، وثانيةً يوصف بالتناقض إلى حالةٍ عدم الوفاق، وفي ظل حالة من الغليان والقلق الشديدين اللذين يشهدهما مجتمعنا العربي، فضلت غالبية مبدعينا البقاء خارج المؤسسة الثقافية الرسمية، وهي ترى ذلك أكثر منطقيةً وفاعليةً، ولا يجب أن يلهينا غياب العلاقة على المستوى الرسمي عن أهمية علاقة الإبداع بمنظومة الثقافة، وضرورة فتح طرقٍ ومساراتٍ جديدةٍ لهذه العلاقة، من خلال

تنظيمات الجمعيات الأهلية، وقنوات أخرى توفرها الإنترنيت، ويتوقف اكتشافنا لهذه الطرق والقنوات وتفعيلها، على تحليلنا الدقيق لعلاقة المبدع العربي بمنظومة ثقافة عصر المعلومات. ويتوجب على إبداعنا مسؤولية النهوض بمجتمعنا العربي، ولا يمكن للإبداع أن يدرك أهمية هذه المسؤولية، وأن يشحذ أسلحته، ويحدد توجهات خطابه الاجتماعي، دون مراجعة شاملة لموقع الإبداع داخل منظومة الثقافة، وتحديداً: علاقته بجميع عناصر هذه المنظومة: الفكر الثقافي. اللغة. التربية. الإعلام. التراث. ونظام القيم والمعتقدات.

ب - **ما الإبداع في ظل عصر المعلومات؟:** إن إنتاجنا الثقافي في عصر المعلومات، يجب أن يقوم في الأساس على مواهب المبدعين، لا على استيراد التكنولوجيا ذات الكلفة العالية، اتسع نطاق الإبداع ليشمل: مجالات علوم الإنسانيات، وفروع الهندسة الجديدة التي صنعتها تكنولوجيا المعلومات، كهندسة اللغة، وهندسة الخيال، وهندسة المعرفة. وكله يحتاج إلى مزيد من الإبداع.

- **علاقة الفكر بالإبداع الفني الشامل:** مقدمة: لابد في البداية أن نستهل في حديثنا عن علاقة الفكر بالإبداع الفني الشامل، كمقدمة لحديث أكثر تفصيلاً عن علاقة الفكر بأنواع الفن، والغاية هي التأكيد على وحدة الفنون.

- هناك من يرى أن الفن لا يمكن أن يخضع لأي تجريد معرفي، لأن الإبداع الفني هو ضربٌ من الإلهام، وهو محض صدفة والشطحات اللاعقلانية. وإغفال دور العقل في مجال الفن، يتنافى مع القول بأن الفن يسعى إلى اكتشاف الحقائق النهائية، والمعارف الكلية التي يعجز العلم عن الوصول إليها، نتيجة صرامة منطقه ومناهجه. الفن: مبدعا، وعملا، ومتلقيا، في حاجة إلى المعرفة. ويحتاج المبدع الفني إلى الفكر، والعمل الفني هو عمليةٌ عقليةٌ واعيةٌ بامتياز، وليس مجرد إلهامٍ أو انفعالٍ، ولا يمكن كما قال هيجل، إلا أن يكون نتاج الفكر، شأنه في ذلك شأن الفلسفة الطبيعية والمنطق، وهو ما تؤكده مقولة بول فاليري: من أن كلَّ عملٍ فنيٍّ مسألةٌ رياضيةٌ لابدَّ من حلها. (مصطفى عبده (١٩٩٩) ويؤكد ذلك شبنهور بقوله: كل عمل فني لابد أن

يكون مسبقا بالفكر والإرادة (نفس المصدر السابق). وعلى الرغم من موقفها السلبي من النظريات الجامعة، لا يختلف موقف ما بعد الحداثة من حاجة الفن إلى الفكر، ويرى فرنسوا ليوتار: أنه لا يمكن للفن أن يستغني عن تسويغ فلسفيٍ (جان ماري شيفر ١٩٩٦) والعمل الفني لابدً أن يكون ناقلاً للمعرفة ومولداً لها، ومن هنا هو ذو صلة وثيقة بالمعرفة، وغموض العمل الفني والتباسه يستفز فكر المتلقي، لكي يكشفَ النقاب عما هو غامضٌ، ويَفُضَّ اللَّبْسَ عما هو ملتبسٌ، ويوضح المسكوت عنه، ويأخذ المغزى مما هو وراء ظاهر العمل الفني، ومما توحي به رموزه وشفراته، ولا يمكن لمتلقي العمل الفني القيام بمثل هذه الأمور دون خلفيةٍ معرفيةٍ، تنمي ذائقته، وتكشف شحنة الإبداع الوجداني لديه. - لقد كانت حيرة الفلاسفة إزاء الفن، أشد منها إزاء العلم، وأقرب إلى حيرتهم الميتافيزيقية، ولنأخذ أفلاطون أولاً: لأنَّ الفن لديه ذو أصلٍ الهيٍ، والخالق هو الفنان الأعلى، وفوق الجمال الواقعي يوجد جمالٌ مثاليٌ، جمالٌ مطلقٌ أزليٌ، ماهيته سابقةٌ لوجوده، وهدف الفن هو الارتقاء بالفن إلى روح هذا الجمال المثالي (مصطفى عبده ١٩٩٩) وهو شبيهٌ بمثالية هيجل، حيث مهمة الفن الكشف عما هو إلهيٌ، وعن الاهتمامات الأكثر سمواً، وعن الحقائق الأكثر جوهريةً للروح. وهو يرى الفن في مرحلة نموه القصوى، مرحلة يتصالح فيها الواقع مع المعرفة وتوافق الذات مع الموضوع (جان ماري شيفر ١٩٩٦) بينما يقول كانط: ترجع عملية الإبداع الفني إلى قوانين وشروطٍ أوليةٍ سابقةٍ على التجربة الفنية. وفي هذا حاول كانط في نظريته أن يجمع مابين موضوعية المعرفة العلمية وذاتية العمل الفني الإبداعي. هذا عن نظرة الفلسفة إلى الفن أما ما يراه علم النفس فهو التالي: يقول فرويد أنَّ الفنَّ نوعٌ من المرض النفسي، لا يخرج عن كونه تعبيراً عن نزعات، يحاول المجتمع استبعادها من الوعي، أو تنفيساً عن رغبات فكرية مكبوتةٍ، لم يسمح للمبدع الفني بتلبيتها (مصطفى عبده ١٩٩٩) فعلى سبيلٍ المثال: تعد بعض الأعمال الإبداعية (لليوناردو دافنشي)، الذي ماتت عنه أمه وهو صغيراً تنفيساً عن الأمومة التي حرم منها، عبرت عنه ابتسامة الموناليزا

الشهيرة ونظرتها الحانية (مصطفى عبده ١٩٩٩) أما يونغ يرى الفن نوعا من اللاوعي الجماعي لا الفردي كما يراه فرويد، والملكة الفنية تقترب من كونها غريزةً تُخلّقُ معنا، فهي قدرةٌ ذهنيةٌ تختزن تراث الجماعة من صورٍ وأساطيرَ وقيمٍ ومعتقداتٍ. وفي ظل هذا المفهوم، يقول بعضهم أن جوته لم يخلق (فاوست) بل فاوست القابع في ذهن جوته، هو الذي خلق جوته، وهذا يتطابق مع ما قاله (هنري مور) النحات الإنكليزي العظيم، والمتحمس لأفكار يونغ فقال: إن المنحوتات هي تعبيرٌ عن أشكالٍ عامةٍ تولد معنا، ونحن مبرمجون عليها. - وخلافا لوجهة نظر علم النفس، قالت الفلسفة الوضعية بتحويل علم الجمال الفلسفي، إلى علمٍ وضعيٍ يخضع لمناهج العلوم الطبيعية التجريبية. ولنا أن نتوقع من الفن أن يظهر مقاومةً ضدّ هذا الاستيعاب المنهجي، أشد من تلك التي أبدتها علوم الإنسانيات. وبهذا خرج إلى الوجود علم الجمال التجريبي، على يد (فختر) فطرح نوايا الفنان جانباً، مركزاً على ما بداخل العمل الفني، دون غيره من المؤثرات النفسية التي تثير في النفس الشعور الوجداني السار وغير السار (مصطفى عبده ١٩٩٩). وتأتي الحركات السريالية بإشارة من فكر فرويد تدفع باللاشعور واللاوعي واللا معقولِ من أغواره الدفينة إلى السطح، من أجل إحداث نوعٍ من التكامل بين الشعور واللاشعور، ليتحقق الاتحاد النهائي بين واقع الباطن، وواقع الظاهر (مصطفى عبده (١٩٩٩)، وقد أطلنا بالمقدمة، لنتعرف على ما يمكن أن تسهم به تكنولوجيا المعلومات في مجال التنظير للفن، وقبل هذا علينا أن نطلع على نقاط مظاهر العلاقة الجدلية بين الفلسفة والفن: - الفلسفة تتضمن الفن: إنَّ جماليات هيجل تصل في النهاية إلى إعلان نهاية الفن، بعد أن تتجاوزه المعرفة المنطقية والعلوم الطبيعيةِ. أما عقل الإبداع لدى كانط فهو واحدٌ ضمن ثلاثية العقول التي تجمع ما بين العقل الباطن والعقل الظاهر. الفلسفة تحفز الدافع الفني: لقد أظهرت فلسفة نيتشه عن افتقار الحضارة الأوروبية إلى روح الموسيقى والى الخلق الفني، توالى ظهور الاتجاهات الفنية المعاصرة للتعبيرية والسريالية وحركة اللامعقول في الأدب والفن (مصطفى عبده

١٩٩٩). الفلسفة هي البديل عن الفن: تماماً كما في النظرة المجردة إلى الفن لدى الرومانتيكيين وهي النظرة القائمة على تقديس الفن، وحبهم الجامح إلى واقعٍ هادئٍ ومسالمٍ، متناغمٍ ومتوائمٍ، وهو يتطلب تعاون الروحاني والمادي، ويؤكدون امتناع التجريد الفلسفي المطلق، وعجزه عن التضافر، وهؤلاء يقترحون الفن بديلاً عن قولِ الفلسفة المتداعي (جان ماري شيفر ١٩٩٦). - الفن يحتوي الفلسفة: وهنا تكتمل ثنائية الاحتواء والانطواء ما بين الفلسفة والفن، تحت رؤية جوزيف كوزوف، مبدع الفن الرمزي، الذي يدمج الفلسفة بأسرها في جوف الفن، فاللغة الفلسفية هي كلامٌ داخل الفن (نفس المصدر السابق)، ليقلب كوزوف الحكم الهيجلي الذي قطع بنهاية الفن، بعد استيعابه بكامله بالفلسفة. وهنا أخفقت النقدية الكانطية، والمثالية الهيجلية، وعدمية نيتشه، وسريالية أندريه بريتون، ووضعية فختر التجريبية، في أن تحدد لنا نظريةً متكاملةً للفن، تضع أسسه ومناهجه، وتخط له مسار توجهاته وتطلعاته، وانتهت بالفشل كل المحاولات لتطبيق مناهج نظرية المعرفة القائمة أصلاً على العلم، في مجال الفن. وهنا تطرح تكنولوجيا المعلومات نفسها كوسيلة للخروج من هذا المأزق التنظيري، وهو ما يحصل فعلاً، في إطار فلسفة معرفيةٍ جديدةٍ، تجعل من الفن الرمزي نقطة انطلاقٍ جديدةٍ لها، تقوم هذه الفلسفة على أساس الجمع مابين فلسفة العلم، كما أسس له (توماس كون وباشلار وكارل بوبر)، وفلسفة اللغة التي أسسها فيتجنشتاين، بهدف الوصول إلى نظريةٍ معرفيةٍ جديدةٍ، تقوم على تكامل العلوم والفنون. ونكتفي هنا بإبراز أهم العوامل التي تؤهل تكنولوجيا المعلومات، للقيام بدورٍ فعالٍ في مجال تنظير الإبداع: - إننا نبدع أولاً، ونفلسف ثانياً، والضرر عظيم إذا ما انقلب الأمر، عندما يتفلسف الفنان جاعلاً من إبداعه تابعاً لفلسفته غير الدقيقة، أو ما يظن أنها فلسفةً. يذكرنا هنري برجسون بالحاجة إلى تمثيل خبراتنا معرفياً، والسؤال هو: كيف نعمل على تضييق الفجوة ما بين اكتساب الخبرات، وإدراك مضمون المعرفة الكامنة وراءها أو المتولدة عنها؟ وهنا يبدو دور تكنولوجيا المعلومات بما تتيحه من وسائل عمليةٍ لتضييق هذه الفجوة

بفضل ما توفره من أساليب هندسة المعرفة، والنظم الخبيرة، ونظم الذكاء الاصطناعي، إضافة إلى الطابع التفاعلي أو تلقيه، سيتيح فرصا أكثر للمبدع والمتلقي، ليرصد عن قربٍ وبشكلٍ سريعٍ، الكيفية التي تفسر بها الأفكار داخل الذهن إلى ممارساتٍ علميةٍ، سواء في إنتاج العمل الفني وتقويمه، أو في استقباله واستيعابه. – لقد نجحت تكنولوجيا المعلومات في كسر الثنائيات مابين المادي واللامادي، وبين الطبيعي والصناعي، وبين الواقعي والخيالي،، وبين العام والخاص، وبين الفردي والجماعي، وهي أمورٌ تبدو في صميم عملية التنظير للإبداع – كما كسرت تكنولوجيا المعلومات الجدران العازلة بين أنواع الفنون المختلفة، بفضل الوسائط المتغددة، مما يسمح بمراقبة الظاهرة الإبداعية من خلال أنساقٍ رمزيةٍ مختلفةٍ يهدف إلى المقارنة بينها، ونتابع مظاهر تكاملها والنتائج المترتبة عن مزجها، وهي من الأمور الأساسية في التنظير الإبداعي. – تتعامل فنون عصر المعلومات وجمالياتها مع ما يمكن أن نسميه بسيميوطيقا التقطع والتشظي، ويمكن أن ننظر إلى العمل الإبداعي بصفته مجموعةً من الرسائل المتدفقة، أو بنيةً رمزيةً تقوم على شظايا الرموز اندماجاً وصولاً إلى مفرداته الأولية، مما يجعله أكثر قابليةً لعمليات التحليل وإعادة التركيب، وهو يسهم في إزالة النقاب عن التفاصيل الدقيقة، لبنية العمل الفني، والآليات العميقة التي يحدث بها فعله لدى المتلقي. – إن ثقافة عصر المعلومات تتعامل مع ثقافة النخبة وفنون العامة على حدٍ سواء، وهو يؤدي إلى زيادة المواجهة بين الفن والمجتمع وهو بدوره يكشف عن جوانب عدةٍ لدور الفن داخل منظومة المجتمع، وعن كيفية قيامه بإحداث التغيير المجتمعي والتكيف مع الظروف الاجتماعية. – إن تكنولوجيا المعلومات توفر وسائل عدة لتجديد النظرة إلى التراث الفني، وإعادة توظيفه في سياقاتٍ اجتماعيةٍ، تختلف اختلافاً واسعاً عن تلك التي أفرزتْهُ. إن هذه العملية لنقل (أعضاء التراث) تاريخياً، تكشف عما كان خافياً، أو كان مسكوتاً عنه، في ظل ظروف نشأته، سواء كانت الخشية من بطش السلطة، أو تحت ضغوطٍ اجتماعيةٍ أخرى، أو نتيجةٍ لقيودٍ معرفيةٍ أو لغويةٍ، وتوظيف التراث يفرز الجانب

التاريخي للتنظير الإبداعي، وهو ما يكشف لنا عن علاقة الارتباط بين تطور الفن وتطور مجتمعه. - وهذا التفاعل عبر الوسيط الإلكتروني، يفتح الطريق أمام طيفٍ واسعٍ من علاقات المبدع بالمتلقي، وعلاقات المتلقي بالعمل الإبداعي، وهي أمورٌ كانت تؤخذ كقضايا مسلمٍ بها، وبدوره سيساعد إلى وضع نظريةٍ للفن تقوم على (جماليات المتلقي) لا جماليات المبدع فقط - إن نظرية المعلومات تضيف اللمسة الكمية إلى تنظير الإبداع. حيث توفر له وسائلَ عملية لقياس قيمة الأعمال الفنية، وهذا ما سنوضحه في فقرة الموسيقى. - إن تعاظم دور صناعة الثقافة في عصر المعلومات، وأهمية الإبداع، يتطلب مزيدا من البحوث النظرية، وهو بدوره يعطي دفعةً قويةً للتنظير الإبداعي.

- بين الفكر وفن الموسيقى رؤيةٌ معلوماتيةٌ:

إن شأن الموسيقى، شأن كل الفنون، في حاجةٍ إلى معرفةٍ لإبداعها وتذوقها وهذا موتسارت يقول: إنه عندما يصور المشاعر والعواطف في أعماله الموسيقية، فهو لا يمارسها بالفعل، بل يستخدم ذكاءه ومهاراته فقط في تأكيدها (حسام الدين زكريا ١٩٩٦) ولا يمكن لنا دون معرفة وإدراك عظمة الموسيقى وتلك التأثيرات النفسية التي توقظها بداخلنا. ولن يرقى المتلقي بتذوقه الموسيقي، إلا إذا تجاوز المتعة الفورية السطحية، إلى المتعة الذهنية الأعمق ويكون بتدريب نفسه على تعليق الإشباع الفوري والمباشر، وإرجاء متعته ليستوعب البنى الموسيقية العميقة بأثرٍ رجعيٍ.

أ - **بين الفلسفة والموسيقى:** إن فيثاغورث نظر إلى الأنغام كنسقٍ رياضيٍ، تقوم على تردد ذبذبات الأصوات وأطوال الأوتار المختلفة، وبعده تنبه أرسطو كسينيس، إلى ما هو خاص بما تنقله إلينا الموسيقى من توافقات صوتية، إن فيثاغورث ركز على البنية الداخلية للموسيقى من جوانبها الفيزيائية، في حين ركز خليفته على المؤثرات الخارجية فيما يخص جوانبها الجمالية، وتراوحت آراء الفلاسفة في الموسيقى بين من يضعها في أدنى الدرجات، وبين من يعلو بها إلى أسمى المراتب، حظيت الموسيقى من أفلاطون

بقدرٍ من اهتمامه وقد قامت على تقويم مقامات الموسيقى على أساس أخلاقيٍ، لأن هناك مقاماتٌ خليعةٌ تقوم على الرخاوة والدعة، وهناك مقاماتٌ ساميةٌ تحض على الصدق والشجاعة والإقدام. وقد استهان الفلاسفة القدماء بالموسيقى، فهم لم يجدوا فيها سوى إضافة ملحقة بالغناء. ثم يأتي بعدهم جماعة الكاميراتا في عصر النهضة، ليؤكدوا سيادة الكلمة على النغم، فجعلوا من الموسيقى تابعاً للدراما، وكل موسيقى دون كلمات هي محاكاةٌ رديئةٌ للشعر الرصين. وقد حط كانط من شأن الموسيقى، فهي برأيه مجرد متعة لا ثقافة جديرةٍ بالتناول الفلسفي الجاد، ثم يأتي من بعده شوبنهور فأعاد للموسيقى مجدها السليب، معتبرا إياها أرقى الفنون، ويتمادى نيتشه في الاحتفاء بالموسيقى، فهي في نظره تجسيدٌ للإرادة، والتراجيدا انبعاثٌ لروح الموسيقى، بل إن الكون بأسره هو تجسيدٌ لتلك الموسيقى. ويرى فاجنر في موسيقى بيتهوفن تجسيداً للإرادة الكلية كما أوضحتها فلسفة شوبنهور. إذاً ليست الموسيقى مجرد فعلٍ تلقائيٍ، بل فعلٍ تحكمه عقليةٌ واعيةٌ تناظر ذروة الحقيقة في فلسفة كانط.

ب - **مكونات علوم الموسيقى:** يمكن تقسيم علوم الموسيقى إلى قسمين رئيسيين، منها ما يدرس فيزياء الأصوات، وأخرى تدرس معمارية الموسيقى ذاتها، إن فيزياء الأصوات وتردداتها توفر المعرفة اللازمة لتصميم الآلات الموسيقية، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى (فرديناند هلمهولتز) ونظريته عن الأنغام المحصلة، وهي النظرية التي كانت وراء التطور في تصميم الآلات الموسيقية، ولولاها ما كان للأوركسترا أن ينهض نهضته العظيمة، التي نشاهدها اليوم، لقد شهد القرن التاسع عشر مولد علم الموسيقى، وانبرى (ادوارد هانز ليك) إلى تخليص الموسيقى من كل ما هو خارج نطاقها، فأصبحت الموسيقى الحقة هي التي تنأى عن الخلط، فأنت عندما ترقص الفالس على ألحان شتراوس تكون الموسيقى الحقة قد انتهت كما يقول (هانز ليك)، وهو يعني بذلك أنك عندما تربط موسيقى الفالس بالرقص تهبط قيمتها.

ج - **دور تكنولوجيا المعلومات في الفكر الموسيقي:** كثيراً من يتوقع أن تسهم تكنولوجيا المعلومات بدورٍ فعالٍ في التنظير الموسيقي، عبر مسارين

معرفيين: - مسار علم اللسانيات يتناول بنيتها الداخلية، ومسار آخر من خلال نظرية المعلومات يتناولها من خارجها، من خلال ثنائية الإرسال والاستقبال. - إن معرفة الموسيقى ذات ارتباط وثيق بمعرفة اللغة، ومعرفتنا باللغة لازالت قاصرةً، ومعرفتنا بالموسيقى أكثرُ قصوراً، ولشرح ما نعنيه بارتباط الموسيقى باللغة، وجدنا أنفسنا معنيين بإقامة مناظرة بينهما، فالسلم الموسيقي بمرتبة الأبجدية في اللغة، وبنى التآلفات الهارمونية بمنزلة قواعد النحو، والألحان تناظر البلاغة، وحاولت موسيقى الباروك، وضع أنماط لحنية للتعبير عن الانفعالات المختلفة ومثالنا على ذلك: نمطٌ مترددٌ يعبر عن التوتر، ونمطٌ متسارعٌ ومتآلف ليعبر عن الانفراج، وفي سياق مناظرتنا الراهنة بين الموسيقى واللغة، يمكن أن نعد هذه الأنماط اللحنية نظيرا للصيغ المسكوكة في اللغة. - أدت اللغات الهارمونية التي أبدعها (بيرليوز وفاجنر وليست) ومتآلفاتها النغمية، واستخدام كسور الأنغام، إلى مزيد من التقارب بين الموسيقى واللغة. وازداد هذا التقارب مع ظهور ميلوديا الكلام الطبيعي، على يد موسور جوسكي الروسي وشوينبرج النمساوي، وهي نوعٌ من الموسيقى يحاكي نبرات الكلام العادي، وتنغيمات أصواته، وهكذا، خرج إلى الوجود نوعٌ من الأوبرا يطلها الشعب، تقوم على لحنية الكلام المتداول في الشوارع والأسواق والحانات. وتعمل البحوث اليوم إلى وضع قواعدَ نحويةً للتراكيب الموسيقية. - وننتقل إلى المسار الثاني لعلاقة الموسيقى بالمعلوماتية عبر نظرية المعلومات. وقد قال الناقد (إيفور ريتشاردز): (لابد لأي نظرية نقدية من أن تستند إلى دعامتين أساسيتين: القيمة، وفاعلية التواصل) وبالحقيقة كلتا الدعامتين ذواتا صلة وثيقة بنظرية المعلومات. بالنسبة للقيمة: توفر هذه النظرية وسائل إحصائية لقياس قيمة محتوى الموسيقى، وعلى سبيل التبسيط، تكون الألحانُ الرتيبةُ والمتكررة، ذاتَ قيمة أقل من التي للألحان المفاجئة والمتداخلة السريعة التغير غير المتوقعة، كما نشهدها في أروع صورها في سيمفونية بيتهوفن الخامسة، حيث تصعد بنا ألحانه بغتةً، وتهبط بنا بغتةً، وتنتفض على حين غرة، لترق فجأة في توافق مذهل، أما فيما يخص

فاعلية التواصل، فتقدم نظرية المعلومات نموذجاً اتصالياً، يقوم على ثنائية المرسل والمستقبل، وقناة الربط التي تصل بينهما هو النموذج الذي يُستَخْدَمُ حالياً في دراسة عملية استقبال المتلقي للعمل الموسيقي، وفي تحديد العوامل التي تدخل في انسياب أو إعاقة وصول الرسالة عبر قناة الاتصال. - حط القرن السابع عشر من قدر موسيقى الآلات منحازاً إلى الكلمة، وجاء القرن الثامن عشر ليعلي من قدرها حتى وصف هذا القرن بأنه العصر الذهبي لموسيقى الآلات، وشهد القرن التاسع عشر صراعاً ضارياً بين الموسيقى الخاصة التي يمثلها براهمز، والموسيقى الممتزجة بالفنون الأخرى، التي يمثلها فاجنر وأتباعه، وجاء القرن العشرون لننعم بالموسيقى، وقد استقلت بنفسها عن باقي الفنون، وهل يشهد القرن الحادي والعشرون موسيقى دون آلات موسيقى المزج والخلط، وإعادة الصياغة، والتنويع اللامحدود في التوزيع الأوركسترا لي؟ ويقول الفيزيائي البريطاني السير جيمس جينز في كتابه عن العلم والموسيقى (موسيقى المستقبل ستكون كتلك الموسيقى في الحاضر، مع زيادة حدتها واتساع نطاق سلمها الموسيقي، كي تصبح أكثر قدرةً على التعبير، وعلينا أن نقرأ بدقة تراث الموسيقى العالمية وتاريخها، كي نضع أيدينا على التوجهات، التي صاغت الموسيقى في قالبها الحالي، وهنا يبرز جانب آخر لأهمية تكنولوجيا المعلومات من حيث دورها في إعادة إحياء التراث الموسيقي وهنا نسأل هل نحن في صدد موسيقى جديدة؟ أم نحن على طريق العودة إلى رومانتيكية موسيقية بصيغة عصر المعلومات؟ وهل ذلك الميل المتزايد إلى سماع النسخ الأصلية، والرجوع إلى الآلات المنقرضة، وأوركسترا العازفين الذين يرتدون أزياء الباروك وعصر النهضة، هو بوادر رومانتيكية جديدة تلوح في الأفق؟

- بين الفكر وفن التشكيل:

مرةً أخرى يحتاج فن التشكيل إلى المعرفة لتساند إبداعه. وتذوقه، ولنتمعن بما قاله المبدع العظيم بيكاسو: بأنه لا يفرق في رسم اللوحة بين ما يراه وما يعرفه.

أ - اللقاء بين الفكر وفن التشكيل في عصر المعلومات: لما أدرك فنانو عصر النهضة في دراستهم لمنظور العلاقة القوية بين الشكل الخارجي والتفاصيل الداخلية للأجسام، راحوا يدرسون التشريح والهياكل العظمية ليرسموا جسم الإنسان بصورة أكثر دقة، ودرسوا علم النبات لينقلوا تشكيلياً توزيع الأوراق على الأشجار وفروعها، ودرسوا الجيولوجيا ليرسموا الصخور بتفاصيلها، وهكذا راح الفن التشكيلي يبحث عن أسسه العلمية مرةً في التجريبية، وأخرى في الوضعية النظرية، وبينما تحدد له الامبيريقية التجريبية مقاييس الجمال في الأشياء، راحت الوضعية في إخضاع التشكيل لقوانينها الصارمة، ومنهجياتها المنطقية القاطعة، ورغم كل هذا يبقى فن التشكيل عصياً على التنظير، وخاصة في مراحله المتأخرة، التي شهدت تنوعاً يصعب احتواؤه، ضمن نظامٍ فلسفيٍ قديماً كان أم حديثاً.

ب - هل تجاوب الفن التشكيلي مع نشاط العلم واكتشافه؟ إن الفن التشكيلي كان متجاوباً مع الاكتشافات العلمية، وكان لرسم المنظور تجاوباً مع الهندسة والرياضيات وحساب المثلثات، في حين كانت المدرسة الانطباعية متجاوبةً مع نظرية نيوتن عن ألوان الطيف الضوئي، وعندما راح العلماء يعيدون قراءة هندسة إقليدس، أخذ سيزان ومن بعده بيكاسو، يعيدان صياغة مفهوم الحيز والفراغ، وعندما انحاز العلم للتحليل، خرجت إلى الوجود التكعيبية التحليلية على أيدي بيكاسو وبراك. وبظهور النسبية لأينشتاين، قرر بيكاسو أن يتخلص من منظور عصر النهضة، الذي يرى الأشياء من منظورٍ واحدٍ محددٍ وثابتٍ، وكي يستوعب المتغير الزمني، الذي أضافته النسبية بمحورها الرابع، قرر بيكاسو النظر إلى الأشياء من مواضع مختلفة، وكأنه يتحرك من حولها ويجيل بصره في هيئتها. أما الفنان المجري فازاريلي فقد عبر عن الظاهرة الزمنية تشكيلياً بأسلوبٍ مختلفٍ وذلك من خلال إضفاء عنصر الدينامية على رسوماته باستخدام الخداع البصري، فكان يكرر موتيفاته الزخرفية. مع تغيرٍ طفيفٍ في أوضاعها بصورةٍ دقيقةٍ ومحسوسةٍ، لتبدو للعين وكأنها مرتعشةٌ متموجةٌ.

ج - **هل ساهمت تكنولوجيا المعلومات في التنظير التشكيلي؟:** إن فنون اللغة والأدب والشعر، طغت على التنظير الفني بصورةٍ عامة، ولم يأت بعد هيجل كما يقول هربرت ريد، من يضع لنا نظريةً متكاملةً عن الفن، كما وردت في (الجماليات)، على ما يبدو كان لابدَّ من انتظار ما بعد الحداثة، لتقدم لنا تنظيراً جمالياً قائماً على الصورة لا الكلمة، بعد أن أعادت تكنولوجيا المعلومات إلى الصورة مكانتها الخليقة بها في دنيا التمثيل الرمزي.

- الصورة معقدةٌ بعيدةٌ عن الكلمة، وما أعقد علاقات الأشكال عن علاقات الكلمات. إن فنون الشكل تتسم بالتعقد، وقد يقول قائل، إن تعقدها ليس بأكثر حدةً من تعقد بحوث الأخلاق أو نظام القيم والمعتقدات، أو البنى الاقتصادية ولكن هناك اختلافٌ أساسيٌ فيما يخص تعقد التشكيل، فالتشكيل يكمن في كونه يقدم لنا التعقيد بصورةٍ صحيحةٍ ومباشرةٍ. ونحن نواجه التعقد على جبهة التشكيل وجهاً لوجه، وهنا تبرز الصلة بين تكنولوجيا المعلومات والتشكيل، فالكمبيوتر يُنْظَرُ إليه كآلةٍ للتعامل مع المعقد والعشوائي والمركب، إن فهمنا لظاهرة التعقد في الشكل يعتبر أحد المداخل الرئيسية لفهم مظاهر التعقد في مجالاتٍ أخرى متعددة، كالمرتبطة بالتركيبات الوراثية، وشبكات الاتصال، والبنى الاجتماعية والظواهر البيئية، والخرائط المخية، ومن حسن الحظ، أن تكنولوجيا المعلومات توفر وسائل عدة لتمثيل كثيرٍ من الظواهر والعلاقات مرئياً. وعلاوةً على ذلك فإن نظم الرؤية الآلية للذكاء الاصطناعي، المستخدمة في نظم الروبوت، ستلقي مزيداً من الضوء على عملية الإدراك البصري، مما يساعد بدوره في استكمال الطريق الذي بدأه علم نفس الجمال، هذا فيما يخص الكيفية التي يدرك بها المتلقي الأشكال بصرياً، وكيف تتسامى انطباعاته الأولى عن الشكل إلى نوعٍ من المتعة الذهنية، والانتشاء الوجداني. إن الطابع الرمزي الذي يسيطر على الفن التشكيلي في عصر المعلومات، هو مرحلةٌ وسيطةٌ نحو الفن الذهني الخالص، ونستطيع القول أن تكنولوجيا المعلومات تدفع بالفن التشكيلي، إلى لقاءٍ مثيرٍ مع العلوم والفلسفة والهندسة.

- بين الفكر وفن الأدب، في عصر المعلومات:

أ - **صعوبة التنظير للأدب:** تحمس للأدب شيلنج كثيراً، وذهب إلى القول أن الأدب هو الفن الشامل لجميع الفنون، بل العلوم أيضا (جان ماري شيفر ١٩٩٦)) وهذا قول مغال، إلا أنه يؤكد العلاقة الوثيقة بين الفن والفكر، وهي علاقةٌ تتسم بندية شديدة، كانت سبباً من أسباب عدم خضوع الأدب لمعايير جمالية، تفرض عليه من خارجه، أسوةً بما جرى لمعظم الفنون، وكان على الأدب أن يبحث عن تنظيرٍ يأتيه من داخله، من بنية سرده، من لغته، من رموز شفرته.

ب - **اللغة والتنظير الأدبي:** من الطبيعي أن يبقى الأدب دون التنظير العلمي الجاد، مادامت اللغة دون المستوى المطلوب في التنظير، فأتت الانطلاقة في بداية القرن الماضي، لمّا أطلق دي - سوسير الشرارة الأولى، إيذاناً بدخول اللغة مصاف العلوم الدقيقة. قام علم اللسانيات على أساس اللغة المنطوقة لا المكتوبة، وحد ذلك من تطبيقاته في مجال الأدب الذي يسوده طابع السرد المكتوب، واستمر الوضع هكذا حتى أُظْهِرَتْ البنيوية على (يد كلود ليفي شتراوس)، ومن البنيوية إلى ما بعد البنيوية فالتفكيكية، ومن نظرية النقد إلى نظرية السرد، ومن البلاغة الكلاسيكية إلى علم النص أو تحليل الخطاب، وظلت اللغة محافظةً على وضعها المتميز كمدخلٍ رئيسيٍ لتنظير الأدب.

ج - **ما أثر تكنولوجيا المعلومات في التنظير الأدبي؟** ظهرت الحاجة إلى تنظيرٍ أدبيٍ جديدٍ، يعكس ما فعلته تكنولوجيا المعلومات في النص الأدبي من تشظٍ وتشعبٍ وتناصٍ، فقد نهض تنظير الأدب فيما مضى على الخطية والتماسك النصيّ، وبنية النص العميقة. وإن تنظير أدب عصر المعلومات ينتظر نقلةً نوعيةً تمكنه من التعامل مع اللا خطية، ومع تعدد أشكال بنية النص وفقا لتركيب شظاياه، ومع تغيرها دينامياً وفقاً لما يراه القارئ في تناول نصه، ولا جدال في أن الأدب، لارتباطه الوثيق باللغة، هو أكثر الفنون قدرةً على التعبير عن مفهوم التقطع والتشظي. فاللغة تقطيعية في جوهرها، بحكم طبيعتها الرمزية التي تكون الكلمات من الحروف المتراصة، والجمل من

الكلمات المتتابعة والفقرات من الجمل المتلاحقة. وتفوق اللغة كل أنساق الرموز، في قدرتها على التجريد والتجسيد، وعلى الإيجاز والإطناب، وعلى الإسفار والغموض. والسرد الأدبي ذو قدرة عالية على نقل السياق بصورة لا خطية مباغتة عبر الزمان والمكان، وعبر الأفكار أيضا. مثالنا على ذلك باستخدام عبارات موجزة من قبيل: (ومضت القرون) (وبعد رحلة عبر الأطلنطي) (ومن وجهة نظر أخرى) يقفز زمن السياق إلى ما بعد هذه القرون التي مضت، ويعبر مكانه في قفزة واحدة إلى الجانب الآخر من الأطلنطي، وتنتقل وجهة نظره الراهنة في لحظة خاطفة، إلى وجهة نظر أخرى. وهنا وفرت تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة، لقراءة شبكة العلاقات التي يموج بها النص من علاقات لغوية ونحوية. ومنطقية، وإيقاعية. وتركيبية. ومعجمية وموضوعية. ومقاميه. وزمنية ومكانية. ومفاهيمية. إن تكنولوجيا المعلومات تعمل كأشعة أكس، التي تكشف، عن داخل النص، ويأتي الذكاء الاصطناعي ليحقق وسائل آلية لاستنتاج المعاني، وفض اللبس والغموض، والتعويض عن المحذوف المضمر، ويفسر ذلك لماذا أقامت نظرية الأدب جسراً للحوار مع الذكاء الاصطناعي، يتبادلان من خلاله المعرفة المتعلقة بإشكالية المعنى.

- بين الفكر وفن الشعر: في عصر المعلومات:

أ - ماذا عن علاقة الفلسفة بالشعر؟: لقد تجنى كانط على الموسيقى بقدر ما أنصف الشعر، معتبراً إياه من أفضل الوسائل للسيطرة على العقل، وهو أعظم الفنون في الجمع بين العقل والتعبير. وكان لزاماً على الشعر أن يفلت من قيود اللغة، ومن قيود المنطق أحياناً، ليسمو بخياله ومجازه إلى ما يعجز غيره عن الوصول إليه. والشعر في نظر بعضهم امتداداً للفلسفة أو بديلاً لها (روجيه جارودي ١٩٩٨) ويراه أهل الشعر فوق الفلسفة وعلى الفلسفة أن تتعالى على ذاتها بالشعر ليتفجر بذلك الصراع القديم بين الفلسفة والشعر منذ أيام أفلاطون.

ب - الشعر يرفض الإذعان: أفرط شيلنج بحماسه للأدب كذلك أكثر نوفاليس في حماسه للشعر، وقال أنه لن يهتم إلا بالشعر. وعلى الشعر أن

يغطي كل العلوم (المصدر السابق نفسه)، ويقول (ميشيل سيرز) عن الشعر أنه ضجيج العلم، ومن دون شعر لا يكون هناك علمٌ، ومن دون علمٍ أو على الأقل فلسفةٍ ما، لا يمكن لنا أن نقرض الشعر، والضوضاء تعني هنا هذا الغموض الذي يستحث العقل على توليد معرفةٍ جديدةٍ، وقد قال (مواري جيل مان) عالم الفيزياء، مكتشف جسيم الكوارك الذري، إنَّ اكتشافه له قد ألهمته إياه قصيدةٌ شعريةٌ عن الوحوش المفترسة في الغابات الأمريكية، فقد شبه ما بين قوة افتراسها والقوة الطاغية لجسيم الكوراك داخل نواة الذرة (محمد مدبولي ١٩٩٩) إن هذا الموقف من الشعر يتسق مع كونه طليعة اللغة واللغة طليعة المعرفة، وعليه أن الشعر هو قائد المعرفة، والشعر ليس نوعاً من الرفاهية الوجدانية، نلجأ إليه عندما نبحث عن التسامي والسلوى، صحيح أن الشعر يذكرنا بضعفنا عندما ينتابنا الغرور، وهو يَشُدُّ من أزرنا إذا تقاعسنا وقعدت بنا الهموم، وهو يعتبر فوق كل هذا ضرورةً عقليةً لا تكتمل معرفتنا بدونها.

ج - **هل ساهمت تكنولوجيا المعلومات في التنظير للشعر؟** تتضافر الجهود كلها إلى وضع نظريةٍ عامةٍ للشعر، قد تساعد بها تكنولوجيا المعلومات، وهي تتقابل مع الشعر في ثلاث ساحات: ساحة المجاز اللغوي - ساحة شفرة الرموز - ساحة الخيال الشعري. بالنسبة للمجاز اللغوي تساعد تكنولوجيا المعلومات في بناء قواعد وذخائر النصوص اللازمة لرصد الظواهر المختلفة، لاستخدام الصيغ المجازية في سياق النصوص الفعلية، وكذلك الارتقاء بالمعاجم، من كونها حرفةً إلى مستوى العلم المنضبط. وهو العلم الذي يسعى إلى تناول مدى قابلية المعاني للتوسع مجازياً، والعوامل التي تحكم التشبيه الاستعاري وتحدد ما الذي يستعير المجاز من المجال الدلالي الحرفي. إن استعارة تشبيه العواطف بالنيران على سبيل المثال): التهبت العواطف) و(جذوة العاطفة)، وليس من المستساغ أن نقول (تفحمت العواطف) أو (وقود العاطفة أو حطب العاطفة). - وكما هو معروف يتجاوز الشعر اللغة، ليقيم بداخله ومن داخله شفرة الرموز الخاصة به، إن الشعر بمكانةٍ وسطى بين اللغة المسرفة في القدرة التعبيرية، وشفرة المعلومات المسرفةِ في صورتها

وتجريدها وهكذا، ويمكن أن ننظر إلى الشعر بأنه همزة الوصل التي تربط ما بين نسق اللغة ونسق المعلومات، ويمكن النظر إليه على أنه همزة وصل بين اللغة والموسيقى، فهو يجمع ما بين تنغيم اللغة وتنغيم الموسيقى، وتستخدم نظرية المعلومات في تناول قيمة الموسيقى كمياً وإحصائياً، تستخدم في مجال الشعر للغرض ذاته، أي للحكم على شاعرية القصيدة. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساعد في عملية الحكم بأسلوب آخر، وتقاس شاعرية الشعر في قدرته على تجاوز الأنماط النحوية، التي يمكن لقواعد اللغة أن تولدها، وتجاوز معاني الكلمات الواردة في معجم اللغة. إن نظم معالجة المعاجم آلياً، يمكن أن تدلنا على الحدود القصوى للتوليد النحويّ والمعجميّ، والتي إن تجاوزها الشعر يكن قد حاز على دليل شاعريته. - وفيما يخص لقاء الشعر بتكنولوجيا المعلومات في ساحة الخيال، يظهر الواقع الخائلي كحلقة رابطة بينهما. ويمثل الواقع الخائلي موضوعاً مثيراً لإبداعٍ شعريٍّ جديد، يثير الحزن بتأملاته حول السكنى في عالم الرمز، والعيش مع الكائنات الخائلية وأطلالها الرقمية. كما يمكن استخدام عوالم الواقع الخائلي في تجسيد عوالم الشعر الخيالية، وكما تحولت الروايات والأساطير إلى أفلامٍ سينمائية، قد يأتي يوماً نجد الأشعار قد تحولت إلى عوالم خائلية، ولا شك أنها أكثر أشكال التمثيل الرمزي ملاءمة للشعر.

- بين الفكر والسينما، في عصر المعلومات:

أ - **بداية التنظير:** إن فن السينما أو الفن السابع كما يسمى عادةً، هو فنٌّ حديثٌ جامعٌ لفنونٍ عدة، وهو ما أثر على الفكر: فلسفةً، وعلماً. وقبل أن يرسخ هذا الفن، وتتضح معالمه إلى الدرجة التي تجتذب إليه الفكر الأكاديمي، جاءه التليفزيون ليعتلي قمة الثقافة الجماهيرية، ويصبح أكثر الوسائط إثارةً للتنظير الأكاديمي، وأصبح الشاغل الرئيس لمدرسة فرانكفورت، ومحور التنظير الإعلامي (لمارشال ما كلوهان)، هذا لم يمنع فن السينما من ممارسة حقه كغيره، وأن يتجاوز مرحلة المراهقة التنظيرية، إنه يتأرجح حائراً. ما بين المدارس الفكرية المختلفة، فمرةً يتجه نحو التنظير السينمائي مثل الوجودية،

ليركز على دور المشاهد، ومرةً تشده البنيوية حيث تحثه للكشف عن بنية الفيلم الداخلية والمعرفة اللاواعية وراء ظاهر الفيلم، وأحيانا يميل التنظير نحو التأويلية، ليغرق في دوامة التفسير وأخيراً يجد نفسه وجهاً لوجه مع اللغة واشكاليتها.

ب - **علاقةٌ تكنولوجيةٌ لا علميةٌ**: إن علاقة فن السينما مع الفلسفة ضعيفةٌ وكذلك كانت علاقته بالعلم، لسبب أن فن السينما هو فنٌ مزجيٌ، يجمع ما بين الصورة، والنص، والموسيقى، والحوار. وكل هذه العناصر المغذية لفن السينما لم تحقق الاستقرار النظري، ومن حق هذا الفن أن يتجه صوب تنظيرٍ علميٍ أكثر تأصيلاً، وهذا لم يمنع فن السينما من أن يضيع تائهاً بين فصائل العلوم، ومرةً يلجأ إلى علم النفس، لينشغل بدراسة التأثير السيكولوجي للفيلم في المشاهد، ويتجه بالنقد إلى نية المُخْرِج وتفسير مقاصده، ومرةً أخرى يرتمي بحضن علم الاجتماع ليركز على علاقة محتوى الفيلم بواقعه الاجتماعي، وبدلاً من أن تقيم علاقة حميمة بالعلم، وطدت السينما علاقتها بالتكنولوجيا، ومن المنطقي -والأمر يسير على هذا النحو- أن تكون مبادرات التنظير على يد المدرسة الشكلية الروسية، وهذه دفعت بها رؤيتها الإيديولوجية المادية إلى رؤية السينما على أساس تقنية محضة، لا وحيٍ، ولا خيالٍ، أو أداةٍ للعمل السيكولوجي (دادلي أندرو ١٩٨٧) وقد كرس (سيرجي أيزن شتاين)، رائد هذه المدرسة، كل جهده على موضوع المونتاج، بصفته أبرز ما في الفيلم من التقنية، التي تميزه عن غيره من الفنون. ومن دون المونتاج، لن تكون السينما فناً، كما قال (مارلو). (نفس المصدر السابق) ولا تجد المدرسة الشكلية الروسية إلا أن تستعير مناهجها من الفنون الأخرى، ومن فن التصوير الثابت، ونتيجة هذا التوجه غاب المحتوى عن المنظرين الشكليين فانفصل التنظير السينمائي عن الواقع.

ج - **المدرسة الواقعية**: إن الناقد السينمائي أندريه بازان، عارض المدرسة الروسية الشكلية ليرد الاعتبار على محتوى الفيلم، فاستجابت السينما الايطالية بواقعيةٍ جديدةٍ، وأكد بازان الحاجة إلى نظريةٍ علميةٍ جديدةٍ

للسينما، تبني على القوى الخالصة للصور المتحركة المسجلة ميكانيكياً (نفس المصدر السابق)، وقد حضر بازان للتنظير العلمي الجاد، وقام بجهدٍ كبيرٍ من أجل تنظيم التراث السينمائي، كما وضع المنهجية لتصنيف أنواع الأفلام وسيناريوهاتها، وطرق تعبيرها عن الواقع.

د - **بين اللغة والتنظير السينمائي:** لابد للتنظير السينمائي أن يلتقي بالتنظير الرمزي اللغوي، بوصف اللغة نوعاً من الإبداع الرمزي، وقد تخلص تنظير اللغة على يد دي - سوسير من كل ما هو خارجها، وفصل (كريستيان ميتز) في محاولته تأسيس علمٍ سينمائيٍ خالصٍ، بين الشق السينمائي وما هو خارج السينما من: تكنولوجيا، وتنظيمٍ، وعلم نفسٍ، وعلم اجتماعٍ، وعلم اقتصادٍ (نفس المصدر السابق) والتنظير السينمائي يتجه نحو السيميوطيقا، ولا يوجد خيرٌ منها كمدخلٍ للتنظير الرمزي، بصفتها علم المعنى، وتسعى سيميوطيقا السينما إلى تبني نموذجٍ شاملٍ قادرٍ، أن يفسر كيف يشتمل الفيلم على المعنى؟ وكيف ينتقل هذا المعنى إلى المشاهدين؟ وتحاول سيميوطيقا السينما الكشف عن السمات والأنماط، التي تعطي كلٌ فيلمٍ أو كل نوعٍ من الأفلام خصائصه المميزة. (نفس المصدر السابق)، وعندما يعبر المشهد السينمائي بوابة السيميوطيقا، يجد نفسه مع اللغة وجهاً لوجه. وأكثرها نضجاً وأهميةً وقدرةً على نقل المعنى، ويصبح الهدف التنظيري مصوباً على وضع معجمٍ سينمائيٍ يحدد كلمات اللغة السينمائية ومعانيها، وعلى وضع نحو للغة السينما، يحدد أنماط تتابع أحداث الفيلم وتحديد دور كل منها، وكما جرى لعلم النص، اكتشف علم السينما أن اللغة وحدها لا تكفي، ولا بد للسينما من لغةٍ خاصةٍ، تتجاوز اللغة الإنسانية إلى ما هو أعم وأشمل. ويجد علماء التنظير السينمائي ضالتهم في نظرية المعلومات، لأن مادة الفيلم عند (كريستيان ميتز)، ليست هي في الواقع ذاته، ولا تكنيكات المونتاج، بل مادة الفيلم هي الرسائل التي ينقلها الفيلم إلى المشاهد من خلال الشفرة الخاصة بلغة السينما، ومن أشهر الأمثلة على هذه الشفرات: استخدام تساقط أوراق النتيجة، دلالةً على مضي الزمن، واستخدام الألحان الموسيقية الموحية بتوليد

الشعور بالرعب، أو باقتراب وقوع حدثٍ معيّنٍ أو تصرفٍ ما، تقوم به إحدى شخصيات الفيلم.

هـ - ماذا عن علاقة السينما بتكنولوجيا المعلومات؟ لقد كان المعمار هو موضع التقاء الفن مع تكنولوجيا الثوابت، وهي هندسة الإنشاءات، أما السينما فهي موضع التقاء الفن مع التكنولوجيا ذات الطابع الدينامي المتدفق، والتي تمثل تكنولوجيا المعلومات ذروة التقائها. وقد نقلت تكنولوجيا الصناعة المسرح إلى السينما، وتحاول تكنولوجيا المعلومات نقل السينما إلى عالم الوسائط المتعددة. وهنا قد تكمن الأهمية الخاصة للتنظير السينمائي في عصر المعلومات، ولم يعد التنظير ضرباً من الرفاهية المعرفية، أو أداةً لممارسة النقد السينمائي، إنها البداية نحو جماليات الوسائط المتعددة، ولا شك في أن مونتاج الفيلم، وقدرته على تجسيد السيناريوهات المتوازية والمتقاطعة والمتلاقية، يعد أقرب الفنون لتجسيد مفهوم اللا خطية، وهو أبرز خصائص فنون عصر المعلومات، علماً أن تحويل الروايات إلى أفلام يوفر مجالاً خصباً لدراسة علاقة السرد النصي بالسرد المرئي، للوصول إلى جمالياتٍ متوازنةٍ متحررةٍ من مركزية الكلمة ومحورية الأدب.

- بين الفكر وفن المسرح في عصر المعلومات:

أ - ما هي أنواع المسرح وتوجهاته؟: إذا كان الشعر هو ديوان العرب فإنَّ المسرح هو مدرسة الإغريق،. إن المسرح الإغريقي هو مصدر توليد المعرفة وقد شكّلَ خطابُهُ المعرفي من عقول عدة، إن عقله الدرامي يعب من جميع مصادر المعرفة: - فهو يخاطب الآلهة والكائنات - يجادل في الأفكار والرؤى - يحاور الحاضر والغائب - يمرح عقله الأول دون قيد في خرافة الأسطورة - يصول ويجول عقله الراهن في دنيا الواقع حائراً ما بين تناقضات هذا الواقع - مبديا رأيه وتصوراته في هذا الشأن. - وربما يحاور المسرح عقل الآلة صنيعة تكنولوجيا المعلومات بعد أن تعاظم دور هذا العقل في صياغة الواقع الحاضر. - وتعددت مدارس المسرح وتوالت موجات طلائعه وتجاريه - فكان للمسرح توجهاته التاريخية والسريالية والرمزية والمستقبلية والعبثية - وكل

توجه يدعي السيطرة على ما عداه من أنواع المسرح. – ومثله مثل فن السينما، فقد استعصى فن المسرح على التنظير الدقيق، وقد يعود هذا إلى تعدد أنواعه: مسرح الفنانين – مسرح الحركة – – مسرح الشعائر – مسرح العرائس – مسرح التقليد والإيماءة – مسرح الأعياد – مسرح الطقوس – مسرح القصص الدينية، ومن المتوقع أن تزداد الأمور صعوبة بظهور أنواع جديدة من المسرح في عصر المعلومات.

ب – **كيف تعبر لغة المسرح عن نفسها؟:** إن المسرح الأوروبي ساده طابع الحوار، والإيحاءات التعبيرية وأداء الفنانين المقنّن، فقد كان الحوار أو فكر المؤلف، هو وسيط المسرح إلى الفلسفة والعلم، وهكذا غابت أهم خاصية تتفرد في تمييز المسرح عن غيره من الفنون، وهو عنصر الأداء الحي. وهنا، تبرز علاقة التنظير المسرحي بفنون عصر المعلومات، التي يسودها الطابع الأدائي التفاعلي. والأمل معقودٌ على تكنولوجيا المعلومات، لترد الاعتبار لعناصر فن المسرح التي طغت عليها لغة الحوار، وتشمل هذه العناصر: الصورة والأداء والبناء المسرحي والكورال وتتالي المشهد المسرحي وخلافه، ويرى مؤرخو المسرح ونقاده، أن لا مخرج لأزمة المسرح، ومركزيته الأوروبية، ومحورية حواره، إلا بشحنة أداء قوية، تهب عليه من شرق آسيا، مثله في ذلك مثل الموسيقى الغربية، التي تنتظر هي الأخرى شحنةً قويةً إيقاعيةً تأتيها من قبائل إفريقيا ودويلات جزر الكاريبي، وهذا ما يفسر: لماذا يستعير المسرح التجريبي من مسرح الكابوكي الياباني (والجينجو) الصيني، والكاثاكالي الهندي، يخفت الحوار ليبدو الأداء الحركي، والإيماءة وطقوس الشعائر الدينية. في النهاية إنَّ المسرح شأنه شأن الموسيقى والسينما والشعر يحاول أن يتمرد على اللغة سعياً إلى توسيع نطاق التعبير الإنساني.

ج – **كيف تم اللقاء بين المسرح وتكنولوجيا المعلومات؟:** إن معرفة المسرح تلتقي مع تكنولوجيا المعلومات، مباشرةً من خلال مسرح ما بعد الحداثة الذي يتبنى مفهوم إعادة التدوير، أي البناء على ما سبق تقديمه على المسرح، أو في فنون الأداء الأخرى، ولا بد أن يجد تشظي المعلومات، بصورة أو

بأخرى، طريقه إلى مسرح ما بعد الحداثة، من خلال إعادة استخدام التراث ممزوجاً بتراث الفنون الأخرى، لتفقد بذلك المسرحية خطيتها. ويختفي الحوار ليكسر بذلك احتكار الممثل، وهو ناقل الحوار فيما مضى، من أجل إتاحة الفرصة أمام مشاركة الجمهور، ولكن هل سيفقد المسرح وظيفته الأصلية في التعبير عن الواقع؟ أم سيستعيد المسرح وظيفته التي أخذها على عاتقه منذ نشأته الإغريقية؟ وتتوالى الأسئلة بلا حدود: ما هي حدود المسرح في نقل المعرفة؟ وما علاقة المسرح بالدين والسلطة وبالاقتصاد ومؤسسات المجتمع المدني؟ وهل يغيب المسرح عن جبهة العمل في خضم صراعات الحاضر، تحت ضغوط فن الميديا فيغيب معه دوره المحوري في صراع القوى الرمزية والاجتماعية؟.

- بين الفكر وفن الإيقاع الحركي: في عصر المعلومات:

أ - بين البوصلة والتكامل المعرفي: إن الرقص بحاجة هو الآخر مثله مثل باقي الفنون إلى معرفة: معرفة لإبداعه، ومعرفة لتذوقه، ومعرفة لمزجه مع فنون الأداء، وهنا يحضرنا صورة مبدع الرقص الأمريكي الحديث، الذي كان يراقب الحشرات تحت المجهر، يبحث في حركاتها عن (موتيفات) حركية جديدة لتصميم رقصاته، وننتقل إلى صميم علاقة الأداء الحركي بالمعرفة، ومدخلنا إليها هي البوصلة ذات الاتجاهات الأربعة، التي حددها فيتنجنشتين عن تكامل المعرفة الإنسانية، فقد استلهم فيلسوف اللغة في بوصلته الرباعية، ثنائية الفكر والفعل لأرسطو، حيث يمثل المحور الأفقي محور الفكر، في حين يمثل المحور الرأسي محور الفعل، وتمثل محاور البوصلة الأربعة مصادر المعرفة الإنسانية المختلفة، كما ورد في ص (٤) على المحور الأفقي شرقاً تقع البنى المعرفية، من مفاهيم وخبرات ومعارف علمية، وتقع غرباً مؤثرات الإدراك الحسي من صور وتصميمات وهياكل فنية، وعلى المحور الرأسي شمالاً تقع عناصر الإلزام من قواعد وقوانين وواجبات والتزامات، وجنوبا تقع المعرفة من خلال مزاولة العادات من احتفاليات وطقوس وشعائر وتراث شعبي. وتركز تعليمنا على الجزء الشمالي الشرقي من بوصلة التكامل

المعرفي. فقد اعتدنا أن نتعلم من المفاهيم والمعارف النظرية، من خلال الأوامر والالتزام بالقوانين والأعراف، وحان لنا أن نكتشف الأجزاء الثلاثة الأخرى لبوصلة التكامل المعرفي. ولنا أن نزاول اكتساب المعرفة عبر إبداع الفنون وتذوقها من خلال ممارسة الطقوس وأنشطة التراث الشعبي، وسبق لنا وأن تعلمنا شعائر الدين وروحانياته من خلال ممارستنا للطقوس الدينية، وتعلمنا من خلال الطقوس العسكرية مبادئ القتال والضبط واحترام الأوامر والتضحية وتحمل المسؤولية، ومن هنا تبرز أهمية الأداء الحركي كمصدرٍ للمعرفة، بصفته نوعاً من الطقوس، لا مجرد حركاتٍ جسديةٍ خاليةٍ من المعنى.

ب - **مفهوم جديد للرقص:** إن العلم قد ابتذل الرقص وخلعنا عنه صفته ووظيفته الأصلية المختبئة في صوفية طقوسه، وتخلصنا من مادية الجسد، نبغي من خلالها التسامي والتعالي. وحتى فن الباليه لم يهمنا منه سوى جماله الشكلي، وسجناه في أبجديةٍ حركيةٍ محدودةٍ، تصل إلى حد الملل، عندها راح الرقص الحديث يستعير رقص الهنود واليابانيين والزنوج وتعبيراته وإيماءاته ورصانته وحيويته.

ج - **ما صلة فن الأداء الحركي مع تكنولوجيا المعلومات؟:** لقد ضيقنا الخناق على جسدنا، ولم نعد نهتم به، ولن يرد إلى أذهاننا إلا مقروناً بالأمور الصحية، وممارسة تمارين اللياقة البدنية، ونحن اليوم بحاجةٍ إلى إعادة الاعتبار لعلاقتنا بجسدنا عبر صلته بفن الأداء الحركي وعلاقته بتكنولوجيا المعلومات. إن تكنولوجيا المعلومات، وعوالم الواقع الخائلي، ستمكن الإنسان من التخلص من قيود جسده، ليلهو منطلقاً في عالم الرمز كما يتخلص رواد الفضاء من أثر الجاذبية الأرضية. وهنا يحضرنا قول راقصة الباليه الأمريكية (ايزادورا دنكان) (دعوا الجسد ينطلق) وعبقري الرقص التشيكي الذي كان يقفز بالهواء كطائر، يبدو وكأنه تخلص من أثر الجاذبية، لينتهي به ولعه بالرقص الرفيع إلى تلك النهاية التراجيدية، فينقلوه إلى مشفى الأمراض العقلية لعله يجد في (عالمها الخائلي) ما عجز عن العثور عليه في عالمه

الـواقعي. وقـد أظهـر فـن الـرقص الحـديث حـساسية مفرطـةً لـروح عـصر المعلومات، سواء كان الـرقص علـى موسـيقى التكنـو، مـرقص الـشباب، أم علـى أنغام الموسيقى الطليعية في المسرح التجريبي. وفي جميع الحـالات يسهل علـى الفرد مـلاحظة الطابع المتقطع للـرقص، أو (التشظي الحركي) علـى إيقاعـات مفاجئة متدفقـة، تمامـاً كتـدفق نبـضات المعلومـات، إن لغـة الـرقص هـي أقـدر اللغات على التعبير، بلا منازع، عن فجائية التقطع أو ثنائية التنقل بين الصفر والواحد.

- علاقة الفكر العربي بالفنون:

أ - هل هناك علاقةٌ بين الفكر العربي والفنون؟:

لا ندري إن كنا نذيع سراً، إن قلنا، كنا لا نريد أن نتناول هـذا الفقـرة، ولكـن في الحقيقة نريد أن ننصف السلف، في علاقـة الفكـر بـالفنون، وتحـت ضـغط انطباع ضمور فكرنا وفننا، لابد أن يعني ضموراً مزدوجاً في الفكـر والفـن في هذه الأيام، ولكن نكون مجحفين بحق ما أبدعه سلفنا العظيم في مجال معرفـة الفنـون والإبـداع، ومـا أضـافه محـدثينا مثـل: مـصطفى سـويف. وبهـذه الحالـة سنكتفي بعـرض مـا قدمـه الـسلف، مـن انجـازات في معرفـة فـن التـشكيل، ومعرفة الموسيقى.

ب - مـدى مـساهمة الـسلف في الفـن الموسيقي، وأهمها: - إنَّ ابـن سـينا كـان سـباقاً في موسـوعة الـشفاء والنجـاة، في وصـف تعـدد الأصـوات (البوليفونية) قبل أن يعرفه الغرب بمئات السنين، ويعتبر ابن سينا رائداً مـن رواد التـدوين الجدولي، درس العلاقـة بـين وضـع يـد العـازف علـى عنـق الآلـة الموسيقية، وطبيعـة الأصـوات التي تـصدرها. - إن أبحـاث الكنـدي في طبيعـة الأصوات كانـت فتحـاً جديداً في علـم الموسـيقى، واكتـشافه الـسلم المعـدل، وتحديده نطاق الذبذبات للأصوات الموسيقية، وهو السلم الـذي عرفـه الغـرب بعـد ذلـك بقـرون عـدة، وتعـد رسـالة الكنـدي الـشهيرة في التـأليف الموسـيقي وترتيب النغم الدال على طبائع الأشخاص وفي الإيقاع، سبقاً حقيقياً في علـوم الموسيقى وصنعتها. - أما الفارابي صاحب كتاب الموسيقى الكبير، أشهر كتاب

في تاريخ الموسيقى، هو أول من تحدث عن التنافر، وتعدد المقامات وتعدد الأصوات. - وهل من المعقول أن نهمل زرياب وتجاربه الرائدة على خامات الأصوات، والمدى الصوتي للمغني، ومعهده في قرطبة الذي كان كعبة الدارسين في أوروبا، وما سجله إخوان الصفا في رسائلهم في الضروب والإيقاعات، وهذه البحوث في علوم السلف، ساعدت في تأسيس علاقة العلم بالموسيقى، وخاصة في مجال رياضيات وفيزياء الأصوات. وتميزت بربط الجوانب العلمية بالتطبيق العملي، وبتكنولوجيا صناعة الآلات، ولا يناظر هذا الثراء المعرفي إلا قصور دراستنا الحالية، سواء في المعرفة الموسيقية الحديثة، أو تناول تراثنا الموسيقي.

ج - ما أهمية تراثنا الموسيقي؟: لابد لنا من أن نحافظ على تراثنا ومواردنا الموسيقية، لدينا تراثٌ عظيمٌ في المقامات الموسيقية، بينما يشكو الغرب من فقرٍ في المقامات التي أهدانا تراثنا الموسيقي منها المئات، ومن يقول أن عددها تجاوز الألف (فتحي الخميسي ١٩٩٨) ومعظمها بين ضائعٍ ومفقودٍ أو مشوهٍ أو مهملٍ. ومقاماتنا الموسيقية المستخدمة مهددةٌ بالانقراض، (من المئات إلى العشرينات في عصر سيد درويش وعبد الوهاب ورياض السنباطي والرحابني) وأصبحت اليوم أقل من عشرة مقامات متداولة، وعلينا أن نعيد بناء منظوماتنا الموسيقية، وقد رممها ونظمها لنا (صفي الدين الأموي)، على شكل سلاسل مترابطة منتظمة. وإن لم نقم نحن بذلك سيقوم به غيرنا، بمساعدة تكنولوجيا المعلومات التي تمتلك القدرة الكافية على ترميم المخلفات الموسيقية وإعادة بنائها. - وعلينا أن نقوم بمزج تراثنا الموسيقي، وإجراء تجاربنا عليه، ونحن لم نكتشف إلى الآن ما الذي يتكون عن مزج غناء المغرب العربي، وغناء المشرق العربي، وغناء الجزيرة العربية، وغناء بلاد الشام، وغناء الخليج، وغناء مصر والسودان، وعلينا أن نمزج موسيقانا وتراث إيران وتركيا، ونركز على العلاقة بينهما.

ج - عن فن التشكيل: إن الزخرفة العربية هي رتيبةٌ ميكانيكيةٌ، مفرطةٌ هندسياً وهي متخمةٌ باللغو التشكيليّ، وهذا صدى لميل الفكر العربي للتكرار

والاجترار، كما يقول بعضهم، وهذا البعض يقول ليس هناك ما يسمى بالفن الإسلامي. وهكذا يحاولون تشظي وتفتيت الفن الإسلامي. فهذا تاج محل، ليس إسلامياً إنه مغولي، وقصر الحمراء مغربي. – وما علاقة فن الزخرفة بتكنولوجيا المعلومات؟ – تمثل الزخرفة تطبيقا عمليا لمفهوم التوليد الرياضي، وهو أحد المفاهيم الأساسية في كثير من العلوم الحديثة. مثل اللسانيات والبيولوجيا الجزيئية. – تؤكد الرسومات الزخرفية مفهوم اللانهائية، والانتشار غير المحدود، وهو الآخر أحد المفاهيم العلمية الأساسية. – يتميز فن الزخرفة بطابعه التجريدي، وهو ما يتسق مع طابعه الرمزي الذهني لفنون عصر المعلومات.

- اللغة والإبداع الفني العربي في عصر المعلومات:

أ – **هل للغة علاقة بالإبداع؟**: لا توجد جماعة بلا لغة، ولا جماعة بلا فن، وخلصت الأنثروبولوجيا الرمزية على الصلة بين اللغة والفن، ولكل فرع من فروع الإبداع لغته الخاصة به، وكثيراً ما نسمع فصاحة موسيقى بتهوفن، وبلاغة الفيلم السينمائي، ومعاجم الشعر، واستعارة الشكل، وأبجدية المعمار، وأضافت تكنولوجيا المعلومات لمستها المجازية، وهناك نظم آلية لإعراب الجمل، وتطور نظم آلية لإعراب الأشكال والأفلام، يعني تحليلها إلى عناصرها المركبة منها، وتحديد العلاقة الوظيفية بين هذه العناصر، واللغة أصبحت نهجاً للتنظير العلمي، يجري تطبيقه على مجالات معرفية متعددة متباينة، ومن الممكن أن تكون اللغة نهجاً عاماً، يمكن تطبيقه على الفنون عامة، واللغة في الحقيقة أقرب إلى الفن منها إلى العلم – وتكمن صلة اللغة بالإبداع، في قدرتها على توليد عدد لانهائي من التراكيب النحوية والمعاني المجازية، والشعر لا يقص علينا ما حدث بل ما كان ممكناً أن يحدث، إن الشعر من خلال أداة اللغة، يولد الممكن ويمتد صوب اللانهائي.

ب – **هل اللغة قيد على الإبداع؟**: قال كافكا: كل الأشياء تبدي مقاومة شديدة كي تصاغ في صورة كلمات، والشاعر في علاقته باللغة أكثر تأزماً فهذا: ت. أس. إليوت، يعبر في إحدى قصائده عن معاناته الشديدة مع اللغة،

وكيف تحده الكلمات في انطلاقة شعره، ويوسف الخال اصطدم بجدار اللغة، فجاء ديوانه (الولادة الثانية) سجلاً لمعركته في الإفلات من قبضتها، واللغة تكشف، وهي في طور تألقها في حضرة الشعر، عن عجزها وحاجتها الماسة إلى تفجير معانيها السائدة ونمطيتها الجامدة، وهذه تكنولوجيا المعلومات تقوم بدورٍ مساعدٍ ومهمٍ في بلورة العلاقة بين اللغة والإبداع، وتشكل نظم معالجة اللغة آلياً أحد عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، في حين تمثل فنون اللغة مصدرا لا ينضب من التحديات اللغوية، تدفع بالبحث اللغوي إلى مشارف جديدةٍ غيرِ مسبوقة.

- **اللغة والإبداع الفني العربي.**

أ - **لغتنا الوعد والأمل في خلق الإبداع:** لازلنا نأمل أن تدفع لغتنا العربية في نمو إبداعنا الفني، وإبداعنا الفني هو أملنا في إبداع وإحياء لغتنا، وفنوننا اللغوية، من أدبٍ وشعرٍ، هي أهم فنوننا بلا منازع، حيث موسيقانا في ضمور، وفنون المسرح وأداء الإيقاع الحركي أكثر ضموراً، وفنون التشكيل مازالت لدينا مقصورةٌ على النخبة، وفن المعمار مازال يعاني من تبعيّةٍ جماليّةٍ وتكنولوجيّةٍ. وحسم العلاقة بين لغتنا وإبداعنا، شرطٌ أساسيٌ لحسم العلاقة بين إبداعنا وديننا، لما للنص الديني من أهميةٍ بالغةٍ في منظومة القيم والمعتقدات.

ب - **الإبداع الفني مَطَرُ اللغة:** بالتأكيد تحيا اللغة من خارجها لا من داخلها، تحيا باستخدامها، وبإبداع الجماعة الناطقة بها، ترى كيف يمكن للإبداع أن يساهم في إخراج لغتنا من أزمتها الحالية: - طغى صرفنا على نحونا، يشكو غيرنا أن البحث اللغوي لديه ما زال أسير الجملة، لم يتجاوزها إلى النص، ونحن مازلنا أسرى الكلمة، لم نحسم أمرنا في قضايا اللغة على مستوى الجملة، ومن هنا يأتي دور نظرية الأدب من حيث تناولها للنص، ويجب أن تكون النظرية مدخلاً أساسياً لتنظيرنا اللغوي، بهدف أن ننقض على المشكلة من مستوى أعلى، ومستوى النص يحرر اللغة العربية من سجن الكلمات،، فيعيد للمعنى مكانته، سواء في التنظير للغة العربية، أو في طرائق

تعلمها وتعليمها . - من المعروف أننا أهملنا الوظائف الاتصالية للغة، وهي الوظائف التي تزداد أهميتها بفعل المتغير المعلوماتي، واهتمامنا بالمسرح سيعطي دفعةً قويةً لتنمية الوظائف الحوارية للغة. - ونشكو من نقصٍ شديد في دراسة المجاز، وتناول هذا القصور من منظور الشعر يمكننا من معالجة الظاهرة بصورةٍ شاملةٍ وعميقةٍ. - لم نعط ظاهرة التنغيم والإيقاع الصوتي اللغوي الاهتمام الجدير به، بعد أن ازدادت أهميتها في نظم توليد الكلام وفهمه آلياً. وإنَّ دراسة علاقة الموسيقى باللغة توفر الخلفية النظرية لتناول هذه الظاهرة. ولا يمكن تحقيق هذه المهام البحثية دون الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات، فهي أملنا الوحيد في تعويض تخلفنا في مجال البحث اللغوي والإبداعي.

- الدين والإبداع الفني الغربي. في عصر المعلومات.

أ - **الدين ينشط الفن:** لاشك أن الدين كان منشطاً للفن، واكتسب المصري القديم فنه من عقيدته، وأبدعت فنون التشكيل والنحت روائعها في ظل الدين، كما نشأ المسرح في أحضانه، وكان المسرح الإغريقي من أقدم المسارح، ذا طابعٍ دينيٍّ، وما زالت طقوس الدين واحتفالياته مصدرَ إلهامِ الفن الدراميِّ الحديث. كما كانت نشأة الأدب ذات علاقةٍ وثيقةٍ بمعتقدات البشر، وامتلأت أساطيره بأحاديث الآلهة وأخبار ممالكهم وخوارقهم. - سعى فن مصر الفرعونية لتأكيد فكرة الخلود. في حين أكد فن الهنود وحدة الوجود، وانشغل فن أهل اليابان والصين بجمال الطبيعة: وانشغل الفن الإغريقي بجمال الإنسان وكماله الجسماني، والفن الإسلامي يعلو من شأن التوحيد الإلهي، وينشد الجمال المطلق. فتجريدية الزخرفة الإسلامية، واختزالية رسوم الفراعنة وبساطة كتل تماثيلهم، والاحترام التي توحي به هذه التجريدية وتلك البساطة، تؤكد سمو القيم الروحية التي هدفت هذه الفنون إلى تجسيدها . كان الدين مصدر إلهامٍ للفنِ، وقد أوفى الفن بدينه للدين، فكان خادماً وفياً للمعابد والطقوس والرموز المقدسة. وما أن ترك خدمة الدين راح هائماً ضائعاً، يبحث عمن يعينه ويرعاه، متنقلاً بين رعاية القصور إلى رعاية

أصحاب الأموال، وأخيراً أصبح تحت رعاية أصحاب الفضل من مانحي العطايا.

ب - **صراع الدين مع الفن:** أظهرت الكنيسة في العصور الوسطى العداء للفن بصورةٍ أقل ضراوةً من عدائها للعلم، فكان صراعها مع الفن على جبهة الأخلاق، في ظل اعتقاد أن الفن يهدم الأخلاق، ويهدد المبادئ السامية، والفرق شاسعٌ ما بين صراع الدين مع الفن ذي الأساس الأخلاقي، وصراعه مع العلم حيث الصراع على سلطة المعرفة وكسر احتكار الكنيسة لها، بما يقوض موقف المؤسسة الدينية، ويهدد حقوقها الإلهية، وأدان بعض المسيحيين الأوائل الشعر لارتباطه بوثنية الماضي. يستندون في ذلك لاتهام أفلاطون للشعر ووصفه للشعراء بالكذابين لأنهم يتكلمون عن آلهةٍ وثنية، أي كائنات ليس لها وجود (جان ماري شيفر ١٩٩٦) ويتطابق ما ذكرناه آنفاً، بما حصل عن موقف بعض أهل الدين لدينا من شعر الجاهلية، ونترك هذا للقارئ. ووجهة نظر المذهب البروتستانتي إلى الفن تعكسها مواقف مارتن لوثر المصلح الديني الألماني، وجون كالفان المصلح السويسري من فن الموسيقى، الذي كان شاغل البروتستانتية الأخلاقي، أما المسيحية الناشئة انشغلت بالشعر، وهنا نلجأ إلى كتاب الفيلسوف والموسيقى (جوليوس برتنوي ١٩٧٤)، كان مارتن لوثر يعزف الموسيقى، ويستمتع بالغناء والأناشيد والقداسات، وكان الرجل متساهلاً مع الأغاني الدنيوية، بل أكد على دور الموسيقى في تهذيب سلوك المؤمن، نيعكس تعاليم أسلافه الكاثوليكيين، وحض على أن يحصل كلُ طفلٍ بروتستانتي على تعليمٍ موسيقيٍ، وأسس التراتيل اللوثرية ضمن المؤلفين الموسيقيين، وهو صاحب المقولة الشهيرة: على المعلم أن يغني، وإلا لن يُنْظَرَ في وجهه، ليأتي من بعده كالفان وينقَضُ على تعاليم نظريات مارتن لوثر في الموسيقى، بل امتد واتسع هجومه ليبلغ فن التشكيل، لأنه كان يخشى أن تؤدي هذه الفنون إلى تحويلٍ في أفكار المؤمنين عن الهدف الحقيقي للدين، وراح المتعصبون الدينيون وأعداء البابوية في سويسرا، يهاجمون الكنائس والأديرة، ويحطمون آلات الأرغون، ويمحون رسوم المذابح والجدران، كي لا يخلط

المؤمن بين الرمز التصويري وما يمثله الرمز بالفعل. ونترك للقراء ما يرونه مناسباً من أوجه التشابه، بين ما ذكرناه وما يعلن عنه بعض رجال الدين لدينا من مواقف تجاه الموسيقى والتشكيل.

- الدين والإبداع الفني العربي:

أ - خصومةٌ لا مبرر لها مع ديننا، إنَّ الفن العربي محاصرٌ بسورٍ محكمٍ من الخصومات المفتعلة، ولم يخرج من هذه الدائرة المفتعلة السيئة الذكر إلا فن المعمار، وذلك لكونه فناً عملياً ذا طابعٍ نفعيٍ تفرضه الضرورة الحياتية، ولولا ذلك لأخذ نصيبه من فكر التحريم ودعاوي التكفير، لأن معمارنا ابتعد كثيراً في حداثته المستوردة عن أصوله الإسلامية، ولم نحسم قضايانا الخلافية حول علاقة الدين بالعلم، غير أن مواقف بعض أهل الدين لدينا من الفن أكثر شدةً، وانحسار العلم في وطننا العربي الكبير لا يجعل منه خصماً مثيراً لتيارات الفكر الديني المتطرفة، وهذا ما يجعل الفن متنفسها الوحيد لممارسة صرامتها ورقابتها، ولهذا كله وُجِدَ فننا وحيداً في معركةٍ غير متكافئة، أمام قوى تفوقه عدةً وجماهيريَّةً، بلا سندٍ من علمٍ يؤازره، ومن دون أهمية اقتصاديةٍ تبرره، مثل تلك التي تحظى بها السياحة. ولا يجد الفن من يدافع عنه في معركته المتوحشة، سوى أصواتٌ تأتي خجولةً من بعض المؤسسات الثقافية الرسمية، التي التزمت معظمها بالانضباط في إطار سياسةٍ عامةٍ تتحاشى - ما بوسعها - الصدام مع تياراتٍ دينيةٍ متطرفة، ويزيد من أزمة الفن العربي ضعف المنظمات غير الحكومية، وعزوف الفنان نفسه، عن خوض المعركة على جبهة الفكر الديني المعادي للفن، ويعطي الأولوية لمعركته مع القوى السياسية، مؤثراً السلامة، ومعظم فنانينا لا يجيدون لعبة العمل الجماهيري والإعلامي. وكثيراً ما يؤدي هذا إلى استفزازٍ لا مبرر له، لتتورط في معارك تكتيكيةٍ على حساب المواقف الإستراتيجية، إن عصر المعلومات الذي نعيشه، يتطلب مراجعةً شاملةً لعلاقة ديننا مع الفنون على اختلاف أنواعها وتوجهاتها.

ب - كيف نجدد الدفاع عن الفن؟: إنَّ على خطابنا الثقافي المدافع عن الفن أن يحدد استراتيجياته وتكتيكاته وأولوياته. ولم يغنِ شيئاً أن نردد (إن الله جميلٌ يحب الجمال) وأنَّ ديننا يحتفي بالتنوع الثقافي الخلاق، حيث نزل القرآن على سبعة أحرف، جميعها شافٍ وكافٍ. ولم يعد كافياً ما قيل في مقام تأكيد اختلاف الأدب عن علوم الوسائل، من أنه يدرس لنفسه، والمقصود تذوق الجمال الفني، ودور الفن في عصر المعلومات لم يعد تذوق الجمال، بل هو مصدرٌ من مصادر المعرفة، وله وظيفته التربوية والأخلاقية. ولا بد لنا من مداخل أساسيةٍ لتجديد خطابنا الثقافي بصدد موقف ديننا من الفن: - ما المعرفة الكامنة وراء الفن؟: إن المعرفة مازالت تحظى بتقديرٍ أفضل من قبل تيارات الفكر الديني، وعلى خطابنا الثقافي أن يركز على أنَّ إهمالنا للفن يعني عدم تكامل معرفتنا، وهي أهم موارد عصر المعلومات، وقد يرى بعضنا أن نحسم خلافاتنا بين ديننا وفكرنا، قبل أن نحسم خلافته مع الفن. - إبراز مدخل وحدة الفنون وتكاملها مع العلوم: إن إبراز أهمية هذه الوحدة وذلك التكامل تربوياً وثقافياً واقتصادياً، إن وحدة الفنون لها مفهومٌ أساسيٌ، ذو صلةٍ بتكنولوجيا الوسائط المتعددة، والتي تعد مقوماً أساسياً لاقتحامنا العوالم الرمزية، والفضاء الرمزي المعلوماتي وعوالمها الخائلية. - المدخل الاقتصادي الفني: - وذلك بتوجيه النظر إلى أهمية الفنون في إقامة صناعة ثقافيةٍ عربيةٍ. - إن ثقافتنا تقوم على النص: حيث أساء فهم البعض لهذا المفهوم، إلى إغفال مادون النص، وهو ما يمثل عائقاً أمام عصر المعلومات، التي تلعب فيه الصورة دوراً مهماً. - التوافق بين الدين وفنون وعصرِ المعلومات: وحيث تدنو الفنون من الرمزية، وتميل إلى التعامل مع المجرد وغير المادي. - هل اتسعت وظائف الفن: إن المسرح تربيةٌ، والشعراء أداةٌ لتطوير اللغة، والعمارة لها بعدها الاجتماعي ورنينها السياسي، والأدب ونظريته من ضمن الوسائل الرئيسية لتحليل الخطابات السائدة في المجتمع، وبالتالي فهم أداء المجتمع ككل.

- **الفنُ وسيلةٌ للتربية الأخلاقية:** يصعب علينا استيعاب الجوانب الأخلاقية المتعددة التي يطرحها المتغير المعلوماتي، دون تفهم علاقة العلم والفن مع الأخلاق وبالتالي، ومع ديننا. وبالحقيقة لانسستطيع أن نعيش في عصر المعلومات بأنصاف مخنا، وتحت ظلّ ثنائية ظالمة وفاحشة، لقد جعلنا فكرنا وفننا في خدمة معتقداتنا، وحان الوقت لنجعل من معتقداتنا حافزاً على تجديد فكرنا وفننا.

- **التربية والإبداع الفني الغربي:** لاشك أن تعليم الإبداع أصعب من تعليم التفكير العلمي، ولا يمكن حصره في التعليم الرسمي، بتنظيماته ومناهجه وبطء تجاربه. تحتاج فنون عصر المعلومات ذات الطابع الرمزي الذهني إلى تنمية التوجه عبر التخصصي، وإلى اندماج المعرفتين الفنية والعلمية، وتوثيق علاقتهما كلتيهما بتكنولوجيا المعلومات، وهو يتطلب بيئةً تعليميةً مغايرةً، سواء من حيث تأهيل المدرسين وتقويم أداء الطلبة، أو من حيث موارد المادة التعليمية، أو وسائل الإيضاح السمعية والبصرية وموارد تكنولوجيا التعليم الأخرى.

- **التربية والإبداع الفني العربي:** إن تربية الإبداع الفني لدينا، توازي تربية الإبداع العلمي في أهميتها، إن لم تكن أكثر منها أهميةً، نظراً إلى أن فرصتنا في الإبداع الفني تفوق فرصتنا في الإبداع العلمي، وهذا يتطلب القيام بمهمات عاجلة منها: - إنشاء معاهد متخصصة في فنون الكمبيوتر. - توعية مبدعينا بتطبيقات تكنولوجيا المعلومات، في مجالات الفنون المتنوعة. - ربط المعاهد والمدارس بمراكز الفنون. - إدراج التذوق الفني ضمن مناهج الدراسة في جميع مراحل التعليم. - إحياء المسرح المدرسي وقد ثبت أن المسرح كان وما زال من أهم وسائل التربية (مهدي بندق ١٩٩٩)

- **الإعلام والإبداع الفني الغربي:** يلعب الإعلام الجماهيري دوراً رئيسياً في دعم الإبداع الفني ويشمل: - تنمية الذوق الفني لدى الجماهير. - إلقاء الأضواء على المبدعين من أجل تشجيعهم على مداومة الجهد الإبداعي. - يعد الإعلام منفذاً تسويقياً لإنتاج الإبداع الفني - وَصْلُ ثقافة النخبة مع

ثقافة العامة بهدف الارتقاء بالثقافة العامة وتجعل النخبة أكثر وعياً بمسؤولياتها تجاه جماهيرها. - وأضافت الإنترنيت وسيطاً جديداً لإعلام الفنون، وهو ما يتيح فرصاً عدةً لم تكن متاحةً من قبل، بغرض التذوق الفني، عبر تفاعل المتلقي ايجابياً مع الأعمال الفنية.

- **الإعلام والإبداع الفني العربي:** علاوة على ما طرحناه بخصوص دعم الإعلام للإبداع الفني، هناك مهامٌ إضافيةٌ على إعلامنا العربي القيام بها وهي: - التركيز على ربط الفنون بالعلوم - التصديّ للصراع المفتعل بين ديننا والفنون على أنواعها - تشجيع الإبداع الفني القائم على مزج التراث العربي والإسلامي - إبراز دور الإبداع الفني في صناعة الثقافة، وأهمية هذه الصناعة في عملية التنمية. - تخصيص مساحة إعلامية أكبر لمبدعينا بغية تشجيعهم على المشاركة في عملية التنمية الاجتماعية، ونقد السياسات القائمة، والتصدي لتناقضات الواقع الاجتماعي. - إن علينا أن نستغل تكنولوجيا الوسائط المتعددة في عرض الإنتاج الإبداعي، وتنمية التذوق الفني، وعرض المنتج في سياقاتٍ ثقافيةٍ أوسع.

- منظومة الإبداع الفني:

- **الإطار العام للمنظومة:** يشمل المكونات الرئيسية التالية: - العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإبداع بخارجها. - العناصر الداخلية لمنظومة الإبداع، وتشمل التالي: المبدع - العمل الإبداعي - المتلقي - تراث الإبداع. ونظراً لأن فنون عصر المعلومات ستركز على إعادة توظيف التراث وهذا يعني أن التراث سيصبح وسيطاً بين المبدع وعمله الإبداعي، وقد وضعنا المتلقي على رأس قائمة المنظومة تماشياً مع التوجه نحو محورية المتلقي، والانتقال من جماليات المبدع إلى جماليات المتلقي. - عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، وتشمل: السياسة الثقافية فيما يخص الإبداع الفني. - مؤسسات تعليم وتأهيل المبدعين من معاهدَ فنون، ومراكز متخصصة في فنون الكمبيوتر. - وكذلك المتاحف والمعارض - إضافةً إلى موارد المعلومات اللازمة للإبداع الفني، وتشمل التالي: ذخائر النصوص الأدبية - بنوك الصور والموسيقى، والأرشيف (السمعي – البصري) للتراث الإبداعي.

- العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع الفني الغربي:

أ - **ما علاقة منظومة الإبداع بالمجتمع ككل؟** إن الفنَّ باعثٌ على الحياة، والحياة مجددةٌ للفن، ويقول بودلير إن العالم المحسوس مملوءٌ بالصور والإشارات وقاموسٌ للأشكال، يأخذ الفنان من توافقاتها رنيناً غير متوقع (محمد أركون ١٩٩٣)، وفي المقابل إلى تغيير العالم، ثم يعيد النظام إليه، عندما ينتشر فيه فساد النظم وأهواء السياسة والتجارة، وطيش المغامرين. ويمثل الفنان قرون الاستشعار لمجتمعه، وهو أول من يستشعر قدوم المحن والكوارث الاجتماعية، وهذا غوته يستشعر مدى التناقض العظيم بين التطور الحر والعالمي للإنسان، وبين واقع المجتمع البرجوازي ذاته (نفس المصدر السابق نفسه) كما أدرك بيكاسو وقوع إسبانيا في محنة الفاشية، وقد توقع (شينوا أتشيبي) رِوَاء نيجيريا، انهيار نظام الحكم في بلاده قبل وقوعه بسنوات عدة من وقوعه، والفن يأخذ على عاتقه اعتراضه على تناقضات مجتمعه، فالتشكيل يلجأ إلى التشويه، والمسرح إلى العبث، والأدب إلى ضد الأدب، وتنحني العمارة في وظيفتها والزخرف الشكلية، عندها تتفجر العمارة ساخطةً، تحطم نظم أنساقها كما فعلت الموسيقى سابقا، ويخرج الشعر من سرياليته وغيبوبة رومانتكيته ليقاتل مع ثوار أمريكا اللاتينية، وتكون النتيجة أن يدفع (بابلو نير) ودا حياته ثمناً لذلك. وتختلف طليعة الفنون التي تتصدى للمواجهة المجتمعية من زمنٍ إلى آخر. فكان المسرح في زمن الإغريق هو برلمانهم السياسي، وكان الشعر هو قائدهم بالعاطفة والحكمة، قبل ظهور الفكر والفلسفة، وكانت السينما طليعة فرنسا الثقافية، في فترة الثلاثينات - السينما الشعبية في فرنسا. والفن في عصر المعلومات يأخذ أبعاداً عدةً تنفذ إلى الأعماق، إن كان على مستوى الفن، أو على مستوى المجتمع، وهو يتجلى في التغيرات فيما يخص علاقة الفن بالمنظومة الاقتصادية.

ب - **ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد؟** إن الاقتصاد يضغط بشدة على جميع عناصر منظومة الإبداع: من موسيقى وسينما وتشكيل، (إبداعاً وإنتاجاً وتوزيعاً وتلقياً)، وإن عولمة الثقافة تنمي الطلب على

إبداع ذي طابعٍ استهلاكيٍ، غزير الإنتاج، عن طريق إعادة استخدام مواد إبداعيةٍ تراثية، إن منتجات الإبداع الفني متطابقةٌ مع قائمة منتجات صناعة الثقافة، وشبكة الإنترنيت تطرح نفسها، كبديلٍ مفضلٍ لتوزيع منتجات الإبداع، وخاصةً في مجال الموسيقى، ولأن معظم فنون عصر المعلومات كثيفة التكنولوجيا، أصبحت بحاجةٍ إلى تمويلٍ ضخمٍ، وكاد الفن أن يصبح مؤسسةً مثله مثل العلم. وفي ضوء ذلك على الفنان أن يواجه مصيره، ما بين استقلاليته وحاجته إلى تمويلٍ خارجيٍ، لدعم إنتاجه الإبداعي، وإلا ظل تحت رحمة المشفقين والمحسنين، كما اقترح بعضهم إنشاء (وكالة) لغوث الفنانين، وفقد الأغنياء رعايتهم للفنانين والفن، وأصبحت رعاية الفن فرعاً من فروع العلاقات العامة، والتسويق للشركات العملاقة ولم تعد ثلاثية. المتحف. المعرض. الجاليري. (فيما يخص الفن التشكيلي) هو الهيكل الاقتصادي الأساسي لتسويق منتجاته. إن النمط الاقتصادي السياسي لصناعة السينما في هوليود ينتشر في كلِّ اتجاه، من تعليب سلع الموسيقى، وتوزيعها، إلى تصنيع الفلكلور اليدوي بأسلوب إنتاج الجملة.

ج - **ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة السياسة؟** إن السياسة قد برعت في استخدام الفن لتوجيه وعي جماهيرها، وفرضت الالتزام على الفن، كي لا يبقى في إطار الإيديولوجية السائدة. وسينما ألمانيا النازية وروسيا الستالينية مثالان عن استغلال الفن سياسياً وإيديولوجياً، وموقف حراس الإيديولوجية الستالينية من المصورين التجريديين الروس معروفٌ للناس. وفي ظل العولمة، تتجاوز علاقة الإبداع الفني بالسياسة حدود السياسات الداخلية، ومثالنا على ذلك ما تقوم به الولايات المتحدة من استغلال ثقلها السياسي لحماية إنتاجها الفني عالمياً. من خلال منظمة التجارة العالمية، أو باستخدام وسائل ضغط أخرى سياسية واقتصادية.

د - **ما علاقة منظومة الإبداع بمنظوماته الثقافية الأخرى؟**: إن المزج بين الفنون يشكل المحور الرئيسي لعلاقة منظومة الإبداع بمثيلاتها في الثقافات الأخرى، ويمكن أن تسري هذه العلاقة من خلال المسارات التالية: -

المحور الأكاديمي: ويضم البحوث الخاصة بالفن المقارن، ووضع نظرية عامة للتراث الإنساني - المحور الاقتصادي: يتناول ميزان المدفوعات الرمزي بين الثقافات المختلفة. من يقترض ممن؟ وتتناول الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية المشاعة الخاصة بالفنون الشعبية. - المحور الإبداعي: يضم المحاولات الإبداعية لمزج الإنتاج الفني، والتراث الإبداعي ما بين الثقافات، وتطوير الأساليب التكنولوجية لدعم عمليات المزج الفني.

هـ - ما علاقة منظومة الإبداع بالفئات الاجتماعية؟ يحتاج فن عصر المعلومات إلى توثيق العلاقة بين منظومة الإبداع والفئات الاجتماعية الأخرى، كي تتمكن من استيعاب النقلة النوعية في مجال الإبداع الفني ومثالنا عليه: - الناقد: وهو بحاجة إلى اكتساب المعارف الجديدة المرتبطة بالطابع الرمزي الذهني، وإلى اطلاع كاف بالأبعاد التكنولوجية للفنون، خاصة تكنولوجيا الوسائط المتعددة، إضافةً إلى استخدام الوسائل الكمية في تقويم الإنتاج (الفني. – الإعلامي): وهو بحاجة إلى تأهيل خاص على الطرق الجديدة لعرض الإنتاج الفني، والقائمة على التفاعل ومشاركة الجمهور (المتلقي. – المربي): وهو بحاجة إلى توعيته بأهمية الفنون في التكامل المعرفي، وتربية الأخلاق، وانعكاس ذلك على مواد المناهج ومنهجيات تقديمها.

- العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع العربي:

أ - ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد؟ يواجه الإبداع الفني العربي موقفاً في غاية الصعوبة في المجال الاقتصادي. من حيث التمويل: لا يشكل الإنتاج الإبداعي مجالاً مغرياً للاستثمار العربي، أما على جبهة التوزيع: من المتوقع أن يواجه إبداعنا الفني العربي صعوبات ضارية في تسويقه عالمياً، نظراً لقيود منظمة الجات. وعما قريب سيشهرون في وجوهنا أسلحةً وقياسات نظم الأيزو، وقد يضيفون إليها معاداة السامية والمقاطعة الإسرائيلية، ولا شك أن إنتاجنا السينمائي والتلفزيوني أصبح مهدداً بالانقراض بفعل الاستيراد المتزايد للإنتاج الأجنبي، ولنا أن نواجه ظاهرة الإنتاج الإبداعي الضخم، بتنمية الإنتاج الفني غزير الإبداع، لا كثيف

التكنولوجيا، ومن جهة أخرى، لا يجد مبدعنا الفني من يرعاه إلا من خلال منح هبات التفرغ التي لا تغني من جوع، علما أن الإعلام التليفزيوني قد اقتص من دور الفن كسلاحٍ في يد السلطة، مما جعلها أكثر عزوفاً عن تقديم الدعم المالي إليه، أما متاحفنا فتحتاج إلى تمويلٍ خارجيٍ لتحديثها تكنولوجياً وتنظيمياً. وتحويلها إلى مراكز إشعاعٍ ثقافيٍ، يعيد بناء التاريخ إلكترونيا، ويعرض مخلفات هذا التاريخ، في سياقات معرفيةٍ جديدةٍ أشمل وأعمق.

ب - **ما علاقة منظومة الإبداع بالمنظومة السياسية؟** يمارس الدين كإيدولوجيا ضغوطاً شديدةً على الإبداع العربي، لدرجةٍ تحول بينه وبين قيامه بإحداث النقلة النوعية إلى فنون عصر المعلومات، وما زالت مساهمة مؤسساتنا الثقافية في سياسات التنمية محدودةً للغاية، وفي هذا تناقضٌ جوهريٌ، لأن الثقافة أصبحت محور عملية التنمية. وقياداتنا السياسية بحاجةٍ إلى توعيةٍ بدور الإبداع في اقتصاد مجتمع المعلومات، ليتولد لديها الدافع في تقديم الدعم اللازم.

ج - **ما علاقة منظومة الإبداع بالفئات الاجتماعية؟** لازالت فنون عصر المعلومات غائبةً عن أذهان معظم فئاتنا الاجتماعية، حتى على مستوى النخبة ونقادنا لازالوا أسرَى الجماليات التقليدية، وغير مدركين لانعكاسات الإنترنيت على عملية الإبداع الفني. أما التربويون قد ترسخت لديهم مفاهيم خاطئة عن مفاهيم الفن، وهو ما يحتاج إلى نوع من التربية العلاجية لشفائهم من هذا الداء المعرفي (الخبيث)، وعلى إعلاميّنا أن يتصدوا للهجمة الشرسة، التي تشنها الإيدولوجيا الدينية على منظومة إبداعنا الفني، وأن يُحَدِّثوا وسائلَ دفاعهم عن الفن وفقاً لما سبق. وأن يكونوا على قدرٍ عالٍ من المسؤولية.

- **المبدع الفني الغربي:**

أ - **المبدع الفني ضمير مجتمعه:** وهو رمز إرادته، والشاهد على عصره، والمعبر عن ثقافته، والمتكلم باسم جماعته، وتغير دوره عبر العصور، من خادمٍ للقصور إلى مناضلٍ ثوريٍ يطالب بسقوط عروشها، من ناقشٍ للأحجار

وعازفٍ للألحان، إلى مجمّلٍ للأسقف والجدران، إلى الباعث على الأفكار الحاث على التعبير وموقظ الهمم، ولم تعد عملية الإبداع كما يقول (جار ودي) مجرد انفعالٍ وأوهامٍ، بل عمليةً واعيةً، الهدف منها خلق صورةٍ جديدةٍ للواقع، إن مهمة المبدع الفني أن ينجز فنا يساهم في صنع المعرفة، يفجر الطاقة الخلاقة لدى متلقيه، يعاونه في إدراك حقائق واقعه، ويدعوه للمساهمة في العملية الإبداعية، ويستحثه للدخول في العمل الجماعي والنضالي، ويأتي عصر المعلومات وعولمته، ليلقي أعباء إضافية على كاهل المبدع الفني، وأصبح فضح السلطة وأساليبها في استخدام الأسلحة الرمزية، والكشف عن أشكال جديدة لاستغلال الإنسان معلوماتياً وإعلامياً، يضاف إلى ما ذكر من ضرورة مساهمته في الدعوة إلى ثقافة السلام والمشاركة في صياغتها، والاحتفاء بالتنوع الثقافي الخلاق، والمحافظة على تراث ثقافته وتراث الإنسانية كلها، والمشاركة في التجارب الفنية لمزج التراث الإبداعي عبر الثقافات والحضارات. ومع صعوبة التنبؤ في عصر المعلومات، وعجز البصيرة العلمية عن تصور المستقبل القريب، تبرز أهمية دور الإبداع الفني في توقع هذا المستقبل، ومن خلال طرقه المبتكرة، للوصول إلى الحقائق مباشرةً، يمكن للإبداع الفني أن ينفذ ببصيرته مخترقاً ضباب الاحتمالات مستخلصاً الغايات، من شواش الظواهر ومتاهة الرؤى المتضاربة.

ب - ما التحديات التي تواجه المبدع الفني؟ تنتظر المبدع الفني تحدياتٌ كبيرةٌ في ظل المتغير المعلوماتي، فيما يتعلق بإنتاج العمل الإبداعي، أو علاقته بمتلقيه ومموليه، فعلى مستوى الإنتاج الإبداعي، على الفنان تأهيل نفسه معرفياً ومعلوماتياً، تلبيةً لفنون عصر المعلومات ذات الطابع الذهني. وعلى إبداعه أن يبحث عن الجديد دوما، كي يبقى متقدماً على هذه التكنولوجيا ذات القدرة الفائقة على إعادة إنتاج ما سبق من إبداع. وفيما يخص دعوة متلقيه إلى المشاركة في العملية الإبداعية، على الفنان أن يتوارى عمداً إلى الخلف جاعلاً من عمله الإبداعيِ هذا مصدرَ جذبٍ للمتلقي، يدعوه إلى أن يتفاعل معه ويضيف إليه. ونظراً لسرعة إيقاع عصر المعلومات، لن تكون لدى

المبدع رفاهية الوقت ليؤجل تجاويه مع الأحداث الجارية، كي تنضج وتترسخ، وبات عليه أن ينصب هوائياته الحساسة لتقف على أهبة الاستعداد، لالتقاط ما يجب التقاطه، قبل أن يضيع في خضم الحياة الهادرة في عصر المعلومات.

ج - ما علاقة المبدع الفني بتكنولوجيا المعلومات؟ - يمكننا النظر بعلاقة تكنولوجيا المعلومات بالمبدع الفني، من عدة جوانب وهي: إنَّ تكنولوجيا المعلومات يمكن أن تكون لزيادة إنتاج المبدع، حيث توفر له العديد من الأدوات لإعداد عمله ومساعدته في اختياره وإخراجه، ومثالنا على ذلك: توفر المعلوماتية للمؤلف الموسيقي نُظُمَاً آليةً لتحرير النوتة الموسيقية، واكتشاف أخطائها، بل يمكن للكمبيوتر من خلال مولدات الموسيقى الإلكترونية أن يصاحب المبدع الموسيقي أولاً بأول، أثناء وضعه لمؤلفه، يعزف معه ألحانه فور انتهائه من تحريرها، مما يكسب عملية الإبداع طابعاً تفاعلياً ديناميأ. - يمكن أن نعتبر تكنولوجيا المعلومات كبديلٍ للمبدع الفني، تسعى نظم الذكاء الاصطناعي إلى محاكاة صميم عملية الإبداع ذاتها، وهناك محاولاتٌ لأخذ خصائص أسلوب الفنان التشكيلي من قلب لوحاته، ثم برمجة هذا الأسلوب لينتج أعمالاً تشكيليةً تحاكي الأسلوب نفسه، وتمثل عملية إنتاج هذا العمل الإبداعي في نظرنا تهديداً مباشراً للفنان، وبعضهم الآخر يرى فيها فرصةً لتخليد اسمه إذ سمحت بمداومة إنتاج أعمالٍ فنيّة بأسلوبه نفسه بعد مماته. - إن تكنولوجيا المعلومات وسيطٌ بين المبدع الفني، وعلمه الإبداعي، ولتوضيح هذه الفكرة نذكر ما قاله فيكتور فازاريلي، (عبقري التجريد الهندسي المجري): عن سر إبداعه فيقول: (أنا لا أرسم لكني أصنع معادلة اللوحة) تمثل مقولة فناننا المجري الغاية القصوى التي يصبو إليها الفن الذهني لتحقيقها، ونعني بذلك أن ترقى عملية الإبداع الفني إلى مستوى الذهنية الخالصة، حيث ينفصل المبدع عن الصورة النهائية لعمله الإبداعي، لتصبح مهمته في النهاية محصورةً في توصيف برنامج الكمبيوتر الذي يولد اللوحة أو التمثال، أو القطعة الموسيقية. - إن تكنولوجيا المعلومات وسيلةٌ لنشر العمل الإبداعي عبر الإنترنيت أو أقراص السي - دي.

- ما دور المبدع الفني العربي؟: إن مبدعنا الفني العربي، يمارس عمله المضني في جوٍّ خانقٍ للإبداع، غير محتفٍ به، حائراً بين تراث ثقافته وتراث عصره، وما بين متطلبات إنتاجه، ومطالب أمنه وحياته. غير أن هذا لا يعفيه من مهامه العاجلة، التي يفرضها عليه المتغير المعلوماتي والتي تشمل التالي: - أن يكتسب المبدع المهارات اللازمة لاستخدام تكنولوجيا المعلومات في مجال تخصصه - أن يبحث عن إنتاجٍ فنيٍّ كثيفِ الإبداع، لا كثيف التكنولوجيا، لعدم توافر مصادر التمويل أو الوسائل التكنولوجية. أن يحدث عتاده المعرفي تلبيةً لمطالب فنون عصر المعلومات ذات الطابع الذهني - أن يعمل لمواجهة محاولات نهب موارد التراث الفني، سواءً كان من الداخل أو الخارج، فهي رصيدنا الاستراتيجي لإبداعنا الفني. - أن يعمل لبلورة دور الإبداع الفني في مواجهة الغزو الثقافي المصاحب لظاهرة العولمة. - أن يعمل على استعادة دوره، وجمهوره الذي سلبته منه أجهزة الإعلام الجماهيري. - أن يعمل على الفور في التجارب الفنية في استخدام تكنولوجيا الواقع الخائلي.

- **العمل الإبداعي الفني الغربي**: يتسم العمل الإبداعي لفنون عصر المعلومات بالسمات التالية: - التوجه الذهني: يكشف لنا فن عصر المعلومات عما كشف عنه فيثاغورث بخصوص تناغم أنساق الأرقام، والفنُّ تواقٌ إلى استكمال المسيرة، التي بدأها فنانون عظام، مثل: (سيزان وبيكاسو وإم سي ايشر) في فن التشكيل، (وباخ وهندل وتيليمان) في فن الموسيقى، وقدم لنا (ألبرتو ايكو) تجربة رائعة الدلالة. ونحن في لهفة ننتظر فناً ينفذ إلى الجمال المستتر وراء المعادلات والمفاهيم، والثنائيات والمتتاليات والسلاسل الرمزية، يظهر لنا مغزى الجمال في التقاء الأفكار والمفاهيم، وحوار النظري مع العملي، ويجسد ما يعنيه الفرق بين محدودية البنى المعرفية ورحابتها، وإن ذهنية الفن تختلف اختلافاً جوهرياً عن ذهنية العمل، لأن الفن الذهني لا يحض على الفهم، بل يحضر الذهن لتوقع المستقبل، ولا جدال بأن العالم الخائلي هو البيئة النموذجية لممارسة الفنون الذهنية، حيث يتحرر المبدع من

جميع القيود. - التوجه التفاعلي الدينامي: هو الذي يعطي المتلقي فرصة التحكم في العمل الإبداعي، كأن يغير من إيقاع الموسيقى أو من باليته في الألوان المستخدمة في العمل التشكيلي، أو من نسب المنحوتات وأوضاعها. لم يعد هدف العمل الفني مجرد التذوق أو التأويل أو إثارة المشاعر الوجدانية فالهدف منه هو المشاركة، وبكلمة موجزة، يكمن في قدرته على التوليد والتغير الدينامي، لاحسه على التأويل، وإثارة الحس الوجداني. - التوجه المزجي: يمزج بين أنساق الفنون المختلفة، وبين التراث الفني عبر الثقافات والحضارات، وقابلية المزج هي أحد الشروط الأساسية لفنون عصر المعلومات، وأي عمل فني يفقد هذه الخاصية مآله للاندثار، إن مبدع عصر المعلومات يقدم عمله الإبداعي على هيئة شظايا قابلة للاندماج مع شظايا غيرها، ولم تعد مسؤوليته تقديم عمله في صورة فنية نهائية مكتملة، في صورة كتاب، أو فيلم، أو مقطوعة موسيقية، كما كان عليه في الماضي. وإنّ الفن المزجي هو أمضى الوسائل في إقامة الحوار بين ثقافات الشعوب والتمهيد لثقافة السلام.

- **التوجه الخائلي**: يتجه العمل الفني صوب التخلص من المادية، فيرسم الفنان التشكيلي في فراغ ثلاثي الأبعاد، ويؤلف المبدع بالموسيقى بلا آلات، وتعزف الموسيقى بلا عازفين، وينحت النحات بلا مواد، ومن جانب آخر، نحتاج إلى سينما وثائقية جديدة لا تسجل الواقع المادي الفعلي بل تسجل ما يجري في عوالم الفضاء الرمزي، وما يجري بها من أحداث، هي عرضة للضياع بسبب فورية الإعلام، وتدفق المعلومات بصورة يصعب ملاحقتها. - التوجه صوب سقوط الحواجز بين أجناس الفنون: تتهاوى الحواجز تدريجياً بين أنواع الفنون بفعل التوجه المعرفي الذي يعمل على زيادة تجريبها، والتقارب فيما بينها، فمن المتوقع أن يقترب الرسم ثلاثي الأبعاد من فن النحت، وأن تعمل موسيقية الشعر على تكثيف الحوار بين الشعر والموسيقى، وأن تضيق المسافة الفاصلة بين الأدب والمسرح، وفي الوقت نفسه، الذي

تقارب فيه أدائية المسرح، بينه وبين فن الرقص، إن فنون عصر المعلومات تتميز بدرجةٍ عاليةٍ من السيولة، يصعب الفصل فيها بين ما يجري في دنيا العالم الحقيقي، وما تزخر به عوالم الرمز الخائلية، وواقعية العالم الخائلي وسرياليته. - التوجه غير الخطي: يطرح الفن جانب سردية الرواية البلزاكية، ومسرحية الحبكة الأرسطية، وخطية النغم، في سبيل إنتاج فنٍ يقيم من أبجديات شظايا النصوص والحوار والمشاهد وتنافرات النغم، يوفر للمتلقي مداخل عديدةً، لإعادة البناء الرمزي في صورٍ لانهائيةٍ غير محددةٍ، وفنُ عصر المعلومات سينتج أعمالاً فنيةً لا بداياتٍ لها أو نهاياتٍ محددةٍ، ورواياتٍ تفاعليةٍ متعددة المسارات وأفلاماً متعددة النهايات.

- **العمل الفني الإبداعي العربي:** إذا كان فنُ عصر المعلومات كثيف التكنولوجيا هذا لا يعني عدم قدرة المبدع العربي إيجاد أعمالٍ فنيةٍ أقل استخداماً للتكنولوجيا، وهي لا تقل عنها روعة وإبداعا. وعندما لم تكن التكنولوجيا متاحةً للشرق كاليابان والصين، أبدع فنانوهم فناً رمزياً راقياً، استلهمه بيكاسو نفسه من أجل انتشال فن التشكيل الغربي من انطباعيته، والارتقاء به إلى مستوى الإدراك الذهني، لا الحسي فقط، وهذه موسيقى الراي الجزائرية وموسيقى الصلصا الكوبية تشق طريقها إلى الموسيقى العالمية. وإنّ اكتساب أدبنا العربي طابع العالمية يجعله يساهم في حوارنا الثقافي مع الغير، وهو يتطلب الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية، وكما قيل عملٌ غيرُ مترجمٍ عملٌ غيرُ مكتملٍ.

- **المتلقي العربي:**

أ - **هل يعني فنٌ جديدٌ متلقٍ جديد؟:** افترضت فنون ما قبل عصر المعلومات متلقياً سلبياً يستمع إلى الموسيقى، ويصغي إلى الشعر ويشاهد الأشكال، ويدور حول المنحوتات، فتعاملت فنون الماضي مع حواس المتلقي، فركزت الانطباعية على خداع البصر، وركز علم الجمال على عمليات الإدراك البصري والسمعي، وركزت السريالية على المبدع فقط وأغفلت

المتلقي، وانشغلت بما يدور في لاوعي المبدع إلى دنيا الظاهر. لقد حاول بعض المبدعين في الماضي محاولة الاشتباك مع عقل المتلقي، وحثه على إعمال الذهن فيما يسمعه أو فيما يشاهده. وبقيت هذه المبادرات دون مستوى الحد الأدنى من التفاعل الذهني. تسعى فنون عصر المعلومات إلى مخاطبة عقل المتلقي بصورةٍ سافرة، وهذه الاستثارة العقلية هي نقطة البدء في رحلة طويلة، من أجل تحويل المتلقي السلبي إلى متأملٍ عقليٍ، ثم متفاعلٍ ايجابيٍ، فمبدعٍ مشاركٍ، لعله يستقل بنفسه كمبدعٍ مكتملٍ - أصبح لكل فنٍ نسخته التفاعلية، فهناك موسيقى تفاعليةٌ، وسينما تفاعليةٌ، ورواية تفاعليةٌ، ومسرحٌ تفاعليٌ، وشعرٌ تفاعليٌ، ورقصٌ تفاعليٌ، إن فن عصر المعلومات، يفتح ذراعيه للمتلقي كي يتفاعل معه، يدعوه ليحرك المنحوتات ويتحاور مع الشاعر، ويتحكم في إيقاع الموسيقى، ويرقص مع الراقص، ويشارك الممثل أداءه، ويعيد تشكيل فراغات المعمار.

- بين المتلقي وتكنولوجيا المعلومات: أصبح المتلقي مثله مثل المبدع، بحاجةٍ إلى دعمٍ من تكنولوجيا المعلومات في جوانبَ منها: - تنمية ذائقته الفنية بتوفير الخلفية المعرفية اللازمة لتذوق الفنون. - عرض الأعمال الإبداعية في سياقاتٍ أشمل، كأن نعرض أعمال بيكاسو التكعيبية التحليلية، مقرونةً بأعمال براك شريكه بهذه المدرسة الفنية، وأعمال سيزان التي خرجتْ من ثنايا فن هذه المدرسة. لنتطرق بعدها إلى التوجه التحليلي للعلم الذي كان من ورائها، وربما إلى أثر الفن التكعيبي على تصميمات الديكور والأزياء والتصميم الصناعي.

- المتلقي العربي: لاشك أن المتلقي العربي تعاونتْ كل العوامل الاقتصادية والتربوية مع وسائل الإعلام وطابعه الدعائي الاستهلاكي في محاصرة تذوقه في دائرةٍ صغيرة، فضمر تذوقه الفني، واستُبْعدَت فيه معظم مجالات الفن الرفيع، وحتى على مستويات الطبقات القادرة، شأن المتلقي العربي في ذلك كمعظم الأمور المتعلقة بتأهيل الإنسان ثقافياً، إن عملية تذوقه الفني تحتاج

إلى جهدٍ مضاعفٍ على مستويين: علاجي وتحديثي، نلخص فيما يلي أهم خصائص عصر المعلومات مقرونةً بعوائق تذوقه من منظور المتلقي العربي والفرص المتاحة للعلاج أمامه: - التوجه الذهني: ويعتبر أهم عائقٍ في تذوقه، - نقص الثقافة العلمية - وضعف المهارات الذهنية، - وغياب مفهوم التكامل المعرفي، الذي ينهض عليه الفن الذهني لعصر المعلومات، - ولازال المبدع العربي يفتقد إلى الوسائل التي تساعده على نقل رسالته الفنية بصورةٍ مؤثرة، ونحن بأمس الحاجة إلى عمل نماذج للفن الذهني ذات طابعٍ تعليميٍ، باستخدام الوسائط المعقدة، بهدف تقديم المعرفة بطريقةٍ أكثر وضوحاً ومباشرةً، ونقل المتلقي إلى مرحلةٍ يستطيع فيها استيعاب المستويات الأعقد للفن الرمزي، ولا بد هنا من خلق نوعيةٍ جديدةٍ من النقاد الفنيين القادرين على تنمية وعي جماهيرهم جمالياً ومعرفياً، وقد يؤدي الفن الذهني إلى اتساع الهوة ما بين فنون النخبة وفنون العامة، الأمر الذي يتطلب إنتاج أعمال فنية تلبي المستويات الذهنية المختلفة، فلكلٍّ فئةٍ اجتماعيةٍ فنها الذهني، ويمكن استخدام تكنولوجيا المعلومات والإنترنيت بمساعدة المتلقي العربي على بناء مكتبته الفنية، والتي لابد أن تشمل إلى جانب الأعمال الفنية ذاتها، موارد المعلومات اللازمة لتذوقها . - التوجه التفاعلي: وأهم عائق أمامه هو النزعة السلبية المترسخة، وما أدت إليه من عزوفٍ عن المشاركة، يحتاج ذلك من مبدعنا الفني إلى استحداث طرقٍ مبتكرةٍ سهلة الاستخدام من أجل كسر رهبة التكنولوجيا عند متلقيه، وتشجيعه على التفاعل مع العمل الإبداعي، كأن يتضمن جانباً إرشادياً في صورة نماذج إيضاحيةٍ عن طرق التفاعل مع العمل الفني، أو جولةٍ مخططةٍ، يقوم خلالها المتلقي باستعراض الجوانب المختلفة للعمل الفني التفاعلي، تحت توجيه العمل الفني، دون تفاعلٍ من جانب المتلقي أو بأقل قدر منه.

- التوجه المزجي: لقد اعتاد المتلقي العربي على أجناسٍ فنيّة، تعامل معها بمحدوديتها، وهذا ما يحد من نطاق المزج المتاح أمام المبدع العربي ويجب الا

يمنع ذلك من إبداعٍ مزجيٍ باستخدام المتاح من أنساق الرموز، كالمزج بين الشعر والزخرفة العربية، ومقامات الموسيقى العربية، أو بين الأدب والمعمار الإسلامي والغناء العربي، فأمام المبدع العربي فرصةٌ نادرةٌ لاستخدام الفن المزجي ل (تسريب) أجناسٍ فنيةٍ جديدةٍ لم يعتدها المتلقي العربي من قبل. والمزج الفني هذا لن يقتصر على المزج ما بين تراثنا وإنتاجنا الإبداعي فقط، بل لا بد أن يتجاوز فنون الثقافات والحضارات الأخرى، وهو لابد أن يحدث دون أن يفقد المتلقي العربي اعتزازه بمكانة ثقافته، في خضم الثقافات الأخرى الممتزجة المتنافسة.

– **تراث الإبداع الغربي:** إن تراث الفنون أصبح من أهم موارد الإبداع في تكنولوجيا المعلومات ذات القدرة الفائقة التجدد وإعادة الإنتاج والتوظيف، وذلك بفضل تكنولوجيا الوسائط المتعددة. وتتفاوت أجناس الفنون من حيث قدرتها على استغلال الموارد التراثية، بينما بنى المسرح مجده على إعادة توظيف التراث، نجد أن استغلال السينما للتراث سيبقى محدوداً في الوقت الحالي، لكونها فناً حديثاً، وكل هذا لم يمنع من ظهور بعض المحاولات الجادة لإخراج أفلام قديمةٍ في ثوبٍ جديدٍ. ولا يعني لجوء الفن إلى التراث أنه فنٌ تقليديٌ مقلدٌ، والفن الطليعي يمكن أن يكون تراثياً، وليست هذه المقولة صادقةً بقدر ما هي عليه الآن لفنون عصر المعلومات، التي راحت تفتش وتنقب في كل موضع عن مناهل الإبداع، لتخرجه من أزمته الحالية، وتتيح له استغلال الإمكانات الهائلة التي توفرها تكنولوجيا المعلومات، ولا يعني استخدام التراث التقليد أو النقل الميكانيكي أو كولاج القص واللصق، إن إعادة توظيف التراث إبداعياً لاتتم إلا بتقطير هذا التراث لنستخلص رحيقه المعرفي، ونكشف عن مواضع روعته ومصادر أصالته، إن الغاية من هذا كله الوصول إلى لغة تراثيةٍ عالميةٍ على مستوى التجريد، يسمح بانصهار الفنون ووحدتها وتكامل معرفتها، عندها فقط يحق لنا الحديث عن حوار الثقافات على مستوى الإبداع الفني.

أ - **المستوى الأول:** على المبدع استخدام تراث ثقافته في نطاق تخصصه الفني ومثالنا على ذلك: ما قام به (نجيب محفوظ) بالعودة لتاريخه الفرعوني، (وكازانتزا كي) لأساطير أهل الإغريق، (وماركيز) للتراث الشعبي لقرى أمريكا اللاتينية.

ب - **المستوى الثاني:** استخدام المبدع للتراث العالمي في مجال تخصصه، ومثالنا على ذلك ما قام به (جيمس جويس)، في إعادة توظيف الأسطورة الإغريقية.

ج - **المستوى الثالث:** استخدام المبدع الفني تراث الثقافات المختلفة في مجال تخصصه، ومثالنا عليه ما قام به بيكاسو الذي أعاد الصلة أولاً بالفن الروماني المسيحي، والفن البيزنطي في إسبانيا، الذي أورثه إياه الجر يكو بجدارياته. وتوغل بيكاسو في متحف السلالة البشرية، وراح يمتص من تراث القبائل الأسترالية والإفريقية والقبائل الأمريكية، قبل كولومبس. (روجي جار ودي ١٩٩٨) د - المستوى الرابع: حيث يقوم المبدع بتجاوز نطاق تخصصه الفني وكذلك نطاق تراثه، ومثالنا على ذلك: الشاعر (سان جون بيرس) وأراد هذا الشاعر التشيكي العظيم أن تنبثق من كلمات شعره، حضارةٌ مثاليةٌ جديدةٌ نابعةٌ من كل عهود التاريخ الرائعة، حضارةٌ تعكس كل تاريخ الإنسان، وكل مكتسباته ومآثره، وكل أبعاد العظمة الإنسانية. وتحقيقاً لهدفه راح بيرس ينقب في كل المأثورات والأديان، وفي كل الطقوس والأساطير، وفي كل مؤسسات الإنسان وحضارته، وجمع بين أطراف هذه المسيرة البطولية في ملحمة واحدة: عن آثارها وعن معالم ماضيها التليد. (نفس المصدر السابق نفسه) وكل هذه المستويات تفجر في المبدع طاقات إبداعية غير محدودة، لا يمكن إخضاعها لأي فرعٍ من فروع التصنيف والتقنين. وليست تصنيفاً تراتبياً في درجة الإبداع الفني.

- **تراثنا الإبداعي العربي:** تراثنا من أهم مواردنا الرمزية الإبداعية ولنا أن نقوم بأرشفته وتحليله، ورقمنته، وربطه بالسياق الثقافي الحضاري

الأشمل، وضرورة حمايته من الاندثار، ضد محاولات النهب والسرقة والتشويه، (وما أكثرها) وأساليبها الإلكترونية اليوم.

أ - **بين مبدعنا العربي والتراث:** من أبرز الأمثلة وأروعها ما قامت به عبقرية المعمار العراقية زهاء حديد)، وبناياتها التي تبدو معلقةً في الهواء، فوصفوا بناءها بالبساط السحري وهو وصفٌ لا يروق لها، بسبب كونه يركز على النواحي الشكلية لقد نَفَذَتْ (زهاء حديد) ببصيرتها المعمارية وخلفيتها في دراسة الرياضيات إلى المعاني المجردة للعمارة العربية الإسلامية، وربطت بين سخاء الطبيع، والفطرة الإنسانية، بين سخاء المكان ورحابته، فقد استخلصت زهاء حديد من تراث العمارة الإسلامية أبجديةً خاصةً بها، يتحاور من خلالها فناء الدار المنفتح مع الهواء الطلق، والغرف المنغلقة مع المساحات المفتوحة، وأخرجت زهاء حديد العمارة الحديثة من رتابتها وبرودة وظيفتها، لترد لها رونقها، وجمالها وروحانياتها (عارف محمد ١٩٩٩) إن زهاء حديد مزجت تراث العمارة عبر الثقافات المختلفة، في رائعتها بصورةٍ يتعذر معها أن تحدد ما هو سومريٌ، وما هو بابليٌ، أو عربيٌ، أو إسلاميٌ، وما هو من عمارة الحداثة العالمية. وفي مجال الموسيقى. يعد (أبو بكر خيرت) ممثلا لتيار القومية الواعية حيث استعان بالتراث الشعبي والألحان الشائعة. مثل إبداع السيد درويش ووضعها في قالب سيمفوني أوركسترا لي.

ب - **بين المبدع العالمي وتراثنا الإبداعي:** إن تراثنا الإبداعي تجاوز حدود بلادنا، وخاصة في مجال العمارة والخط العربي والزخرفة العربية، فنرى (ما تيس) يستخدم موتيفات الخط العربي، (وفازا ريلي) يستلهم الزخرفة العربية، في حين يحاكي معمار مدينة البندقية والمعمار الإسباني الحديث سمات العمارة الإسلامية. وإن لجوء المبدع العالمي إلى تراثنا الإبداعي سيتزايد مع حركة العولمة ومحاولتهم التخلص من المركزية الأوروبية.

ج - **لماذا أهملنا تراثنا الإبداعي؟:** ساهمنا جميعاً في إهدار تراث إبداعنا العربي من تراث عمارة الفاطميين إلى مقامات الموسيقى وأرشيف السينما.

وما بعثرناه من تراث وثائقنا الدينية وغير الدينية. ولا وجود عندنا لمتحف للمسرح أو للتراث الفلكلوري. ويدل على ذلك متاحف باريس وبرلين ولندن، وتعاونت فوضى أرشيف المحفوظات، والمياه الجوفية، والمحروقات، والحرائق. وإضرام النار عمداً بهدف تغطية السرقات، واجتمعت كل هذه المؤثرات مجتمعة ومنفردةً لتهدد تراثنا الثقافي بالاندثار، وهناك جهودٌ قامت بها مؤسساتٌ حكوميةٌ في إقامة أرشيف مزودٍ بأحدث الوسائل الإلكترونية لحفظ الوثائق، وترميمها، واسترجاعها عند اللزوم، وما قامت به دار الكتب المصرية، من جهود لصيانة وثائقها، وأقامت بعض البلدان العربية أرشيفاتٍ للسينما، وبالحقيقة يبقى أرشيف السينما مهدداً لأن مادة السليولوز لها عمرها الافتراضي، مما يدعو إلى إعادة تسجيلها، وتسعى مصر اليوم لأرشفة تراث السينما إلكترونياً ورقمياً، ولا شك أن التليفزيون يسعى إلى إنعاش تراثنا السينمائي، ويؤكد البعض على ضرورة أن يشمل أرشفة السينما بجانب الأفلام، الدراسات النقدية وسير النجوم والمخرجين، وتسجيلات المهرجانات السينمائية.

المراجع

- أحمد . عطية أحمد . مناهج البحث في التربية . وعلم النفس . الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٩)
- إمام السيد تحليلات جاكبسون الشعرية . دار سما للنشر القاهرة ٢٠٠٠ .
- أحمد . عاطف . نقد العقل العربي . قراءة في التكوين والبنية . في قضايا فكرية للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٩٥ .
- أبو المجد . أحمد كمال : حول ندوة الحوار القومي الديني . في الحوار القومي الديني / مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٩ .
- أمدي . هابت : دور الإعلام في العالم الثالث نظام الإعلام المقارن . الدار الدولية للنشر . القاهرة ١٩٩١) .
- أبو زيد نصر حامد : نقد الخطاب الديني (ط: ٢ سيفا للنشر) .
- إبراهيم حيدر : إشكالية الأصولية في الوطن العربي في (العولمة / مركز البحوث العربية . القاهرة ١٩٩٩)
- أركون . محمد : ت : هاشم صالح : تاريخية الفكر العربي الإسلامي / بيروت ١٩٩٨)
- أركون . محمد : ت : هاشم صالح . أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ . دار الساقي بيروت ١٩٩٣)
- أمين . سمير : مناخ العصر . سينا للنشر القاهرة ١٩٩٩)
- البشري . طارق . حول العروبة والإسلام في الحوار القومي الديني مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٩
- البنا . جمال : الإسلام دين العالمية لا العولمة / . الدار القومية العربية . القاهرة ١٩٩٩)
- أندرو . دادلي : ت : جرجس فؤاد الرشيدي : نظريات الفيلم الكبرى / . الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٧)
- بوبر . كارل . ت : أحمد مستجير . بحثا عن عالم أفضل / . الهيئة العامة المصرية للكتاب . القاهرة . ١٩٩٩
- بندق . مهدي : المسرح وتحولات العقل العربي . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٩٨)
- برتتوي . جوليوس : ت : فؤاد زكريا . الفيلسوف والموسيقى . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٤)
- بدران . شبل : التربية والإيديولوجية الدار البيضاء . ١٩٩١)
- بورجا . فرانسوا . ت : لورين ذكرى : الإسلام السياسي . القاهرة ١٩٩٢)

- ثالوث، رويرت. التفكير المستقيم والتفكير الأعوج. ت: حسن سعيد الكرمي. عالم المعرفة ١٩٧٩ . الكويت
- بريغومين وستنجر. نظام ينتج عن الشواش. ت: طاهر بديع شاهين. وزارة الثقافة. ٢٠٠٨)
- تومبكنز جين ب. مدخل إلى نقد استجابة القارئ في نقد استجابة القارئ. من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية تحرير: جين ب. تومبكنز ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة ١٩٩٩)
- توفلر. ألفين. صدمة المستقبل. المتغيرات في عالم الغد ت: محمد علي ناصيف نهضة مصر ١٩٩٠)
- تايلور. فيليب. ت: سامي خشبة قصف العقول. المجلس الوطني للثقافة والفنون والتربية والآداب. عالم المعرفة. عدد ٢٥٦ . ٢٠٠٠)
- الترابي، حسن: الإسلام. الديمقراطية. الدولة. الغرب. دار الجديد بيروت ١٩٩٥)
- التوي جري. عبد العزيز. عثمان. آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب اسيسكو سلا المملكة المغربية ١٩٩٧
- الجابري. محمد عابد . إشكاليات الفكر العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٨٩
- الجابري، محمد عابد الجابري.: بنية العقل العربي. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٧
- الجابري، محمد عابد. الديمقراطية وحقوق الإنسان ٢٠٠٤ . ط: ٣ مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
- جار ودي. روجي: واقعية بلا ضفاف. الهيئة العامة المصرية للكتاب. القاهرة ١٩٩٨)
- الجاد رجي. رفعت. إشكالية العمارة والتنظير البنيوي. عالم الفكر. الكويت ١٩٨٩؛)
- حماد. محمود. طبيعة الإعلام الإسلامي بين المكونات الذاتية والوافدة والواقع في وسائل الاتصال الحديثة اسيسكو سلا. المملكة المغربي ١٩٩٦
- حنفي، حسن الفكر العربي المعاصر، الجذور والثمار. في قضايا فكرية قضايا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥
حنا، نيللي: اللغة العامية وأنماط التحديث، قضيا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٩)
- الحمد. تركي. الثقافة العربية أمام تحديات التغيير. دار الساقي. بيروت ١٩٩٣
- الحمد. تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة دار الساقي بيروت ١٩٩٩)
- الخولي، أسامة أمين. الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية. العرب والتربية. العصر الجديد. الكتاب السنوي /١٣ الكويت ١٩٩٧ - ١٩٩٨)

- الخميسي. فتحي: سقوط المفردات الموسيقية العربية (المقامات) عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٩٨)
- الخولي. يمنى طريف. القطيعة المعرفية والفكر العربي المعاصر في قضايا فكرية قضايا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥
- الخولي. أسامة أمين. الثقافة العلمية في الوطن العربي: هل من جديد في مستقبل الثقافة العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس ١٩٩٨
- الخفاجي. عصام. ملاحظات حوا العولمة والدولة القومية (مركز البحوث العربية القاهرة ١٩٩٩
- الخطاب. أحمد. الصفات التي يجب أن تتسم بها التربية للاستجابة لمتطلبات المجتمع في القرن الحادي والعشرين. مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الوطن العربي العدد: ٣٥ ١٩٨٩
- خليل. حامد. مستقبل العلاقات الثقافية والاجتماعية العربية. شؤون عربية. العدد٩٣ - ١٩٩٨
- الخولي. يمنى. فلسفة العلم في القرن العشرين. العدد: ٢٦٤. عالم المعرفة: ٢٠٠٠
- الأخضر. العفيف. ضرورة تدمي العوائق الفكرية التقليدية. السحرية المعرفية في قضايا فكرية. قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥
- الأخضر. العفيف. ضرورة تدمير عوائق الفكر النقليدي السحري. المعرفية في قضايا فكرية. للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩
- خشبة. سامي. مصطلحات فكرية. المكتبة الأكاديمية القاهرة ١٩٩٤
- دياب. عز الدين. الشخصية والثقافة. شؤون عربية العدد ٤ (١٩٩٨)
- الدجني. أحمد صدقي. عن العروبة والإسلام وقضايا المستقبل. في الحوار القومي الديني مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩
- رضا. محمد جواد. العرب والتربية والحضارة. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٨٧
- زكريا. فؤاد. خطاب إلى العقل العربي. الكتاب السابع عشر الكويت ١٩٨٧
- زكريا. حسام الدين: التذوق الموسيقي منشورات جماعة الكتاب والفنانين. الإسكندرية ١٩٩٦)
- زحلان. أنطوان. العولمة والتطور الثقافي العرب والعولمة مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٨)
- السيد. يسين. الفكر العربي والزمن. أين نحن الآن من نهضة مطلع القرن؟. عالم الفكر. المجلد: ١٦ العددان: ٣ - ٤ /١٩٩٨

- السيد . إمام. تحليلات جاكبسون الشعرية في (إضاءة) القاهرة ٢٠٠٠
- ستيس. ولتر. تاريخ الفلسفة اليونانية مجاهد عبد المنعم مجاهد دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٤
- سعديف. أرثور: الفلسفة العربية الإسلامية. بيروت ٢٠٠٠)
- السكري عادل نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٩
- شمو. علي محمد : الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة. دار القومية العربية للثقافة والنشر القاهرة ١٩٩٨
- شيفر جان ماري ت: فاطمة الجيوشي، الفن في العصر الحديث. منشورات وزارة الثقافة. دمشق ١٩٩٦).
- شيفر. جان ماري: ت: فاطمة الجيوشي. الفن في العصر الحديث منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦)
- الشبيني. محمد . أصول التربية دار الفكر العربي، القاهرة: ٢٠٠٠)
- شيللر هربرت ت: عبد السلام رضوان المتلاعبون بالعقول. عالم المعرفة عدد : ٢٤٣)
- عصفور. جابر. التنوع البشري الخلاق. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ١٩٩٧
- عبد الله. إسماعيل صبري. العرب والكوكبة (العرب والعولمة) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت /١٩٩٨
- عبد الفضيل. محمود: حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد بين (الفقر والجوع) و(المضاربات المالية). في (الجديد في الاقتصاد) القاهرة ١٩٩٩)
- عبد الدايم. عبد الله. نحو فلسفة تربوية عربية. الفلسفة التربوية ومستقبل الوطن العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩١
- علي. نبيل: صورة الثقافة العربية والحضارة العربية والإسلامية على الإنترنيت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الشارقة ١٩٩٨
- علي. نبيل: اللغة العربية والحاسوب القاهرة ١٩٨٨)
- عبد الرحمن. عواطف. الإعلام العربي وقضايا العولمة العربي للنشر والتوزيع ١٩٩٩
- عبده. مصطفى: الإسلام يحرر الفن. مكتبة مدلولي ١٩٩٩
عبده. مصطفى: فلسفة الجمال، ودور العقل في الإبداع الفني. مكتبة مدبولي. القاهرة ١٩٩٩)
- عبده. مصطفى: المدخل إلى فلسفة الجمال مكتبة مدبولي. القاهرة ١٩٩٩)
- عبيد . منى مكرم. مداخلة حول ندوة عي الدين هلال. لأزمة الفكر الليبرالي في الوطن العربي عالم الفكر العددان ٣ - ٤ . المجلد ١٦

- عبد الدايم. عبد الله. التربية والقيم الإنسانية. في عصر العلم والثقافة والمال. المستقبل العربي. العدد ٢٣٠ /١٩٩٨.
- عبد الرحمن، عبد الهادي: سلطة النص سينا للنشر القاهرة ١٩٩٨)
- العالم. محمود . أمين العالم. دفاع عن الخصوصية اللغوية في قضايا فكرية.
قضايا فكرية للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩٧
- عمار. حامد : الجامعة بين المؤسسة والمدرسة. الدار العربية للكتاب ١٩٩٦)
- العفيف. الباقر: حقوق الإنسان في فكر الإسلاميين. مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ٢٠٠٠)
- عبده. مصطفى. الإسلام يحرر الفن. القاهرة. ١٩٩٩)
- غزولي، فريال: ما بعد الكولونيالية (قضايا فكرية للنشر والتوزيع ١٩٩٩)
- غليون. برهان نحو تجديد إشكاليات الفكر العربي المعاصر. من نقد التراث إلى نقد الحداثة (قضايا فكرية للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩٩)
- غليون. برهان: اغتيال العقل القاهرة ١٩٩٠)
- غليون. برهان - أمين سمير. ثقافة العولمة، وعولمة الثقافة، دار الفكر. دمشق ١٩٩٩)
- قرم. جورج. جيبوليتيكا الأقليات في المشرق العربي. دراسات عربية. العددان ١١ - ١٢
- كليب. راسيال. في العالم الثالث. في نظام الإعلام المقارن. الدار الدولية للنشر والتوزيع ١٩٩١
- كرم. أنطونيوس. العرب أمام تحديات التكنولوجيا . عالم المعرفة. الكويت. العدد ٢٣٠ /١٩٨٢
- كويلش. فرانك ت: حسام الدين زكريا .: مراجعة عبد السلام رضوان ثورة: الأنفو ميديا، عالم المعرفة العدد : ٢٥٢الكويت ٢٠٠٠
- كون، توماس بنية الثورات العلمية كتاب عالم المعرفة. ١٩٩٢
لمعي. إكرام: الخطاب الديني في مصرفي الدين وحقوق الإنسان: مقارنة تاريخية واجتماعية دار الثقافة القاهرة ١٩٩٩)
- الميلاد. زكي. الربيعو. تركي علي: الإسلام والغرب. الحاضر والمستقبل. بيروت ١٩٩٨)
- مصطفى. عادل. كارل بوبر مائة عام من التنوير وندرة العقل دار النهضة العربية ٢٠٠٢
- مبروك محمد إبراهيم الصراع الإيديولوجي الكامن وراء العولمة في الإسلام القاهرة ١٩٩٩)
- مدبولي. محمد عبد الخالق. الشرعية والعقلانية في التربية الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٩)

- مناع. هيثم: ملاحظات في حقوق الإنسان مركز الدراسات. حقوق الإنسان. القاهرة ٢٠٠٠)
- مطر. جميل. المسألة العربية بين قرنين. المستقبل العربي. العدد: ٢٣٠ /١٩٩٨
- محسن. نجاح: مدخل إلى الفلسفة، الفتح للإعلام العربي ١٩٩٨
- محمد. عارف: زهاء حديد: ظاهرة عربية في العمارة العالمية. عالم الفكر ١٩٩٩)
- محمود. زكي نجيب. حياتنا العقلية. دار الشروق. بيروت ١٩٨٩
- المسدي. عبد السلام. كتاب العربي. الثقافة العربية. العدد ٨١ /٢٠١٠
- مارتين. هانس بيتر. هارلد شومان. فخ العولمة. ت: عدنان عباس علي. مراجعة وتقديم رمزي زكي. العدد ٢٣٨. ١٩٩٨ الكويت
- المسدي. عبد السلام. نحو وعي ثقافي جديد. العدد ٣٤ /٢٠١٠
- المنظمة العربية للثقافة والعلوم: الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا تونس ١٩٨٧
- مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية: التقرير الاستراتيجي العربي مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ٢٠٠٠
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩ المحور الأول للسياسات الثقافي والاتصالات تونس ١٩٩٩
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية تونس ١٩٩١
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وسائل الاتصال الحديثة تونس ١٩٩٦)
- موسى. عبد الله هاجس الحداثة في الفكر العربي المعاصر (قضايا فكرية) القاهرة ١٩٩٩)
- مرسي. محمد: تاريخ التربية في الشرق والغرب. القاهرة. ١٩٩٣)
- ألنوري. قيس. بنى السلطة والثقافة والأزمة العربية. آفاق الديمقراطية والتركيب الثقافي العربي الفكر العربي العددان ٨٥ - ٨٦ ١٩٩٦
- هويدي. فهمي: الإسلام والديمقراطية مركز الأهرام للدراسة والنشر القاهرة ١٩٩٣)
- مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. العدد: ٢٢٣ ت: علي الصاوي مراجعة وتقديم الفاروق زكي يونس. عالم المعرفة. الكويت. ١٩٩٧
- وطفة. علي أسعد. الجمود والتجديد في الثقافة العربية. آفاق ثقافية. عدد ٥٤ - ٢٠٠٧ وزارة الثقافة.
- اليونسكو: التعليم ذلك الكنز المكنون. مركز مطبوعات اليونسكو. القاهرة ١٩٩٩).

هندسة الحوار

إن البنية الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا العربية تطرح منظومةً من الإشكاليات والتحديات المعقدة، وتأخذ الثقافة العربية بمكوناتها التقليدية وبنيتها الأسطورية صورةً مركبةً تتقاطع فيها صورٌ مختلفةٌ لواقعٍ عربيٍّ غنيٍّ بمشكلاته، وإذا كانت الثقافة العربية تشكل جوهر التحديات ومنطلقها، فإن رصد هذه التحديات والإشكاليات التي يطرحها الواقع العربي المعاصر، ودراستها وتحليل مقوماتها ورصد مضامينها، يشكل واحداً من أهم التحديات المنهجية، فالثقافة أمرٌ جليلٌ وعظيمٌ وعلينا ألا نتركها بأيدي رجال السياسة، فهم لا يصمدون أمام الإغراءات والمناصب فيتنازلون عن مبادئهم تدريجياً.

والتاريخ يعلمنا بأن النهوض الحضاري للشعوب كان مرتبطاً بالثقافة الذي سجله إنسان الحضارات القديمة والحديثة، فنشوء الحضارات يرتكز إلى العقل والعقلانية، والتنوير بنظرته إلى الوجود والكون، ولا سيما الحضارات اليونانية والرومانية والعربية الإسلامية ثم الحضارة الأوروبية المعاصرة.





